

الأفارة

تاريخها وأثارها

(٩٦٩ - ١٨٢٥)

من جوهـر القنـاصـد
إلى الجـبـرنـي المؤرخ



ركنـة عـبد الـرحـمـن زكـي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

القاهرة

تاريخها وآثارها (٩٦٩ ~ ١٨٤٥)
من جوهر القناد إلى الجسر في المؤرخ

تأليف
الدكتور عبد الرحمن زكي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

دار الطباعة الحديثة
مكتبة الزينات ، أمانة شامخ ، بيروت
١٩٦٨ - ١٩٦٩ - ١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ انطلاق العرب من شبه الجزيرة العربية فاتحين ، لم يكتفوا بسكنى المدن الساسانية أو البيزنطية التي وقعت تحت أيديهم ، ولكنهم شيدوا مدناً جديدة ، اتخذوها قواعد عسكرية في عصر الحروب الإسلامية ، ليستقر فيها المقاتلون ، فلا يلبثون أن يلحق بهم أفراد أسرهم . ولما انتهى عصر الفتح وأخذ الخلفاء إلى الطمأنينة والاستقرار ، لم تتجاوز رغبتهم تشييد القصور والسكن لهم ولحاشيتهم في مكان خاص على مقربة من جامع المدينة ، وسرعان ما قامت حوالها مدينة كبيرة .

فمنذ صدر الإسلام رأينا العرب يخططون الأمصار والقصباء والمدن ، وينشئونها ، وقد اندثر بعضها أو قلت أهميته ، في حين ازدهر بعض آخر وتطور إلى مدن كبرى ، وأصبحت منائر إشعاع للحضارة الإسلامية . ففي غرب آسيا ، شيد عتبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب مدينة البصرة (١٤٠هـ / ٦٣٥م) ، ثم أسس أبو الهياج الأسدي مدينة الكوفة (١٧هـ / ٦٣٨م) ، كما بنى الحجاج الثقفي في أيام عبد الملك ابن مروان مدينة واسط (٨٣ / ٨٤هـ — ٧٠٢ / ٧٠٣م) ، ثم أسس أبو جعفر المنصور مدينة السلام أو بغداد (١٤٥هـ / ٧٦٢) ، فأصبحت أعظم مركز للحضارة العربية عرفه العالم حتى قضى المغول عليها .

أضف إلى ذلك ، عشرات المدن التي بناها العرب أو جسدوها في إيران وشمال الهند ، كقزوين التي مصرها سعيد بن العاص (٢٩ / ٣٤هـ — ٦٤٩ / ٦٥٤) في خلافة عثمان بن عفان ، وأسد أباد في نيسابور التي أسسها أسد بن عبد الله القشيري في أيام هشام بن عبد الملك (١٢٠هـ / ٧٣٨م) ، والمنصورة بالهند التي بناها منصور بن جهور الكلبي (١٢٦هـ / ٧٤٣م) .

فإذا انتقلنا إلى شمال أفريقيا ، قابلتنا الفسطاط أولى المدن العربية الأفريقية ، وقد أسسها عمرو بن العاص (٢١هـ / ٦٤١م) بمعاونة بعض قاداته الذين قاموا بتخطيطها . ثم بنى صالح بن علي العباسي على أيام السفاح « العسكر » في شمال الفسطاط (١٣٢هـ / ٧٥٠م) ، وشيد أحمد بن طولون « القطائع » (٢٥٦هـ / ٨٧٠م) . ثم أنشأ جوهر القائد الفاطمي ، مدينة القاهرة (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) ، التي أصبحت منذ ذلك الحين قلب الديار الإسلامية .

إن المدن التي أسسها العرب في الشمال الإفريقي يضمها في الواقع ثبت ضخمة ، نذكر منها القيروان بتونس التي شيدتها عقبة بن نافع (٥٠هـ / ٦٧٠م) ، والمنصورة بالقرب منها (٣٣٧هـ / ٩٤٨م) ، وراقدة ثم

(٤)

تونس التي شيدها حسان بن النعمان ، والمهدية الفاطمية (٣٠٣ هـ / ٩١٥) ، والمحمدية ، ثم فاس التي بناها الأدارسة (١٩٢ هـ / ٨٠٨ م) ، ووهران (٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) ، ومراكش التي شيدها يوسف بن تاشفين (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م) ، والرباط التي أسسها السلطان الموحدي عبد المؤمن في القرن الثاني عشر .

أما ما شيده العرب والبربر في الأندلس من المدن ، فكثير ، ألم يستقروا هناك حوالي ثمانمائة سنة ؟ نشروا في خلالها دينهم ولغتهم وحضارتهم ؟ لقد أعادوا إنشاء قرطبة من جديد ، وبنى عبد الرحمن الثالث مدينة الزهراء بالقرب منها (٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ، وشيدت قلعة « أيوب » وتطيلة ، ومرسية والزاهرة وغيرها .

فالعرب إذن بناءون . نعم ابتنوا مدناً كبيرة ، استقر فيها دينهم وحضارتهم على مر الزمن ، وما زالت تلك المدن حتى اليوم ، في طليعة مدن العالم الزاهرة ، تتحدث كلها عن ماض تليد وتراث عظيم خالد ، وهي اليوم ذات حاضر مزدهر ، وترنو إلى مستقبل وضاء .

وشهر بين رجالات العرب ، علماء كثيرون ألقوا عن المدن : فكتب عن البصرة : ابن شبة ، وألف عن بغداد : طيفور (٨١٩—٨٩٣) وابنه والسرخسي والخطيب ، وألف عن الكوفة : الهيثم بن عدي ، وعن المدينة : الدائني وابن شبة وعبيد الله بن أبي سعيد الوراق ، وعن مكة : الواقدى والأزرقي ، وكتب ابن عساكر عن دمشق ، ولأحمد بن عيسى مصنف عن حمص ، وللزهراوي عن قرطبة ، وألف عن القيروان أبو العرب الصنهاجي ، وغيرهم كثيرون .

أما عن كتاب الخطط ، فحدث كثيراً ، ولاسيما بين علماء مصر ، نذكر منهم : ابن عبد الحكم « كتاب فتوح مصر وأخبارها » ، والكندى « الخطط » ، وابن زولاق « الخطط » ، والمسبحي « أخبار مصر » ، والقضاعي « المختار في ذكر الخطط » ، وابن عبد الظاهر « الروضة البهية الزاهرة » ، وابن دقاق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، وعميد كتاب الخطط تقي الدين المقرئ « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ؛ والسيوطي « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، وغير هؤلاء من المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب الذين تناولوا في مؤلفاتهم وصف المدن وخططها وأحوالها .



لقد سحبت القاهرة منذ سنوات طويلة ، وجملت من دراسة تاريخ خططها ومبانيها وتطورها هوائياً . فكنت أسعى إلى كل مسجد أو مدرسة أو وكالة أو سبيل برفقة زملائي أو بصحبة نفسي لأبحث نقشاً مكتوباً أو أصعد مثذنة أو برجاً لأشاهد شيئاً قد يكون مستوراً خلف بيت قديم أو خان خرب . . وقد شعنت هذا على أن أعنى بدراسة الآثار الإسلامية دراسة علمية صحيحة ، فرحلت إلى شتى المدن في العالم

(هـ)

العربي لأرى بعينى ما خلقته تلك الحضارة الخالدة من عمار وفنون ، جعلتني أقابل بينها وبين ما يوجد منها في بلدنا . . ودفعني هذا إلى مطالعة الكتب المتصلة بآثار المدن العربية وأقنتنيها . ثم حاولت أن أكتب عن القاهرة وتخطيطها وأسوارها وأبوابها وعمارتها ، فوفقت في بعضها . وصدر لي أول كتاب عن القاهرة بجزئيه (١٩٣٢ - ١٩٣٥) . ولما عزمتم بمشيئة الله ، بعد أكثر من ثلاثين سنة ، على أن أكتب مرة أخرى تاريخ القاهرة ، وجدت نفسى مضطراً لأن أتبع نفس المنهج التاريخي الذي ألفته وألّفه غيرى من المؤلفين .

فلن في هذا الكتاب ، أتابع تاريخ القاهرة منذ وضع القائد جوهر أساس أسوار المدينة العتيقة في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ . ثم أتبعها ببناء الجامع الأزهر (٢٤ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ) ، الذي قدر له أن يشاطر المدينة العظيمة حياتها المديدة ، وأن يبقى أثراً ظالماً في العالم الإسلامي . ومنذ ذلك العصر الفاطمي ، أصبحت القاهرة قاعدة إمبراطورية واسعة ، ولا سيما بعد أن ضمت إليها العراصم الإسلامية الأولى : القسطنطينية والمسيحية ، وعلى أيام دولة صلاح الدين الأيوبي ، ذلك السلطان العظيم الذي جعل القاهرة عاصمة للبلاد بعد أن كانت مدينة لا يسكنها إلا الحشام ، ثم شيد حولها سوراً وتوجها بقلعته المنيرة فوق جبل المقطم ، ثم عني أحفاده ببناء مدارس العلم فيها .

وفي أيام حكم المماليك ، ازدهرت القاهرة وامتدت في اتجاه الشمال وإلى الغرب ، وتنافس الحكام والأمراء في بناء المساجد والمدارس ودور الكتب والقصور . والواقع أن ما نشاهده اليوم في القاهرة من الآثار الرائعة في جميع أحيائها الأصلية هو شاهد حق ، على ما اتسمت به المدينة من الازدهار والروعة وجمال التدفق في أثناء العصور الوسطى ، حينما وفد إليها طائفة من الرحالة العرب والأجانب ، فأجادوا صفة ما شاهدوه فيها . أما القاهرة في أيام العثمانيين ، فلم يطرأ عليها تغيير يذكر سواء في اتساعها أو امتدادها ، فلقد بقيت بمحدودها المملوكية . فكان باب الحديد أقصى حدود مبانيها جهة الشمال الغربي ، والأزبكية وما حولها من مبان نهاية العمران في الغرب ، والطريق بينها وبين بولاق مقفرة . صحيح أنه شيدت بها بعض المساجد الصغيرة الحافلة بأروع النقوش والزخارف ، بيد أنه في الوقت نفسه تفشى الخراب بأحياء المدينة ، فدرست قصور السلاطين والأمراء فيما عدا القليل ، كما شيدت بعض التكايا والأسبلة ، وهي التي تتميز بها معظم مدن آل عثمان .

ثم جاءت مرحلة الخراب الأخيرة في أثناء الحملة الفرنسية ، وتكاد تكون هذه الفترة بالرغم عن قصرها أنتمس ما مر بالقاهرة خلال حياتها ، لكنها امتازت أيضاً بالمقاومة الوطنية العنيفة التي أبدتها القاهريون ضد ما ارتكبه الفرنسيون من المظالم البشعة في أحياء المدينة . فاضطروا إلى إخلاء القاهرة والانسحاب من وادي النيل ، وتنفست البلاد من نسيم الحرية .

(و)

هذه هي صفحات من تاريخ القاهرة ، فيها الزاوي وفيها أيضاً الداكن ! أحداثها موصولة تتعاقب ، منذ أسسها جوهر ، ثما وقع حادث ضخم في الدنيا ، إلا كان له أثره فيها ، كما أن للقاهرة أيضاً أثرها الكبير في العالم العربي . بل في العالم الإسلامي قاطبة ، في شئون السياسة والعلوم والفنون . وقد أنجبت القاهرة جماعات لا يحصى عددها من الفقهاء والعلماء والساسة والأدباء ، تذكروهم حتى اليوم أعمالهم الخالدة ، تلك المنجزات التي أسهم فيها بقسط وفير ، أبناء كل خط من أخطائها ... الجمالية ، المغربيين ، الصليبية ، الدرب الأحمر والروضة ... وغيرها . ويشهد تراثها العظيم على حيوية أهلها الفياضة ، مع أصالة في الإبداع ، وحب لكل ما هو رائع وجليل . ومن أجل ذلك عاشت القاهرة على مر الزمن .

عبد الرحمن زكي



الفصل الأول

عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة

لما فتح العرب مصر (١٨ هـ — ٦٣٩ م) ، كانت الاسكندرية عاصمة البلاد ، ففكر عمرو بن العاص في أن يتخذها قاعدة ، إلا أن عمرو بن الخطاب لم يوافق على ذلك ، بل أمره بإنشاء مدينة جديدة ، لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا في صيف . فلما عاد عمرو من فتح الاسكندرية ، قصد المكان الفسيح الذى يقع شمال حصن بابليون ، حيث عسكرت قوات العرب حين قدومها ، وأمر بتأسيس القسطنطينية ليجعلها قاعدة البلاد ودار الامارة ، واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت القبائل العربية من حوله . وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها ، وهم : معاوية بن حديج التميمي ، وشريك بن ميمى العنبري ، وعمرو بن قحزم الحولاني ، وجبريل ابن ناشرة المعافوري .

وقد ذكر البلاذري أن الزبير هو الذى اختط القسطنطينية واتخذ لنفسه داراً ، وجعل فيها السلم الذى صعد عليه إلى سور حصن بابليون ، وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق شاور . أما ياقوت ، فقد ذكر في معجم البلدان ما ذكرناه آنفاً متقولاً عن ابن دقاق . ويصف ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر خطط القسطنطينية الأولى ، ويبين كثيراً من مواضع الدور والأمكنة التى بناها رؤساء الجند والزعماء . وقد أفاد المستشرقون مما كتبه ابن عبد الحكم ورسموا تخطيطات هامة في غاية الدقة لطبوغرافية القسطنطينية .

وقد حدد المقرئى موقع القسطنطينية في خطته ، فقال :

« إعلم أن موقع القسطنطينية الذى يقال له اليوم مدينة مصر . كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالعلقة . ينزل به شحنة الروم التى تنزل على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من الاسكندرية ، ويقام فيها ما يشاء ، ثم يعود إلى دار الامارة » .

وتاريخ إنشاء القسطنطينية مختلف فيه ، فالبلاذري يقول انه كان بعد فتح بابليون ، في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الاسكندرية . كما ذكرناه . ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية ، وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة ، وعاصمة ذات شأن كبير ، ثم نمت نمواً سريعاً بعد عام واحد من إنشائها . وقد قال المؤرخ أبو المحاسن أن « عمرو بن القسطنطين في سنة ٢١ هـ . بعد فتح الاسكندرية » .

ومما زاد في مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابلون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها « أمينس تراجانوس » (ترعة طرايانوس) ، وكانت تمر بمدينة بليس وبحيرة التماسح ، لكنها أهملت في وقت ما ، فأعاد حفرها عمرو بن العاص ، وعادت لها أهميتها القديمة ، فكانت ترسل بوساطتها الغلال إلى بلاد العرب ، وسهلت بذلك للمواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه في مصر .

ولما انتهى عمرو بن العاص من بناء الفسطاط ، أنشأ الجامع العتيق ، أقدم المساجد في مصر ، وأول نواة للعمارة الإسلامية فيها . وقد اختار عمرو موضع بنائه في المكان الذي كان فيه لواؤه ، وقد عرف باسم مسجد أهل الراية ، وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين ، كانوا يؤلفون نواة الجيش ، وتلتف حولهم كل قبيلة برباتها . وقد أورد ابن عبد الحكم في تاريخه ، خطبة عمرو التي قالمها في يوم الجمعة ، وجاء فيها :

« حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقطبها خيراً . فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم ... وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كريفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ فقال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة ... إلخ » .

ولقد مرت مراحل كثيرة على « تاج الجوامع » كما أطلق عليه . ووصفه الرحالة الأندلسي ابن سعيد الذي زار مصر في منتصف القرن الثالث عشر ، قال :

« .. ثم دخلت إليه ، فعابنت جامعاً كبيراً ، قديم البناء غير مزخرف ، ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه . وأبصرت العامة رجلاً ونساء ، قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم ، يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلاوى . والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم . والمنكبات قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحجرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب قراء العامة ... » .

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتي في كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ... وانتشر الموسيقيون في فئاته والقرديات والراقصات ، فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضاً ، ولولا إقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين » .

* * *

وفي الجهة البحرية من الجامع ، شيد عمرو داراً له ، وأخرى غريبها لابنه عبد الله ، عرفت بالدار الصغرى تميزاً لها عن دار أبيه التي عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً بجوار دار عبد الله.

ولما رسخت أقدام المسلمين في مصر ، اتسعت وزادت عمارة الفسطاط ، وفاقَت البصرة والكوفة ، وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال ، كما ذكر ذلك ابن حوقل الجعفي في أواخر القرن العاشر . وقال القضاة المؤرخ عن مقدار عمارتها أنه كان في الفسطاط ٣٦٠٠ مسجداً و ٨٠٠٠ شارع مسلول و ١١٧٠٠ حمام (١) . ونقول وإن كان في هذه الأرقام مبالغة واضحة ، فلا شك أن الفسطاط قد بلغت درجة كبيرة من العمران . ثم ارتقت الفسطاط في أيام خلفاء الأمويين ، وصارت مقرّاً لولاتهم . وشيد فيها عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك داراً للإمارة ، عرفت بدار عبد العزيز ، كانت مظلمة على النيل ، بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعاءة راوية ماء كل يوم . وقد علت هذه الدار قبة مذهبة ، شأن الأمويين في تفخيم بناياتهم حتى تبرز المباني البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الأقطار التي انتزعها العرب منهم .

ولعل دار الإمارة تلك ، كانت أول بناية إسلامية كبيرة في مصر وصل إلينا نبأ زخرفها .

مرت على الفسطاط كما قلنا ، مراحل عديدة . « فكانت في زمن من الأزمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العبارة والطية واللذة ذات رحاب ، فيها أسواق عظام ومتاجر غفام . ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة » على قول ابن حوقل .

ولما زار الفسطاط ابن سعيد المغربي ، كانت قد تغيرت أحوالها ، وانقلبت محاسنها إلى أضرارها ، فقال فيما دونه :

« ولما أقبلت الفسطاط ، أدبرت عن المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها ، وهو دون مغلق إلى خراب معمور بمسان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والتخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف وينص طرف الطريف » .

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر ، ولها تسعة وعشرون أميراً لمدة مائة وثلاثة عشر سنة وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، لما ولها القائد عمرو . وكان آخر أمرائها صالح بن علي بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبي العباس بن محمد السفاح ، ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر ، وكان أولهم أبو عون عبد الملك .

خاتمة الفسطاط

كان قد حدث للفسطاط في أثناء وجودها إنقلابان كبيران . هما قيام « العسكر » ثم « القطائع » . فإن المرحلة النهائية للفسطاط جاءت عقب ذلك في مناسبتين ، كانت الأولى في أيام البشة العظمى في أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي . وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور أثناء خلافة العاضد . أما المناسبة

الأولى ، فكانت حينها تمرّد الجند ، وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ، ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالى . فكتب إليه سرّاً يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال . فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة ، وعمل على إهمال الفسطاط بل وتخريبها . فقد أباح للجند وللقادرين على البناء ، أن يعمروا ماشاءوا فى القاهرة وغيرها . فعمرت وسكنها الناس ، ولم يبقوا شيئاً فى الفسطاط أو العسكر أو التّطائع ، وتركوا موقعها موحشاً مقفراً .

وكانت المناسبة الثانية ، حريق الفسطاط الهائل ، الذى أمر باضرامه شاور عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، حينما غزا عمورى ملك بيت المقدس الديار المصرية ، لما عجز عن الدفاع عنها ، وأراد أن يتجنب سقوطها فى أيدي الصليبيين . فقد أمر شاور باخلاء الفسطاط وحرقتها ، ويقول المقرئى : « بعث شاور إلى مصر بمئتين ألف قارورة نبط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظراً مهولاً . واستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيهان مصر . . فلما حدث الحريق رحل عمورى من بركة الحبش^(١) ، ونزل بظاهر القاهرة ، بما يلي باب البرقية ، وقاتل أهلها قتالا عنيفاً » .

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر ، أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد . فانتقل النشاط التجارى إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر الخازن والمصانع .

ولقد ترك لنا ابن دقاق ، والمقرئى ، والقلقشندي عن مدينة الفسطاط فى القرن التاسع الهجرى (١٥ الميلادى) معلومات دقيقة ، تتحدث عن أن تدهور المدينة كان يزداد قرناً بعد قرن . وفى العبارة الآتية لخص القلقشندي الحزن الذى نزلت بالفسطاط ، فقال :

« ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان نامى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية ، وعمرت القاهرة ، فتهقر حاله وتناقص . وأخذ سكانه فى الانتقال إلى القاهرة وما حولها ، فخلا من أكثر سكانه ، وتتابع الحراب فى بنيانه إلى أن بلغ الفرنج على أطراف الديار فى أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين » . ثم قال القلقشندي فى موضع آخر : « وبعد حريق شاور تزايد الحراب فيه ، وكثر الخلو . ولم يزل الأمر على ذلك فى تهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس ، فصرف الناس همتهم إلى هدم ما خلا من أخطائه وعفا رسمها ، واضمحلت ما بقى منها وتغيرت معالمه » .

(١) كانت تقع بركة الحبش جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم ، وكانت تطلق على حوض من الأراضي الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوى . وكانت تشغل من الأراضي مساحة قدرها ١٥٠٠ فداناً - محمد رمزى فى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨١ و ٣٨٢

وعلى هذه الحال ، تحولت الميناء النهرية والعاصمة الاسلامية الأولى إلى كيان من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت فكشف فيما بين عامي ١٩١٢ ، ١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع . ولا يزال متحف الفنون الاسلامية يزاوِل أعمال الحفر في تلك الأطلال تنقياً عن آثار المدينة الفاضلة .

العسكر

وحينما كانت الفسطاط عاصمة مصر (٧٥٠ م) . فر مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبو العباس أول خلفاء العباسيين . فلما وصل إلى مصر ، أشعل رجاله النار في الفسطاط ، وفي القنطرة التي تربطها بجزيرة الروضة ، وأتجه إلى شاطئ النيل الغربي . بيد أن تدابيرهم ذهبت عبثاً لأن القائد العباسي ورجال خراسان ، عدوا بوسائل عبوره ، وأدركوه في قرية بوسير وقتلوه . ثم حملوا رأسه ، وطافوا في المدن ليتأكد الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموي إلى البيت العباسي .

وكأن رجال العباسيين ، لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط إما لرغبة في التجديد ، وإتخاذ عاصمة جديدة ، كما جرت العادة في الشرق منذ القدم ، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم نارا في الفسطاط دمرت جزءاً كبيراً منها ، فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم في مكان عرف في صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، ويمتد إلى جبل يشكر الذي بنى ابن طولون على قمته مسجده الجامع .

وكان يمتد العسكر على شاطئ النيل ، وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالي لأنه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ، ثم ابتعد عنه على توالي الزمن حوالي خمسمائة متر . وكان يحد العسكر جنوباً بكموم الجراح حيث تمتد الآن قناطر العيون ، وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزيني ، وغرباً بين شارعى السد والديورة ، وشرقاً خط تصورى يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجولى بشارع مراسينا إلى جامع السيدة نفيسة (باب المقدم) . وعلى أيام المقرئى لم يبق للعسكر ذكر ، بل كان اسم القطاع هو المعروف (١) .

في ذلك المكان ، أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم ، وبنى صالح بن على دار الإمارة وثكنات الجند ، ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر . وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة ، خطت فيها الشوارع وشيدت المساجد والدور وأقيمت الأسواق والبساتين .

وقد ازدهر العسكر لكثرة ما شيد فيه من الأحياء العامرة . وقد سكنها الخمسة والستون والياً الذين حكموا مصر ثابتهن عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة . وصار حياً زاهراً لم يقلل من شأن الفسطاط

(١) من تعليقات الأستاذ محمد رمزى بالنجوم الزاهرة .

مركز هام للتجارة أو كقاعدة ثانية لمصر. وعظمت العمارة فيها إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر، فنزل بدار الإمارة في العسكر، وكان لها باب إلى جامع العسكر، ينزلها الأمراء منذ شيدها صالح ابن علي، وما زال بها حتى شيد بن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر.

وليس هناك اليوم أثر لهذه الضاحية. ولم يبق المؤرخون بتاريخ وف لحكامها، فقد ساد عصرهم سوء الإدارة وفساد الحكم.

ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في العسكر، حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة، ثم خربت في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر الشدة العظمى. ويمكن القول بأن العسكر ظلت قاعدة لمصر أكثر من قرن (١٣٣—٢٥٦ هـ)، وقد وصف المقرئى بإسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق... الخ.

القطائع

فإذا انتقلنا إلى العصر الذى زاد فيه نفوذ الجند الأتراك في خدمة البلاط العباسى، رأينا مقاليد الأمور أصبحت في أيديهم، وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال... وقدم إلى وادى النيل سنة ٨٤٦ أول وال تركى الأصل، ثم بدأ الخلفاء في اقتطاع مصر أولياء عهدهم أو كبار القادة من الترك، وكان هؤلاء يرغبون في الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس، فكانوا يرسلون عمالاً من قبلهم إلى مصر. وكان من نصيبها أحد كبار الأتراك واسمه «باكباك»، ولاء عليها الخليفة المعتز بن المتوكل، ونظراً لساكن للشباب أحمد بن طولون من المكانة الطيبة، انتخبه «باكباك» ليكون قائداً للحامية العسكرية في الفسطاط. وكان طموحاً، فلم يرض على ولايته في مصر عامناً حتى استقل بمملكته.

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لاتسع حاشيته وتضيق بمطامعه، فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط، فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله، فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع، لاشئ فيه من العمارة إلا بعض مدافن المسيحيين واليهود، فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته، واختط في موضعها مدينته الجديدة «القطائع»، ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة في شعبان ٢٥٦ هـ (أغسطس ٨٧٠).

كانت تمتد حدود القطائع بين حد الفسطاط الشمالى حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم في مكان عرف آنذ بقبة الهواء، وفيما بين الرملة أسفل القلعة إلى مشهد الرأس الذى عرف بمشهد زين العابدين فيما بعد.

واختط أحمد ابن طولون قصره، وأمر أصحابه ورجاله بأن يشيدوا بيوتهم، فاتصل البناء بعمارة الفسطاط، وأقطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها، ثم عمرت

القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة . وشيدت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران ..

ولما كثر أتباع ابن طولون وضاق بهم جامع العسكر ، التمسوا أن يشيد لهم جامعاً آخر أوسع من الجامع الأول ، فأجابهم إلى التماسهم . واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦) ، وانتهى تشييده بعد عامين . وقد بالغ في زخرفته الداخلية ، وعلق في سقفه القناديل الجميلة ونقش على أفارزه آيات من القرآن ، لا يزال بعضها ظاهراً إلى اليوم . ويعتبر الجامع من أروع آثار مصر ، بل وفي الآثار الإسلامية .

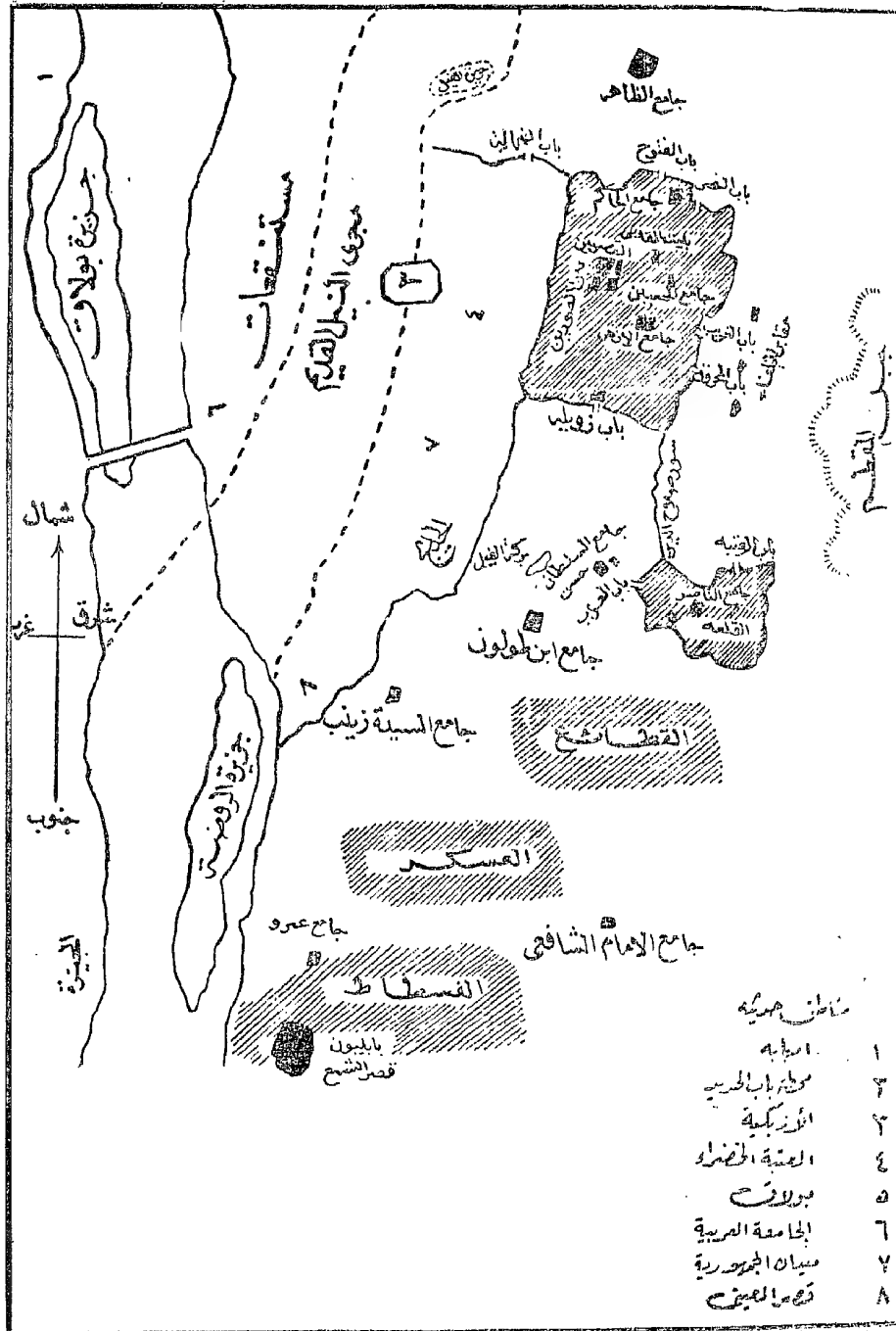
وتولى خمارويه بعد وفاة أبيه ، فنقل قاعدته حكمه إلى القطائع ، وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه كثيراً ، وأخذ الميدان المجاور للجامع وحوله إلى بستان فينان وزرع فيه أنواع الرياحين وأنواع الشجر ، وكسا جذوع النخل نحاساً مذهباً أو مفضضاً . وأنشأ في وسط قصره بركة ملاًها بالزئبق وجعل في أركان البركة مككاً من فضة ، وجعل في السكك زناير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة وعمل فرشاً من آدم عشى بالريح حتى ينتفخ ، فيحك حينئذ شدة ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزناير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه ، بينما يحرسه أسده الأزرق العيين .

ولما توفي خمارويه ، بدأ يهوى نجم الأسرة الطولونية ، وأقبل محمد بن سليمان القائد العباسي للاستيلاء على البلاد ، فبلغ حدود مصر وهزم أسطولها ثم اقتض على القطائع (٩٠٤) ، وألقى النار فيها ، فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ، ونهب أصحابه الفسطاظ . ثم عادت الفسطاظ مرة ثانية مقرراً للحكم . ولما أصيبت مصر بالمجاعة في أيام المستنصر قضت على ما تبقى من مخلفاتها ، وأصبحت القطائع أثراً بعد عين ، ولم يبق فيها سوى الجامع .

لقد كانت القطائع أول مدينة في مصر ، روعي في إنشائها وتخطيطها القواعد الفنية التي اتبعت عند تأسيس مدينة سامراء ، وكانت أوجه الشبه متقاربة جداً بينهما . كانت كل منهما مقسمة إلى خطط أو قطائع ، تضم كل قطعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة العرق أو رابطة العمل . وطراز العمارة والزخرفة الذي اتبع في بناء الدور الخاصة والعامة في سامراء كان قد انتقل مع ابن طولون إلى مصر قبل أن يعصى على بناء سامراء أكثر من أربع وثلاثين سنة ، وبما يشهد على ذلك ، تلك الزخارف الجصية التي عثر عليها في جدران دار طولونية كشفتها « دار الآثار العربية » في عام ١٩٣٢ .

والأثر الفريد الذي خلفته القطائع هو « الجامع الطولوني » ، وبناءؤه يوضح لنا بجلاء أثر فون سامراء على تلك الضاحية المصرية التي لم تمع وتزهر طويلاً ...

ثم جاءت بعد القطائع مدينة القاهرة



١ - مواقع عواصم مصر الاسلامية وأهم معالم القاهرة اليوم

القاهرة في أيام الفاطميين

من ٩٦٩ إلى ١١٦٩

بلد تخصص بالسرعة والهدأ
أو ما ترى في كل قطرة منية
من جانبها فهي مجتمع النى

تنتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الإسلامية ، فرى أن الخليفة الفاطمى العز لدين الله بعد أن نجح في تأسيس دولته الأفريقية ومد حدودها إلى ساحل المحيط الأطلسى عزم على فتح مصر ، وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى العز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما . كانت مصر في ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين . فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والجماعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون . وكان العز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودى الذى هاجر من مصر ، وكان مقرباً من كافور الأخشىدى : فطلب العز إلى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته فشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات الكافية ، وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه الجيش الجرار . وبدأت الحملة تحركها من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م) فوصل جوهر إلى الاسكندرية واستولى عليها ثم واصل زحفه الى الجيزة فوقعت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م)^(١) وعبر النيل بالقرب من مية الشلقان وسحق الجيوش التي أعدت للدفاع عن الشاطئ الشرقى للنيل ، وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة القسطنطينية عند مغيب الشمس وعسكرت في السهل الرملى الواقع الى الشمال ، وكان يحدها هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج^(٢) الذى يصل بين شمالى القسطنطينية ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر ، وكان السهل المذكور خالياً من البناء إلا بضعة مباني ملحقة ببساتين كافور ودير فسيح اسمه دير العظام ، وكان يشغل مكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

(١) تذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩).

(٢) ردم هذا الخليج في أواخر القرن التاسع عشر ويسمى الشارع الآن شارع

تأسيس القاهرة

وفي مساء ذلك اليوم ^(١) اختط جوهر موقع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط فى الصباح التالى لتهنئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سوراً خارجياً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التى حدها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان السكافورى ومثلها لليادين والباقي وقدره مائتا فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين خطة بجانبى قسبة القاهرة ^(٢) ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع فى حفر أساس القصر بالليل فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة ، فلما شاهدها فى الصباح لم يعجبه لكنه قال : « قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفى اليوم الذى خط فيه جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تألف منها جيشه خطته ، فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر ^(٣) وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلاً حصيناً لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاثلهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً واحتفر خندقاً من الجهة الشمالية لمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها ^(٤) أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقاق الغرض الذى رعى إليه جوهر فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمنزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية فى أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التى أمدنا بها المقرئى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه ، وقد كانت القاهرة تحدد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المظل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعيداً عنه بنحو ٣٠ متراً .

وقد قيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمي المدينة فى أول الأمر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التى أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز واستمر هذا

(١) نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقرئى أن إنشاء القاهرة كان فى ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ فى نفس اليوم الذى اختط فيه جوهر الجامع الأزهر . ولكن معظم المؤرخين وفى مقدمتهم عمدتنا المقرئى نفسه يذكر التاريخ الذى شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير .

(٢) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ج ٢ ص ٨١

(٣) الخطط المقرئية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩

(٤) الخطط المقرئية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩

الاسم حتى قدم العز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة^(١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها^(٢) ومن الواضح كما أشارت « رايهاير »^(٣) في كتابها أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور للندن ، ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح ، وقد أطلق هذان الأسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية.

وفي يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ . (١٠ يونيو ٩٧٣ م) لما وصل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشتمها وكانت قد زينت إبهاجاً لمقدمه ، ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استعصر جثثهم معه في توابيت ، وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت لأول مرة في الجامع الأزهر في يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢)^(٤) .

فكان القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك ، بل اختطها لتكون سكناً للخليفة وحرمة وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به

(١) كتاب اتعاظ الحنفاء باخبار بلاط الخلفاء للمقرئزي - بيت المقدس - ١٩٠٨

(٢) قيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقوم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيها أجراساً وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فاتفق أن غراباً وقع على جبل من الجبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون « القاهر في الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة - الخطط المقرئزية ج ٢ ص ٣٠٤

Beschreibung Agyptens in mittlealter aus den geographischen Werken (٣)
der Araber, Leipzig 1903.

(٤) ذكر المقرئزي في الخطط (ط بولاق ج ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان في يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يواقع يوم السبت كما في التوقيعات الالهامية . وقد عني المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام في أية مدينة اسلامية منذ عهد الفتوح ، وحدث ذلك فعلاً في الجامع الأزهر يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ الموافق ٢١ يونيو ٩٧٢ ، وهذا هو اليوم الذي ينبغي أن يحتفل فيه بعيد القاهرة .

ويلتجىء إليه^(١) . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حيناً بعد قيامها مدينة ملكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح . ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب ونزلوا في القصر الشرقى الكبير ، واتخذ الخليفة مصر موطنه ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٢٦٢ هـ ١٠ يونيو ٩٧٣ م^(٢) .

ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نمواً كبيراً وبدأت القاهرة حياتها في ظل خلفاء الفاطميين وتبوأ مكانها العظيمة برواقها وبهاياتها ، ثم اتصلت فيما بعد بمصر الفسطاط وصارتا تؤلفان معاً أكبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية^(٣)

كانت المدن في أغلب أنحاء العالم في الزمن الماضي تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكاً من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

(١) الخطط المقريرية طبعة النيل ج ٢ ص ١٨٤

(٢) ان تصميم القاهرة الأصلي يوضح تأثر القائد جوهر والمعز بما رأياه في إفريقيا الشمالية من التخطيط الرومانى فانه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة انقاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للكارد وماكسيموس والديكومانوس مكسيموس اللذان يقسمان المدينة احدهما من الشمال الى الجنوب منتها الى طرق المواصلات للوجهين القبلى والبحرى مارا بالميادين الوسطى التى بها سراى الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد واليسسيوم والوديون الرومانى . وأما الطريق الثانى فيقسم المدينة من الشرق الى الغرب أى من باب البرقية الى باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى الى الجامع الأزهر . وليسست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار المتعددة (كما سنرى) بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرناً قد أعيد تشييد حصونها سنت مرات متوالية الى أن استراحت نهائياً منها .

(٣) رجعنا عند كتابة هذا الفصل الى مذكرات للمرحوم المؤرخ محمد بك رمزى .

وبعد مضي حوالى القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو تميم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما في الجهتين البحرية والقبلىة من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد عيناً ويساراً وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتكون عوضاً عنها .

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين في بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار المدينة القديمة التي كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربيها إلى النيل وفي جنوبيها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالى لأنها مبنية بالحجر أمّن بناء وأروعه .

السور الأول

يستفاد مما ذكره المقرئى في خطه عند الكلام على سور القاهرة^(١) أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ببناء السور الذى أنشأه من اللبن على مناخه الذى نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل في دائرة سور القصر بئر العظام وجعل في القاهرة حارات للواصلين صحبتها وصحبة مولاة العز ورتب في القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقرئى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وبابى زويلة القديعين وباب زويلة الحالى وباب البرقة وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المباني التي حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالى — يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التي أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مباني القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع في المنطقة التي تحدد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوساية من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحنو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذى كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذى كان داخل في باب الفتوح ثم يمتد السير في مكان الوجهة البحرية للمباني الواقعة في شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى ، وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة .

وكان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع

(١) راجع الخطط المقرئية ج ١ ص ٣٧٧

أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب في الوجهة الغربية للباني الواقعة بباب الشعرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين التهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لباني شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوباً إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار في شمال الباب الغربى لمحاكمة الاستئناف ، وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلىة ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع المناخلة سابقاً) من الشرق وكان يقع باباً زويلة القديعان اللذان أنشأهما جوهر في السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

وكان السور الشرقى يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ، وليس لهذا السور أثر اليوم في أية تنطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة لتحديد الذى ذكرناه .

السور الثانى

يستفاد مما ذكره المقرئى في خططه عند الكلام عن أسوار القاهرة في أيام الدولة الفاطمية أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد في سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحالىين ، ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر في سور القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالي الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقرئى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين ، يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالي في الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحدد اليوم من الشمال بالسور الحجرى — الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة التى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح . وتحدد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر .

وتحد من الجنوب بسور جوهر وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التي في أول الحد الشمالى من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

وأما الزيادة التي برز بها بدر الجمالى في الجهة الجنوبية من سور جوهر فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق في مكان الوجهة القبلىة للسباني القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويلة الحالى ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوذة ايدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق في مكان الوجهة القبلىة للسباني الواقعة بحجز من شارع الدرب الأحمر الواقعة في حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى .

وأنشأ بدر الجمالى أسواره باللبن ما عدا الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ متراً تقريباً من كل جانب ، وقد زال أثر الأسوار التي أنشأها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين في مكانه بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر في سورهِ الثالث الذى سيأتى ذكره في القاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة — — —

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بينهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين^(١)

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فقام للمؤيد فائناء صغير به ضريح لمن يدعى « سيدى فرج » وهو ليس سوى باب الفرج وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : وموضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذى يشغله الباب الحالى .

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخلية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح وقد بنى المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الأصلان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلها باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسمية العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حلبة القاهرة — تعليق محمد بك رمزي — النجوم الزاهرة ج٤: — ص ٣٧

وقد ذكر المقرئى أنه رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت . هناك
الرجبة المذكورة تنصل هذه المدرسة عند البابين للجامع الحاكم^(١)

باب الفتوح : ذكر المقرئى أنه كان لا يزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده
وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين
من قبلها دون جدار الجامع الحاكمى^(٢)

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما : —

باب القراطين (المحروق) ويمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع
الباب الذى حل محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق^(٣) ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين
الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى^(٤) .

باب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقرئى أبواب
القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب
من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد يباب الغرب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : وهو أول
أبواب السور الغربى . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام للعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من
بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا
الباب فعرف به وقيل له باب سعادة ، ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبى للجانب الغربى من
سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالى الشرقى لمحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى

(١) محمود أحمد - مجلة الهندسة - ١٩٣٤ ص ٣٢٢

(٢) الخطط المقرئية ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١ - طبعة النيل .

(٣) اطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب مافعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا
بقتل الفارس الأمير اقطاي فى شعبان ٦٥٢ هـ فى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه
مغلقاً كما كانت البادة فى ذلك العصر إذ كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة فى الليل فأوقدوا النار فى الباب
حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق - المقرئى
— طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) K. A. C. Creswell : Foundation of Cairo. p. 272.

(٥) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩ .

بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية ، وقد سمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية في حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان العدوى بين شارعى العدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها المقرئى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف باسم الخروبي ، والعدوى والخروبي مدفونان في مسجد بجوار موقع الباب المذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكانت أولى أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقرئى أن القائد جوهر بدأ عمارته في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ / أبريل ٩٧٠ م ولما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢ م)^(١) ويعد الأزهر أول عمل معمارى أقامه الفاطميون في مصر لا يزال قائماً لليوم .

بنى الجامع الأزهر في الجنوب الشرقى من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجوداً حينذاك بين حى الديلم وحى الترك في الجنوب . وكتب جوهر بدائرة القبة في الرواق الأعلى نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ ، تجد نصه في الخطط المقرئية وقد اندثر هذا النقش^(٢) .

ويعد التخطيط الأصيل الذى أنشئ هذا الجامع عليه من الأمور المعقدة التى لا يمكن الاهتداء إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين في بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوى الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتعلة على كتابات كوفية ، تلك التى تعد من مميزات العارة الفاطمية ، فإن جل أجزاء الحالية تنسب إلى عصر متأخر ، إذ أضاف المستنصر والحافظ في بنيان الجامع بعض أجزائه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباى أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع . وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد لا يفسر الاسم الذى أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التى سمت باسمها مقصورة في المسجد ، وقال بعضهم إن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقد عرف باسم جامع القاهرة سنين طويلة ، وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى معهد للشريعة تدرس فيه العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى ، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحي العالم الإسلامى .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ ، مسج الأعشى للقلقشندي ج ٣ ص ٣٦٤ ،

حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات ج ٢ ص ١٥٤

(٢) نص هذا النقش : « مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد ، الإمام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقل فى سنة ٣٦٠ هجرية » (٩٧١ م) .

أخطاط القاهرة

ونتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التي اشتغلت عليها القاهرة المعزية فنقول : سبق القول أنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تألف منها الجيش الفاطمي خطة عرفت باسمها ، وقد كان أهم هذه الخطط أو الحارات ما يأتي : —

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهي التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر ، وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة ، وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله نزار العبيدي ، وصار في أيام الحاكم بأمر الله مدير مملكته حتى قتله في أحد قصوره .

٣ — حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر التي وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ — حارة الجدرية : وهي طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبو الخلفاء الفاطميين ، وقد سكنها اليهود بدمهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلاً

٥ — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة^(١) وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين . وكان بها دار الوزير عباس .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أنوا برقعة « فتكين » غلام المعز بن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع في أسر المعز بالله في مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فعامله بالحسنى وأزله مع أصحابه بهذه الخطة ، وكانت بها دار الصالح طلائع ابن رزيك .

٧ — حارة الباطلية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً فقالوا « رحنا

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين — تعليق محمد رمزي : النجوم الزاهرة ج٤ — ص ٣٦ .

نحن في الباطل » فسموا الباطلية^(١) .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافور الإخشيدى ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه في بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارة العطوف منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أو المسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى إلى مصر .

ولقد زادت عدد هذه الخطط وتطورت كثير فى أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلاً^(٢) .

القصور الفاطمية

وصف القريرى قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتى صفحة ، وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م) واستمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين واشتمل هذا القصر فى داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها هو الذهب والأقيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والمزرد والنسيم والبحر والحريم . ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير ، وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة فى يومى الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود فى يومى العيدين . أما القصر فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م وقد قال المسيجى عنه « لم يكن مثله فى شرق ولا فى غرب » وكانت له عدة أبواب أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة ممطياً ظهر بغلته تحيط به فتيات القصر .

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطلية فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصلة - كالتقريزى وعلى باشا مبارك ورافيس .

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا في عام ٤٥٧ هـ ١٠٦٥ م في خلافة المستنصر . وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصوري إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الأفضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها أرباب السيوف امراء الجيوش المصرية بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده^(١) .

وفي أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العام (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م واستمرت تؤدي رسالتها حتى أبطاها الأفضل ابن القائد بدر الجمالي ، وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة العزية ما جاء في تلك الوثيقة التي تثبت عظمة العصر الفاطمي وأهته حين زاره رسولا الملك عموري (املييك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ليعقدا معه باسم سيدهما تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصدفهم الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما وإعجابهما بمظمة مارأوه وروعته ، وقد نقل جستاف شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا الصدد كما لخص لين بول بعضه في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين^(٢) .

سار السفراء الفرنج يقدوم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة نفرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير دون أن يتطرق إلى نقوسهم أى خوف أو رهبة ووجدوا في القصر حراسا عديدين وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلوطة . وقادوا الفرنج في عمرات طويلة وضيقة وأقنية حالكمة الظلمة لا يستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئا . وربما كان المقصود بذلك بث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام . ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية . الجميلة .

(١) الخطط القرينزية نقلا عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ — طبعة النيل .

(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٧١ - ٧٥ .

وكان كل ذلك موقفاً رائعاً وبهياً رائعاً ، بحيث لا يملك أشغل الناس بالاً وأكثرهم همّاً إلا أن يقف للعجاب به ، وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكانت ترفرف في الفناء أنواع لاجد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة في الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها . ودون أن يقول إن الطيعة كانت تمرح وتلعب حين كونت هذه المخلوقات ، ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته . وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه .

وهنا استأذن الحراس الذين كانوا يسرون في معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت في الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء القربى إلى الخليفة نفسه .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية أشد جلالاً وإبداعاً ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا في هذه الحديقة أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها أو تحدث عنها — وبحيث لا يستطيع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة، فإن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى — وساروا في تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الكبير حيث يقطن — الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رآوه قبل ذلك . وكانت أفنيته تفيض بالحاربيين المسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلعب بالذهب والفضة وعليهم سيوف الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل البعوثون في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحريير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت تلعب بما عليها من الباقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن في هذه القاعة أحد ، لكن شاو خرا كما فور دخوله ثم نهض واقفاً ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله وارتفعت الجبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاء خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان المأمون) لأعين الفرنج للبعوثين وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة.

الفاطميون والقاهرة

لقد كان الخلفاء الفاطميون من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان للمعز نفسه حاكماً قادراً أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة ، وكان زهيراً عادلاً يشرف على القضاء ويقود الجيش الذي اعتمد عليه في الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذى بنى مرفأً جديداً للسفن في المقس شمال مرفأى الروضة ومصر وبالتقريب من ميدان رمسيس ، ولقد ظلت المقس مرفأً القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة

« ناصر خسرو » عسدة سفن للمعز في عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ أقدام .

ومع أن المعز كان حازماً محباً للعمل نراه ميالا الى المظاهر الرسمية فكان يذهب في مركب نفخ لفلة قطع الخليج . وكان يصدق في الإتفاق على كسوة الكعبة في مكة المكرمة ، وكان يهتم لكي تكون القاهرة مدينة ذات نخامة وترف وغنى ، وقد صرفت زوجه مبلغاً كبيراً على مسجدتها في القرافة والذي وضع تصميمه « الحسن بن عبد العزيز الفارسي » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة وقد عيّد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الأروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائماً إلى أن احترق في السنة التي احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « امباريك » ملك بيت المقدس القاهرة أثناء حصاره لها

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من أتباعه وما دعت اليه مظاهر الترف تجبي كضرائب أو أقساط تجمع في دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه في يوم واحد جمع من مدينة مصر في أسعد مجدها مبلغاً يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنية و ٦٢٠٠٠ جنية وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية .

العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)

ولما توفي المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة وعين يعقوب بن كلثوم وزيراً له وقد شاطر العزيز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف ، وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » وانتصر القائد « جوهر » في عدة معارك بالشام وقد عرف هذه في مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها مجموعة كبيرة خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال في تشجيع كتابة المؤلفات المهمة في التاريخ والأدب والفقه ، وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبري^(١)

ومن آثار العزيز جامع الحاكم الذي أمر ببنائه في شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية . وقد أتم جانباً كبيراً منه في مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة في اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٨٣١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلثوم » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومآذنه . فبدأ عمله في عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه في عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه أستاراً دقيقية عملت له وعلق فيه أربعة تنانير فضية وكثيراً من التناديل الفضية كذلك وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر .

(١) الدكتور زكي محمد حسن — كنوز الفاطميين ١٩٣٧

جامع الحاكم

عرف أولاً بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام مالا يقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون القاهرة في سنة ١١٦٧ هـ حولوا جانباً منه إلى كنيسة ، وباستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمي للدولة .

وفي اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبع مائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكى بسقوط عديد كثير من بدنه وخربت أعالي مثدنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه ، وفي العام التالي أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم منه - وإعادة ماسقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورعمه فعاد جديداً .

ولما كتب المؤرخ المقرئى خططه المشهورة في ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخرباً وسقفه مهشماً وآثار النار والحراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه . والفترة السعيدة التي مرت عليه لما أقيمت في بعض أجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على سابق سموه وجمال فنه .

وجامع الحاكم تحفة أثرية نادرة ، ومأذنتاه جددتها أثر زلزال عام ٧٠٢ هـ / بيبرس الجاشنكير قاعدة مربيه تتحول الى شكل مئمن الأضلاع ومنه الى شكل اسطوانى يخترقها سلم لولبى من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن

وقد تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره إحدى عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبه أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير عن أحواله وحوادثه . ومما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل المتناقضات نراه في جامعهم العظيم يراقب زخرفته ونقوشه أو في دار العلم التى أنشأها بجوار القصر الغربى في سنة ٣٩٥ هـ / والتي حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أما كن ينلق من ريعها وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبهر في علوم الدنيا والدين .

وبوفاته تولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على فأباح مامنهم أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضيف الرأى منصرفاً إلى الله وكثرت في أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنة حتى تمقيها أخرى ، وضاعت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة السلاء ، فصاح الناس : « الجوع يا أمير المؤمنين . » لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فإله الله في أمرنا .

ولما توفي الظاهر تولى ابنه المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وكانت سنة عند مبايعته لا تزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلا كما شهد الرحالة الفارسي ناصر خسرو عند زيارته مصر بين عامي (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) فقد قال ان — الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم بدون أن يغلقوا أبوابها في أوجه اللصوص وكان عدد الحوانيت في القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة ، يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهرياً . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنيهاً في السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها ، فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزأؤه ولم يكن قد ابتدئ في بناء السور الثاني (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت تلك البيوت الشاهقة التي وصفها الرحالة مبنية على نسق الاستحكامات ، وكل قصر منها يشبه قلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بـ ميل واحد تناثرت فيها البساتين ومناظر الضواحي وتغمرها مياه النيل في أثناء الفيضان .

وفي أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية . ولكن الوزير القادر اليازوري استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التي نشبت أظفارها بمخزنه كليات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزرائه في مدة تسع سنوات فضاعت هيبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجنود الترك الذين اتفقوا مع البربر وطرّدوا الجنود السود من القاهرة . وثبت هؤلاء أقدامهم في بعض نواحي الوجه القبلي فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا الري ليفتكوا بالفلاحين بينما انفرد الترك بالعاصمة فأتلّفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم ، وبعدما انتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ، ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلاف من الكتب في مجلّتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل إن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مخلفاتها لإصلاح نعالهم ولإيقاد نيرانهم . ومالم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصّر النيل في فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ ثم توالى القلاقل التي اقتضت الإسراف في الحبوب المخزونة وندرت الخنطة وبلغ من الأردب الواحد مائة دينار والقطعة ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين . فلم يبق من يزرع ، وأخيراً لما لم يجد الناس حيوانا يقتلوه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الانسان ثم جاء الطاعون فكان يحدد بمنجله أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة في الحمامات العامة واضطر الخليفة في نهاية الأمر بعد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بغداد إلى أن اضطرت الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما إبنة عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قاست مصر في أثناءها

ما لم تره في أشد عصورها ظلمة ، وكان المستنصر قد التجأ إلى حاكم سوريا الأرمني « بدر الجسالي » فكتب إليه للمجيء بجيشه إلى مصر ليؤويه عليها ، فقبل بدر الجسالي إليها وكان عبداً رفعت كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية فولى إمارة دمشق ثم عكا وكان حينما دعاه المستنصر رجل الساعة .

بدر الجسالي — إلى

وصل بدر الجسالي إلى القاهرة في يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩ م وقابل الخليفة . وفي ليلة من الليالي دعا أمراء البلاد إلى وليمة لهم في منزله وبیت مع أصحابه أن القوم إذا أسى عليهم الليل فاتهم لا بد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين . وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقويت شوكتة وعظم أمره وخلع عليه المستنصر الطليسان وقلد وزارة السيف والقلم وزيد في ألقابه لقب « أمير الجيوش » كافل قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . ولما أعاد النظام إلى نصابه في القاهرة أتجه قاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد الدخل وشعر الأهليون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السامية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد .

واستفادت القاهرة مدة حكم بدر الجسالي . فمضى قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربي ومنظرة اللؤلؤة لم يصف إلا النوى القليل على عمارته . وجاء المستنصر ففضل الإقامة في القصر الذي شيده بالمطرية حيث أقام جوسقا .

وكان أول شيء وجه إليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية أو قتل الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تهدم واختفى أمام نحو المدينة التي ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الثلاثة التي بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١٠٨٧ — ١٠٩١ م) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلاً أخذ حتى الروم في الجنوب إلى داخل السور وكان في خارجه . ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد — وزاد عند باب القصر الرجة التي تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا — غير أن باب زويلة خفض قليلاً من أبراجه لكي يتسع لبناء مأذنتي جامع المؤيد في أثناء القرن الخامس عشر ، وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من أعظم آثار العصر الفاطمي . وقد بناها ثلاثة إخوة وقدوا من إدسا المدينة الأرمنية الأصل ، التي عرفها بدر أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم بنى باباً .

وفي عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وسع القاهرة الوزير بدر الجسالي من حديدها الشمالى والجنوبى وسج

بالسكن فيها ، فامتد عمران المدينة إلى أطرافها وخارج أسوارها وصار يقال لأبنية القاهرة خارج أسوارها
ظاهر القاهرة . وأنشئت أخطاط جديدة ، بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين عدا حدها الشرق بين السور
وتلال المقطم ، فإن الحاكم بأمر الله أمر أن تبنى أبنية القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول القاهرة ،
فصار منها تلك الكيمان التي عرفت بكيمان البرقية بنهاية شارع الدراسة . تلك التي أزيلت منها كميات
كبيرة في أثناء حكم الثورة ١٩٥٢ .

وتمتعت مصر تحت حكم بدر الجمالي إلى أن توفي في القاهرة وسنة ثمانون سنة بعد حكم دام عشرين سنة
وخلفه ابنه الأفضل وكان فاضلاً حكيماً تدرّب على يد أبيه . وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التي كانت لأبيه
أمير الجيوش وظل في منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الأمر في عام ١١٣١ وتولى الأمر من بعده ابنه «أبو علي»
في عام ١١٣١ . ولما قتل بدوره وهو في طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل واسمه
« يانيس » ثم جاء من بعده « بهرام » المسيحي الذي ظل في كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

وفي خلافة الأمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) عهد إلى وزيره أبي عبد الله محمد بن فاتك بتعمير
الحرائب والفضاء الذي يقع بين باب زويلة والسيدة نفيسة ، فنودي بالقاهرة بأن من كانت له دار في الحراب
أو مكان يعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شيء من أوقافه ، ومن تأخر بعد
ذلك فلا حق له في شيء منه ولا حكر يلزمه ، فعمرت الحرائب والمنطقة وأصبحت القاهرة لا تتخللها
الحرائب (١) .

ونقلت أوقاف مدينة العسكر ومهدت أرضها ، فصار الفضاء بين السيدة نفيسة إلى كوم الجارج (تلال
زين العابدين) .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الأمر في ذي القعدة (٥٢٤ هـ) وهو في طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية في جزيرة الروضة
وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التي تذكر له بنائه لمسجد الأقمر بين القصرين . وكانت عقوده الداخلية
من الآجر أقيمت على أعمدة من الرخام . وقد نقش على أفرز المسجد بالكوفية إسم الأمر وتاريخ
بنائه ٥١٩ هـ .

وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك وإلى الأشمونين بمجموعه إلى القاهرة واستولى على الوزارة
ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز في عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك في الخلافة
العاقل لدين الله ، وقد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعراً مثقفاً وكرماً نياسياً لا زال مسجده قائماً

أمام باب زويلة . وقد مات ضحية نساء القصر اللاتي أرسلن إليه بعض رجالهن فسكرنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشياً عليه وحمل جريحاً . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدي الفرنجة ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربي للوجه القبلي . وقد كان الندم والحذر في محلهما إذ خلع شاور ابن الملك الصالح واسمه محي الدين زريك وكان قد استوزره العاضدواستخلف بعده شاور في عام ١٢١٣ م ودخل في السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع آخر وأجمل جامع أنشئ في عهد الدولة الفاطمية ووجهته العربية الفاطمية لا نظير لها في جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ، ويزيد في جمالها تلك العقود الملوئة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقي في ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

لقد تسكلمنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشآتها الهامة ونسصف مالحق بالعاصمة المصرية الأصلية مصر بعد القاهرة : فقد كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبليّة (باب زويلة) متصلة بمصر التي امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم وهذا الامتداد كان قسمين : ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الحرق وخط قناطر السباع ويدخل في ذلك سويقة عصنور وحارة الحمزين وحارة بنى سوس إلى الشارع وبركة الفيل والمهلاية والمحمودية إلى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الإسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرب الأحمر إلى القطائع . وكانت فيما بعد الرملة والميدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التي فيها الخليج الكبير فهي من باب القنطرة إلى المقس ، وما جاور ذلك فانهما كانت بساتين في غربها النيل . وكان ساحل النيل بالمقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر في المقس إلى المكان الذي يقال له الجراف ومواضع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لا بغير فيه . والمناظر تشرف على ما في غربى الخليج من البساتين التي خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج بابى الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظرة من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران . ومن غربى هذه المنظرة في جانب الخليج الغربى منظرة أخرى ، أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهى بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تبنى أتربة القاهرة من وراء السور لينع السيل من دخول القاهرة فصارت منها الأكوام التي عرفت بكيمان البرقية .

مناخ القاهرة

وقد تحدث الطبيب ابن رضوان المصرى الذى عاش بين ٩٨٠ و ١٠٦١ م عن طقس القاهرة ، فقال :...
 وبلى الفساط فى العظم وكثرة الناس ، القاهرة ، وهى فى شمال الفسقاط ، وفى شرقها أيضاً الجبل المقطم ،
 يعوق عنها ريح الصبا (الشمال) والنيل منها أبعد قليلا وجميعها مكشوف للهواء ، وليس ارتفاع الأبنية بها
 كارتفاع الفسقاط لكن دونها كثيرا وأزقتها وشوارعها بالقياس إلى أزقة الفسقاط وشوارعها أنظف وأقل
 وسخا وأبعد عن العفن . وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار ، وإذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار
 الفسقاط على القاهرة شيئا كثيرا ، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة
 أن تكون يصل إليها بالرشح من عفونة الكنف شيء ما . وبين القاهرة والفسقاط بطائح تمتلئ من
 رشح الأرض فى أيام فيض النيل ، ويصب بها بعض خرات القاهرة ومياه البطائح هذه رديئة وسخة ..
 ويطرح فى جنوب القاهرة قدر كثير نحو حارة الباطية . وكذلك يطرح فى وسط حارة العيد ، إلا أنه
 إذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافة إلى الفسقاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالا ، لأن أكثر عفوناتهم
 ترمى خارج المدينة ، والبخار ينحل منها أكثر . وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة
 فى أيام دخوله الخليج وهذا المساء يتعمق بعد مروره بالفسقاط واختلاطه بعفوناتها ، وأرقى موضع فى المدينة
 الكبرى هو ما كان من الفسقاط حول الجامع العتيق إلى ما بلى النيل والسواحل . وإلى جانب القاهرة من
 الشمال الخندق وهو فى غور فهو يتغير أبدا لهذا السبب فأما المقدس فمجاورته للنيل تجعله أرطب... (١) .

الشرطة فى أيام الفاطميين

لما استتبب الأحوال للقائد جوهر ، نقل الشرطة العليا إلى القاهرة وبقيت دار الشرطة السفلى بالفسقاط
 وتقلدها « عروبة بن ابراهيم » و « شبل المعوض » وفى أيام هذه الدولة ، كان يجمع أحيانا إلى الشرطة
 بين وظيفته ووظيفة الحسبة . فى عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م عهد المزمز لدين الله إلى الوزير « يعقوب بن كلس »
 بالاشراف على الخراج وجباية الأموال والحسبة والشرطتين (القاهرة والفسقاط) وقد جمع بين وظيفتي
 الشرطتين والحسبة أيضاً « غين » أحد موظفى الحاكم بأمر الله ، فقام بأعبائهما عام ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م
 وخلفه فيهما « مظفر الصقلى » الذى عين للشرطتين والحسبة والقاهرة والجيزة .

وفى أيام الفواطم ، كان اختصاص الشرطة إطفاء الحريق وإغاثة من هدم عليهم منزل ، فى عام ٣٨٣ هـ /
 ٩٩٣ م أمر الخليفة العزيز بالله بوضع أزيار مملوءة بالماء أمام الحوانيت لمسكافة الحريق فى أى مكان ، وتمين

على الجالين أن يبيتوا عند باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق وقراب المياه ، على أن تتكفل الحكومة بنفقات عشائهم .

مخلفات الفاطميين وخاتمهم

وعلى مر الأعوام دالت دولة الفاطميين حينما استولى الصليبيون على القاهرة ثم وصل صلاح الدين إلى مصر .

وليس من السهل أن يتصور الإنسان كيف آلت مخلفات الفاطميين إلى الخراب فهي لم تكن شيئاً قليلاً بل كانت في مجموعها مدينة إذا قصرنا القول على القصر الكبير وقصر الذهب ودواوين الحكيم والمناظر الثلاث وقصر الشوك وقصر الزمرد وغيرها من مشتملات القصر الشرقي الكبير . أضف إليه القصر الصغير وقاعته ومناظره ودور العلم والضيافة والمناظر المبعثرة في الضواحي وعلى الخليج الكبير وغير ذلك من المساجد والحصون .

ومن الخير أن يلم القارئ بما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائهم العاضد لدين الله (٥٦٧ هـ) . فقد أبعد الوزير (صلاح) « قراقوش » جميع الفاطميين عن هذه القصور واستولى عليها السلطان صلاح الدين وتسلم كل ما كان فيها من الخزائن والدواوين والأموال والثفائس واستمر البيع فيما وجد فيها عشر سنين . وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملكها امرأه وأقطع خواصه كثيراً من دورهم وأتباعهم وباع بعضها ثم قسم القصور فاعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين في قصر اللؤلؤة على الخليج وأخلت أمكنة في القصر الغربي مكن فيها الأمير موسكه والأمير أبو الهيجاء السعدي .

ولم ينقض وقت طويل على تلك القصور الفيحاء حتى سكنها العامة بعد أن سكنها الخلفاء والأمراء . لكن القاهرة التي وضع أساسها جوهر ظلت تتحول عاما بعد عام حتى أصبحت مدينة كبرى تكتنفها الشوارع والأسواق وتتوسطها الحدائق والدور والمساجد والمدارس والحمامات والوكالات — أفاض في وصفها المقرئزي وابن زولاق — والمسبحي والقضاعي .

المجتمع العالمي في أيام الفاطميين

كان إنشاء القائد الفاطمي جوهر الصقلي - الجامع الأزهر - بأمر مولاه المزمع لدين الله في عام ٩٧٢ حدثاً له أهميته ، لا بالنسبة لمصر وحدها ، بل للعالم الإسلامي برمته ، وقد ظل الأزهر محل رعاية الفاطميين ومن خلفهم من السلاطين والأمراء ، وعلى الأخص العزيز إذ جعل منه جامعة إسلامية للعالم الإسلامي كله ،

لأسيا حينما اجتاحت المغول بغداد في عام ١٢٥٨ . ولم تنقطع وفود الطلاب ، بل مازالت جموعهم تفد من مختلف بقاع العالم الاسلامي لتلقي العلم على أساتذة هذه الجامعة الإسلامية الكبرى . وتزخر هذه الجامعة الإسلامية بالطلاب من أنحاء الديار الإسلامية . ثم من الهنود والصينيين . وكل هؤلاء حينما يستكملون دراستهم في الأزهر ، يرتدون إلى بلدانهم وقراهم لإرشاد أهلهم وتعليمهم مطالب الدين الحنيف ونواحيه ، فضلا عما يدرسونه من العلوم الحديثة .

ونتيجة لهذا - كانت للأزهر دواما مكانة عظيمة ... هذه المكانة الدينية الكبرى التي كانت تمكنه أحيانا من أن يضطلع بدور سياسي في المشاكل المصرية الداخلية والخارجية على السواء .

على أننا لو قلبنا البصر في الجانب الفلسفي للإسلام - الجانب الذي يقول عنه مؤرخو الفرنجة وكتابهم أنه الجانب الغامض البعيد الغور - لوجدنا أن مصر قد نهضت بنصيب كبير يستأهل التقدير ، أو على الأقل يتفق وطبيعة البلد الذي يتبدى أن الفلسفة الروحية متوارثة فيه منذ القدم .

لم يخل ميدان العلم والبحث من مساهمة العلماء المصريين الذين نبغوا في الطب والفلك والكيمياء وعلم البحار والرياضيات... الخ . ونذكر من هؤلاء أبا كامل شجاع ابن أسلم وعلى بن رضوان وعلى بن يونس وابن الهيثم وعلى بن النفيس ، وغيرهم .

أما شجاع بن أسلم فقد ذاع صيته في علم الجبر في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكتب فيه فراد على ما خلفه الخوارزمي في كتابه الجبر والمقابلة . وابن يونس الذي اشتهر بالرياضيات والفلك في العصر الفاطمي واخترع الرقاص أو بندول الساعة الدقيقة . وكان لأرصاده الفلكية وبحوثه العلمية أثر هام في علم الفلك ، أما أبو الحسن على بن رضوان بن علي بن جعفر طبيب القاهرة المشهور فقد ولد في الجزيرة حوالي عام ٩٨٠ م وتوفي حوالي ١٠٦١ م^(١) . وكان أبوه فرانا ولاقى في تعلمه أهوالا حتى برع في الطب ، وله مخطوطان في الطب بدار الكتب المصرية أحدهما بعنوان « في دفع مضار الأبدان بأرض مصر » . وقد زاول صناعة الطب في القرن الحادي عشر كرئيس للأطباء في عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) والظاهر والمستنصر . ولابن رضوان ما يقرب من التسعين بحثا في الطب ، أهمها كتاب الأصول في الطب ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية^(٢) . وعلم ابن رضوان نفسه ولم يتلق الطب عن أستاذ ، ولذلك نجده

(١) عيون الأنبياء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة - طبعة مولر - القاهرة ١٨٨٢ ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) Max meyerhof : Climate and Health in Old Cairo, according to Ali ibn Radwan .

بحث ألقاه الدكتور ماكس مايرهوف في المؤتمر الطبي الدولي .

يفخر دواما بذلك . وقد تبادل المساجلات والمناقشات الطبية مع ابن بطلان الطبيب النصراني البغدادي^(١) .

ومن ازدهر ميدان الطب بهم في مصر على بن النفيس الذي كان رئيس الأطباء في مارستان قلاوون بالقاهرة والمتوفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨) . وقد كان إلى جانب اشتغاله بالطب من البارزين في العلوم الدينية واللغوية والأدبية في عصره . وكتب ابن النفيس شرحا لتشریح ابن سینا ، وصلت إلينا نسخة مخطوطة منه ، وقد وضع من دراستها أن هذا الطبيب المصري اهتدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى « دورة الدم من البطين الأيمن في القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الأيسر » قبل أن يكشفها الأوربان ميشيل سرفت (Michel Serfet) سنة ١٥٥٦ وريالدو كولومبو^(٢) .

ومن المسلم به عند المشتغلين بالطب وتاريخه أن أمراض العين كانت تعالج في مصر والشام في القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (١٢ و ١٣ م) بأسلوب علمي يفوق كل ما كان معروفا حينئذ في سائر بلاد العالم .

أما أبو علي ابن الهيثم^(٣) فكان أكبر علماء المسلمين في الطبيعة بل أعظم علمائها في العصور الوسطى ولولاه لما أتبع لعلم البصريات أن يصل إلى ما هو عليه الآن . وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ وأخذ عنه علماء أوروبا جميع معلوماتهم ولا سيما في موضوعات انكسار الضوء وتشریح العين وكيفية تكوين الصور على شبكية العين^(٤) .

وقد كاد الشرق أن ينسى ابن الهيثم بعد أن سمت كتبه بالزندقة : ونجبرنا أحد تلاميذ الفيلسوف الإسرائيلي ابن ميمون ، وهو الحكيم يوسف السبقي ، أنه كان ببغداد تاجر اسمه عبد السلام الجلي . شهد

(١) لما طالت المناظرات الطبية سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره . وأقام بها ثلاث سنوات . واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبي أصيبعة في المقارنة بينهما : كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به . وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها .

(٢) ماكس مايرهوف : مقالة عن ابن النفيس في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) عاش في القاهرة (القرن الخامس الهجري — الحادي عشر الميلادي) ولد في البصرة واشتغل كثيرا بـ مؤلفات أرسطو وجالينوس . وأكبر كتب ابن الهيثم كتاب المناظر الذي ترجم وهذب باللغة اللاتينية — ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة هو أبو الوفاء مبشر بن فاتك القائد وهو أحد أمراء مصر .

(٤) مقال الأستاذ قدرى حافظ طوقان في كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » أخرجه مجلة المتحلف بالقاهرة .

إحراق كتب أحد الفلاسفة ، وقد أحضرها له خطيب ونصب له منبر ليشرّف على إحراقها . فلما وصل إلى كتاب الهيئة لابن الهيثم أشار إلى الدائرة التي مثل بها الفلك ووصفها بأنها الداهية الدهيئة ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء ، وبعد أن أتم كلامه خرقها وألقاها في النار (١) .

وقد ازدهرت مصر في أيام الفواطم بطائفة من علماء كتابة التاريخ ، وعلى رأسهم المسبحي (٩٧٧-١٠٣٩) وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية . تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه وشغل عدة مناصب هامة أخرى . ألف في تاريخ مصر عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » الذي لم يصل إلينا ولكن ذكر ابن خلكان عن رؤية ومعاينة أن تاريخه « بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة » (٢) . وقد كتب أوتيقوس بطريرك الاسكندرية المتوفى عام ٩٣٩ م والمعروف باسم سعيد بن البطريق عدة كتب تاريخية أبرزها كتابه المشهور « نظم الجواهر ، أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » كما صنف عدداً آخر من المؤلفات الطبية .

ونذكر بين عداد المؤرخين المصريين: القضاي (٣) والجواني (٤) وأبو صالح الأرمي (٥) وابن عبد الظاهر صاحب « الروضة البهية الزاهرة والسيرة الظاهرية » (٦) وابن التوج « مؤلف إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » (٧) وابن الجيعان المتوفى في أواخر القرن الثامن وأضع كتاب « التحفة السنية » بأسماء البلاد المصرية . وهو عبارة عن ثبت للأقاليم والبلاد المصرية وذكر زماماتها وأنواع أراضها من رزق وأجاس وغيرها وذلك حتى سنة ٧٧٧ هـ في أواخر عهد الملك الأشرف . وقد نشرت دار الكتب المصرية هذا الكتاب سنة ١٨٩٨

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام وترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ص ٣٦ .

(٣) ولد بمصر في أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة (٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م) وقد أوفده للمستنصر سفيرا إلى تيودورا امبراطورة قسطنطينية (١٠٥٥ م) وألف المختار في ذكر الخطط والآثار .

(٤) للجرائي « النقط بمجم ما أشكل من الخطط » وقد اقتبس منه المقرئ في عدة مواضع غير أنه يصعب أن تستدل بهذا الاقتباس على حقيقة ما خصه الجواني بالبحث .

(٥) لأبي صالح مؤلف تناول فيه تاريخ الكنائس والأديار المصرية وأحياء الأقباط والنصارى وتاريخ القديسين والبطاركة وبعض أعمال الدولة وأقطاعها وإخراجها — وقد طبع هذا الكتاب في اكسفورد عام ١٨٦٥ — مصر الاسلامية للدكتور م . ع . عنان ص ٤٠ .

(٦) هو القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ وتوفى بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٢٣ — ١٢٩٢ م) .

(٧) هو القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن التوج (٦٢٩ — ٧٣٠ هـ) (١٢٤١ — ١٣٣٠ م) .

القاهرة فيما كتبه الرحالة ابن حوقل

كان ابن حوقل الجغرافي العربي الذي ترك بغداد سنة ٢٣١هـ / ٩٤٣م جائلاً مدة تجاوزت ربع القرن في أنحاء العالم الإسلامي ، أول من ذكر في مؤلف عربي شيئاً عن القاهرة ، ولما لم يعض على بنائها إلا سنوات ، والمعروف أنه ألف كتابه المسالك والممالك حوالي ٢٦٧هـ / ٩٧٧م وكانت وفاته حوالي ٩٨١م . قال ابن القاهرة :

... « وكان خارج مصر (الفسطاط والعسكر) أبنية بناها أحمد بن طولون ليسكنها جنده ، وتعرف بالقطائع ، كبناء بني الأغلب خارج القيروان رقادة ، وقد خربت جميعاً في وقتنا هذا (أيام المؤلف) ، وأخلف الله عوض القطائع بالقاهرة ، وهي مدينة أوجدها أبو الحسن جوهر قتي أمير المؤمنين ومصباح دولته صلوات الله عليه لجيوشه وحشمه ، وقد ضمت من المحال والأسواق والحمامات والفنادق والقصور المشيدة وعلى جميعها سور منيع رفيع ، وبها ديوان مصر ومسجد جامع حصين نظيف ؟ » وقال في موضع آخر :

... « والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي . لما فتح مصر وقهر من فيها ، كبيرة حسنة ، بها جامع بهي وقصر السلطان وسطها ، محصنة بأبواب محددة على جادة الشام ، ولا يمكن أحد دخول الفسطاط إلا منها لأنها بين الجبل والنهر ... » .

٢ - ناصر خسرو في القاهرة

(١٠٤٧ - ١٠٥٠)

نتقل إلى الرحالة ناصر خسرو الذي خلف لنا الطباعات ومشاهداته في أثناء رحلته إلى مصر في أيام الفاطميين . يقول الرحالة :

أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر هي القاهرة . وتقع مدينة مصر جنوبها وتسمى القاهرة « المعزية » ويقال للمعسكر « القسطنط » .

وحين دخل المعز لدين الله مصر ، تقدم له بالطاعة قائد الجيش ، الذي ولاه خليفة بغداد . ونزل المعز بالجيش في هذا الموضع الذي هو القاهرة اليوم . وقد سمي المعسكر بالقاهرة . لأن ذلك الجيش كان قاهراً وقد أمر المعز بأن لا يتجول أحد من جيشه في المدينة أو يدخل بيت أحد . ثم أمر أن تبني مصر (القاهرة) في هذه الصحراء وأن يشيد كل من أفراد حاشيته بيتاً . وهكذا بنيت المدينة التي قل نظيرها .

وفي القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للسلطان وكثير منها يؤجر بعشرة دنائير مغربية في الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك للسلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه ، وسمعت أن للسلطان ثمانية آلاف بيت في القاهرة ومصر ، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر ؛ يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء .

ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أي بناء ، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً لمدينة ميافارفين ، وكل ماحوله فضاء ، ويجرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس ، وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل من وقت صلاة المغرب ، ويدورون حول القصر حتى الصباح ، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة ، لارتفاع أسواره . وقيل أن به اثني عشر ألف خادم مأجور ، ولا يعرف عدد من فيه من النساء والجواري ؟ ؟ إلا أنه يقال أن به ثلاثين ألف آدمي . وهذا القصر يتكون من اثني عشر بناء . وله عشرة أبواب فوق الأرض فضلاً عن أبواب أخرى تحتها وأسماء أبوابه الظاهرة هي : باب الذهب ، باب البحر ، باب السريج ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح ، باب الزلافة ، باب السرية^(١) وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكباً ،

(١) ذكر المقرئى وتقرئى بردى بعض أسماء تلك الأبواب مع اختلاف وقد صحح المرحوم محمد رمزى ناشر النجوم (ج ٤ ص ٣٦ ملحوظة) باب السرية بباب التربة ، وقال أنه يعرف بباب تربة الزعفران كما جاء في الخطط وأما باب السريج فليس مذكوراً في السكتابين المذكورين والمرجح أن تكون كلمة السريج تحريفاً لكلمة الريج فهو باب الريج لا السريج وقد ذكر تقرئى بردى (ج ٣٥ - ٤٦) أن من أبواب القصر / باب العيد ، باب الزمرد ، باب الذهب ، باب الزهومة وباب قصر الشوك .

وهذا الباب على سرداب يؤدي إلى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذي يصل على بين القصرين سقف محكم وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدت من صخر واحد . ويتألف القصر من المناظر والإيوانات العالية وفي داخله دهليز به دكك .

وأركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم ، والوزير رجل يتناز عن الجميع بالزهد والورع والأمانة والصدق والعقل .

ولم يكن شرب الخمر مباحا ، أعنى أيام الحاكم بأمر الله الذي حرم على النساء الخروج من بيوتهم وما كان أحد يحفف العنب في بيته لجواز عمل السيكي (نوع من الشراب) منه ، ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر ، ولا كانوا يشربون القمعاق ، فقد قيل إنه مسكر ، فهو محرم .

وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب ازويلة ، وباب الخليج ، وليس للمدينة قلعة ، والسكن أبنتها أنوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة ، وكل قصر حصن ، ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات .

ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاءون على الجمال ، والآبار القرية من النيل عذب ماؤها . وأما البعيدة عنه فمأؤه ملح . ويقال إن في القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف حمل يحمل عليها السقاءون الروايا ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره في الجدر النحاسية أو القرب ، وذلك في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال .

وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار . وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، وقد نصبت السواقي لديها ، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصدارت منزهات .

وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعاً في إثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغرباً في الشهر . والمنزل الذي أقت فيه ، كان أربعة أدوار ، ثلاثة منها مسكونة والرابع خال ، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية فرفض معتذراً بأنه يلزمه أن يقيم به أحياناً ، ولو أنه لم يحضر مرتين في السنة التي أقتها هناك .

وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة . وهي بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر . ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت ، من هدم أو إصلاح دون أن يضايق جاره .

ويرى السائر خارج المدينة ناحية الغرب ، ترعة كبيرة تسمى « الخليج » حفرها والد السلطان (!) وله على شاطئها ثلاثمائة قرية . ويتدنى فم الخليج من مدينة مصر ويمر بالقاهرة ويدور ماراً أمام قصر

السلطان . وقد شيد على رأسه قصران ، أولهما قصر اللؤلؤة ، وثانيهما «قصر الجوهرة» (١) .

وفي القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة) الأزهر وجامع النور (الأقر) وجامع الحاكم وجامع المعز . والأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل . ويتوجه المصريون نحو مطلع الحمل حين يولون وجوههم شطر القبلة .

وبين مدينتي مصر والقاهرة أقل من ميل ، والأولى في الجنوب والثانية في الشمال ويعر النيل بهما وبساتينهما وبيوتهما متصلة وتنمر المياه الوادي بأجمعه في الصيف كأنه بحر عدا حديقة السلطان لأنها على مرتفع .

وصف فتح الخليج :

حين يبلغ النيل الوفاء ، أى من المائث شهر يور (أغسطس وسبتمبر) إلى العشرين من أبان (أكتوبر ونوفمبر) ويبلغ ارتفاع الماء عشرين ذراعاً عن مستواه في الشتاء وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة في البلاد كلها ، يحضر السلطان راكباً ليفتح النهر الذي يسمى «الخليج» والذي يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة وهو ملك خاص للسلطان . وفي ذلك اليوم (يوم ركوب السلطان لفتح الخليج) تفتح الخجان والترع الأخرى في الولايات كلها .

وهذا اليوم أعظم الأعياد في مصر ، ويسمى «عيد ركوب فتح الخليج» .

حيناً يقترب هذا الموسم ، ينصب للسلطان على رأس الخليج سراق عظيم التكليف من الدياج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكالم بالجواهر ، ومعد أعظم إعداد ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس . وأمام هذا السراق خيمة من البوقلمون وسراق آخر كبير .

(١) منظره اللؤلؤة وتعرف أيضاً بقصر اللؤلؤة ، تقع قرب باب القنطرة القديم وكان قصرآ من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد المتنزهات كان يشرف من شرفيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربه على الخليج ، وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المبانى شئ ، وإنما كان فيه بساتين عظيمة البركة تعرف ببطن البقرة فيرى الجالس في قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبلها ، ويرى بجرى النيل من وراء البساتين . قال ابن ميسر : «هذه المنظره بناها للعز بالله (٣٦٥ - ٣٨٥ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) ولما ولى برجوان الصقلي الوزارة (٩٩٦ - ١٠٢٠) سكن بمنظره اللؤلؤة إلى أن قتل . وفي عام ٤٠٢ / ١٠١١ أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها وبيع ما فيها وفي أيام الظاهر لاعزاز دين الله (١٠٢٠ - ١٠٣٦) أعيد بناء اللؤلؤة وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل وقد أقام بهذا القصر نجم الدين والد صلاح الدين بعد وفاة العاضد لدين الله آخر الفواطم (١١٧٠ / ١١٧١) .

وقبل الإحتفاء بثلاثة أيام يدقون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكؤوس في الإصطبل ، لتألف الحيل هذه الأصوات .

ويسير في ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألمجة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديداج الرومي والبوقلمون ، نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تخط ، وطرزت حولشها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان درع أو جوشن ، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى ، وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هوداج مزينة ، وبغال عمارياتها (هوداجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ . وأت الكلام ليطول إذا ذكرت كل ما يكون في يوم فتح الخليج .

في ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقة فرقة ، وفوجا وفوجا ولكل جماعة إسم وكنية . فرقة تسمى « الكتامين » وهم من القيروان ، أتوا في خدمة المعز لدين الله وقيل أنهم عشرون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الباطليين » وهم رجال من المغرب ، دخلوا مصر قبل مجيء السلطان إليها وقيل أنهم خمسة عشر ألف فارس .

وفرقة تسمى « المصامدة » وهم سود من بلاد المصامدة ، قيل أنهم عشرون ألف رجل .

وفرقة تسمى « المشارقة » وهم ترك وعجم . وسبب هذه التسمية أن أصلهم ليس عربياً ، ولو أن معظمهم ولد في مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، قيل أنهم عشرة آلاف رجل وهم ضخم الجثة .

وفرقة تسمى « عبيد الثراء » وهم عبيد مشترون ، قيل أنهم ثلاثون ألف رجل .

وفرقة تسمى « البدو » وهم من أهل الحجاز . وكلهم يجيدون حرب الرماح قيل أنهم خمسون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الاستاذين » كلهم خدم بيض وسود ، اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس .

وفرقة تسمى « السرائين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، ولهم قائد خاص ، يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته ، وعددهم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزنوج » يجاربون بالسيف وحده ، قيل أنهم ثلاثون ألف رجل .

ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندي منه مرتب شهري على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العيال . ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف

أرزاق الجند من الخزانة في وقت معين ، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجندي .

وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا من أطراف العالم ولا يعدون من الجيش ، ومن بين هؤلاء أولاد خسرو دهل . وقد أتت أمهم معهم ، وأولاد ملوك الكرج (جورجيا) وأبناء ملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان .

وكذلك وجد في يوم فتح الخليج طبقات أخرى من الرجال من ذوى الفضل والأدباء والشعراء والفقهاء ولكل منهم أرزاق معينة ، ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن خمسمائة دينار وقد يبلغ الألفين ، وليس لهم عمل إلا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين يركب ثم يعودون .

والآن نعود إلى حديث فتح الخليج .

وفي اليوم الذى ذهب السلطان في صباحه لفتح الخليج ، استأجروا عشرة آلاف رجل وأمسك كل واحد منهم إحدى الجنايب التى ذكرتها ، وساروا مائة مائة وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار ، وسار خلفهم فوج من الجيش . مشى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، ثم رجعوا . وقد أعطى كل أجير قاذ جندي ثلاثة دراهم ، وبعد الخيول أتت الجمال وعليها المهود والمراقد . ومن بعدها البغال وعليها العماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنايب ، وهو شاب كامل الجسم ، طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما كان حليق شعر الرأس ، يركب على بغل ليس في سرجه أو لجامه حلية ، فليس عليه ذهب أو فضة ، وقد ارتدى قميصاً أبيض ، عليه قوطة فضفاضة ، كالتي تلبس في بلاد المغرب والى تسمى في بلاد العجم « دراعه » وقبل ان اسم هذا القميص « الديبق » (١) وانه يساوى عشرة آلاف دينار . وكان على رأسه عمامة من لونه ويمسك بيده سوطاً ثميناً . وأمامه ثلثمائة راجل ديلم . عليهم ثياب رومية مذهبة وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النشاشيب والسهام وقد عصبوا سيقانهم .

ويسير مع السلطان حامل المظلة ، راكباً حصاناً ؛ وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة ، وعليها حلقة قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبي مغربي ؛ والمظلة التى بيده ثمينة جداً ؛ وهى مرصعة ومكالة ؛ وليس مع السلطان

(١) الديبق نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التى كانت تصنع في ديبق وهى بلدة كانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس وموضعها اليوم تل ديبق في الشمال الشرقى لقرية صاف الحجر (النجوم الزاهرة ج ٤ — ص ٨١) .

فارس غير حامل المظلة^(١) وقد سار أمامه الديلمة وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم ؛ يحملون الحماير ويحرقون العنبر والعود .

والعادة في مصر أن يسجد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بمسد السلطان الوزير مع قاضي القضاة وفوج كبير من أهل العلم وأركان الدولة وقد ذهب السلطان إلى حيث ضرب الشرع على رأس سد الخليج أى فم النهر وظل ممتطياً البغل تحت السراقد مدة ساعة ؛ وبعد ذلك سلموه مزارقاً ليضرب به السد ، ثم عجل الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والحارث ، فانساب الماء ؛ وقد كان مرتفعاً وجرى دفعة واحدة في الخليج .

وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة لتفرج على فتح الخليج ؛ وتجري فيه أنواع الألعاب العجيبة .

وكان في أول سفينة نزلت الخليج جماعة من الخرس يسمون بالفارسية « كنك لال » لعلمهم يتفألون بنزولهم ويمجى السلطان عليهم صدقاته في هذا اليوم .

وكان للسلطان إحدى وعشرون سفينة ، وقد عمل لها حوض خاص قرب القصر في اتساع ميدانين أو ثلاثة ؛ وطول كل سفينة منها خمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً وكلها مزينة بالذهب والفضة والجواهر والديباج ، ولو وصفتها لسطرت أوراقاً كثيرة وهذه السفن كلها مربوطة في الحوض ، معظم الوقت ؛ كالبغال في الاصطبل .

وللسلطان حديقة تسمى « عين شمس » على فرسخين من القاهرة وهناك عين ماء عذبة تسمى البستان بها ، ويقال ان هذه الحديقة كانت لفرعون . وقد رأيت بها بناية قديمة بها أربع قطع من الحجارة الكبيرة كل قطعة مثل المغارة ؛ وطول كل منها ثلاثون ذراعاً وكان الماء يقطر من رؤوسها ؛ ولا يدرى أحدهما . وفي الحديقة شجرة اللسان ، ويقال أن آباء هذا السلطان أتوا بيذرتها من بلاد المغرب وزرعوها في الحديقة ولا يوجد غيرها في جميع الآفاق وهي غير معروفة في بلاد المغرب . ومع أن لهذه الشجرة حبساً إلا أنه

(١) المظلة التي تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه هي تبة على هيئة خيمة على رأس عمود كال مظلة التي يركب بها السلطان (الابن) وكانت اثنتي عشر شوزكا عرض سفلى كل شوزك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلاث ، وآخره من أعلاه دقيق للغاية ، بحيث يجتمع اثنا عشر شوزكا في رأس عمود بدائرة وعمودها قنطارية من الزان ملبسة بأنايب الذهب وفي آخر أنبوبة ثلثي رأس العمود فلسكة بارزة مقدار عرض إبهام تشد آخر الشواذك في حلقة من ذهب وتنزل رأس الرمح ولها عندهم مكانة جلييلة لملوها رأس الخليفة وحاملها من أكبر الأمراء وله عندهم التقدم والرفعة لمل مايعاوا رأس الخليفة (صبح الأعشى ج ٣ ص ٦٩٤ ٤٧٩) .

لا ينبت حينما زرع ؛ وإذا نبت فلا يخرج الزيت منه وهذه الشجرة مثل شجرة الآس ؛ يشذبون غصونها بالتصل حينما يكبر ، ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن كالصمغ ، وحينما ينفذ ما فيها من دهن تجف . ويحمل البستانيون غصونها إلى المدينة ويبيعوها ، ولحاؤها ثخين وطعمه كاللوز حين يقشر . وينبت في جزعها أغصان في السنة التالية فيعملون بها كما فعلوا في السنة العابرة .

ولمدينة القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة وهي حارات . —

برجوان (١) وزويلة (٢) والجودرية (٣) والأمراء (٤) والديالة (٥).

(١) تنسب حارة برجوان إلى الخادم برجوان من خدم القصر أيام العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦) وكان لبرجوان هذا شأن في أيام الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ / ٩٦٦ — ١٠٢٠) ولقب بالواسطة وبعير الدولة . وكان يتولى أمور مصر والشام والحجاز والمغرب . وأمر الحاكم أبا الفضل ريدان بأن يقتله فقتله سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م . وتقع هذه الحارة اليوم في قسم الجمالية (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٨ .

(٢) زويلة إسم ضاحية في القيروان ، كما أنه إسم بلدة صغيرة بجوار المهدية التي بناها عبد الله المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٣٣ م) وقد سمي المكان باسم القبيلة التي سكنته . وقد سكن أفراد هذه حارة سميت باسمهم — زويلة — في مصر — كانت أكبر حاراتها . وتعرف اليوم باسم حارة اليهود بشارع الموسكى — (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٢) .

(٣) تنسب إلى جماعة ينسبون إلى جودر خادم المهدي ، كان عددهم ٤٠٠ ، وتقع في دائرة قسم الدرب الأحمر (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١)

(٤) غير اسمها صلاح الدين ، حين سكنها الملك المعظم توران شاه ، بعد هجرته من الشام وسميت درب شمس الدولة ، نسبة إليه . وتقع بين شارع السكة الجديدة وشارع الجزاوى الصغير (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٢) .

(٥) تنسب إلى ساكنيها من الديلم الذين هجروا افنديين المعزى غلام معز الدولة البويهى (٣٤٤ — ٣٦٥ هـ / ٩٥٥ — ٩٧٥ م) حين قدم أولاده إلى القاهرة ، وكانت تشمل ثلاث حارات ، حارة الكعكيين ودرب الأتراك وحوش قدم ، وكذلك سكن حارة الديلم جماعة من الأمراء والأعيان فأطلق عليهم إسم حارة الأمراء (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٣)

والروم^(١) والباطلية^(٢) وقصر الشوق^(٣) وعبيد الشرا^(٤) والمصامدة^(٥)

وصف مائدة السلطان .

يقيم السلطان مأدبة في كل من العيدين . ويأذن بالاستقبال في قصره للخواص والعوام . وتنصب مائدة الخواص في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى . وقد سمعت كثيراً عن هذه المآدب فرغبت في رؤيتها ، رأى العين ، فذهبت عند أحد كتّاب السلطان ، وكنت قد صاحبت فتوطدت الصداقة بيننا ، وقلت له : « رأيت مجالس ملوك وسلاطين العجم مثل السلطان محمود الغزنوي وابنه السلطان مسعود ، وقد كانا ملكين عظيمين ذوى نعمة وجلال ، وأريد أن أرى مجلس أمير المؤمنين » .

فقتل رغبتى إلى الموكل بالستار ، المسمى « صاحب الستر » وقد تفضل هذا فسمح لى بالذهاب ، في آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة هـ (٧ مارس ١٠٤٩ م) وكان المجلس قد أعد لليوم الثانى وهو يوم العيد ، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس في صدر المائدة .

حين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وصفف وإوانات إذا أردت أن أصفها يطول الكتاب ؛ كان هناك إثني عشر جناحاً ، أبنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحاً منها وجدته أحسن من سابقه ، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع في مائة ؛ عدا واحداً منها كانت مساحته ستين ذراعاً في ستين . كان بهذا الأخير نحت يشغل عرضه بتمامه وعلوه أربع أذرع ، وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث وعليه صور المعطاد والمليسان وغربها كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطرش من

(١) وهى حارتان ، حارة الروم المشهورة اليوم والتي تقع في قسم الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية تنسب إلى الأشراف الجوانيين . وهى تقع في قسم الجمالية والوراقون يكتبون حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا . وعند ما غضب الحاكم بأمر الله على الروم أمر بنهب الحارتين وهدمها (١٧ ذى الحجة ٣٩٩ / ١٠ أغسطس ١٠٠٩ م) (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢)

(٢) تقع في الجنوب الشرقى للجامع الأزهر ؛ ويدل على موضعها شارع الباطنية (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٦١)

(٣) قصر شيده الفاطميون ؛ يعرف بهذا الاسم شارع قرب أم الغلام بسيدنا الحسين .

(٤) يظهر أن هذه كانت إحدى حارات حي الحسينية ، نسبة إلى الأشراف الحسينيين ، وهى حارة حامد والمنشية الكبرى والمنشية الصغرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى التى كانت هى لعبيد الشراء والوزيرية والسوق الكبير وبين الحارتين وعبيد الشراء فرقة في الجيش (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٥ - ٤٦) .
(٥) المصامدة فرقة في الجيش المصرى أيام الفواطم ، وقد سكنوا حارة سميت باسمهم قرب بركة القمل .

الديباج الرومى والبوقلون نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درابزين من الذهب المشبك . يفوق حد الوصف ومن خلف التخت ؛ بجانب الحائط ، درجات من الفضة ، وبلغ هذا التخت من العظمة أنى لو قصر هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيت الكلام ، وما كفى .

وقيل أن راتب السكر ، فى ذلك اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان ، خمسون ألف من ؛ وقد رأيت على المائدة شجرة ، أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ؛ كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً .

ومطبخ السلطان خارج القصر ، ويعمل فيه دواماً خمسون غلاماً ، ويصل القصر بالمطبخ طريق تحت الأرض . وجرت العادة فى مصر ، أن يحمل إلى دار الشراب السلطانية (شرابخانه) كل يوم ، أربعة عشر جملاً من الثلج ؛ وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب يومية من هذا الثلج ، ويعصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروباً أو دواء من الحرم السلطاني فإنه يمطاه كما أن هناك زيوتاً أخرى كزيت الباسان وغيره كان للناس كافة أن يطلبوها فلا تمنع عنهم .

سيرة سلطان مصر :

بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والسيارفة لا يعلقون أبواب دكاكينهم ، بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيء منها ، يحكى أنه كان بمصر يهودى وافر الثراء يتجر بالجواهر ، وكان مقرباً من السلطان الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، فاعتدى عليه الجنود وقتلوه . فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان ، فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان . وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء حتى منتصف النهار خرج إليهم خادم القصر ووقف يباب السراى وقال : « إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين أم لا ؟ » . فصاحوا صيحة واحدة : « نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا » فقال الخادم : يأمركم السلطان بأن تعودوا فعادوا فى الحال . .

واسم هذا اليهودى المقتول أبو سعيد ، وكان له ابن وأخ . وقيل أنه لا يعرف مدى غناه إلا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع فى كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مثمرة . وقد كتب أخوه ، لما ملكه من الفزع ، رسالة للسلطان يقول فيها « إني أقدم للخزانة مائة ألف دينار مغربى حالاً » فأمر السلطان بعرض الرسالة على الناس وتمزيقها على الملأ ، وقال : « كونوا آمنين وعودوا إلى بيتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولسنا بحاجة لمال أحد » واستماله إليه .

وكان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى التى نزلت بها ، فى الشام الى القىروان ، نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السراج والحصير والبوريا وسجاجيد الصلاة ورواتب القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم « وكتب الى الشام فى بعض السنين إلى السلطان بأن الزيت قليل ثم استأذن فى أن يعصرف للمساجد الزيت

الجار ، المستخرج من بدور الفجبل واللقت ، فأجيب « إنك مأثور لا وزير ، وليس من الجائز أن تغير أو تبدل في شيء يتعلق ببيت الله » .

ويتقاضى قاضى القضاة ألفى دينار مغربى في الشهر ، ومرتب كل قاضى على قدر مرتبته ، وذلك حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم .

والعادة في مصر أن يقرأ مرسوم السلطان في المساجد في منتصف رجب ، وهو : « يا معشر المسلمين ، جل موسم الحج ، وسيجهز مركب السلطان كالعتاد وسيكون معه الجنود والحيل والجمال والزاد » ، وينادى بذلك في شهر رمضان أيضاً ، ويبدأ الناس في السفر ابتداء من أول ذى القعدة . وينزلون في موضع معين ، ثم يسرون في منتصف هذا الشهر . ويبلغ خرج الجيش الذى يرافق السلطان ألف دينار مغربى في اليوم ، هذا عدا عشرين ديناراً مرتبة لكل رجل فيه ، ويبلغون مكة في خمسة وعشرين يوماً ويكثون بها عشرة أيام ، ثم يعودون إلى مصر في خمسة وعشرين يوماً . ونفقانهم في الشهرين ستون ألف دينار مغربى ، عدا الصلات والمشاهرات وعن الجمال التى تنفق في الطريق .

وقد قرئ على الناس ، سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، المرسوم التالى من سجل السلطان :

« يقول أمير المؤمنين أنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام فإن به قحطاً وضيقاً وقد هلك به خلق كثير وإنى أقول هذا شفقة بالمسلمين » . فلم يسافر الحجاج . وكان الساطان يرسل الكسوة للكعبة كالعتاد لأنه يرسلها مرتين كل سنة ، فلما سافرت الكسوة مع وفد السلطان ، عن طريق القلزم سافرت معهم فخرجت من مصر أول ذى القعدة » .

فبلغنا القلزم في الثامن منه ، ومن هناك أفلعت السفينة فبلغنا بعد خمسة عشر يوماً مدينة تسمى الجار في الثامن والعشرين من ذى القعدة^(١) .

(١) ناصر خسرو (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٩١ م) : سفرنامه ، ترجمه الى الفرنسية شارل سيفر (باريس) عام ١٨٨١ ، وإلى العربية دكتور يحيى الحشاش بالقاهرة ، وقد نقلنا عنه .

أبو الصلت أمية بالقاهرة

(٤٨٩ هـ - ١٠٩٥/١٠٩٦ م)

وهذا أديب وشاعر كبير ، رحل إلى القاهرة وأمدنا بوصف شامل لمجتمعها العلمى والسياسى .

ولد أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فى دانية من بلاد الأندلس فى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م وعزم على زيارة مصر وكان يأمل من وراء رحلته إلى مصر بسطة فى العيش . ويبدو أنه ظل دهرًا خاملًا يتعین الفرس ، إلى أن اتبح له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام المستنصر بالله ، وذلك الرجل هو تاج المعالى مختار^(١) .

قدم أبو الصلت إلى الاسكندرية فى عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥/٩٦) ثم جاء إلى القاهرة واتصل بتاج المعالى ، فخدمه بصناعى الطب والتنجم ، فأعجب به ، ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه ، وكان كاتب الأفضل بنفسه عليه ذلك ، ويحشى بأس تاج المعالى ، وحدث أن تنابعت منه السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعتقله ، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبى الصلت ، فيخلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقي به فى أحد سجون مصر مدة ثلاث سنين وشهر ؟ بعد الذى دبح فيه من الدائح .

ولما أفرج عنه ضاق أبو الصلت ذرعًا بمصر ، وما لقي فيها من الخيبة والعت ، فشد رحاله إلى المغرب واستعاد صلاته يحيى بن تميم بن باديس الذى وضع له رسالة يصف له فيها ما عاينه فى مصر وما عاناه وهى التى عرفت بالرسالة المصرية ، وتناول فيها .

١ — الوصف البلدى لمصر ونيلها .

٢ — تصوير جمال ربوعها ومعانيها وسكانها ومذاهبهم وأخلاقهم ، وما تحتويه البلاد من الآثار ، ونوع بفعل بعض الأطباء ، ثم ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء^(٢) وسنقتطف من هذه الرسالة الطريفة ما يتصل بالقاهرة فى أيام المستنصر بالله .

(١) عبد السلام هارون : الرسالة المصرية من مخطوط اقتناه العلامة أحمد تيمور بكتيته الخاصة رقم ٦٠١ أدب . بدار الكتب المصرية وهى المجموعة الأولى من نواذر المخطوطات ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١ . وقد نقلنا عن هذه الرسالة ما ذكرناه .

(٢) أنظر ترجمة أبى الصلت فى معجم ياقوت (٧ : ٥٢) وابن خلسكان (١ : ٨) وابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٢) .

وأنا أبتدىء بذكر هذه البلاد وموقعها في المعمورة ومجرى النيل منها ، وغناؤه فيها ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها في أخلاقهم ، وسيرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينجر معه ، ويحيى بسببه ، ويدخل في تضاعيفه ، وها أنذا آخذ في ذلك ، وبالله استعين ، وعليه التوكل .

أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة في قسمي الإقليم الثاني والإقليم الثالث ومعظمها في الثالث .

وحكي المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها في الطول من مدينة برقة التي في جنوب البحر الرومي ، إلى أيلة من ساحل الخليج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين ، ومسافة ذلك قريب من أربعين يوما .

قالوا — وحدها في العرض مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد وما حاذها من مساقط النيل في البحر الرومي ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوما . ويكتنفها من مبدئها في العرض إلى منتهاها جبلان (أحدهما في الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر في الضفة الغربية منه ، والنيل منسرب فيما بينهما ؛ وهما أجردان غير شامخين ؛ يتقاربان جدا في وضعهما ؛ من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهي إلى الفسطاط ؛ ثم تتسع مسافة ما بينهما وتفرج قليلا ؛ يأخذ المقطم منها مشرقا والآخر مغربا على رواب في في مأخذيها وتعريج في مسلكيها ؛ فتتسع أرض مصر في الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ؛ وهناك تنقطع في عرضها الذي هو مسافة ما بين أوغلها في الجنوب وأوغلها في الغرب والشمال ...

وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذي هو مقر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها ولا فخامتها ؛ لكن أجمل مدائنها وأفخرها ؛ إما الجهة الشمالية من الفسطاط فالاسكندرية وتنيس ودمياط ؛ وإما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفت . فهذه صفة أرض مصر على الجملة .

وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يبتدىء بالتزيد في شهر أبيب ، الذي هو بالرومية يوليو ، والمصريون يقولون : « إذا دخل أبيب ، كان للماء ديب » وعند ابتدائه في التزيد ، تتغير جميع كفياته وتفسد ، والسبب اللوجب لذلك مروره بنقائع مياه أجنه يخالطها فيجتلها ، ويستخرجها معه ويستصحبها إلى غير ذلك مما يحتمل .

ثم ذكر أبو الصلت عدة نماذج في شعر نهر النيل ووصفه ، منها ما قاله أبو الحسن محمد بن الوزير في تدرج زيادة الماء أصعباً أصعباً ومنفعة ذلك التدرج .

أرى أبدأ كثيراً من قليل وبدراً في الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل قليل ماء بمصر مسبب لخليج مال

زيادة أصبع في فصل يوم زيادة أذرع في حسن حال

فإذا كان في الخامس عشر ذراعا وزاد من السادس عشر أصبعاً واحدة كسر الخليج

ولسكسره يوم معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع غاص ، يحضره العام والخاص . وإذا كسر فتحت الترع ، وهى فوهات الخليجان — ففاض الماء وساح ، وعم العيطان والبطاح وانضم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهى على أكام وربى لا ينتهى إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بجزراً غامراً لما بين جليلها المكتنفين لها وثبتت على هذه الحال ريثما يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الرب المعبود ، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعا ، ثم يأخذ عائداً إلى منصبه ، إلى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أولاء ما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متضامناً فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل قلعة كالبرد المسهم ، وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شئ منظرآ ، ولا سيما منزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة ، وبركة الحبش

وما جرى بحراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة وينتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس ، فى خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بمضنا :

لله يومى ببركة الحبش	والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب	كصارم فى عَيْن مرتمش
قد نسجتها يد النمام لنا	فنحن من نسجها على فرش
ونحن فى روضة مفوفة	ديج بالنور عطفها ووشى
فعاطنى الراح إن تاركها	من سورة الهم غير متمش
واسقى بالكبار مترعة	فهن أروى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجل	دعاه داعى الصبا فلم يطش

سكان أرض مصر :

وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفة الأصناف : من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وجبشان وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم ، وقالوا : إن السبب فى اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم ، اختلاط المالكين لها والمتغلبين عليها ، من العمالة واليونانيين والروم

والعرب وغيرهم ، فهذا اختلطت أنسابهم فاقصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والالتقاء إلى مساقطهم ومواقعهم .

وحكى جماعة من المؤرخين أنهم كانوا في الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل ، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصروا وبقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضهم وبقى بعض على دين النصرانية ، ومذهبهم مذهب اليعاقبة ،

وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهاك في اللذات والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات . وضعف المرائر والعزمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان^(١) في ذلك واقبصه وأورده من الأمور الطبيعية وموجبة وكفى به حكماً منصفاً وشاهداً عدلاً .

وحكى الوصفى في كتابه الذى ألفه في أخبار مصر أن أهلها في الزمن السابق كانوا يعتقدون أن هذا العالم ، الذى هو عالم الكون والفساد أقام برهة من الدهور خالياً من نوع الإنسان . عامراً بأنواع آخر غير الانسان ، وأن تلك الأنواع مختلفة على خلق فاذة وهيئات شاذة ، ثم حدث نوع الانسان فنازع تلك الأنواع فغلبها واستولى عليها ، وأفنى أكثرها قتلاً ، وشرذ مابقى منها إلى القفار ، وأن تلك للشردة هى الفيلان والسعالى وغير ذلك ، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة . وترهاتهم النافرة ، إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم ، خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم . ويدل على ذلك ماخلفوه من الأشغال البديعة المعجزة ، كالأهرام والبرابى ، فانها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة ، وتركت لها شغلاً بالتعجب منها ، والتفكر فيها .

وأى شئ أعجب وأغرب بعد مقدرات الله ومصنوعاته ، من القدرة على بناء جسم من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ؛ مخروط الشكل ؛ ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعاً ؛ يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ؛ طول كل ضلع منها أربعائة ذراع وستون ذراعاً ؛ وهو مع هذا العظم من أحكام الصنعة وإتقانها ؛ فى غاية من حسن التقدير بحيث لم يتأثر أبداً بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل ؛ وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى ؛ على ما شاهدناه منهما : وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله : —

أين الذى بنى الهرمان من بنيانه ما قومه ؛ ما يومه ؛ ما المصرع
كنا نظن دياره مملوءة ذهباً فمات وكل دار بلقع
تتخلف الآثار عن أربابها حينما ويدركها الحراب فتنتع

(١) هو الطبيب المصرى المشهور ، راجع الفصل الأول .

واتفق أن خرجنا يوماً إليهما ؛ فلما أطفنا بهما واستدنا حولهما أكثر تعجبنا منهما ؛ فقاطنا القول فيهما .

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام ؛ آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ؛ كما تميزوا عنهم في حياتهم وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور .

ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبيها ؛ فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد ؛ وعناء طويل ؛ فوجدوا داخله مهاوى ومراق يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ؛ ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعباً ، طول كل من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع ؛ وفي وسطه حوض رخام مطبق ؛ فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية ؛ قد أتت عليها العصور الخالية ؛ فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب مناسواه ويقال أن النفقة على نفيه كانت عظيمة والمؤونة شديدة .

ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضابقة متوازية ؛ من كتابة بانها ؛ لا تعرف اليوم أحرفها ، ولا تفهم معانيها وبالجملة الأمر فيها عجيب .

وكذلك أمر البرابي ؛ كبريا أخميم ؛ وبربا سمود ، وبربا دندره . فإن فيها من الإحكام وجودة الشبكل وحسن التصوير . ما يدل على أن عمارها ذوو عقول راجحة وأنه قد كانت لهم بالحكمة عناية بالغة . لاسيما بصناعة الهندسة والنجوم .

والملك بمصر من قديم الزمان بمدينة منف ؛ وهى فى غربى النيل ؛ على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط ولما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية منذ نحو ألف سنة وأربعمائة سنة وأربعين سنة ؛ رغب الناس فى عمارتها وكانت دار العلم ؛ ومقر الحكمة ؛ إلى أن تغلب عليها المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ؛ واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة (بالفسطاط) فانصرف أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكنها ؛ فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا .

فيقال أن من قدماء أهل العلم بها هرمس الثالث ؛ وكان فيلسوفا جوالا فى البلاد ؛ طوفا فى المدائن ؛ عالم بنصبتها ؛ وطوالها وطبائع أهلها ؛ وله تصانيف جليلة مفيدة فى فنون من الحكمة .

ومنهم ديوفنطس صاحب المقالات الموضوعة فى علم العدد وخواصه على طريق الجبر والمقابلة . ومنهم الاسكندراني صنف كتاب الأفلاك وكتاب القانون فى تقويم الكواكب . ومنهم روسم صاحب التصانيف فى الكيمياء ومنهم اقلادوس الاسكندري وأصحابه . الذين اختصروا كتب جالينوس فى صناعة الطب . وألفوها على طريقة المسألة والجواب .

ومنهم واليس صاحب الكتاب المعروف بالبريدج الرومى ، المصنف فى المواليذ وما يتقدمها من المدخل إلى علم أحكام النجوم ، ويقال أنه الذى استخرج بطول التحرى ومواصلة العناء ، جدود المصريين .

فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصرفي ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كل عالم وأحصى رسمه ، وجهل اسمه ، ولم يبق إلا رعاغ وغثاء وجهلة دشءاء ، وعامة عمياء ، وجلهم أهل رعاغة . ولهم خبرة في السكيد والمسكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه ، لما في أخلاقهم من الملق والسياسة التي أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ؛ حتى صار أمرهم في ذلك مشهوراً والمثل بهم مضروباً .

وأما حال المنتسبين إلى العلم منهم فأنا ذا كر منها ما وقفت عليه ؛ وكشفت بالحنة عنه ؛ كنت في أول جلوسى بها شديد العناية بكتب جالينوس وبقراط ؛ باحثاً عن مشاكلها ؛ فاحصاً عن مستغلقها ، غرست كل الحرص ، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من أستفيد منه وأستزيد بهذا كرتة ، وأندح خاطرى بمفاوضته ، فلم أجد غير نوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، وطمس أفهامهم وحال بين الحكمة وبينهم

ومن ظريف ماسمته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للارستان يستدعى للمرضى كما تستدعى الأطباء ، فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ، ويخرج لها وجوهاً مضحكة ؛ وكان مع ذلك لطيفاً في إضحاكه وبه خبيراً ، وعليه قديراً ، فإذا انشرح صدر المريض ، وعادت إليه قوته تركه وانصرف ، فان احتاج إلى معاودة المريض عادته إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله .

قلت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذى لامضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل هين ، وتفيه ظاهر بين ، كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة العريزية ، ويقوى القوى الطبيعية ، ويقوى البدن على دفع الأخلط الردية المؤذية والفضول ؛ مع الاستظهار بحفظ الأصول . وأكثر أطباء الميرزين . نصارى ويهود .

وليس فيها من النجمين إلا أبو الحسن على بن النضر المعروف بالأديب رضى الله عنه ، من أهل صعيد مصر الأعلى ، فإنه من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات هذا الزمان .

وأما الطائفة المقلدة التي حفظها من المعارف القشور دون اللبوب ، والظواهر دون البواطن ، والأشباح دون الأرواح ، فأمثل من بها منهم الآن رجل يعرف برزق الله النحاس ، فإن له في فروع هذه الصناعة بعض دربة وتجربة وتجرباتها بعض خبرة ، وهو أكبر النجمين بها وكبيرهم الذى علمهم . وأميرهم الذى يلوذون به ، فجميعهم إليه منسوب ، وفي جريدته مكتوب ، وبفضله مشرف ، ومن بحره مغترف ، وهو شيخ مطبوع يتطايب ويتخالع .

والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها وسكوناً إليها ، حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي

لا تخلص فنونها ولا تحصل أجزاءها وأنماؤها ، ولا تضبط جبهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تمد ضروبها إلا في طوابع يختارونها ونصب يستمدونها .

ولقد شهدت يوماً رجلاً من الوقادين في أتون الحمام ، يسأل رزق الله المذكور عن ساعة حميدة لقص أظفاره ، فتمجبت من سمو همته على خسارة قدره ووضاعة مهنته .

وأما الآن فإني ذاكر من لقيته من أدباؤها وظرفائها ، وفضلائها في الأدب وعلمائها .

وأولاهم بالتقديم ؛ وأحقهم بالخط الأوفر من التنظيم « القاضي أبو الحسن علي بن المستنصر » المعروف بالأديب ، ذو الأدب الجلم والعلم الواسع ؛ والفضل البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ؛ والرتبة الأولى . وقد كان ورد الفسطاط يلتبس من وزيرها للملقب بالأفضل تصرفاً وخدمة خفاب فيه أمله وضاع رجاؤه وأخفق سعيه . وله في سفرته هذه ، وقد قوى يأسه في بلوغ أمله ونيل بغيته ، وعزم على العبور عن الفسطاط إلى مستقره ، يحض على الزهادة ويحرض على القناعة ويذم الضراعة ويتأسف على إذالة خذه وإراقة ماء وجهه .

ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر بن اسماعيل بن محمد المعروف بابن مكسة ، وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف . مفتن في وثنى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه وجزله .

ومن شعراء المصريين في زماننا هذا أبو مشرف الدجرجاوى وهو منسوب إلى دجرجا ، وهي ضيعة بالصعيد الأعلى .

ومنهم محمود بن ناصر الاسكندري ، كاتب القاضي بن حديد ، وأبو نصر بن قاسم المعروف بالحداد ، من أهل الاسكندرية ، وأبو القاسم بن رشد المصرى .

آثار الفاطميين

١ - الأزهر

بعد ما وضع جوهر القائد أساس القاهرة شرع في بناء الأزهر في اليوم الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) ، وتم بناؤه وفتح للصلاة في يوم الجمعة السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونيو ٩٧٢) . والجامع الأزهر يعتبر أقدم أثر باق للعمارة الفاطمية في مصر . ويمكن القول أن بناء الجامع الأصلي كان يتكون من رواق ذي خمس بلاطات تسير من الشمال إلى الجنوب ، وكان على الجانبين عيناً وشمالاً ، رواقان من ثلاث بلاطات ، أما في الجهة المقابلة لحائط القبلة فكان بالرواق بلاطة واحدة ، ويتوسط رواق القبلة بلاطة رئيسية ، يسير من الصحن إلى القبلة وتقف البلاطات الخمس على جانبيه بمسافة قليلة . وشيدت قبة في الرواق الأول (من ناحية حائط القبلة) على يمين المحراب والمئبر .

وقد أدخل على بناء الأزهر زيادات كثيرة حتى أصبحت مساحته الآن حوالي ١٢ ألف متر مربع . وأول من زاد في بنائه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) .

وجده المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢٩ - ١٠٩٣) وسار على خطته حفيده المنصور أبو علي الأمر بأحكام الله . وإهتم بالجامع السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، فزاد في بنائه ، وأعاد إليه الخطبة التي كان قد أبطاها الأيوبيون .

وفي أعقاب الزلزال العنيف الذي خرب الأزهر (١٣٠٢ / ٣ م) ، قام الأمير سلار بتجديده وإعادة ما تهدم منه .

وفي سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ - ١٣١٠ م) بنى الأمير علاء الدين طبرس الخازنداري تقيب الجيوش المدرسة الطبرسية التي على عین الداخل من باب الزينين إلى الباب العمومي البحري للجامع المعروف الآن بباب قايتباي ، وبنى الأمير أقبغا عبد الواحد المدرسة الاقبغوية سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) .

وفي عام ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ / ٩٨ م) سقطت منارة الجامع ، فأعاد بناءها الظاهر أبو سعيد بقوق وأنفق عليها من ماله الخاص ، غير أن هذه المئذنة لم تدم طويلاً فقد سقطت في ٨١٧ هـ (١٤١٤ / ١٥ م) ثم في عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ / ٢٤ م) وكان يعاد إصلاحها في كل مرة ،

ويعتبر الملك الأشرف أبو النصر قايتباي (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) المصلح الكبير للأزهر ، فقد أحدث

تجديداً ظاهراً في الجامع ، فأنشأ الباب البحري للجامع سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ - ٦٩ م) وشيد المئذنة الرشيقة الباقية إلى اليوم على عيني الباب المذكور ، وتعدت أعماله إلى رواق المغاربة وتورة المياه وعمل السياج (الحُرط) الذي يفصل صحن الجامع عن الإيوان الشرقي الكبير ، وقيل أن رواق الأتراك ورواق الشوام من إنشائه أيضاً ، ولا يزال اسم قايتباي على أحد المحاريب وبعض الشبايك .

وهناك إصلاحات أخرى قام بها غير السلطان قايتباي في أيام المماليك الشراكسة . ففي سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) جدد الجامع السلطان الغوري ، فأنشأ به مئذنة ذات رأسين بجوار مئذنة قايتباي ، فجاءت أكثر مآذن الجامع ارتفاعاً وأبدعها شكلاً .

أما إصلاحات الجامع في العصر العثماني فتشتمل على ما يأتي : —

ففي سنة ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ / ٩٦ م) جدد الشريف محمد باشا والي مصر الازهر ورتب للطلبة والفقراء طعاماً يطبخ كل يوم ، وجدد الأمير اسماعيل القاسمي بن إيواظ (١٧٢٣ م) سقف الجامع وقد أشرف على السقوط وفي سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) أنشأ الأمير عثمان كتنخدا زاوية العميان وعمر رواق الأتراك ورواق السلمانية الأفغانين ، وزاد في رواق الشوام .

وفي سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) قام الأمير عبد الرحمن كتنخدا (١٧٧٦ م) بإصلاحات كبيرة فزاد في سعة الجامع بمقدار النصف تقريباً ، إذ شيد مقصورة وأحسن تأنيثها ، وأقام قبلة للصلاة ، ومنبراً للخطابة وعمل صهرنجاً للياه وشيد له قبراً دفن فيه ، وأنشأ باباً عظيماً وهو المشهور بباب الصعايدة وبني بأعلاه مكتباً له قناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام ، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهرنجاً عظيماً وسقاية ، وبني أمام مدفنه رواقاً لمجاري الصعايدة المنقطعين لطلب العلم ، وبني بجانب باب الصعايدة مئذنة . ثم أنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وهو المعروف بباب الشورية ، وجعل أيضاً عليه مئذنة . وقد جدد المدرسة الطيرسية وجعلها من المدرسة الأقباوية المقابلة لها من باب المزينين الكبير الذي أنشأه خارجها وهو مؤلف من بابين عظيمين كل باب بمصراعين وجعل على عيني مئذنة (أزيلت سنة ١٣١٥ هـ) وفوقه مكتب وبداخله ميضأة ، ووراء ذلك درج المنارة ورواق البغداديين والمنود . وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من المدرسة الطيرسية والأقباوية والأروقة من أجمل المباني وزاد في رواق الشوام ووقف عليه ، وجدد رواق المكين والتكرويين . الخ من أعمال الخير .

وحوالى عام ١٢١٠ هـ (١٧٩٥ م) بنى الوالى إبراهيم بك رواقاً للشراقة .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٦ م) بنى محمد على رواقاً للسنارية .

وفي ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) جدد السيد أبو بكر راتب رواق الحنيفية والمسكن العلوية لرواق الحنابلة . وفي السنة ذاتها أمر الحديوي إسماعيل بهدم وبناء باب الصعايدة والمكتب الذي يعلوه ، كما أنه أصلح المدرسة الأقباوية وأصلح العقود التي تلي باب الشوام .

وفي عام ١٢٩٦ هـ (١٧٧٨ / ٧٩ م) جدد الحديو توفيق نحو ثلاث المقصورة القديمة مما يلي باب الشوام ، وأصلحت المدرسة الاقبغاوية التي تحتوى على مكتبة الأزهر .

وفي سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ / ٩٣ م) جدد صحن الأزهر وما يحيط به من البوائك ودرزينات المقصورة القديمة ، وأصبح باب المزينين وطرقته والمدرسة الطيرسية والأقبغاوية ، وأنشئت دار الكسب الأزهرية في المدرستين المذكورتين في عام ١٨٩٦ / ٩٧^(١) .

ومن أهم ما يذكر لإدارة حفظ الآثار العربية التي تشرف على صيانة هذا الأثر الجليل ، أنها كشفت سنة ١٩٣٤ المحراب الأصلي للجامع وكان محتجياً خلف محراب من الخشب يظن أنه عمل في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فأصلحت الزخارف الجصية للمحراب القديم .

وللأزهر ثمانية أبواب : ففي الجانب الغربي الخارج إلى ميدان الأزهر بابان : باب المزينين والباب العباسي^(٢) وفي الباب الجنوبي باب المغاربة وباب الشوام وباب الصعايدة وفي الجانب الشمالي باب الجوهريّة ، وفي الجانب الشرقي باب الحرمين وباب الشوربة .

وتقوم فوق أسوار الأزهر وأبوابه خمس مآذن ، ثلاث من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع ، إحداها مثذنة الاقبغاوية ، عن يسار الداخل إلى الصحن واثنان عن يمين الداخل ، مثذنة قايتباي ومثذنة قانصوه الغورى ، والمثذنة الرابعة بجانب باب الصعايدة والمثذنة الخامسة بباب الشوربة ، وكلتا المنارتين الأخيرتين أنشأها الأمير عبد الرحمن كتحدا .

وحرّم الأزهر ينقسم إلى رواقين : —

- ١ — الرواق الكبير وهو القديم ويلي الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقة .
- ٢ — الرواق الجديد ويلي الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع ونصل إليه بدرجتين ، وسقف الرواقين من الخشب ، وترتكز الباكيات على عمود من الرخام وهى من طرز مختلفة . أما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتاف .

وكان بالأزهر سبع مزاوِل: أربع في صحنه وثلاث جهة رواق معمر، وكان للجامع عشرة محاريب أزيل منها أربعة ، ففي الرواق الجديد محرابان . وفي الرواق القديم محراب واحد ويعرف بالقبلة القديمة . وفي متحف الفنون الإسلامية ، المحراب الذى أنشأه الخليفة الأمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ولوح الخشب الذى كان يعلوه . وللجامع منبر من الخشب المخروط وهو حديث ، أما المنبر الأصلى القديم فقد نقل إلى جامع الحاكم^(٣) .

(١) راجع وصف الأزهر في تلك الفترة في الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١٤ — ٢٦

(٢) أحدثته وزارة الأوقاف في عهد الحديو عباس الثانى

(٣) في مصر الاسلامية . من بحث للأستاذ يوسف مهران ص ١٣٠

٣ - جامع الحاكم بأمر الله

بدأ بناء هذا الجامع بأمر من الخليفة العزيز بالله نزار ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر في رمضان ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، وقبل أن يكمل بناؤه صليت فيه الجمعة في ٣ رمضان ٣٨١ هـ (نوفمبر ٩٩١ م) ، ولما خلف الحاكم بأمر الله أباه العزيز ، أمر بإتمام بنائه (٢٩٣ هـ - ١٠٠٢ / ٣) ، وفي سنة ٤٠١ هـ (١١١٠ / ١١١٠ م) شيدت القاعدتان الهرميتان حول قاعدتي المئذنتين لتدعيمهما . وقد كمل بناء الجامع وفرش ، وصليت فيه الجمعة في الخامس من رمضان سنة ٤٠٣ هـ (٢٠ مارس ١٠١٣ م) .

وحينما شيد هذا الجامع كان يضم صحناً مكشوفاً يحيط به أروقة مستقوفة ، وفي ناحية المحراب خمسة أروقة تسير عقودها في موازاة جدار القبلة ، وفي كل من الجانبين ثلاثة أروقة تتجه عقودها عمودية على ذلك الجدار ، وفي الجهة البحرية رواقان تسير عقودهما في موازاة حائط المحراب .

ويتجلى جمال الزخارف الفاطمية وروعة الكتابة الكوفية في الإزار الجصّي تحت السقف وفي بدنق المئذنتين ، وفيما بقي من الشبايك الصغيرة برقة القبة التي تعلو المحراب ، ومع هذا كله فإنه أول جامع بمصر والقاهرة بنى بابه المعموم بارزاً عن الوجهة التي هو بها^(١)

وللجامع تسعة أبواب ، خمسة منها في الوجهة ، واثنان في الجدار الشرقي ، وواحد في كل من الجدارين الغربي والقبلي ، أما النوافذ فقد ضاع معظمها ولم يبق منها إلا اثنان في جدار القبلة على يسار المحراب .

وجامع الحاكم سجل مبادئ يضم عناصر زخرفية كثيرة ، لاسيما زخارف المئذنتين ، فقد تفنن الصانع في ابتداء العناصر الزخرفية ، فمن الخط المستقيم ، أخرجوا الميقات والمخمسات والسدسات والنجوم المتعددة الأشكال ، ومن الخط المنحني ابتدعوا أشكالاً تنطق بمحذقهم^(٢)

ولعل أهم الإصلاحات التي عملت بالجامع هي التي قام بها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف (١٨٠٨ م) ، فقد جدد أربعة أروقة بالإيوان الشرقي وجعلها مسجداً للصلاة ، ثم كسا القبلة بالرخام ، ووضع بجوارها منبراً ، غير أن الجامع ما لبث أن تخرب ، فلم يبق منه إلا بعض عقود بالإيوانين القبلي والشرقي .

ولقد بذلت إدارة الآثار مجهوداً عظيماً في إصلاح هذا الجامع وصيانة بعض أجزائه وكشفت محرابه القديم وأعدت بناء القبة القبلية وكشفت وجهته الغربية وإظهار قاعدة المئذنة القبلية والكتابات حول قاعدتها وإصلاح مدخله المعموم وإظهار زخارفه وكتاباته . .

(١) محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية ص ٦١

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ص ٧٨

٣ - مسجد الجيوشى

يقع هذا المسجد الصغير على حافة جبل المقطم خلف قلعة الجبل ، أمر ببنائه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وهو يشتمل على مقبرة . وكان أول مسجد بنى بالحجر بالقاهرة ، مشيد على شكل مستطيل مساحته ١٨ × ١٥ متراً ، وذلك بعد حذف الإضافة الخارجية ، يقع مدخله فى منتصف وجهته الشمالية الغربية ، وبأسفل المئذنة ويؤدى إلى ردهة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، ويقع إلى جانبها الأيسر حجرة مربعة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى تحتوى على خزان ماء ، وعلى الجانب الأيمن ، حجرة أخرى مربعة مفتوحة وبها سلم يؤدى إلى سقف الجامع .

تؤدى الردهة إلى محن المسجد بواسطة قبو آخر مدبب ومساحة الصحن ٦٤٥ — ٥٦٠ متراً ، وعلى كل من جانبيه غرفة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، وعلى الضلع الجنوبي الشرقى للصحن توجد جهة إيوان القبلة ، ذات الثلاثة العقود يؤدى العقد المتوسط إلى ردهة أخرى طويلة ذات عقد متقاطع ، تنتهى بعقد ثلاثى آخر . يؤدى إلى القبة التى توجد أمام المهراب . والتى يكتنفها من كل جانبها إيوان معقود بعقد متقاطع .

ومحراب المسجد يبلغ ارتفاعه ٣١٥ متراً . يشتمل على زخرفة جصية جميلة ، ويزين القبة من أسفلها شريط من الكتابة الكوفية المزخرفة يسير حول رأس المربع المقامة عليه القبة . وتقوم المئذنة فى منتصف الضلع الشمالى . ويبلغ ارتفاعها ٢٠ متراً وتتركب من قاعدة مربعة . تنتهى بعقرنص يعاوه مربع آخر ، فثمن يحمل قبة .

٤ - مسجد الصالح طلائع

يقع هذا المسجد على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر بقصبة رضوان ، أنشأه الصالح طلائع بن رزبك (٤٩٥ — ٥٥٦ هـ) وزير الفائز بنصر الله الخليفة الفاطمى . فكان آخر جامع أنشئ فى عهد الدولة الفاطمية وأجلها ولا سيما من ناحية تصميم وجهته الغربية .

يحيط بصحنه أواوين مرتبة على نسق أواوين المسجد الأقمر ، فيتكون إيوان القبلة من ثلاثة أروقة ، ويتكون كل من الأواوين الثلاثة الأخرى من رواق واحد فقط ، وعقود هذه الأروقة محمولة على عمد من الرخام . والمسجد أربع وجهات مبنية بالحجر أهمها كما قلنا الوجهة الغربية ، وبوسطها المدخل الرئيسى وقد اقيم أمامه رواق محمول على أربعة عمد رخامية وحليت عقوده بزخارف جميلة ، وقد حلى صدر هذا الرواق وجانباه بزخارف على شكل مروحة ، ونقشت بأفاريزه آيات قرآنية كتبت بالكوفية المزهرة .

أما المنبر الموجود بالجامع فقد صنع بأمر الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) وكان قد جدد
مئذنته عقب سقوط مئذنته الأصلية بسبب زلزال ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ - ١٣٠٣ م) .

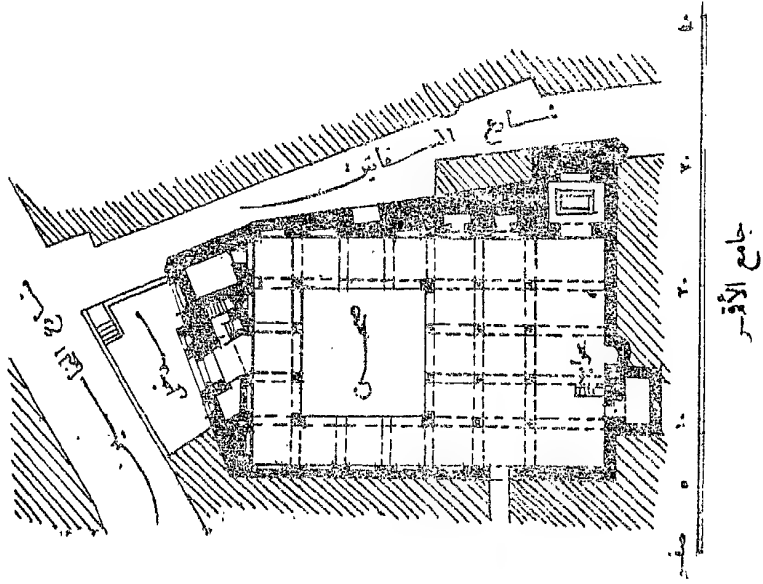
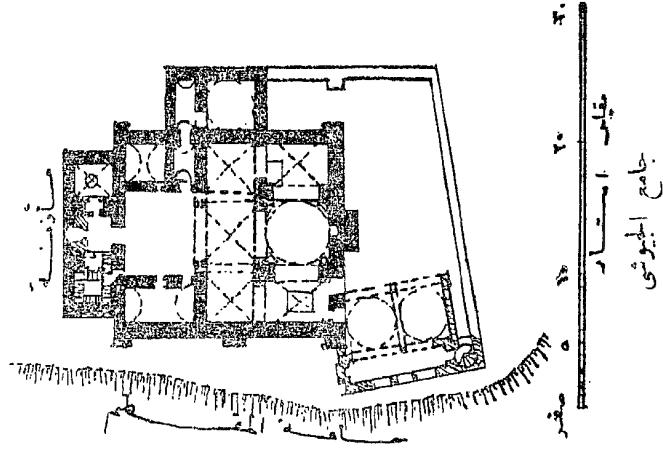
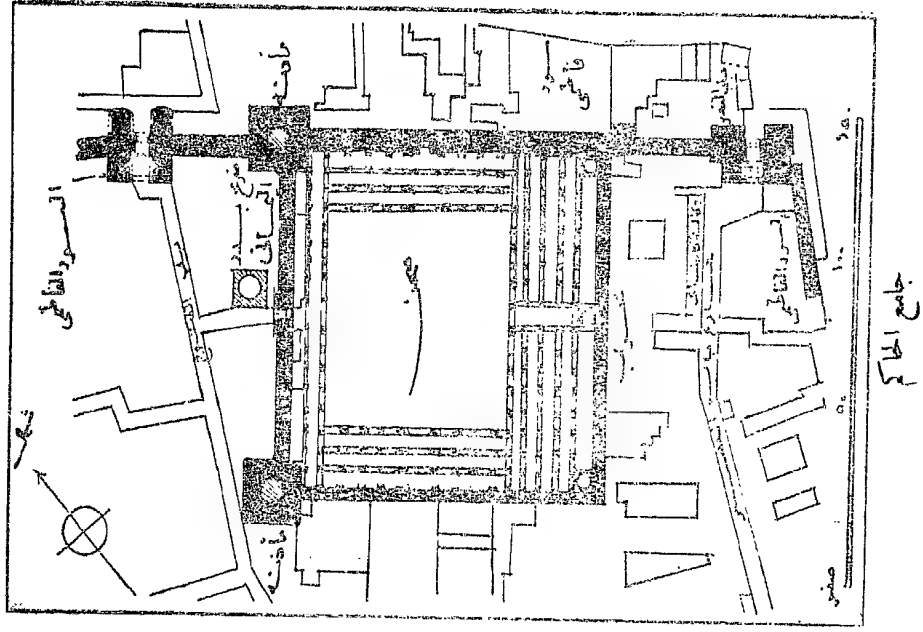
وقد حفظ المسجد كيانه حتى عام ٨٨٢ هـ (١٤٧٧) ، وأخذ يخرب تدريجاً حتى لم يبق منه عام ١٩٢٠
سوى إيوانه الشرقي ، ومن ثم عنت إدارة حفظ الآثار العربية بتجديده ، فأعادت بناء الإيوانات الثلاثة
الغربية والبحرية والقبليّة ، وأصلحت المنبر والشبابيك الجصية ؛ وتحفظت على الكثير من زخارفه وكتاباته
النادرة بالإيوان الشرقي . . ويمكن القول بأنها أعادته إلى سابق عهده .

٥ - جامع الأقر بالنحاسين

مسجد صغير لكنه نجمة فنية نادرة ! يحيط بمحله من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ثلاثة منها في ناحية
القبلة، ورواق واحد في كل من الجهات الثلاثة الأخرى . ووجهات هذه الأروقة مكونة من ثلاث عقود
متصلة، يحملها في الزوايا الأربع للصحن دعائم أربعة ؛ وبين الدعائم في كل ناحية عمودان، أما العقود فهي من
النوع المحذب المعروف بالمقد الفارسي .

أنشأه الخليفة الأمر بأحكام الله أبو علي المنصور سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) وهذا الجامع من مفاخر
العمائر الفاطمية ؛ وتعتبر وجهته الغربية وحيدة في طرازها بما احتوت عليه من القوش والكتابات الكوفية .

وقد جدد هذا الجامع برفوق سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) ، ثم عنت بإصلاحه إدارة حفظ الآثار ، فقامت
عمده وعقوده، كما أنها تحفظت على زخارفه وكتاباته الجميلة ...



الفصل الثالث

القاهرة في أيام الأيوبيين

من ١١٦٩ إلى ١٢٥٠

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر مدينة تتميز عن ذلك المقر الملكي الفاطمي ، وأضحت تشغل مساحة أوسع ، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات طابع هندسي مستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم . وقد كان الفضل في هذه الإنجازات لصالح الدين ، غير أنه لم يعش ليراها تم أثناء حكمه . ولكي نبث بالتفصيل الأسباب التي أدت إلى فتح مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرد الفرنجة بفضل جيوش نور الدين ملك دمشق ، علينا أن نستعين بالتاريخ .

إننا أمام قوتين متعادلتين : الأولى الملكة اللاتينية في بيت المقدس ، والثانية الدولة السلجوقية في دمشق . والاثنان في كفتي ميزان متعادلتين ، فلا تستطيع إحداها أن تقهر الأخرى . وكانت مصر مفتاح الموقف ، فلو استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على وادي النيل لكانت السيادة لها .

وكان من الطبيعي أن تتحالف الدولتان المسلمتان في دمشق والقاهرة لقهر الفرنجة ، لولا اختلاف المذهب الذي بينهما . فقد كانت الأولى سنية والثانية شيعية . ولم تجدد المفاوضات السياسية بينهما نقماً حتى وصلت الجيوش الصليبية إلى الأراضي المصرية ودخلت القاهرة ، وإذ ذلك تغلبت على نور الدين روح التقوى الدينية فتدخل في الأمر . وكان بدء التدخل نتيجة للنزاع الذي نشأ بين الوزيرين المتنافسين في مصر ، فقام أحدهما وهو ضرغام وطرد منافسه شاور الذي استنجد بنور الدين . وفي الوقت نفسه رأى ضرغام أن يتحد مع ملك بيت المقدس « عموري » وكان هذا قد جمع جموعه واستولى على الأراضي المصرية مطالباً بالجزية التي اعترف بها الفاطميون في أثناء ضعفهم .

وفي عام ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ عاد « شاور » يصحبه جيش سوري يقوده « شيركوه » ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، فهزم ضرغام في بليس ، وسارت الجنود الظافرة إلى القاهرة حيث أراد ضرغام أن يصد هجوم شيركوه ، ولكن هذا وشاور كانا قد استوليا بجنودهما على مصر ، وقد كان ضرغام عريياً بأسلا ، له منزلة سامية عند مواطنيه وحارب الصليبيين في غزة وكان قائداً لفرقة البرقية ، إحدى فرق الجيش الفاطمي . وقد أضع كل أموال الوقف لقضاء مآربه السياسية والعسكرية ، فأنقض من حوله أعرانه وتخلّى عنه الخليفة وكانت آخره ضرغام على يد شعب القاهرة إذ ثار عليه فقطع رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة (وفي رواية أخرى بالقرب من باب زويلة) ، وتم النصر لشاور منافسه ، بينما تركت جثة ضرغام تنهشها الكلاب .

على أن شاور لم يكذب يتخلص من منافسه حتى بدأ يحبك مؤامرة للتخلص من اليهود التي اتفق عليها مع شيركوه ومن معه ، فأرسل إلى عمورى ملك بيت المقدس يطلب منه المساعدة لطرد السوريين . وكان هذا لا يستطيع رفض ذلك الطلب ، إذ كان يتطلع إلى امتلاك مصر ، فلما بلغته دعوة شاور اقتنصها فرصة وأيقن من ضم المصريين إليه .

وتطاحن الجيشان بالقرب من بلبس ثم انتهى الأمر بالصلح ، على أن تخرج الجيوش الصليبية و جيوش شيركوه من مصر . وكان خروج جيش شيركوه من بلبس في أكتوبر سنة ١١٦٤ م — ٥٥٩ هـ يشبه النصر . وكانت هذه الإغارة الصغيرة من جانب شيركوه ونور الدين فاتحة لاحتلال مصر فيما بعد .

عادت الجنود السلجوقية إلى دمشق بعد أن لسوا مواطن الضعف في الحكم الفاطمي ، وهون قواد الحملة السورية لنور الدين أمر فتح مصر وإعادة تأسيس سلطنتهم وبينوا له أهميتها ، وكان السلطان على حذر من تنفيذ مآربه ، ولكنه لما رأى الدسائس دائرة بين عمورى وشاور جهز في الحال حملته الثانية على مصر .

ولما علم نور الدين أن الصليبيين ينوون غزو مصر جهز حملته التي وصلت إلى شرق النيل عند أطمح في أوائل سنة ١١٦٧ م — ٥٦٢ هـ وعبرت إلى البر الغربي من هناك ، وكان جيش عمورى قد وصل وانضم إلى جيش شاور .

وبعد حين كان أحد الجيشين عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج ، والآخر وهو الجيش السوري عند الجزيرة في البر الغربي . واستولى عمورى على القاهرة وأمضى معاهدة مع الخليفة العاضد الذي أقسم على إعطاء الفرنج مائتي ألف دينار عاجلاً ومثلها آجلاً ثمنا لمساعدتهم .

أما « شيركوه » فتقهقر إلى مصر العليا حتى بلغ « البابين » في جنوب النيا ، وهناك حطم الجيش المصري وهزم جيش الفرنج ، ولم يجرؤ « شيركوه » على اللحاق بأعدائه لقلّة عدد جنوده . فلما انتهى من معارك الصعيد أرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية فتبنت مدة طويلة أمام جنوده وأخيراً وقعت في يده بعد ٧٥ يوماً .

إنتهت الحرب ، وعادت الجيوش إلى سوريا وفلسطين وترك الفرنج مقبلاً لهم في القاهرة ، وأبقوا منهم حراساً على أبواب القاهرة وضربوا جزية نحو مائة ألف دينار كل عام ، وتركوا حامية منهم في مسجد الحاكم ثم رحلوا عن مصر وقد عرفوا مواطن الضعف فيها . فلما عادوا إليها بعد نحو سنة من إمضاء المعاهدة كانوا قد وطدوا العزم نهائياً على ضمها إلى أملاكهم .

ولم يلبث المصريون أن عرفوا نيتهم فالتفت جماعة منهم حول الخليفة العاضد وأكثروا من أعداء شاور ، وأرسلوا إلى نور الدين ليأتي لمساعدة المصريين على أعدائهم ، وكان ينتظر هذه الفرصة ، فأخذ يعي جيشاً لغزو مصر للمرة الثالثة .

وصل شيركوه وصلاح الدين إلى مصر في أوائل يناير سنة ١١٦٩ م — ٥٦٤ هـ ، وكان عمورى ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفاً يستنجز شاور وعده في المال المتفق عليه . فلما وصل جيش نور الدين ورأى عمورى موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الإسلامى الغير من جهة أخرى ، لم يستطع البقاء وتحلى في الحال عن البلاد المصرية عائداً إلى فلسطين . أما «شاور» فحاول استالة «شيركوه» بالملق والمداينة فلم يفلح ، وقبض عليه صلاح الدين ثم أمر الخليفة العاضد بقتله وطلب رأسه ، فأطبع أمر الخليفة وتحلعت مصر من رجل داهية لعب دوراً عظيماً في السياسة المصرية في القرن الثانى عشر .

واختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور ، القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيراً محله ولقبه الملك المنصور وجعله أميراً لجيوشه ، غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام ، فعمد الخليفة إلى اختيار صلاح الدين ليحل محله في الوزارة فتقلدها في عام ١١٦٩ م .

صلاح الدين الأيوبي

أصبح صلاح الدين وزيراً لمصر وأميراً لجيوشها ولقب بالملك الناصر . كان صلاح الدين في منصبه الجديد هذا وزيراً للخليفة الشيعى ، وفي الوقت نفسه كان والياً من قبل ملك دمشق السنى ، ولذلك كان موقفه حرجاً ومبهماً ؛ ومع هذا استطاع أن يعضى عامين موقفاً في منصبه ، وكأنه كان على علم تام بأن الدولة الفاطمية آيلة إلى الزوال .

واتفق أن مرض العاضد واحتجب في قصره ، فرأى صلاح الدين الفرصة سانحة لإلغاء الخطبة العلوية بمصر وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجل أعجمى عرف بالأمير العالم ، فلم يحدث استنكار من الناس ، فأمر صلاح الدين الخطباء جميعاً بأن بلغوا خطبة العاضد ، ففعلوا وتم الانقلاب بدون حادث ولم يعلم العاضد بذلك الانقلاب لاشتداد وطأة مرضه حتى توفى يوم عاشوراء . ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه حفظه « بهاء الدين قراقوش » وكان قد عينه وزيراً قبل موت العاضد ، ثم ألقى القبض على جميع من بقى من الأسرى الفاطمية واعتقلهم في مكان بعيد عن قصورهم الزاهرة التى وزعها على أمراء جنده وباع ممالك العاضد وعبيده وفرق بعضها بين أرباب دولته — ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة وقد بلغت مجموعتها ١٢٠٠٠ كتاباً نفيساً ومنحها لمستشاره العالم القاضى الفاضل . ويقال أن قسماً من هذه المكتبة محفوظ الآن في مكتبة ليدن بهولندا .

قضى صلاح الدين معظم حياته في خارج مصر . ومن الأربع والعشرين سنة ، وهى فترة حكمه ، حاكماً مستقلاً — يدخل فيها الخمس سنوات الأولى التى خضع فى أثناءها لنفوذ نور الدين — لم يقض منها سوى ثمانية

أعوام في القاهرة . أما بقية سنى مجده . فإننا نجده منتقلا فيها في الشام وأرض الجزيرة وفلسطين . ولما ترك صلاح الدين القاهرة في ١١ مايو عام ١١٨٢ م / ٥٧٨ هـ واجتمع كبار رجال دولته لوداعه وقف الجميع بالقرب من بركة الحبش وعزفت الموسيقى دور الوداع الأخير . وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الصفوف كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم غرار نحمد لما بعد العشية من غرار

فتشاءم صلاح الدين واغتم المجلس وقد صدق ذلك الفأل ، فلم يعد صلاح الدين وغزا أرض الفرات وضم إلى دولته سلطنة دمشق بعد موت نور الدين وانتصر انتصاره الحالد في معركة حطين ، وقد ضرب الصليبيين وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين والمسيحيين ، وأخضع البلاد المقدسة لكلمته واستمر نضاله الطويل ضد الاتحاد المسيحي الأوربي حول عكا وغيرها ، واشتهر اسمه وعرفته أفواه ملايين الناس في أوروبا منافسا قويا لريتشارد « قلب الأسد » . وأخيرا بعد هجومه النهائي على يافا وارتماده بالفشل تم صلح الرملة ونص فيه على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا إلى يافا ؛ وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس ؛ وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من بدايته إلى الجنوب لصلاح الدين .

ومات صلاح الدين في (٢٧ صفر سنة ٥٨٩ / ٤ مارس سنة ١١٩٣ م ودفن في دمشق تاركا دولة إسلامية واحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة إلى برقة ، بينما كان الأفرنج محصورين على الساحل في رقعة ضيقة بين عكا ويافا .

إمتداد القاهرة

على الرغم من قصر الفترة التي قضاها صلاح الدين في القاهرة ، لم يترك واحد من حكامها مثل ما خلفه هذا السلطان العظيم من آثار لا تزال باقية ؛ فله وحده تدين عاصمة البلاد بشكائها واتساع نطاقها إلى درجة لا تقل كثيرا عما هي عليه الآن ؛ وأهم تلك المظاهر التي خلفها قلعة الجبل التي كانت من ابتداعه ؛ وهو الذي أدخل إلى مصر التصميم المعمارى المعروف (بالمدرسة) وقد أحدث الكثير من هذه التغييرات في أثناء وجوده في القاهرة ، ونفذ معظمها قواده ورجال دولته وأفراد أسرته الذين كان ينتدبهم للقيام بتلك المشروعات الكبيرة ، بينما كان يجاهد في سبيل الاسلام والسلم . وكانت معظم مشروعاته أعمالا دفاعية لحماية البلاد بينما تؤدي من ناحية أخرى الأغراض الدينية . وكانت القلعة من المجموعة الأولى وكذلك سور القاهرة الجديد والسد العظيم .

واكتفى الحكام المصريين الذين سبقوا صلاح الدين ببناء ضاحية أو مقر ملكي يعد ميلا أو أكثر إلى جهة الشمال بشرق . ومدينة القاهرة الفاطمية وضعت في الأصل لتكون دار الخلافة وقصراً للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، وسكن صلاح الدين القاهرة ، فوجدها خاوية فأباح للعسكريين وكل من استطاع

البناء أن يعمر ماشاء في القاهرة بما خلا من فسطاط مصر ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمرها بها المنازل في القاهرة وسكنوها ، فسكنها أصحاب السلطان . وهكذا رأينا صلاح الدين ، الرجل الذى جعل من القاهرة عاصمة للبلاد . وأقام في دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان يتردد عليها ، وكذلك فعل ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر ، فلما كان الملك الكامل ناصراً الدين بن أيوب تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها .

رأينا أن صلاح الدين لم ينسج على منوال من سبقوه في الحكم وأقام ضاحية ملكيه على مثال « القطائع » أو « فرساي » بل عمل شيئاً جديداً ، فقد رأى أن يضم تلك الضواحي ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم . وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها « شاور » تحاول النهوض من رمادها وبقاياها لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها . كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحي المبعثرة ضمن الضواحي الحربية ، ويضم إليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها . وقرر أن يكون بناء السور من الحجر وأن يمد سور بدر الجبالى إلى المقس من ناحية الغرب وإلى تلال المقطم من ناحية الجنوب ، ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يمس النيل تقريباً .

ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بحملاته العسكرية في الشام ، ولا نشك مطلقاً أن وزيره في القاهرة كان مشغولاً عنه أيضاً بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدير المال اللازم لتجهيزهم ، فلم يقدّم إلا ببناء ما احتاجت إليه الدولة . ومن المحتمل أيضاً أنه أعاد النظر في فكرته أو لمح إليه أحد رجال الدولة بعدم فائدة تشييد سور يضم مدينة مخربة كحصر . فيوفر للدولة تلك التكاليف الباهظة التى تقضيها عدة أميال من الأسوار الحجرية المتينة البناء .

السد العظيم

كان من أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجزيرة ويبعد عن مصر سبعة أميال . وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم لا يقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده ، وقد قال عنه أنه يحتوى على أربعين عقداً من أكبر الأحجام التى شاهدها للقطار ذات المقود، وكان على امتداد الجسر المرتفع المقابل لمصر بعد ستة أميال منه . ولاشك أن بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكري هام ففكر فيه صلاح الدين ، فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين للتوالية على مصر من ناحية الصحراء اللبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيرا حتى يصلوا إلى شاطئ النيل بدون أن يقف في سبيلهم ما يعرقلهم من الحصون أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بإقامة هذا السد العظيم ، ويذكر ابن جبير أيضاً أن صلاح الدين خشي هجوما يقوم به الموحدون بعد أن أخضعوا لسلطانهم المغرب وجنوب الأندلس واستولوا على الجزائر وطرابلس في عام ١١٥٨ ، حتى وصلت سطوتهم إلى حدود مصر من الناحية الغربية بزعامة القائد عبدالمؤمن ، فاحتاط صلاح الدين لما قد يحدث من جانبهم .

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقحة لأسوار بدر الجمالي ، أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على إقامتها بنضه الشديد لخلقاء الفاطميين الشيعة ولقصورهم التي سكنوها ، فقد لانشك إذا قلنا أن صلاح الدين على الرغم من قصر مدة إقامته في القاهرة رغب في أن يجعل القلعة مقراً لسكانه . ولكي نفسير كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع ، نعود إلى حملات صلاح الدين في سوريا حيث لا تحلو مدينة سورية من قلعتها . فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فتتمت مشيئته .

وهنا ننقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها ، فقال : إن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم » .

اختار السلطان صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التي تحمى القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدماً ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلا تحمى موقع القلعة وتشرف عليها بنيرانها فإننا لانتسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة ، والنتيجة لا تجعلنا نبخس المهندسين العسكريين في القرن الثانى عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة في فن المعمار ، فان عملهم لا يزال واضحاً للعيان في القرن العشرين .

وأمر صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة في عام ١١٧٧ وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى الخصى أحد أمراءه المخلصين .

ولم يتقضى على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الجدار الغربى من القلعة ما نقرأه إلى يومنا هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحرسة القاهرة التي جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك صلاح الدنيا والدين أبو الظفر يوسف ابن أيوب محي دولة أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله المالكى الناصرى في سنة تسعة وسبعين وخمسمائة » . (أى في عام ١١٨٣ - ١١٨٤ م) .

ولكى يشيد صلاح الدين القلعة هدم عددا كبيرا من الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة وبني به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ما وجدته

في موقع البناء من المساجد وأزال القبور . وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار الأسرى الفرنج الذين أسرم صلاح الدين في معاركه — ولقد زار السائح الأندلسي ابن جبير القاهرة في عام ١١٨٣ فشهد الأعمال يقوم بها الأسرى الفرنج وكان عددهم وفيرا جدا .

مات صلاح الدين قبل أن ينتهى بناء القلعة فأهمل العمل مدة ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ - ولقد طرأت على مبانيها تغييرات وإضافات متعددة ، ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب .

لقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش في القلعة جعل القاهرة تنمو ونموا جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال بينها وبين القسطنطينية والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء المدارس الجديدة بالقرب من قبة الإمام الشافعي وجامع عمرو بن العاص . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك في هذا الاتجاه ، ولكل هذا ازدهر العمران بالقاهرة الأيوبية وأنشئت في الأحياء الجديدة ، الدور العالية والحمامات الشعبية والأسواق العامة وخانات الصوفية ...

سور القاهرة

ابتدأ صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ، وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله ، وفي عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م انتدب بهاء الدين قراقوش الأسدي لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً ، فزاد في سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ، ومن قلعة المقس في نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يعد السور من القس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد في سور القاهرة الجزء الذى يلي باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قامة الجبل ، فانقطع لوفاة صلاح الدين^(١) من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة .

وقد ذكر القرينى أن طول السور المحيط في أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعاً (بذراع الممسل) وهو الذراع الهاشمي .

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م في بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى في محاذة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى انشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس (وكان يعرف بـ باب عالماجين) .

ثم رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويحده إلى الغرب ثم ينفى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج ، وذلك لكي يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ، ولكي ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة .

وفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م شرع بهاء الدين قراقوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالمقس وأتمه فعلا ، وأراد أن ينفى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك .

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقي منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية :

أولا : أن القطعة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى إلى باب القنطرة فى محاذة الخليج هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها إلى وتتنا هذا إلا قطعة طولها ١٢٠ مترا وكانت ممتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذة حارة المسطاحى ، ولما فتح شارع الأمير فاروق (شارع الجيش) فى سنة ١٩٣٠ هدمت هذه القطعة ودخلت أرضها فى امتداد الشارع المذكور ولم يبق منها إلا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار وحافظت إدارة حفظ الآثار العربية على هذا الجزء للإرشاد إلى موقع السور القديم .

ثانياً : أن السور البحرى الذى كان ممتدا بين باب الشعرية - الذى يعرف الآن بـ باب المدوى - وبين باب البحر الذى يعرف الآن بـ باب الحديد بميدان باب الحديد كان قائماً إلى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ - وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال قائمة بلصق المساكن ومبينة على خريطة القاهرة الحالية ، مقطعة من الشرق إلى الغرب إلى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسكة الفجالة وشارع الفجالة ، ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشمبكي والطلبة ، ومن الشرق بميدان المدوى وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعرية ويليه إلى جهة الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور .

ثالثاً : السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عليه فى السور الثانى ، وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما هو مشاهد إلى اليوم فى السور البحرى .

ولما فتح شارع الجيش (الأمير فاروق سابقا) في سنة ١٩٣٠ أخذ في طريقه جزءاً صغيراً وبذلك أصبح السور ينتهي من الغرب بشارع الأمير فاروق على رأس شارع درب البازة ، وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة المشرقة على شارع الجيش لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش ما يفيد هدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور في سنة ١٩٣٠ .

وابتدأ السور البحرى في أيام صلاح الدين إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ، ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور لبرج الظفر .

رابعاً : أما السور الشرقى لمدينة القاهرة فلا يزال يوجد منه بعض أجزاء قائمة إلى اليوم ، منها الجزء الذى يمتد من برج الظفر يتجه جنوباً بطول ٤٠٠ متر وبنائه متخرب تولى إدارة حفظ الآثار العربية ترميمه وإصلاحه ، وفى هذا الجزء يقع الباب الجديد ، أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومن السور المذكور الجزء الذى يبدأ من برج درب المحروق ويسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ متراً إلى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقى ومعظم أجزاء السور سليمة إلى اليوم ، ويتصل هذا السور في نهايته الجنوبية بسور القلعة .

وأما الباقي من السور الشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر فإنه لما تكلم المقرئ عن السور الثالث (ج ١ ص ٣٧٩) قال إن صلاح الدين لم يتهيا له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر ، ولكن لما تكلم على أبواب القنطرة الواقعة جنوبى مدينة مصر (ج ١ ص ٣٤٧) قال أن صلاح الدين مد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة الواقعة جنوبى مدينة مصر ، وهذا دليل على بناء السور في المسافة المذكورة .

وباب القنطرة هذا هو غير باب القنطرة الذى يسمى خطأ باسم باب الشرية بالقاهرة .

ولما كان صلاح الدين قد اهتم بصفة خاصة ببناء السور الشرقى للقاهرة من برج الظفر إلى القلعة كما اهتم أيضاً ببناء سور مدينة مصر فإنى أرجح رأى الذى ذكره المقرئ فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة أى إلى مدينة مصر ، يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التى كان يجرى من فوقها الماء في المسافة من باب القنطرة إلى سور مدينة مصر وكانت هذه الحائط قبل ذلك من سور القاهرة ، ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء من النيل إلى قلعة الجبل .

ويتضح مما ذكر أن كماله السور الشرقى للقاهرة في المسافة ما بين الجبل وسور مدينة مصر لا يزال يوجد من آثاره حائط الحجرى (العيون) القائمة إلى اليوم من باب القنطرة بالقاهرة إلى نقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة إلى مصر القديمة عند الزاوية القبلية الشرقية في جبانة السيدة نفيسة الجديدة .

ويرى القارىء مما ذكرناه نقلاً عن القلقشندي أنه قال : أن السور الذى أنشأه صلاح الدين ما بين

باب البحر والكوم الأحمر برأس منشأة المهراني التي عند فم الخليج قد سقط . وبالمبحث تبين لنا أن هذا السور كان صلاح الدين عازماً على إقامته على شاطئ النيل غرب القاهرة من ميدان باب الحديد إلى فم الخليج المصري ولكنه لم ينشأ بدليل ما ذكره المقرئى وهو أن صلاح الدين زاد في سور القاهرة القطعة التي من باب الشعرية إلى باب البحر وبين قلعة المقس في نهاية السور البحرى على النيل بجانب المقس وانقطع السور من هنالك ، وكان أماله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر القائمة من جهة فم الخليج ولكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه الله .

أبواب القاهرة الصلاحية

ونتقل إلى الكلام على الأبواب التي شيدت في عصر صلاح الدين الأيوبي بالترتيب التالي :

(أ) أبواب السور الغربى من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) :

١ — باب القنطرة الثانى ويقع على الحافة الشرقية للخليج وعرف بهذا الاسم لوقوعه تجاه القنطرة التي كان القائد جوهر الصقلى قد شيدها على الخليج الكبير في سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م . (الخطط المقرئية ج ٢ ص ١٤٧) .

٢ — باب الخوخة وقد شيد في مواجهة باب الخوخة الفاطمية ، ولا تعرف الظروف التي اختفى فيها هذا الباب ، وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذي يعرف اليوم بمجمع القاضى يحيى زين الدين .

٣ — باب سعادة وقد عرف باب سعادة الأول (الفاطمي) لنسبته إلى أحد قادة المعز لدين الله الفاطمي سعاد بن حيان .

(ب) أبواب السور الشمالى (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) :

١ — باب البحر وكان يعرف بباب المقس لوقوعه في قرية المقس التي كان يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركباً عليه بوابة من الحديد ، ونسب إليه ميدان باب الحديد ، وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالى عام ١٨٤٧ .

٢ — باب الشعرية وكان يقع بين باب البحر والخليج الكبير في السور الشمالى وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط المقرئية ج ١ ص ٣٨٣) ، وقد رسم هذا الباب على خريطة القاهرة التي وضعها جران بك مدير التنظيم في عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشعرية التي تعرف اليوم بسوق

الجراية ؛ وقد أزيل هذا الباب في عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وقد عرف في القرن الماضي باسم باب العدوى لوقوعه تجاه جامع العدوى .

(ح) أبواب السور الشرقى (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ — الباب الجديد هو أحد أبواب السور الشرقى الصلاحى وقد عرف بهذا الاسم لأنه كان أول باب أنشئ في سور القاهرة من ناحيته الشمالية بعد باب النصر وله بدتان كبيرتان ، وقد كشفه الأستاذ كريزويل الأثرى المعروف .

٢ — باب البرقية وقد ذكره المقرئى (ج ١ ص ٣٨٠) كما تكلم عنه القلقشندى (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٤) وقد بقى مدة طويلة مخفياً تحت الأنقاض حتى اكتشفه المرحوم على بهجت مدير دار الآثار العربية ولا يزال هذا الباب موجوداً بأكمله ومحتفظاً بشكله الأسمى من الأساس إلى الشرفات ، وقد نسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمى ، وقد عرف أيضاً بباب الغريب .

٣ — الباب المحروق وقد بقى منه برجاء ، ذكره المقرئى (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندى (ج ٣ ص ٣٥٤) وقد عرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق المواشى والغنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط وهو البرسيم .

(ذ) أبواب السور الجنوبى للقاهرة (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) .

١ — باب الفرج الثانى ولا يعلم متى خرب .

(هـ) أبواب سور القسطنطين (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ — باب القرافة وقد سبق الكلام عنه وما زالت بعض أجزائه باقية .

٢ — باب الصفاء وقد خربه الظاهر بيبرس .

٣ — باب القسطنطين وما زالت بعض مداميك أبراجه الجانبية باقية .

* * *

لقد زخرت القاهرة في أيام الأيوبيين نتيجة لانتقال مقر الحكومة إلى القلعة وامتداد أسوارها إلى الغرب والجنوب بالدور الضخمة والمنازل الرحيمة والأسواق والحوانق ، وكان غالب مبانيها بالآجر وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مشيدة بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، وقد جرى تبييض جدرانها بالكلس الناصع البياض ، ورغب الناس في تلمية مساكنهم فارتفعت بعض الدور إلى طبقتين وأربع طبقات كاملة يرافقها . وقد وصف البغدادى الذى زار القاهرة زمن الأيوبيين ما جرى من النشاط في البناء

ووصف مظاهر العناية ببناء المراحيض بالدور وإحكام قنوانها حتى إذا تخربت الدار ظلت القناة قائمة ، وحرص أرباب الدور على أن يعموا في حفر المرحاض حتى يصل إلى المساء الجوفي فلا يحتاج إلى الكسح . وقد أشاد البغدادى أيضا في وصف حمامات القاهرة ، فقال إنه لم يشاهد فيما زاره من البلاد أتقن منها وصفاً ، ولا أتم إحكاماً ولا أحسن منظراً . وكان من واجبات محتسب القاهرة الإشراف على الحمامات العامة فيلزم القائمين عليها بغسلها وكنسها وتنظيفها وذلك بلاطها ، ويلزمهم أيضاً بأشغال البخور فيها كل يوم مرتين .

وقد نقل ابن جبير إلينا صورة اجتماعية حية لقاهرة صلاح الدين ، مما سنقرأه في وصفه ومدى عناية السلطان بالفقراء والغرباء الوافدين إلى القاهرة من سوريا ، والغرب ، واهتمامه برجال الصوفية الذين خصهم بالحنافاة الصلاحية التي عرفت في زمن الناطميين بدارسعيد السعداء ، ورتب لهم الطعام كما قدم للمرضى منهم العلاج ، وقد قال ابن جبير عن رجال الصوفية في مصر أنهم هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خاطرهم — لعبادته — من الفكر في أسباب المعاش وأسكنهم في قصور تذكركم قصور الجنان وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجبية^(١)

المدارس الأيوبية في القاهرة

تولى صلاح الدين العرش ؛ ولم تكن في مصر سوى مدرسة بالاسكندرية شيدها الوزير ابن السلاسل بالاسكندرية في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١ م لتدريس الفقه على المذهب السني ، وكان يقوم على التعليم فيها الحافظ السلفي أحد أئمة الفقه والحديث ، وقد أدركه صلاح الدين وكان يذهب إليه بأولاده لسماعه ، ولذلك رأى السلطان بثاقب فكره أن ينشر التعليم الديني السني للقضاء على مذهب الشيعة ، ولذلك نراه ينشئ المدارس الواحدة في أعقاب الأخرى في خطة منظمة مرسومة . وكان أول ما بدأ به تشييده مدرستين على عهد العاضد ، أولاهما مدرسة للشافعية بناها بجوار جامع عمرو بن العاص لتدريس الفقه الشافعي في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م وقد عرفت بأسماء كثيرة ، المدرسة الناصرية والمدرسة الشريفة ومدرسة ابن زين النجار الدمشقي أحد أعيان الشافعية ، وقيل إنه كان من أول من درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات في عام ٥٩١هـ / ١١٩٥ م .

والمدرسة الثانية ، مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو وذلك في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م ، وعرفت باسم دار الغزل التي هدمها صلاح الدين وعرفت بالمدرسة القمحية ، ثم وقف عليها تيسارية الوراقين وضعة بالفيوم اشتهرت بنتاج القمح ولذلك نسبت إليه ، ورتب فيها أربعة من المدرسين يشرف كل واحد منهم على عدة طلاب ؛ وكانت أجل مدرسة للفقهاء المالكية .

وبعد وفاة العاضد ، وانتقال السلطة إلى صلاح الدين ، مضى الرجل العظيم في تشييد المدارس ، فبنى

مدرسة للفقهاء الحنفية ، أطلق عليها اسم المدرسة السيوفية ، شيدت ، إذ ذاك بدار الوزير الفاطمي المعروف باسم عباس العبيدي ، وهو ابن أحد الأمراء الفاطميين ، وقد خربت تلك المدرسة ، وحل محلها الآن جامع الشيخ مظهر بشارع المعز لدين الله على يسار الداخل إلى شارع المعز لدين الله من شارع السكة الجديدة .

وشيد صلاح الدين مدرسة الشافعية بجوار تربة الإمام الشافعي وقد حل محلها بعد هدمها في عهد الأمير عبد الرحمن كتخذها مسجد الإمام الشافعي ، وقد قال الإمام السيوطي على تلك المدرسة :

« ينبغي أن يقال لها تاج المدارس ، وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق ، اشرفها بجوار الإمام الشافعي ، بناها صلاح الدين في سنة ٥٧٢ هـ - ١١٧٦ / ٧٧ م . فلما كانت سنة ٦٨١ هـ - ١٢٨٢ م ولي التدريس بها قاضي القضاة تقي الدين محمد بن رزين الحموي ، وكان العالم الكبير نجم الدين ^(١) الخبوشاني ممن درسوا بها فترة طويلة .

وشيد صلاح الدين المدرسة الصلاحية ، أنشأها للشافعية بجوار المشهد الحسيني ، ولم يبق منها شيء الآن ، وقد أصبح موقعها ضمن جامع الحسين في إيوان الشرق عند المحراب الحالي للجامع .

تلك هي خمس مدارس بناها صلاح الدين في مصر رغم اشتغاله المتواصل في الحروب الكثيرة ضد الغزاة الصليبيين ، ويضاف إليها ما شيده منها بدمشق وبالقُدس . ولقد ذكر ابن خلكان عدد المدارس التي بناها السلطان وقال :

« ولقد فكّرت في نفسي في أمور هذا الرجل ، وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة ، فإنه فعل في الدنيا هذه الأعمال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ، ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس شيء منها منسوباً إليه في الظاهر ، فإن المدرسة التي بالقرافة ما يسمونها إلا بالشافعية ، والمجاورة للمشهد الحسيني لا يقولون إلا المشهد ، والخاصة لا يقولون إلا سعيد السعداء ، والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا السيوفية ، والتي بمصر الفسطاط ، لا يقولون إلا مدرسة زين التجار ، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية ، وهذه صدقة السر على الحقيقة » .

هكذا رأينا أن إنشاء المدارس يرجع إلى صلاح الدين كما يعود إلى أحفاده أيضاً ، ذلك التحويل الذي أحدثه في فن عمارة القاهرة . فإلى عصره كانت الجوامع كلها ذات تخطيط هندسي واحد ، والغرض منها تجمع المسلمين لصلاة الجمعة وسماع خطبتها ، وكان إيوان المحراب أهم أجزاء الجامع وهو الجزء المسقوف منه حيث يصلي المصلون . وعند الازدحام في مناسبة الأعياد كانت الجماهير تستخدم صحن الجامع المكشوف لصلواتهم

(١) لما قدم الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في عام ١١٨٣ ، قصد هذا الشيخ الجليل وزاره في مسكنه وكانت شهرته قد وصلت إلى الأندلس .

وكان الأساتذة يستخدمون البوائك التي تحيط بالصحن لإلقاء تلاميذهم على تلامذتهم ، كما كانت ملجأ للفقراء والسائلين ، فترى أنها لم تكن من أجزاء الجامع الرئيسية المستعملة للعبد . ولما زار ابن جبير مصر كان في القاهرة أربعة جوامع من هذا الطراز ، وهي : الأزهر ، الحاكم ، وابن طولون ، وعمرو ، يضاف إليها جامع الصالح طلائع ، وجامع الأقمر ، ولعدم العناية بهما آل مصيرهما إلى الخراب بعد وفاة مئسهما حتى جددتا في الأعوام الأخيرة .

فلما تقل صلاح الدين نظام المدرسة كما رآه في الشام ، أصبحت القاهرة مركزاً في عالم الشرق لأوابد الآثار الفنية الإسلامية . وحسبنا أن نذكر مدارس الممالك : السلطان حسن وبرقوق والناصر ابن قلاوون الخ . فنجدتها تختلف اختلافاً بيناً من حيث نظام المساجد التي كانت موجودة ، وبخاصة من الناحية المعمارية وهي لم تسند على الأغراض الدينية كالساجد الأخرى ولسكنها جمعت بين الصلاة والعلم وأخذت طريقتها وشكلها من الناحية المعمارية .

فبدلاً من الصحن العريض المكشوف في وسط الجامع حيث يجتمع المصلون ، أنشئ مربع صغير وكان في أغلب الأحيان مسقوفاً بالخشب ، وأقيمت في وسطه قبة أو منور — وبدلاً من البوائك المحيطة بالمقود رأينا في أركان الجامع أربعة أجنحة مستقلة أو قاعات كبيرة ذات سقف واحد من الأحجار المعقودة ، وأحد هذه الأجنحة والذي يواجه الشرق هو الذي يتكون منه إيوان الصلاة ، وكان أكبر من الثلاثة الأخرى وفيه المحراب ومنصة الخطابة ودكة القراءة ، وكان كل جناح من هذه الأجنحة الأربعة لمذهب من المذاهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية ، وفي كل منها اجتمع طلبة كل مذهب يتلقون على علماء الدين قواعد المذاهب الإسلامية ، وفي غالب الأحيان كان الأساتذة والطلبة يسكنون في هذه المدارس في أماكن خصصت لهذا الغرض ، كما وجدت أيضاً قاعات للمكتبة وأخرى للدراسة .

وقد امتد نشاط بناء المدارس الدينية إلى أبناء صلاح الدين وأمرائه ، فشيد القاضي الفاضل سنة ١١٨٤ المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وأنشأ السلطان العادل المدرسة العادلية ، كما أقام تقي الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو التقوية للشافعية بجنوبي القسطنطينية ، وقد أقام مدرستين أخرتين بالفيوم ، هذا إلى المدارس الكبرى التي سنتكلم عنها كالسكلمية والصالحية .

وعلى هذا النحو زاد عدد المدارس زمن الأيوبيين زيادة ملحوظة ، ففي شارع بين القصرين بالقاهرة كان على جانبيه مدارس في موضع القصر الفاطمي ، وبلغ عدد المدارس بالقاهرة وحدها حوالي سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٣ / ١٢٠٤م ثلاث عشرة مدرسة ، ثم تضاعف هذا العدد في زمن المماليك ، لاسيما في أخميم وقوص وإسنا وأسيوط وأسوان وبليس والمحلة ودمهور ورشيد .

عود إلى الأحداث

رأينا كيف جعل صلاح الدين مدينة القاهرة عاصمةً جديدةً بدولة عظيمة ، وحصنها بأعماله الدفاعية وعيشاته الدينية فزعمت ثقافة العالم الإسلامي . ولا بأس من أن نذكر شيئاً عن أخيه العادل سيف الدين الذى تولى العرش عام ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م بعد وفاة الملك العزيز يوسف ، ثم الملك المنصور . فقد خدم العادل أخاه صلاح الدين بإخلاص مدة ربع قرن ثم تولى أمور الامبراطورية الأيوبية التى حاول أقاربه المديدون تقسيمها ، واتفق مع الفرنجة على الصلح بشرط التنازل لهم عن ثغرين فى فلسطين وانسحابهم من مصر ، نكثهم لم يقطعوا عن محاربتة فى سوريا ؛ ومع كل هذه الممارك التى خسرها لم تقل شيئاً من هيئته .

لكن لسوء حظ العادل لم تنقذه درايته من النكبة التى حلت بمصر فى السنة التالية من حكمه ، فقد ابتليت مصر بانخفاض النيل والطاعون والمجاعة فى عامين متوالين ، وقد وصف حوادث السنتين الرحالة عبد اللطيف البغدادي^(١) وكان يزور مصر فى ذلك الحين لحضور الدروس فى الأزهر فقال : « يش الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وانحطت البلاد وشعر أهلها بالبلاء وهاجروا من خشية الجوع وتحول أهل القرى إلى أمهات البلاد واشتد بهم الجوع وأصيب كثيرون جداً بالموت وأكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم قعدوا على ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم ، فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فإمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل ، من ذلك أن رأيت صغيراً مشوياً فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنها أبواه فأمر بإحراقهما ؛ ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفروا بها وهى تحمل طفلاً مشوياً تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ويقبلون على شئونهم ؛ ولم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ، ورأيت قبل ذلك يومين صبيّاً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان قاما بقتله وشبهه وأكل بعضه .

« وأحرق بمصر فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقرر أنها أكلت جماعة فرأيت امرأة قد أحضرت إلى الوالى وفى عنقها طفل مشوى فضربت أكثر من مائتى سوط على أن تقرر فلا تحير جواباً بل نجدها قد خرجت عن الطباع البشرية ثم ماتت » .

« وكنت ترى أينما سرت جثث الموتى ملقاة فى الطرقات أو البيوت بدون دفن ، وانتشر الطاعون ، وكان متوسط عدد موته فى الاسكندرية لا يقل عن سبعةة نفس يومياً ، وكنت تشاهد الذئاب والضباع والنسور

(١) صاحب كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر . وضعه مؤلفه حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد ، وهو يصف أحوال مصر فى القرون الوسطى .

تقوم حول الجثث وتلتهمها على مرأى من المارة في المدينة وخارجها وفي طرق القوافل ، فلما نقص عدد السكان انخفض إيجار البيوت إلى سبع ثمنها الأصلي .

وجاء « جون دى بريان » على رأس جيش كبير من الصليبيين ، وعسكروا تجاه فرع دمياط العربي وظلوا في مناوشاتهم مع المصريين ثلاث سنوات (١٢١٨ - ١٢٢١ م) ومن حسن حظ العادل أنه مات في بدء غارتهم خلفه ابنه الملك الكامل (٦١٦ - ٦٣٥ هـ - ١٢١٨ - ١٢٣٧ م) فقاوم الصليبيين مدة وكانوا في ذلك الوقت قد شددوا الحصار على دمياط برآ وبحراً ، وكانت سنة شديدة الوطأة على المسلمين . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدناوها فلما اتصل ذلك بالسلطان الكامل رحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل أمام طلخا ليمتع الصليبيين من التقدم داخل القطر . أما الفرنجة فخصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وواصلوا سيرهم إلى المنصورة في نحو مائتي ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس ، فأمر الكامل بأن ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر أنحاء القطر ، فاجتمع أناس لا يقع لمددهم حصر وأتته النجيدات من الشام يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل والملك المعظم عيسى ؛ فتلقاهم الملك الكامل وأزلهم بالمنصورة وتتابع بحجى الملوك حتى بلغ عدد جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاصروا الصليبيين برآ وبحرآ حتى تضعفت قواتهم ففاوضوا الملك الكامل في الصلح ليخرجهم من بلاده ، وعرض عليهم مناطق كبيرة في فلسطين ، وبعد مفاوضات طويلة قبلوا الانسحاب من مصر بدون مقابل ، فسار الصليبيون إلى دمياط وسلموا إلى المسلمين في ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ م ، ودخل الملك الكامل دمياط بإخوته وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها يوم احتفال عظيم ، ثم قصد المنصورة حيث عاش ليلة كانت من أحسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد لقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت في ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة في الجبل ، وإليه يرجع الفضل في إتمام بنائها وأنشأ بها الدور السلطانية .

وأهم أعماله العظيمة دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين في سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م . وهي ثاني دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى داراً للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق ، وكان أول من تولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسين ، ثم أخوه عمر وما برحت في يده أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وكان الكامل يحضر مناقشات العلماء في أسيات أيام الثلاثاء .

ولم يبق من دار الحديث الكاملية اليوم سوى بقايا الإيوان العربي وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالخط الكوفي إلى متحف الفن الاسلامي ، ويرى بعض علماء الآثار أنها أقدم نموذج لطراز تخطيطها لمدرسة ذات الإيوانين .

وبعد وفاة الملك الكامل أعلن ابنه الملك العادل الثاني سلطاناً على مصر ، ولم يكن يتجاوز الثانية عشرة ؛ وقد كرهه الأمراء لصغر سنه ، ولا نغماه في الفجور وتبديده أموال الدولة بمشاركه رفقاء سوء . ومنازعات

هذا السلطان كثيرة لا تتسع لها صفحات الكتاب ، ويمكن القول بأن انحلال الدولة الأيوبية بدأ في أيامه ، واتهم الصالح نجم الدين أيوب شقيقه وابن الكامل الفرصة واستطاع عن طريق تدبير المؤامرات والدسائس أن يعمل لحساب نفسه ويضم الناصر يوسف أمير حلب إلى جانبه وكان هذا أصر على عدم الاعتراف بسلطان مصر العادل الثاني ، وبدلاً عن ذلك وثق علاقته بالسلطان السلجوقي كيخسرو .

وكان الصالح أيوب قد غادر حصن كيفا إلى ابنه توران شاه وانتقل إلى دمشق في ١٢٣٨ وعمل على إحداث الشقاق والفرقة في جيش أخيه العادل الثاني ، فانضم إليه عدد كبير من الأمراء المصريين . وفي أعقاب عدة أحداث في سوريا ومصر ، خلع العادل الثاني وتولى الصالح أيوب الحكم ، وتعرض منذ ذلك الحين لمناورات خطيرة ، وفي سبيل توطيد مركزه قام الصالح بتطهير الجيش من العناصر المتمردة وأحل مكانها طائفة من المماليك الترك الموالين له ، ومع ذلك فإنه لم يطمئن على حياته ، وعزم على ألا يقيم بالقلعة واختار جزيرة الروضة لتكون مقراً له . وفي ٢٠ فبراير سنة ١٢٤١ شرع الصالح في بناء قلعة بالروضة ، فنزع ممتلكات السكان القيمين بها ، وأمر بتدمير كل ما بها من الدور والمساكن ، ثم شيد له بها قصرًا وأحاطه بسور ، ثم انتقل السلطان بحريمه ومماليكه بعد الفراغ من البناء ، فأقاموا بهذه الدور الجديدة التي تكلف بناؤها أموالاً طائلة ،

وبالرغم من الانقسام الشديد بين أمراء سوريا ومصر ، فقد توج السلطان أعماله بأن أعطى الصليبيين درساً قاسياً ، فهاجم الجيش المصري طبرية واستولى عليها ، وخرب ما أقامه الصليبيون بها من حصون ، ثم احتل عسقلان ودمر أسوارها (١٢٤٧) . ولما فرغ السلطان كان يمانى مرضاً خطيراً في حنجرته ، تطلب نقله في محفة إلى القاهرة ، ومع ذلك فإنه لم ينس أن يأمر بإعدام شقيقه العادل الثاني في سجنه (١) .

وصلت حملة لويس التاسع إلى دمياط (يونيو ١٢٤٩) وكان المرض قد اشتد على الصالح ، فلم يستطع أن يقود الجيش ، فعهد بالقيادة إلى وزيره غفر الدين وطلب إليه الإسراع إلى دمياط كما يحول دون نزول الصليبيين إلى البر ، واتخذ الصالح مقر قيادته في أشتون طناح شرق فرع دمياط .

بدأ نزول الصليبيين إلى الشاطئ في ٥ يونيو ١٢٤٩ ، فنشبت معركة حامية على شاطئ البحر لمنعهم من النزول إلى البر على الضفة الغربية من النهر ، غير أن غفر الدين انسحب بجنوده واجتاز جسراً من السفن إلى دمياط ، ولم يلبث أن قرر الرحيل منها بعد أن تبين له أن الأحوال ساءت في دمياط ، وهجر السكان المدينة وتلاهم بعض أفراد الجيش من بني كنانة بعد أن أشعلوا النار في الأسواق ، غير أنهم لم يدمروا الجسر الذي يصل بين صفى النيل ، ولم يلبث أن ملكها الصليبيون ، بعد أن تبين لهم خلوها من المقاومة . وهنا

(١) السيد الباز العريفي : مصر في عصر الأيوبيين ، من مجموعة الألف كتاب ، ص ١٣٨ ، مطبعة السكيلاني . القاهرة .

فزع المسلمون لسقوط دمياط وقرر الصالح أن ينتقل إلى موضع بالقرب من النصورة ، على أن المرض قد اشتد به ويئس رئيس الأطباء من شفائه ، ولم يلبث أن قضى نحبه بالنصورة (٢٣ نوفمبر ١٢٤٩) .

* * *

لما مات الملك الصالح تواطأت إحدى جواريه (وبعضهم يقول زوجته) واسمها شجرة الدر مع أحد الأمراء ورئيس الحصان على مبايعة ابنها ، وكتمت أمر موت زوجها ووقفت في جمهور الأمراء والأعيان قائلة « إن السلطان يأمركم أن تباعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الأمير نغر الدين اتابكا لإدارة الأحكام » فبايعه جميع الأمراء وأدارت هي دفة الحكومة وأشرفت على تنظيم الجيش وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام وساسة البلاد بكفاءة عجبية .

وكان الصليبيون يتقدمون قاصدين المنصورة فلما بلغوها حاربوها محاربة قوية ، واستمر القتال بين الفريقين مدة طويلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين بقيادة الأمير نغر الدين ، لولا ممالك الملك الصالح فأنهم دافعوا دفاعا شديدا ، وانهت المعركة بتقهقر الصليبيين فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم غربي فارسكور ، فاستلحموهم وأمنحوهم قتلا ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار رجال جيشه ، كان هذا نصر المنصورة العظيم ضد الغزاة .

وتسكنت شجرة الدر من أن تقبض على زمام الأحكام بتواطئها مع « عز الدين أيك » وكان من أعظم الأمراء والممالك وأقواهم نفوذا . وبهذا التواطؤ لعبت بعصمة الدين أم خليل في ١٠ صفر ٦٤٨ هـ - ولو أن خليل هذا كان ميتا - ونقشت اسمها على النقود « المستعصمة الصالحة ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين ، وعينت عز الدين أتابكا لتدبير المملكة وأخذت تقرب إلى أرباب الدولة ووجهائها ولكن مساعيها لم تأت بفائدة . وأنفذ السوريون إلى الخليفة العباسي من يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب إليهم يقول : « من بغداد لأمرأ مصر : أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال لا يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

ولما استمسك بممالك مصر بهذه الفتوى عصوا شجرة الدر ونشأ خصام بين ممالك سوريا وممالك مصر آل إلى وقائع حربية ، تمكن في اثناهما عز الدين أيك من الاستقلال عن صديقه وأكره الأمراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . ثم بويع عز الدين أيك على مصر في سنة ٦٤٧ هـ ولقب بالملك المعز الجانشين التركماني الصالحى ، وتزوج بشجرة الدر ولم يكن يدرى أن شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد ، فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يحسر على مقاومتها ، وفي الواقع كانت هي المدبرة الحقيقية لشئون الدولة وأخيرا اشتعلت حسدا لما علمت أن زوجها يسعى للتزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل ، وخافت أن تحل هذه الزوجة الثانية محلها فوافقت على الكيدية بعد أن تزوج الأميرة .

وفي ذات يوم ضايقته فزل من القلعة وهو غاضب ، فبعثت تلطف به حتى عاد إلى القلعة فلاقته ، وقامت إليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضرمت له السوء ، فندبت له خمسة من الخدم الحصيان الروم وقالت لهم « إذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع إلى القلعة اصططح مع شجرة الدر وتراضيا ، ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه أولئك الخدم وبأيديهم السيوف فقام أيبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فأغلظ لها بعض الخدم في القول وقال لها « إن تركناه فلإبقى عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقا ولم تجسر شجرة الدر على مزاوله الحكم بنفسها خوفا من الإيقاع بها فعرضته زمام الأحكام على أميرين فأبيا . وتولى من بعده ابنه نور الدين وكانت سنه ١٥ عاما . وأقام « أيبك » في خلال حكمه بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة عظيمة دعاها المدرسة المعزية نسبة إليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصا للنفقة عليها ، وكان أعدل من قام من ملوك الممالك بقلعة الجبل .

أما المنصور فكان أول عمل أقدم عليه أن قبض على قاتلة أبيه بعد ثلاثة أيام من توليه وعهد بها إلى نساء بيته فأما توها في البرج الأحمر بالقلعة ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق بالقلعة ، وكان ذلك على مرأى من « ضرتهما » فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي في قبته ، أما المنصور نور الدين فلم يحكم إلا مدة سنتين وفي أيامه هجم « هولوكو » الترى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب عاصمته . فلما رأى رجال الدولة هذه الحال بحثوا عن رجل حازم يولوه أمورهم فعزلوا نور الدين وولوا مكانه سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر ، ولما تولى السلطنة لقب بالملك المظفر ، ثم بدأ حكم الممالك البحرية .

المجتمع العلمى فى أيام الأيوبيين

أهم ما نلاحظه فى ذلك العهد ، ازدهار الصوفية ، وفى طليعة شعرائها — العارف بالله عمر بن على ابن مرشد ، المحوى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاة — بن الفارض^(١) (١١٨٩ هـ — ١٢٣٥ م) وقد مات فى الثالثة والخمسين من عمره وورى التراب فى سفح المقطم ، وظل شعره — ولا يزال — مرويا يتغنى به محدثو الصوفية ، بل وتوافر على دراسته طائفة من كبار المستشرقين أمثال ، فون هامر ، ودماتيو ، ونالينو ، ونيكلسون الذى ترجم الكثير من قصائده إلى الإنجليزية ، وقصيدته الثائية الكبرى تعبر عن صوفية ابن الفارض ومطلما :

نعم بالصبا قلبى صبا لأحبتى فإجبذا ذاك الشذى حين هبت
سرت فأسرت للفؤاد غذية أحاديث جبران العذيب فسرت^(٢)

(١) وفیات الأعيان لابن خلكان . ج ١ ص ٤٨٣ . شذرات الذهب ج ٢ ص ٧٤١ .

(٢) ديوان ابن الفارض — مطبعة حجازى بالقاهرة . ص ١٦ — ٢٣ .

فيها زهاء سبعمائة وخمسين بيتاً ، وهي ليست من العيون الفريدة في الأدب العربي فحسب ، ولكنها ذات شأن عظيم في دراسة التصوف الإسلامي .

ويصور ابن الفارض في قصيده ما يصوره شعراء الصوفية من حب الله وعشق الخالق في حالات قد يكون فيها توفيق — لا ما يقولونه من « تجلى » أو غيره من التعابير — ويكفي قصيده قيمة أنه يكشف لنا الكثير من غوامض معتقدات الصوفية في ذلك العصر .

ومن كان لهم شأن عظيم من شعراء مصر محمد بن سعيد البوصيري المتوفى نحو عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وبالرغم من استناد شهرة هذا الشاعر إلى قصيدة واحدة فإنه قد بذل أفرانه^(١) . فمما لا نزاع فيه أن قصيدته بردة المديح المباركة (١٥٩ بيتاً) هي أصلح أنموذج للقصيد الديني — الأمر الذي جعلها مادة للترجمة لعدة لغات ، ووضعت على هامشها طائفة من التعليقات . ولعل الأبيات التالية التي تأتي في مطلعها تنم عن الروح الدينية المنبعثة في النفوس وما زالت أبياتها تنشد في الجنازات وتكتب في التعاويذ حتى اليوم :

أمن تذكر جيران بذي سلم	مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة	وأومض البرق في الظلماء من أضمر
فما لعينيك إن قلت أكفها همتا	وما لقلبك إن قلت استغنى بهم
أحسب الصب أن الحب منكم	ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل	ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت	به عليك عدول الدمع والسقم

* * *

وتوفي عطاء الله الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية ، الذي ولد في مراکش غالية حياته في مصر حيث أدر كته النية في عام ١٢٥٨ م . وفي طلبعة شعراء الصوفية المصريين «ابن وفا»^(٢) الذي استهل حياته في القاهرة (عام ١٢٥٧ م) . كما يتسنى أن نذكر في هذا السياق أيضاً مؤلفاً صوفياً هو الشعرائي أو الشعراوى

(١) كان من تلاميذ أبي العباس المرسى في التصوف . راجت قصائده رواجاً كبيراً بين الشعب وخاصة البردة والهمزية لأنهما تتفقان ومشاعر الجمهور وميله إلى الابتهال وتجاوبان مطالب نفسه .

(٢) هو العلامة العارف بالله محمد بن أحمد بن محمد بن النجم محمد فتح الدين أبو الفتح الاسكندري الأصل القاهري المولد المالكي الشاذلي . ولد تقريباً في سنة ٧٩٠ هـ بالقاهرة ومات بالروضة ٨٥٢ هـ — الضوء اللامع

الذى ولد في قلقشندة - قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة من أعمال المنوفية واليه انتسب^(١) . وما ينبغي ذكره أن مؤلفاته تربو على الخمسين ، بعضها في تاريخ حياة بعض كبار الصوفية .

وقد بلغ الصوفية أوج عزهم في مصر أيام صلاح الدين الأيوبي وخلفائه ، كما يشهد بذلك العدد الوفير من البيوت التي شيدت لهم والتي تعرف باسم الخوانك . وعلى رأسها الخانكاه الصلاحية التي فتحها صلاح الدين للمفكر الصوفية الذين جاءوا من مختلف البلاد ، ورتب الأوقاف للائتمان عليهم (خطط القرينى ج ٢ ص ٤١٥ وما بعدها) .

وفضلا عن هذا ، فقد لاح في سماء الشهرة نفر من كبار كتاب الرسائل ونقر غير قليل من الشعراء الذين ما فتأ الناس يعجبون بدواوينهم . نذكر من بينهم البهاء زهير المتوفى في عام ١٢٥٨ والذي نشرت مجموعة من قصائده مع ترجمة إنجليزية لها بقلم هـ . بالمر المستشرق الكبير في سنة ١٨٧٦^(٢) .

ونذكر من شعراء مصر سراج الدين الوراق (١٢١٨ - ١٢٩٦) وهو شاعر مكثر ملاء شعره كثيراً من الكتب التي تعرض للنماذج الشعرية ، وقد عمل في الديوان المصري .

(١) هو الإمام العلامة عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصارى - دخل القاهرة سنة ٩٥١ هـ وتوفي بها سنة ٩٧٣ هـ ودفن بزوايته المعروفة بين السورين - راجع كتاب الشعراني للدكتور توفيق الطويل - وشذرات الذهب ج ٤ ص ٨٠٩ - طبقات الشافعية للشرقاوى - ومعلمة الاسلام ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٢) الوزير الشاعر صاحب زهير بن المهلبى المولود بوادى نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٥٦ هـ ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الإمام الشافعى . راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، وفي المنهل الصافى ج ٣ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٨ .

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

١ - ابن جبير (١١٨٣)

كان ابن جبير الرحالة المغربي واحداً ممن وصفوا لنا الإسكندرية والقاهرة ومدنا أخرى على أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد ترك لنا وصفاً شيقاً ومتمماً لمجتمعات تلك المدن وعلمائها ومساجدها ومدارسها.

ولد ابن جبير في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ودرس على أبيه وغيره من علماء الدين في سبته وغرناطة ، ثم دخل في خدمة أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة . وقيل أن هذا الأمير استدعاه يوماً ليؤلف فيه كتاباً وهو في مجلس شرابه ، وحدث أن دفع إليه كأساً من النبيذ ، فاعتذر ابن جبير بأنه ما شرب الخمر قط ، فقال الأمير : والله لثمرين منها سبعا ، فلم يستطع إلا الإذعان وكافأه الأمير بأن قدم إليه القدح سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير وصب ذلك في حجره ، وانصرف ابن جبير ، وعقد العزم في الليلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيراً عن ذنبه في شرب النبيذ ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر ، وباع عقاراً له تزود به .

وترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسام ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣ م) إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغر) وعبر البحر من هناك إلى سبته ، فألقى بها سفينة للجنوية ، مقلعة إلى الإسكندرية فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) وسارت السفينة عبر الزقاق (جبل طارق) مساحة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية ، ثم مرت غرباً فمرت بجزيرة ميورقة ومينورقة وسردانية ، وطرأ عليها قبالة ساحل سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أتت ، ثم استطاع ربانها أن يصل بها إلى الشاطئ ، ثم أقلت المركب إلى صقلية وأرست على شاطئها ، ثم فارقتها واتجهت غرباً حتى حاذت ساحل جزيرة اقريطش ، واستقرت السفينة أخيراً عند الإسكندرية يوم ٢٩ ذي القعدة (٢٦ مارس ١١٨٣) (١).

طاف ابن جبير بالإسكندرية ، فزار المنار ، وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه ، وشاهده بقايا العمائر البطلموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء كما لاحظ كثرة المساجد بالإسكندرية بحيث كانت منها الأربعة ، والخمسة في موضع واحد ، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض ، ثم رحل ابن جبير عن الإسكندرية يوم الأحد ٨ ذي الحجة (٣ أبريل ١١٨٣) إلى القاهرة (٢).

(١) محمد مصطفى زيادة : رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ص ٥٤ - القاهرة ١٩٣٩

أنظر أيضاً زكي محمد حسن : الرحالة السامون ص ٧٠ - ٨٨

(٢) رحلة ابن جبير : تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٥

يقول ابن جبير :

« ... وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسمة ، وكان دخولنا فيها إثر صلاة العصر فى يوم الأربعاء ، وهو الحادى عشر من ذى الحجة ٥٧٨ هـ والسادس من أبريل ١١٨٣ عرفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتم علينا صنعه الجليل بالوصول إلى الغرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته إنه على ما يشاء قدير ، وفى يوم الأربعاء المذكور أجزنا القسم الثانى من النيل فى مركب تعدية أيضاً بموضع يعرف يدجوة ، وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الشناء فى زقاق القناديل بعقربة من جامع عمرو بن العاص فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور .

أقام ابن جبير بالقاهرة أياماً زار فى أثناءها معالمها الرئيسية وآثارها ومدارسها ، تلك التى يقول الرحالة الغربى عنها : —

فأول ما نبداً بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التى يركتها عسكها الله عز وجل . فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما^(١) وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنان خفيف يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به ، مجمل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمدة الكبار شمعاً أبيض ومنه ما هو دون ذلك قد وضع أكثرها فى أنوار فضة^(٢) خالصة ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل وحف أعلاه كله بأمثال التفانج^(٣) ذهباً فى مصنع^(٤) شبيه الروضة بقيد الأبصار حسناً وجمالاً فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله التخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون ، والدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والقرابة ، حيطانها كلها رخام على الصفة المذكورة وعن عین الروضة المذكورة وشمالها بنيسان من كليهما للدخل إليها ، وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع ، ومن أعجب ما شهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجب موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص^(٥) يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندسية الحديثة الصقل ، وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، ومسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين بأكبر متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجماد والأمر فيه ومراى الحال أهول ، نعمنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم . وإعما وقع الإلماع^(٦) ببذة من

(١) قيل أنها رأس زيد بن على ابن الحسين . المقرئى ج ٢ ص ٤٣٦

(٢) أنوار جمع تور ، وهو الشمعدان (٣) التفانج جمع تفاحة ويعنى هنا الكرات .

(٤) المصنع هو القصر أو الحصن (٥) البصيص هو البريق واللمعان .

(٦) الإلماع هو الإشارة .

صفته يستدل على ما وراء ذلك أن لا ينبغي للعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير والمعجز . وبالجمله فما أظن في الوجود كله مصنعاً أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذى فيه عنه وكرمه . وفى ليلة اليوم المذكور بذنا بالجبانة المعروفة بالقرافة ، وهى أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة .

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد :

مشهد الإمام الشافعى (رضه) ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعاً ، وبني بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلاً ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يحيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مراقفها . والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الجبوشانى (١) . وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالاً وتأنقاً ، علينا القيام بمؤنة ذلك كله ، فسبحان الذى جعل صلاح دينه كاسمه ، ولقينا هذا الرجل الجبوشانى المذكور تبركاً بدعائه لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألفيناه فى مسجده فى القاهرة وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الفناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه ... وفى القرافة المذكورة مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والأجر على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك . وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائدة نحو الثلاثين ديناراً مصرية فى كل يوم تنفق فى مصالحه ومرتبات قومه وسدنته وأئمة والقراء فيه ، وما شاهدناه بالقاهرة أربعة جوامع خفية البنيان أنيقة الصنعة ، إلى مساجد عدة . وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم ، ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سقى يجمع فيها الدعاء للصحابة (رضهم) والتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي (صلم) ولعميه الكريمين حمزة والعباس (رضهما) ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية ، وتنفجر العيون الجامدة ، ويأتى للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية . وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب (٢) أسود وهو الذى يسمى بالمغرب الإحرام وعمامة سوداء متقلداً سيفاً ، وعند صعوده المنبر يضرب بنصل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرون كأنها إيذان بالإنصات وفى توسطه أخرى وفى انتهاء صعوده ثالثة ثم يسلم على الحاضرين يميناً وشمالاً ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا فى أعلى المنبر ، ودعاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله بن الإمام محمد الحسن المستضى بالله بن الامام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لحى دولته أبى المظفر يوسف

(١) الجبوشانى هو أبو البركات محمد بن الموفق توفى ٥٧٨ هـ

(٢) الشرب نوع من الحرير اشتهر كثير من مدن مصر بنسجه .

ابن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين^(١) . وشاهدنا أيضاً بانيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه ، ويعد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ، والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظيم ، ينقر بالماول تقرأ في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار : العلو^(٢) الأسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتن في ذلك البنيان أحد سواهم . ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان . المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً ، وعين قيعاً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استهلاك الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم ، وبإزاء الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضاً من يكفلن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبايك الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويتألمها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابة عليها غاية التأكيد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بينه وبين مصر والقاهرة ، المسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جملته السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنون ويخلقون فيه . وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم ، أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم ، فقدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره ويتحاكمون في طواريء أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله . وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ، ويلزم السكنى فيها تهوؤن عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال ، ومن مآثره الكرمية عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، أنه أمر بإمارة محاضر^(٣) لزمنها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجري عليهم الجراية الكافية لهم . ومن مفاخر السلطان صلاح الدين وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع في بنائها بغربى مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدئ من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال منها بعد حتى تصل بالقنطرة المذكورة وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، والقنطرة تصله بالصحراء التى تقضى منها إلى الاسكندرية ، له

(١) الملك العادل .

(٢) العلو جمع عالج وهو الرجل من المعجم .

(٣) المحاضر هنا هى المدارس .

في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمية إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة نجر الاسكندرية عند فيض النيل وانقمار الارض به وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكاً في كل وقت ، إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحدور منه . ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الانذارات الحداثية^(١) ، يرون أن حدوثها إيدان باستيلاء الموحدين^(٢) عليها وعلى الجهات الشرقية ، والله أعلم بغيه ، لا إله سواه .

الاهرام وأبو الهول :

وبعقربة من هذه القنطرة المحدثنة — الأهرام — القديمة ، المعجزة البناء ، الغريبة النظر ، الربعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها فإنهما يخص الجو بهما سواً ، في سعة الواحد منها من أحد أركانه إلى الركن الثاني ، ثلاث مئة خطوة ، وست وستون خطوة ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة . وركبت تركيباً هائلاً ، بديع الاصاق ، دون أن يتخللها ما يعين على إصاقها ، محدودة الاطراف في رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، لو رام أهل الأرض تقص بنائها لأعجزهم ذلك . للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك . وبالجملة فلم يعلم شأنها إلا الله عز وجل . ولأحد الكبيرين منها باب يصعد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ، ويدخل منه إلى بيت كبير سعته نحو خمسين شبراً . وطوله نحو ذلك . وفي جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة ، شبه التي تسميها العامة البيلة^(٣) ، يقال : أنها قبر والله أعلم بحقيقة ذلك . ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد إلى الركن الثاني مئة وأربعون خطوة . ودون هذا الصغير خمسة صغار ، وثلاثة متصلة ، والاثنان على مقربة منها متصلان . وعلى مقربة هذه الاهرام بمقدار غلوة^(٤) صورة غريبة من الحجر ، قد قامت كالصومعة ، على صفة آدمي هائل النظر ، وجهه إلى الأهرام ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل ، تعرف بأبي الهول .

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمر بن العاص رضى الله عنه . وله أيضاً بالاسكندرية جامع آخر هو مصلى الجمعة للمالكين . وبمدينة مصر آثار من الحراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها ، وقت الفتنة عند انتساخت دولة العبيديين^(٥) وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة . وأكثرها الآن مستجد والبنيان

(١) نسبة إلى حدثان الدهر ، وهى حوادثه وتقلباته .

(٢) للوحدون هم الأسرة التي حكمت المغرب من ٥١٥ — ٦٦٨ هـ واستولت على الأندلس أيضاً .

(٣) البيلة هى حوض النافورة .

(٤) الغلوة هى المدى الذى يذهب به السهم حين يرمى به .

(٥) العبيديون هم الفاطميون .

بها متصل . وهى مدينة كبيرة ، والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ، ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف .

الجيزة والروضة :

وعلى شط نيلها ، مما يلي غربها — والنيل معترض بينها — قرية كبيرة حفيلة البنيان ، تعرف بالجيزة . لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة ، تجتمع إليها . ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان ، وعلاى^(١) مشرقة . وهى مجتمع اللهو والزهوة وبينها وبين خليج من النيل ، يذهب بطولها نحو الميل ، ولها مخرج له . وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه . ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة . واستشعار ابتدائه فى شهر يونيو ومعظم انتهائه أغسطس^(٢) وآخره أول شهر أكتوبر . وهذا المقياس عمود رخام أبيض مشتمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه ؛ وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً ، مقسمة على أربعة وعشرين قسماً ، تعرف بالأصابع . فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفى الماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه ، فهى الغاية عندهم فى طيب العام . وربما كان العامر منه أكثر بعموم الفيض . والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً ، وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة ، والذى يستحق به السلطان خراجه فى بلاد مصر ، ست عشرة ذراعاً فصاعداً ، وعليها يعطى البشارة الذى يراعى الزيادة فى كل يوم . والزيادة فى أقسام الذراع المذكورة ، ويعلم بها مياومة ، حتى تستوفى الغاية التى يقضى بها . وإن قصر عن ست عشرة ذراعاً ، فلا مجي للسلطان^(٣) فى ذلك العام ، ولا خراج .

وذكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الأبحار رضى الله عنه ، وفى صدر الجيزة المذكورة أحجار رخام ، قد صورت فيها التماسيح ، فيقال : إن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلى البلد من النيل ، مقدار ثلاثة أميال علواً وسفلاً . والله أعلم بحقيقة ذلك .

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة^(٤) من الله تعالى ، وآثاره التى أبقاها ذكر أجيال الدين والدنيا : إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيدين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط

(١) العللى جمع عليه ، وهى الغرفة فى أعلى الدار .

(٢) أغسطس .

(٣) الهجى : جباية الضرائب .

(٤) المقربة .

في استبدائها عتاً مجحفاً ، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته ، أو لا نفقة عنده ، فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار ، من الدنانير المصرية ، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنة على كل رأس . ومن يعجز عن ذلك ، فيتناول بألم العذاب بعذاب . فكانت كاسمها مفتوحة العين ، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأثنين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قدره . وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه ، لمن لم يؤد عكسه « بعذاب » ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء . فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ، ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها . وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً ، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام ، حتى يعم جميع الآفاق ، ويوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع ، وبقعة من البقاع ، والله وراء مجازاة المحسنين ، وهو جلت قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملاً . إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس ، فضلاً عما سواه : فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن . ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل ، أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعينهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تنهيم . على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره .

شهر محرم سنة تسع وسبعين ، عرفنا الله . بمنها وبركاتها .

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل ، ونحن بمصر ، يسر الله علينا مرامنا .

ثم رحل ابن جبير إلى الصعيد في يوم الأحد السادس من محرم المذكور قاصداً إلى « قوص » ماراً بأسسوط وأبوتيج وأخميم . الخ .

٢ - موفق الدين عبد اللطيف البغدادي بالقاهرة

(١١٩٤ - ١٢٠٤)

طبيب عالم ورحالة ، موصلي الأصل بغدادي المولد ، ولد بدار جده في درب الفالودج ببغداد في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م) حفظ على أبيه القرآن وشيئاً من الحديث ومختصر آفي الفقه وآخر في اللغة . ولما ترعرع أرسله أبوه إلى المدرسة النظامية ليتلقى العلم على شيخ بغدادي اسمه كمال الدين عبدالرحمن الانباري ، لكنه لم يكن قادراً على تفهم أحاديث كمال الدين لصعوبتها عليه ، وأمر هذا الشيخ أن يذهبوا به إلى تلميذه الوجيه الواسطي بالمدرسة الظفرية ، وكانت هي المدرسة التحضيرية للنظامية .

أحب الواسطي تلميذه عبد اللطيف فصار يوجه إليه الكلام والسؤال عند شرح الدروس ، وكان عبد اللطيف يقود شيخه الضريز إلى داره ويطالع له في الكتب ويحفظه ما يريد حفظه وبعد ذلك يأخذه إلى شيخه كمال الدين ليشرح له ما حفظ .

ولما تقدم وأنس من نفسه قوة الفهم والحفظ ترك المدرسة الظفرية والتحق بالنظامية ، ولما توفي الشيخ كمال الدين كان عبد اللطيف أتم برنامج المدرسة النظامية . ثم التحق بمدرسة دار الذهب ليدرس الفلسفة والحساب على عميدها ابن فضال ، ولما انتهى مما تأقت نفسه إليه دخل كلية الآداب (مدرسة رباط المأمونية) وكان عميدها ابن الحشاش ، فحضر عليه الحديث . وتصادف أن جاء إلى بغداد من المغرب الشيخ الجليل ابن تاتلي من المثلثين ، وكان عالماً بالرياضيات والكيمياء والفلسفة ، فالتفت حوله شببة بغداد ، وحضر عليه عبد اللطيف دروسه ، فدرس كتب الغزالي وابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية .

يقول عبد اللطيف في سيرته عن نفسه ، « ولما كان في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملا عيني ويحل ما يشكل علي ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغي ، لكن وجدت الكمال ابن يونس جيداً في الرياضيات والفقه ، متطرفاً من باقي أجزاء الحكمة ، قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها . وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر للعلاقة ودار الحديث التي تحتها ، وأقمت بالموصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهاراً » ...

رحل عبد اللطيف من الموصل بعد ما أقام بها سنة كاملة إلى دمشق والتحق بكلية الطب فيها ، ودرس كتب أرسططاليس ومؤلفات جالينوس ، وبعد ذلك تأقت نفسه إلى مصر وكان قصده بها الاجتماع بياسين السباوي ورئيس الأطباء موسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي ، فسافر من دمشق إلى عكا حيث كان معسكر السلطان صلاح الدين الأيوبي وقتها ، وهناك قدم نفسه إلى بهاء الدين بن شداد قاضي عسكر

صلاح الدين فأكرمه ، وأخذه إلى العماد الكاتب ، فلما دخل عليه (العماد) وجده يكتب كتاباً بالثلث إلى الديوان بغير مسودة ، فابتسم العماد وقال :

إن هذا كتاب إلى بلدكم ، ثم أخذه من يده ليقدمه إلى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وهو عبد الرحيم البيهقي .

ولما دخل عبد اللطيف مع العماد الكاتب ، على القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي رآه يكتب كتاباً بيده وعلى كتابين على كتابين كانا أمامه في وقت واحد وكان يحرك شفثيه وعضلات وجهه على الدوام حرصاً على الكلام ؛ وبعد أن سلم عليه أمره بالجلوس فجلس عبد اللطيف وأخذ القاضي الفاضل يمتحنه ، فسأله عن جواب (إذا) في قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » ثم سأله عدة أسئلة أخرى ، جاب عليها عبد اللطيف بما سر منه القاضي الفاضل فأمر له بوظيفة في دمشق ، فقال عبد اللطيف ، أريد السفر إلى مصر ، فأجابته أن السلطان صلاح الدين مشغول القلب بسبب أخذ الإفرنج عكا وقتلهم المسلمين . فقال عبد اللطيف « أريد يا مولاي السفر إلى مصر . فأخذ القاضي الفاضل ورقة صغيرة ، وكتب عليها جواب توصية إلى وكيله وهو ابن سناء الملك .

أخذ عبد اللطيف الجواب وسافر إلى القاهرة وبعث به لابن سناء الملك ، فجاءه في الحال إلى الخان الذي نزل فيه ، وقدم له داراً أزيحت عليها ودنانير وغلة ، ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت عليه الهدايا والصلوات من كل جانب حتى أصبح من الثرين ، ثم عرض ابن سناء الملك الوظائف على عبد اللطيف ؛ فاختار منها مسجد لؤلؤ الحاجب الواقع بالقرافة لتدريس الطب والفلسفة والرياضيات ويؤلف كتبه .

ثم رأى عبد اللطيف أن يلتقي بالرجال الذين جاء إلى مصر من أجلهم ، فقصد الشيخ ياسين السيمائي فوجده مشغولاً سحاراً ، ولم ترق أعماله لدى عبد اللطيف . ثم ذهب إلى رئيس الأطباء موسى بن ميمون ، فوجده عالماً متيناً وطبيباً قديراً ترجم كتب جالينوس وألف بالعبرانية كتاباً في العقائد ، وقد تردد عليه عبد اللطيف كثيراً وحضر عليه .

وبينا كان عبد اللطيف يلقي دروسه بمدرسة مسجد لؤلؤ الحاجب ، دخل عليه شيخ رث الثياب مهيب الطلعة قام له الطلبة ، ومع ذلك لم يلتفت عبد اللطيف إلى الشيخ ، بل استمر في الدرس إلى آخره ، ثم تقدم إليه إمام المسجد وقال له إن الشيخ القادم عليكم هو أبو القاسم الشارعي ، فتقدم إليه عبد اللطيف وعاقه وقال له : « لأجلك جئت مصر وأخذه معه إلى داره وأكرمه . وكان كثير الاجتماع به ، ووجده . كما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، سيرته سيرة الحكماء المقلاء وكذا صورته » .

أقام عبد اللطيف بمصر وهو موضع إكرام علمائها ورؤسائها ، حتى بلغه أن السلطان صلاح الدين هادن الأفرنج وأنه في القدس ، فسافر إليه بعد أن أخذ معه من مصر مجموعة من أنفس الكتب القديمة

ودخل عليه فرآه في مجلس حافل بالعلماء والأمراء ، وكانوا يتحادثون في مختلف العلوم ، وصلاح الدين يسمع قولهم بكل إصغاء ، رآه عبد اللطيف ذات مرة يحمل على كتفه الحجارة والتراب في بناء سور القدس وحفر الخندق حوله ، ويعمل معه القاضي الفاضل مع ضعفه ، والهاد الكاتب وبهاء الدين بن شداد وغيرهم .

وأمر صلاح الدين بتعيين عبد اللطيف أستاذاً بالجامع الأعظم بدمشق ورتب له ثلاثين ديناراً في الشهر ، ولما سافر إلى دمشق ورآه الأفضل بن صلاح الدين وقدر علمه ، رفع ذلك المرتب إلى مائة دينار في الشهر .

وبعد فترة توفي صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣) فحزن الشعب عليه وأقام عبد اللطيف في منصبه بدمشق إلى أن جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر بعساكره المصرية وحاصر أخاه الأفضل ، وعند رجوعه إلى القاهرة أخذ معه عبد اللطيف وعينه أستاذاً بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر على ذلك حتى توفي الملك العزيز في عام ٥٩٥ هـ (١١٩٨ - ٩٩ م) .

استمر عبد اللطيف بالقاهرة إلى ما بعد المجاعة الكبرى التي داهمت مصر وأعقبها ذلك الفناء الكبير ، وحكمها العادل أبو بكر أيوب شقيق صلاح الدين ، وفي تلك الفترة ألف عبد اللطيف كتابه « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » وقد ذكر أنه انتهى من تأليفه في سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م . ويعتبر الكتاب وثيقة هامة لشاهد عيان رأى بعينه أحداث مصر أثناء حكم أسرة الأيوبيين .

رحل إلى القدس وأقام بها مدة وكان يتردد خلالها على الجامع الأقصى وصنف هنالك كتباً كثيرة . وفي عام ٦٠٤ (١٢٠٧ هـ / ٨ م) رحل إلى دمشق ونزل بالدرسة العزيرية واشتغل بالتدريس وتميز بها في صناعة الطب وصنف فيه كتباً كثيرة . وأخيراً غادرها إلى حلب ليبدأ رحلته في الأناضول وأقام بها عدة سنين ثم عاد ثانية إلى حلب وعين شيخاً لمسجدها الجامع ، وقد أتم فيها كتبه ، وعزم على أن يرفعها إلى الخليفة المباسي ببغداد الناصر لدين الله ، فسافر إلى بغداد بعد غيبة خمس وأربعين سنة يحصل العلم ويخدمه فاستقبله الخليفة بما يليق بقدرة وعلمه .

وبينما كان يجهز نفسه لأداء فريضة الحج ، مرض ثم وافته المنية وكان ذلك يوم الأحد ١٢ محرم ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ودفن بالوردية عند أبيه .

* * *

إن أهم ما وصل إلينا من مؤلفات البغدادى كتاب « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » ويتضمن هذا الكتاب وصفاً مسهباً لأحوال وادى النيل في نهاية القرن السادس أى حوالى عام ١٢٠٠^(١) ، وقد تنبه عبد اللطيف إلى قيمة الآثار وأهميتها التاريخية وضرورة المحافظة عليها ، ولكنه ذكر في كتابه أن العامة من المصريين في عصره كانوا يخربون الآثار ويكسرون الأصنام ويدخلون

(١) طبعة المجلة الجديدة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

إلى المقابر بحشاً عن الكنوز وسعياً وراء الذهب المدفون مع الموتى ، والغريب أن البغدادى استطاع أن يصف آثار مصر وصفاً دقيقاً ، وأن يكتب عن المقابر الأثرية وما فيها من كتابات أثبتت صحتها أبحاث علماء الآثار في العصر الحديث .

قال عبد اللطيف عن الأبنية في مصر :

... وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية ، حتى أنهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة ودورهم أقبح ، وغالب سكنهم في الأعلى ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلاً فيه باذاهيج^(١) وبأذاهيجانهم كبار ، واسطة للريح . عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام ، حتى أنه يقدم على عمارة الواحد منها مائة دينار إلى خمس مائة وإن كانت بأذاهيجات للنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ، وبينون بالحجر النحت والطوب الأحمر وهو الآجر ، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .

ويحكمون قنوات المراحض ، حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون الكنف إلى الممين ، فتمر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح ، وإذا أرادوا بناء ريع أو داراً وقيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرصة وهي تل تراب أو نحوه فيقيسها في ذهنه ويرتبها بحسب مايقترح عليه ثم يعمد إلى جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد إلى جزء آخر ، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكال الأجزاء من غير خلل .

وأما حماماتهم ، فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكماً ولا أحسن منظراً ومجرباً . فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطتا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير ، وهذا الحوض نحو ربهه فوق الأرض وسائرة في عمقها . ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب وفي المسلح أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم ، وهذا المسلح بمقاصيره حسن القمة مليح البنية ، وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مزخرف الجدران مبيضا ، مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازراج ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه ، لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذوا دارا لسلوكه وتباهى في ذلك لم تسكن أحسن منه .

ثم تكلم عبد اللطيف بعد ذلك عن مستوقد الحمام ، فقال إن فيه بيت النار ، وهو فرن فرشت أرضه

(١) البذاهيج هي الناور العلوية التي تنشأ في سطح الغرف العليا .

بالمح^(١) عليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قدور رصاص وتتصل هذه القدور من أعاليها بأنابيب فيدخل الماء من مجرى البئر إلى فسقية عظيمة ، ومنها إلى القدر الأول فيكون بارداً ، ثم يجرى منها إلى القدر الثانية ويكون قد سخن قليلا ، ومنها إلى الثالثة فيسخن أكثر ثم إلى القدر الرابعة ، فيتناهى في الحرارة ، ثم يخرج من الرابعة إلى مجارى الحمام ، وقد امتدح عبد اللطيف هذه الطريقة في تسخين الماء ، والواقع أنه أعجب بكل ما شاهد في القاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة .

ووصف البغدادى أهم الأطعمة في القاهرة ، ورأى القاهريين يطبخون الدجاج بالسكر ويضيفون إليه الفستق أو الجوز أو الحشخاش ويسمونهم الفستقية أو الجوزية أو الحشخاشية . أما الحاوى فكثيرة ولهم مهارة في صناعة المربى وسماها الخبيص وأقراص البنفسج والورد وغيره . وذكر أنه بدمياط يأكلون السمك ويطبخون به كل ما يطبخ باللحم عادة ولا سيما مع الأرز .

٣ - ابن سعيد في القاهرة

(٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م)

وصف ابن سعيد مدينة القاهرة في « كتاب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة » من « الغرب » :

هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين ، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط ، وخطب له في البحرين من جزيرة العرب عند القرامطة وفي تلة (٢) وفي المدينة وبلاد اليمن وماجاورها وعلت كلمته . لاسيا وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة المنصورة التي إلى جانب القيروان ، وكانت من أعظم المداين ، وعان للهدية مدينة جده عبيد الله المهدي ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهي ناطقة إلى الآن بالأسن الآثار والكان الذي يعرف في القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني ، لأن هناك مساحة متسعة للمعسكر والتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أن قليل ، ثم تسير منه إلى أن ضيق وتعرف في مركز حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان في ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن معه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ؛ وكان في موضع طباحين ، والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد

(١) للمح في طبيعته حفظ الحرارة .

يهلك المشاة وكدت أهلك في حملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ،
والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها . . . الخ » .

ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى
ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم
ويموت الإنسان فيها عطشاً بعدها عن مجرى النيل لثلا يصادرها ويأكل ذيارها ، وإذا احتاج الإنسان
إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالقس ،
وجوها لا يبرح كدراً بما تثيره الأرجل من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر رفاقي من الخس على
المود إليها .

يقولون سافر إلى القاهرة ومالى بها راحة ظاهرة

زحام وضيق وكرب وما تثير بها أرجل السائرة

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً وجواً مغبراً فتقبض نفسه ويفر أنسه ، وأحسن
موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة . وأعجبنى في ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدن والناظر
فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرتهم
فيكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول :

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر

فكأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم
دياراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها . فأمر السلطنة كلها فيها أيسر
وأكثر وبها الطراز وسائر الأشياء التي تنزين بها الرجال والنساء .

وما كل أهل القاهرة الدميس والصير والصحانة والبطارخ ولا تصنع النيدة وهي حلوة القمح إلا بها
وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جوار طبابخات أصل تعليمهم من قصور الخلفاء الفاطميين ، لمن في
الطبخ صناعة عجيبة . وفي القاهرة أزاهير كثيرة وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه والرمال والموز
والنفاخ ، وأما الأجاص (الكمثرى) فقليل غاك وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والزجس والسريرين
واللينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر . وأما العنب والتين فقليل غاك ، ولكنة
ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ومع هذا فشراؤه عندهم في نهاية
موسم الغلاء . . .

وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلي القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه في الجنتين مناظر كثيرة العمار بعالم الطرب والتهكم والمخالعة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يميزون العبور به في مركب ، والسر في جانيه بالليل منظر فنان ، وفي ذلك أقول :

لا تركب في خليج مصر إلا إذا أسدل الظلام
 قد علمت الذي عليه من عالم كلهم طعام
 يا سيدي لا تسر إليه إلا إذا هوم النيام
 والليل ستر على التصابي عليه من فضله لثام

(١) الخ

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب في حلى المغرب ، حققه جماعة من الأساتذة : جامعة القاهرة ، ١٩٥٠ .

آثار الأيوبيين في القاهرة

قلعة الجبل

أهم الآثار الخالدة التي شيدها السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام ، وتنهض القلعة على نشد يتصل بجبل المقطم ، في موضع كانت تشغله فيه قبة سميت بقبة الهواء ، أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش فشرع في بنائها (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) ثم توقف العمل فيها فترة من الزمن ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة وأنشأ بها الدور السلطانية وذلك في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، وقد سكن فيها ثم استمرت من بعد وفاته دار مملكة مصر ، ثم أضيفت إليها أجزاء كثيرة على أيام الأيوبيين والمماليك ومن خلفهم من الحكام .

ويتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من قسمين من الأرض مستقلين ، الشمالي منها يشبه مستطيلاً ذا أبراج بارزة ، ويفصله عن القسم الجنوبي حائط سميك وأبراج ضخمة ويخرج القسم الجنوبي من الشمالي مكوناً معه زاوية قائمة ، وحدود هذا المربع ليست منتظمة . والمعروف عند علماء الآثار أن الجزء الأكبر من القلعة قد تم في سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، أما البترفن المحتمل أنها تمت في عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وهو العام الذي أسرى في غضونه صلاح الدين كثيراً من الفرنجة اشتغلوا في حفرها وبنائها ، وكان حول القسم الشرقي من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهراً .

ولدخول القلعة بابان . أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج ، والباب الثاني باب القرافة يواجه المقطم ، وبين البابين ساحة فسيحة ، ثم كان للقلعة باب ثالث وهو باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أ كابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما .

ويعزى إلى صلاح الدين بناء جدران السور وأبراجه النصف الدائرية ، وينسب إلى الملك العادل بناء الأبراج الثلاثة الكبيرة التي بالجانب القبلي وعلى برج صفطة وبرج العلوة وبرج قرقيلان ، وكذلك الزيادة التي أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجي ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء الداخلي ببرج الصحراء والبرج الكبير الذي لم يتبق منه سوى قاعدته ، والبرجان الكبيران المربعان في الركن الشمالي الغربي من السور ، وقد تمت أعمال العادل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/١٢٠٧ م) .

وقد وسعت القلعة في أيام حكم الناصر محمد بن قلاوون واتجه هذا التوسع إلى الجنوب عندما بدأ بناية الحوش في سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧/١٣٣٨ م) ، وكانت مساحته أربعة أفدنة كما أنه شيد مسجده .

ويمكن القول أن إصلاح القلعة قد تم على خمسة مراحل :

- ١ — في أيام السلطان برقوق على جركس الخليلي في ربيع الثاني عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م)
- ٢ — في أيام السلطان جقمق في ذى القعدة عام ٨٥١ هـ (١٤٤٨ م)
- ٣ — في أيام السلطان قايتباي (١٤٦٧ — ١٤٩٦ م)
- ٤ — في أيام السلطان طومانباي في رمضان عام ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م)
- ٥ — في أيام الخديوي اسماعيل في رجب ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) .

وأعمال الإصلاح هذه ، مثبتة في كتابات منقوشة على جدران القلعة . وترى اليوم على الجدار الذي يقع إلى يمين المدخل الخارجي لباب المدرج^(١) .

قبة الإمام الشافعي

جمع الله تعالى للإمام الشافعي من العلوم وكثرة الأتباع ما لم يجمع لأحد قبله . ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) واتصل بالإمام مالك رضي الله عنه بالمدينة ودرس عليه ، ثم استقل عنه وأسس مذهبه المعروف ، وأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك . ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ هـ (٨١٠/١١ م) فبقي بها سنتين واستمع عليه علماءها ، ثم خرج إلى مكة ومنها عاد إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ (٨١٢/١٤ م) فأقام بها شهراً ثم قدم إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ودفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم .

وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) بنى السلطان صلاح الدين الأيوبي تربة الشافعي وأنشأ بجوارها المدرسة الصالحية (الصلاحية) ، وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي وهذا التابوت مصنوع من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوب عليها آيات قرآنية ، وترجمة حياة الشافعي ، واسم الصانع الذي قام بعمله وذلك بالخطين الكوفي، والنسخ الأيوبي .

ولما توفيت والدته الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ، ثم أجرى الماء إليها من بركة الحبش ، وكان الفراغ من إنشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ثم أنشأ تابوتاً من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعي .

(١) دكتور عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ١٩٦٠

وفي سنة ٨٥٥ هـ (١٤٨٠ م) عمر السلطان قايتباي تلك القبة وصحح اتجاه المحراب ، كما جدد الوزارة الرخامية . وفي ١١٨٦ هـ (١٧٧٠ م) جدد الأمير على بك الكبير أعلى القبة وكساها يصفائح الرصاص وجدد نقوشها من الداخل بالذهب والأصباغ وكتب بأفريزها تاريخاً منظوماً .

دار الحديث الكاملية

أنشأها الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبي لدراسة الحديث الشريف ، وكانت ذلك في عام ٦٢٢ هـ — ١٢٢٥ م ، وهي ثانی مدرسة أقيمت للحديث ، قيل إن الملك نور الدين محمود زنكي ، كان أول من بنى داراً خصها لتلك الدراسة الجليلة ، وقد وقفها الكامل على المشتغلين بالحديث النبوي ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ، وقد وقف عليها الربيع الذي كان بجوارها على باب الخرتقش المواجه لمسجد الأقر ، وكان أول من ولى التدريس في الكاملية ، الحافظ أبو الخطاب عمرو عثمان بن الحسن . ثم خربت بسبب الأحداث والحزن التي أصابت البلاد . ولم يبق من تلك الدار الكبرى سوى بقايا إيوان الغربي ، وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالخط الكوفي إلى متحف الفنون الإسلامية ، ويرى بعض علماء الآثار ، أن المدرسة الكاملية أقدم نموذج لطراز تخطيط المدرسة ذات الإيوانين . . ذلك الطراز الذي تطور فيما بعد إلى أربعة إيوانات . . وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربي لسوق النحاسين وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق .

المدرسة الصـــــــــــــــــالحية

تلسب إلى منشئها الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي وضع أساسها في ١٤ ربيع الأول ٦٤٠ هـ — ١١ سبتمبر ١٢٤٢ م ، وبدأت الدراسة بها في العام التالي (٦٤١ هـ — ١٢٤٣ م) بالرغم من ضخامة بنائها . قامت في خط بين القصرين وكان موضعها القصر الفاطمي الشرقي ، وقد دُون تاريخ إنشاء المدرسة في اللوحة التذكارية أعلى بابها وبأسفل المئذنة ، وقد دخل فيها باب الزهومة أحد أبواب القصر المؤدية إلى المطبخ . وقد رتب السلطان فيها الدروس الدينية للفقهاء المتمين إلى المذاهب الأربعة ، وأول من درس بها في المقابلة قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر .

وكان لا يقل مساحة تلك المدرسة الجليلة عن ستة آلاف متر مربع ، تألفت من بنائين كبيرين ، أحدهما يتجه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال ، يتوسطهما المدخل الذي تعلوه المئذنة ، وقد اشتمل كل من البنائين على إيوانين كبيرين ، شرقي وغربي . أما الجانبان الشمالي والقبلي فقد تكون كل منهما من عمد تحمل عقوداً من المحتمل أنها كانت تحمل فوقها غرف الأساتذة والطلاب .

وقد اندثرت إيوانات المدرسة الجنوبية ولم يبق بالمدرسة الشمالية سوى الإيوان الغربى . أما الإيوان الشرقى فقد تهدم معظمه . وهناك بين الإيوانين بقايا عمد وعقود وكان طول وجهة المدرسة حوالى مائة متر ، يتوسطها المدخل المذكور وعليه المئذنة التى تحتفظ بطابعها الأيوبي الأصيل . وهذه الوجهة التى بقى جز كبير منها إلى اليوم ، غنية بالقوش والكتابات ، وقد بذل الجهد فى تجميلها الرائع . فإننا نرى أعتاب النوافذ والأبواب قد حبست بأفريز مسنن مزخرف يعلوه عتب آخر حليت صنجه بمحقات أو دوائر مزخرفة وفوقها سطر مكتوب به ألقاب السلطان ، ثم عقد آخر يحمل مقرنصة من خمس حطات مستطيل الشكل ، كتب فيه تاريخ البناء .

أما المئذنة فلها أهمية خاصة عند المشتغلين بالعمارة الإسلامية ، فهى نموذج فريد للتأذن الأيوبية ، ومكانتها من ناحية التطور العمارى بين مثذقى ضريح أبى الفضل (١١٥٧ م) ومئذنة جامع بيرس الثانى — وهى تتكون من قاعدة مربعة تنتهى بشرفة منمقة مخولة على كوابيل خشبية ويعلوها طابق آخر منمق الشكل وأقل ارتفاعاً من السفلى وبكل جانب تجويف متوج بعقد مدبب طاقته بها قنوات مشعرة ، وبهذا التجويف فتحة معقودة بعقد ذى فصوص ، ويعلو المنطقة المشعرة صفان من المقرنصات ، وفى أعلى القمة توجد قبة ذات استطالة رأسية ومضلعة ، تعرف باسم « المبخرة » .

ولقد طغت منذ أعوام الأبنية والحوانيت الوضيعة والتصقت ببناء الوجهة ، فأخفت جزءا كبيرا من زخارفها الجميلة ، وجبذا لوعنى المسئولون بإنقاذ هذا الأثر الأيوبي الجميل مما لحق به أثناء أعوام الإهمال السابقة ، فيعملون على استعادة مجده السالف .

قلعة الروضة

عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى طرفها البحرى الأفاضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدرالجمالى فى سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م . وسماه بالروضة وما برحت جزيرة الروضة متنزها ملكياً وسكناً للناس إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل سلطنة مصر (٦٣٧ هـ — ١٢٤٠ م) فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وبقلعة جيرة القسطنطين وبقلعة الجزيرة .

ففى يوم الأربعاء خامس شعبان عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩ م) شرع فى حفر أساس القلعة وابتدأ ببنائها فى يوم الجمعة سادس عشر ، وهدم كثير من الدور والقصور والمساجد التى كانت بالجزيرة وأدخلت أرضها فى نطاق القلعة . فشيّد السلطان فيها مبان كثيرة ، وعمل لها ستين برجاً وأقام بها مسجداً ، وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ثم شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والأزواد والأنوات ، وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها .

وكانت تشغل هذه القلعة مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فداناً ، وقد سكن الملك الصالح جزيرة الروضة مع مماليكته البحرية وكان عدتهم ألف مملوك ، وذلك بعد انتقاله من قلعة الجبل ، وقد ذكر المؤرخ ابن واصل أن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنوات. ولم تزل قلعة الصالحية عامرة حتى انتهت دولة الأيوبيين ، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيك أمر بهدمها ليعمر مدرسته العزيزة وانتدى به ذوو الجاه فأخذوا كثيراً من مقوفها وشبابيكها وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس العرش ، عنى بمارة القلعة ، وأمر الأمير جمال الدين موسى بإعادتها ، فأصلح بعض ما تهدم وأعادها إلى ما كانت عليه ورتب فيها الحاميات .
وعلى مر الزمن تخربت القلعة وما كان يحيط بها من المباني الفخمة ، ثم قامت الدور ، وشقت الطرق في حفاياها وانتشرت البساتين فيها .

قبة الصالح نجم الدين الأيوبي

تقع في الجهة البحرية الغربية للمدرسة الصالحية ، أنشأتها الملكة شجرة الدر ونقلت إليها جثة سيدها زوجها الصالح نجم الدين من قلعة الروضة في يوم ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ (سبتمبر ١٢٥٣ م) . ومباني القبة تسودها البساطة ، وأهميتها المعمارية تتمثل في تطور القرنص فيها وزيادة حطاته وتغييرها تغييراً كلياً عن القبة الفاطمية في جميع نواحيها ، ويحيط بمربع القبة أعلى الشبابيك طراز من الخشب به بقايا كتابات يقرأ منها « بسم الله الرحمن الرحيم » .

قبة الخلفاء العباسيين

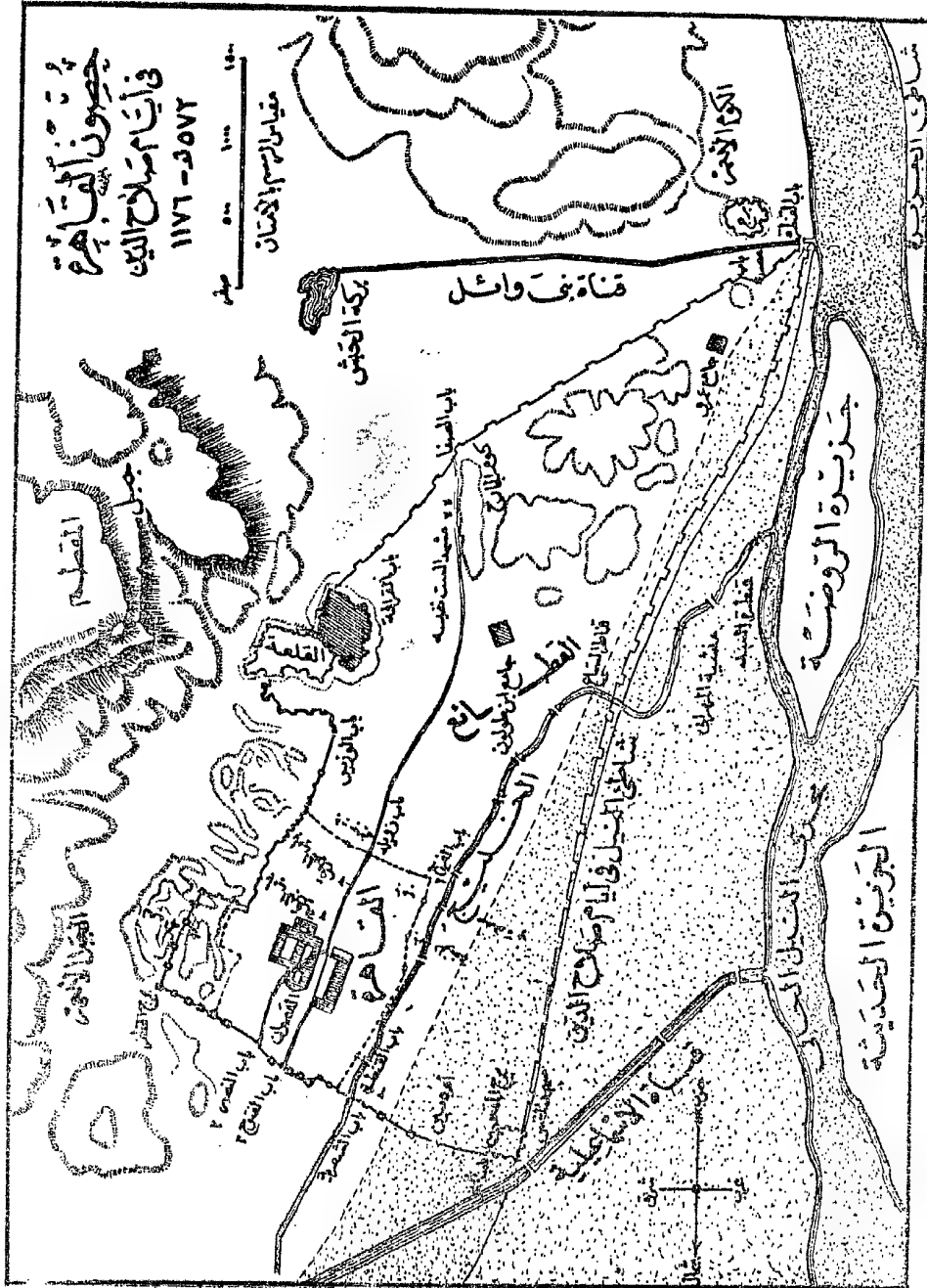
تقع خلف المشهد النفيسى وتضم رفات بعض الخلفاء العباسيين الذين توفوا بمصر وأولاد السلطان الظاهر بيبرس ولا يعرف منشئها . وترجع أهميتها إلى ما تحتويه من الزخارف الجصية والكتابات الكوفية على الجص والخشب . ومن المحتمل أن تكون قد أنشئت حوالى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) وتشبه هذه القبة ، قبة شجرة الدر التى تقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية وقد شيدها لتدفن فيها . وهى ذات قاعدة مربعة حليت بزخارف جصية على هيئة شبابيك عقودها عمارة ذات عقد منكسر وحولها صرر منها ما هو مستدير وبعضها على هيئة معين والزوايا مشطوفة وينتهى الشطف بقرنص ، ومن المرجح أن شجرة الدر قد أنشأتها أثناء توليتها على مصر عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ويؤيد ذلك كتابة ألقابها والدعاء لها بطراز القبة بخط نسخي أيوبى (١) .

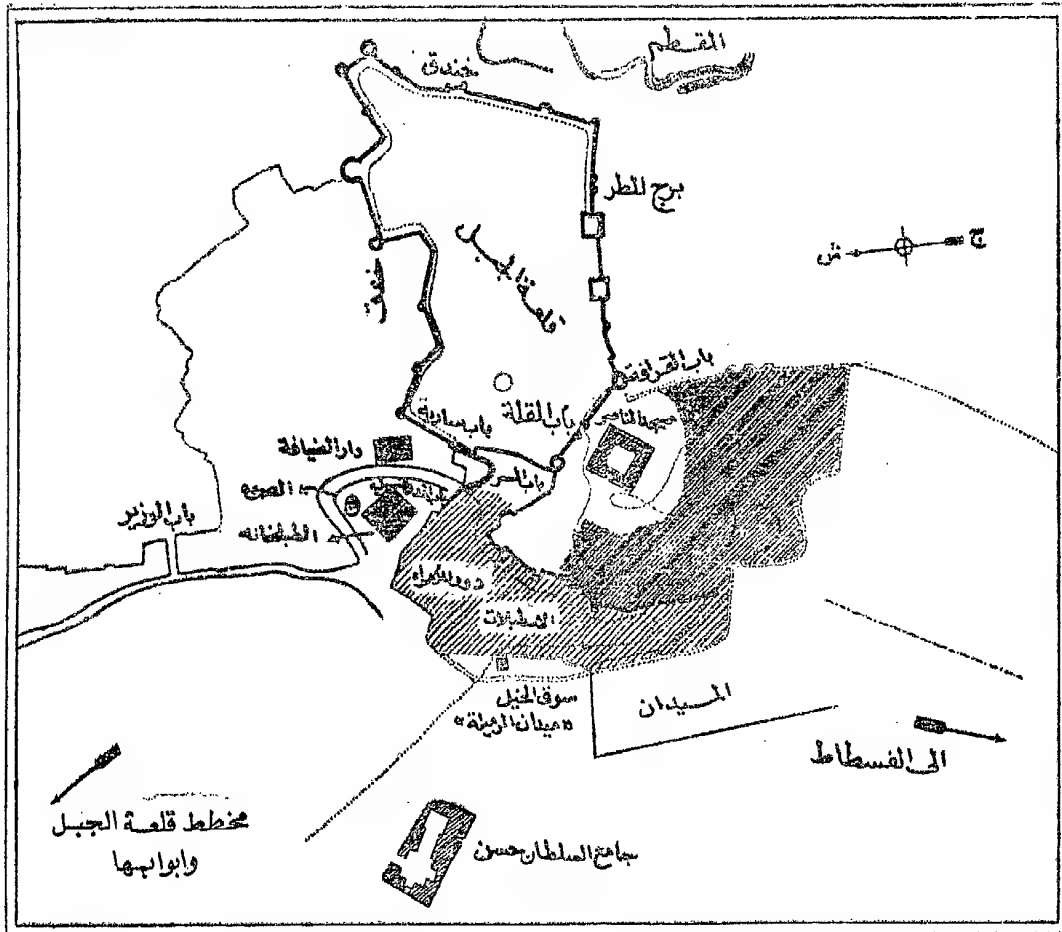
(١) حسن عبد الوهاب : المارة الإسلامية في العصر الأيوبي ، مجلة المارة ٧ - ٨ عام ١٩٤٠

لقد كان عصر الأيوبيين في مصر ، وبخاصة بالقاهرة ، عصرآ متمازاً بعناصر جديدة في العمارة « مدنية كانت أو حربية » ، وفي ابتكار طراز المدرسة ، وشيوع استعمال الحجر المنحوت في البناء وإدخال التلويع بالرخام ، وفي تطور الزخرفة الجصية واستخدام الزجاج الملون ، ودقة النقش على الخشب ... الخ

ومع أن الآثار الأيوبية الباقية بمصر قليلة ، ولكن مع ذلك ، فقد اشتملت على تفصيلات معمارية هامة ، تعتبر أساساً نسج على منوالها في كثير من الآثار التي أعقبتها . وفيها ظهر على العمائر والألطف الخط النسخي ، الذي اتخذ أساساً للصوصل التاريخية ، واستعمل الخط الكوفي بجانبه في كتابة الآيات القرآنية .

وفي زمن الأيوبيين ، إنصرف رجال الفن عن رسوم الإنسان والحيوان وأبدعوا في الزخارف النباتية والهندسية ، وقد أفلحوا في هذا الحقل ، حتى أصبحت العناصر الزخرفية التي ابتدعوها طابعاً لفنونهم الرائعة .





مخطط قلعة الجبل وابوابها

الفصل الرابع

الفاخرة في أيام المماليك البحرية

من ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢

إن معظم الآثار التي نشاهدها اليوم في القاهرة ، من تراث مصر المملوكي . وقبل أن نتكلم عما طرأ على القاهرة في تلك الأيام ، سنلقي الضوء على أهم أحداث المماليك .

كانوا محاربين شجعان جاهدوا كثيراً ، وقاوموا أشد الغزوات مناعة ، وردوا جحافل هولاكو عاهل المغول وخليفة جنكيزخان . وكان المغول قد زحفوا إلى ربوع آسيا الغربية وردهم المصريون على أعقابهم أربع مرات . وقد لقي قطز أول صدماتهم ، وكان هولاكو هذا قد أرسل رسلة للقاهرة ومعهم رسالة يطلب فيها من المماليك أن يستسلموا . فلم يكن من قطز إلا أن قطع رؤوسهم وعلقها على باب زويلة وسار يتقدم جيوشه حتى وصل إلى الشام . وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجوخان ، فاضطر إلى العودة وترك جيشه لمقاومة المصريين . فالتقى الجيشان في عين الجالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وانتصر المصريون انتصاراً باهراً وغنموا غنائم كثيرة ، وطهروا البلاد من المغول . وفي أثناء عودة الملك المنصور « قطز » إلى القاهرة تربص له بعض رجاله وقتلوه .

الظاهر بيبرس

(٦٥٨ — ٦٧٦ هـ)

تولى العرش من بعده الظاهر بيبرس البندقداري ، فهزم المغول في بيرة في عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م ، ثم قصد الكرك وقتل سبعة آلاف من أعدائه ، واستولى على العرش السلجوقي . وجاء قلاوون من بعده (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ) فغزا المغول مرة أخرى في عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م ، وكان قد جمع لجيشه ألوف من رجال حرسه والتركمان والبدو وعرب الفرات والحجاز ، وقد انضم إليه في تلك الحملة صاحب حماة أحد أفراد أسرة صلاح الدين ، وانتصر على أعدائه في موقعة حمص وبذلك حرر الشام مرة أخرى من المغول ، لكنهم عادوا إليها مرة ثانية في أثناء حكم أبيه الناصر محمد بن جندب في عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م جيشاً جراراً وأسرع لانتقامهم في حمص فتقهقر الناصر ، ثم جمع رجاله ودارت الحرب بين الفريقين فغلب المصريون

بادىء الأمر ثم ارتدوا على صفوف الأعداء كالسيل ففرقوا جموعهم وتطهرت الشام منهم وعرفت هذه المعركة بـعرج الصفر ، وكان من الأمراء الذين أظهروا بسالة فائقة في تلك المعركة بيبرس الجاشنكير الذى أصبح فيما بعد سلطاناً ثم عاد الملك الناصر إلى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم ، وقد سبقه الرسل يحملون أنباء انتصاراته وتنافس الأمراء في إقامة الزينات الفخمة على جانبي الطريق ، وحرم أهل الصناعات من عمل أى شئ خلا ما تعلق منها بالاحتفاء بالنصر ، وفرشت الطرقات بالطنافس ، فلما وصل السلطان أظهر سروره بما فعله الأمراء وعرض أسرى المغول المسكبين بالأغلال .

لم يكن المغول هم الذين ذاقوا وحدهم مرارة الفشل ، فقد أعلن بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات في فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول ، فاستولى على قيسارية وأرسوف في عام ٦٤٣ هـ / ١٢٦٥ م ، وأدل أسراهم الذين ساقهم إلى القاهرة ، فقد عرضهم بأعلامهم للنكسة ، ثم صمم بيبرس على طرد الصليبيين من تلك البلاد نهائياً ، فاستولى على يافا في عام ٦٦٦ هـ وسلمت بلفورت وانطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التي أحرقتها ، وبالتدريج استولى على حصون الصليبيين وقلاعهم في بغراس وصافيتا . . الخ ، ثم قصد مكة ماراً بحلب وزار قبر إبراهيم الخليل وبيت المقدس ، ثم عاد إلى مصر ، وقد أتم عمله العسكري والديني معاً ، واستولى الأسطول المصرى على قبرص .

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تطاع من ساحل الفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع ، وكانت المدن المقدسة مكة والمدينة وبيت المقدس في قبضته ، ووضع يده على سواكن وعيذاب على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وبرابرة الشمال ومغول الفولجا ، وأصبح خانهم حليفاً له ، وأرسل ابنته للزواج منه ، وتبادل مقوضيه مع إمبراطور بيزنطية الذى رُم مسجداً في الآستانة ، واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا . ثم أنه عمل على إعادة الخلافة العباسية التي قضى عليها المغول عام ١٢٥٨ م واستقدم الإمام أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسي في موكب عظيم ، وأعلنه خليفة المسلمين وأسكنه قصرًا عظيماً بالقلمة ، وظل الخليفة العباسي يستظل تحت سماء مصر حتى استولى العثمانيون على البلاد عام (١٥١٧ م) .

إن الظاهر بيبرس من أخلد الممالك البحرية أثراً ، فقد كان قائداً ماهراً وسياسياً ذكياً ومصلحاً ، بعيد النظر وإدارياً عادلاً . كان يشرف على أمور البلاد بنشاط ويراقب عماله رقابة شديدة ، وقد قضى أكثر سنى حكمه في ميادين القتال خارج مصر . وكان ينتظر فرصة وجوده في مصر فيعمل على إصلاحها وتحسين عاصمتها . وبني في عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م دار العدل القديمة تحت القلعة ، وصار يجلس بها ليرى العساكر في يومى الاثنين والخميس ، وكان ينظر في أمر المظلومين بنفسه ، فإذا كان لأحد مظلمة أتى إليه وشكا للسلطان ، وقد عمر المدارس وأصلح المساجد وبني مسجده العظيم المعروف بجامع الظاهر ، وحفر خليج الاسكندرية القديم ، وجدد الجامع الأزهر وأعاد إليه الخطبة . ومن آثاره قناطر الباع التي أُنشأها قرب ميدان السيدة زينب على الخليج ، وحفر الترعة وأنشأ الطرق وحصن الاسكندرية وأعاد للأسطول المصرى سابق أيامه ، فبنى أربعين سفينة حربية ، واحتفظ بجيش منظم عدده ١٢٠٠٠ جندي ، وكانت حكومته

محترمة وعادلة ، واستطاع التغلب على مجاعة سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٦٥ م ، ومنع شرب الخمر وتدخين الحشيش ونهض بأحوال البلاد الصحية ، وكان محباً لركوب الخيل ورمى النبال يعضى فيها نهاره ويقضى ليله في العمل ، وأنشأ ميداناً دعاه ميدان القبق للعب وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمى الشباب وغيرها من الألعاب الحربية ، وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون عسف أو إرهاب ، ولا غرو فإنه كان محبوباً من رعيته بعد أن رأوه الحاكم العادل والقائد الشجاع ، وتذكره العامة الى اليوم في القصة الشعبية المشهورة .

وفي أيام الظاهر بيبرس كرفح أصحاب الماهات ومفتلواها ، فقد أمر السلطان في سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م بجمع أصحاب الماهات لجمعهم بخان السبيل بالحسينية ثم نقلهم إلى الفيوم ، وأفردت لهم بلدة تغل للصرف عليهم غير أنهم لم يستقروا بها وتفرقوا وعاد كثير منهم إلى القاهرة (١) .

ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقي لقوة المماليك والنظم لسياستهم في إدارة الحكومة . ومنذ قاد بيبرس بمالكة البحرية في معركة المنصورة (١٢٥٠ م) وتغلب على «لويس» ملك فرنسا سميت مكانته فنحه السلطان حق الإشراف على الجيش ، ثم استولى على العرش وكان بلاطه مثلاً للنظام وحسن الرونق لمن تولى العرش بعده . فقد جمع السلطان في حاشيته كبار ضباطه ورجال دولته وموظفي حاشيته . ومن أصحاب تلك الوظائف الوالى -- وأتابك المساكر (قائد الجيش) وقائد الحرس وأمير السلاح وأمير الجياد وحامل الكأس وأمير الخزانة وأمير الصيد وأمير الصولجان وأمراء الطبول ، وكان يتبع هؤلاء أربعون من الجند لهم فرقة موسيقى مؤلفة من ستة عشر عازفاً ، وكانت الحاشية تجمع عدداً وفيراً من الحصيان والأمناء والكتاب وأطباء القصور والقضاة والفقهاء وغيرهم ، وكان السلطان يوزع على هؤلاء الأمراء إقطاعات واسعة ويعنحهم الهبات العظيمة والمرتبات الضخمة .

وكان لكبار رجال القصر وضباط الجيش المقام الأول في الدولة وهم الذين يجيء ذكرهم بعد السلطان ، لذلك كان كل واحد منهم يستطيع أن يخلف السلطان بعد وفاته إذا تغلب على منافسيه .

غير أن عصر المماليك كان يمتاز بكثرة المشاحنات والمشاجبات الداخلية ، وكانت حوادث السلب والنهب ملهامة المماليك وأتباعهم يلعبون إليها كضرب من ضروب الألعاب الرياضية المسلية . يصوبون سهامهم وحراهم من نوافذ دورهم على أعدائهم في المنازل المواجهة أو على السائرين في الطرقات ، فتبتدى المعركة وتسمع حوافر خيلهم ووقع أسلحتهم وأنين جرحاهم ، فيسرع أصحاب المتاجر إلى إغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة .

القاهرة في أيام الظاهر بيبرس

اتسعت مساحة القاهرة وبنى الظاهر وعمر بقلعة الجبل دار الذهب ، وبرجة الجبارج قبة عظيمة محمولة على إثني عشر عموداً من الرخام الملون ، وصور فيها سائر حاشيته وأمراؤه على هيئتهم ، وعمر بالقلعة أيضاً طبقتين مطلتين على رحبة الجامع (هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله في الجامع الذي أنشأه سنة ٧١٨ هـ) وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة (الباب المدرج) ، وأخرج منه رواشن ، وبنى عليه قبة وزخرف سقفها . وأنشأ برجة باب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد . وأنشأ دوراً كثيرة بظاهر القاهرة برسم الأمراء ، وأنشأ حماماً بسوق الحيل لولده الملك السعيد ، وأنشأ الجسر الأعظم (بين بركة قارون وبركة الفيل) والقنطرة التي على الخليج (قناطر السباع) وأنشأ الميدان بالبورجى ونقل إليه النخيل بالثمن الزائد من الديار المصرية ، فكانت أجرة نقله ستة عشر ألف دينار ، وأنشأ به المناظر والقاعات والبيوت وجدد جامع الأقمر والجامع الأزهر ، وبنى جامعته الكبير بالحسينية وأتفق عليه فرق ألف ألف درهم . وأنشأ قريباً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرناً ، وعمر بالقياس قبة رفيعة مزخرفة ، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية ، وجدد قلعة الجزيرة وقلعة العمودين بركة وقلعة السويس ، وعمر جسراً بالقليوبية والقناطر على بحر أبي المنجا وقنطرة بمنية السرج الخ .

لقد بنى في أيام الملك الظاهر بيبرس بمصر ما لم يبن في أيام الخلفاء الفاطميين ، ولا مسالوك بنى أيوب من الأبلية والرباع والخانات والقوايسر والدور والمساجد والحمامات من قريب مسجد التين إلى أسوار القاهرة إلى الخليج ، وأرض الطيالة ، واتصلت العماير إلى باب المقسم (المقس) إلى اللوق إلى البورجى ومن الشارع إلى الكبش وحدرة ابن قبيعة إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة إلى السور القراقوشى^(١)

ولم يأخذ المماليك بنظام الحكم الوراثى دائماً فقد تولى خليل سلطنة مصر بعد موت أبيه المنصور قلاوون (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) وتبعه الملك الأشرف محمد الملقب بالملك الناصر المرة الأولى في عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، ثم للمرة الثانية في عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م بعد قتل السلطان حسام الدين لاجين المنصورى ، ولم يلبث أن خلعه بعض الأمراء المماليك ، فترك القاهرة متظاهراً بالحج ، وسار مع رجاله إلى الكرك ، فاستولى عليها وحسن المدينة ثم بعث بالتحم السلطاني إلى المماليك ينيهم بتنازله ويفوضهم تولية من أرادوا ، فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) في ٢٥ رمضان ولقبوه بالملك المظفر ، وفي عهده قدم الصليبيون لغزو دمياط . ومن آثاره في القاهرة خانقاه المعروف بجامع جاشنكير بالجلالية .

وكان الملك الناصر قد ندم على تنازله عن كرسى السلطنة فجعل يترقب الفرصة لاستعادة عرشه ، وكان قد

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٠ — ١٩٢ .

أرسل إلى بعض زعماء الماليك ليدبروا مؤامرة لقلب الجاشنكير ، فنجحوا في عملهم ، فتنازل بيبرس وخرج إلى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها ، وفي غداة خروجه من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم (٧٠٩ — ٧٤١ هـ / ١٣٠١ — ١٣٤١ م) للمرة الثالثة وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع وبايعة الأمراء في الإيوان الأشرفي . وقد تولى حكم البلاد واحداً وثلاثين عاماً ، وكان خلفاؤه على ضعف شديد فلم يديروا الحكم إلا إسمياً فقط وقد رأينا أن بيت قلاوون حكم مصر منذ عام ٦٧٨ هـ إلى عام ٨٤٠ هـ (١٢٧٩ — ١٣٨٢ م) باستثناء ست أو سبع سنوات تخللت تلك المدة الطويلة ؛ وكان مؤسس ذلك البيت السلطان قلاوون حاكماً شجاعاً وسياسياً حازماً ومشجعاً كبيراً للتجارة ، وقد وصلت المنتجات المصرية في أيامه إلى الهند والصين ، وعمل ما في طاقته لتنمية التجارة في داخل القطر ، وكان على مثال أبناء جنسه الماليك محباً للبناء . وقد يكون عجيباً أن نرى رجال الحروب يهتمون اهتماماً عظيماً بإحياء المهارة ، فقد أسس بيبرس مدرسته في عام ١٢٦٣ على جزء من أجزاء القصر المسمى بقاعة الفسطاط ، وبنى جامعاً خارج باب الفتوح عام (١٢٦٧ — ١٢٦٩ م) وهو الجامع المعروف اليوم بجامع الظاهر ، وبنى قلاوون المستشفى الشهيرة بالبيارستان المنصوري بخط بين القصرين (شارع النحاسين) وقد بناه خارج جامع ومقبرته ، وكان يحيط ببناء البيارستان قاعات للدرس — ومكتبة وحمامات وصيدلية . . . الخ وكانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن المرضى ، وكان قلاوون يقرأ القرآن الكريم ويربي يتامى من أولاد الفقراء مجاناً في المدرسة المجاورة للمستشفى ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يزورون قبر ذلك السلطان الصالح وقبر ابنه الناصر يلتمسون الشفاء .

القاهرة في أيام الناصر محمد بن قلاوون

لقد اتسعت مساحة القاهرة على أيام الماليك البحرية ، فامتدت جهة الشمال عبر الصحراء والشمال الغربي والغرب أيضاً بما طرجه النيل من أرض جاء به الطمى الذى يرد مع فيضان النيل كل سنة . . ولم يترك الماليك قطعة أرض فضاء داخل القاهرة في شمالها أو جنوبها إلا أقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والأسبلة والوكالات . كان الاقبال على البناء والتعمير عظيماً ، فقد عم الرخاء في أيام الماليك وتوفر المال في خزائهم بما كانت تمود به التجارة مع الشرق والغرب ، وما كانوا يجلبونه عليها من مكوس ، فتسابق السلاطين والأمراء والأعيان في إقامة أعظم المساجد وأروع القصور التي جمعوا فيها التحف النادرة والألطف الجميلة .

ويعتبر عصر السلطان الناصر محمد من أزهى العصور في مصر من الناحية المعمارية ، وكان على صفات خلقية ممتازة ، قوى الإرادة مستبداً يسيطر وحده على حكم البلاد ، وكان صغير الجسم أعرجاً . وفي إحدى عينيه مرض ولكن أخلاقه القوية وثقافته ونفسيه ونشاطه وذوقه الجليل — كل هذه المزايا جعلت عصره من العصور الهادئة التي تمتع بها مصر . وقد ارتقت حاشيته ومجلس بلاطه عما كانت عليه في أيام أسلافه

ويمكن أن نعتبر الملك الناصر من الشخصيات البارزة أثناء القرون الوسطى .

سار على منوال بيبرس وقلاوون وحالف المغول وتزوج من ابنة أذربك خان (السيدة طالية) في سنة ٥٧٢٠ هـ ، وكانت حدود إمبراطوريته تمتد من بير أموس والفرات إلى سواكن وأسوان ، كما أنه ارتبط بعلاقات سياسية لم تحددها تحالفات رسمية مع إمبراطور دولة الروم الشرقية وملك البلغار وملوك الحبشة وبلاد العرب ، وقد زوج بناته لأحد عشر من أبناء الأمراء المصريين ، وكانت حفلة العرس الواحدة تتكلف ثروة وافرة . ولم يكن الناصر سياسياً فقط بل كان شغوفاً بالزراعة والرياضة فكان يدنع للجواد الواحد من أربع مائة إلى ألف جنيه ، وكان ملماً بتاريخ حياته وأعمالها وأعمارها وخصالها ومزاياها . . . الخ وكان في مزرعته ثلاثون ألفاً من رؤوس الغنم وكان مجباً للصيد . وقد شاهده الرحالة ابن بطوطة في عام ٣٢٦ م فوصفه بقوله « خلق نبيل وفضائل سامية » وكان مجباً لخير الشعب ، يجلس مرتين في الأسبوع لينظر بنفسه شكاوى الناس ، ونعت ثروة البلاد في أيامه وأزال الضرائب الزائدة على الحاجة وأمر بفسح الأراضي الزراعية وكان يعاقب أصحاب مطاحن الغلال وتجار الخبز إذا تجاوزوا في أسعارهم ، وقد حدثت في عام ١٣٢١ م سلسلة من حوادث الاضطهاد ضد النصارى لأن بعض رجال الناصر كانوا يعملون في حفر بركة اسمها « بركة الناصر » بالقرب من قنطرة السباع « غرب حى باب اللوق » فتحولوا بمأولهم وخربوا جزءاً من كنيسة الزهور ، وكان الناصر قد أمرهم باحترامها فاندفع الناس نحو الكنيسة بدون علم رجال الأمن وخربوها عن آخرها ثم قصدوا كنيسة « سانت ميناء » بالجمراء ونهبوها ثم أنهم كروا العمل بالقرب من السبع سقايات وطرّدوا منها الراهبات وغنموا ما وصلت إليه أيديهم ثم أحرقوها . فلما وصل إلى مسامع السلطان ما حدث أمر جنوده في الحال بكبح جماح الفوضى . والحفاظ على الكنائس .

لم ينقض شهر على تلك الحركة حتى ابتليت القاهرة بحرائق متوالية ، فكان حادث الحريق يتلو الآخر في كل حى من أحيائها وصعد الناس إلى مآذن المساجد يسألون الله عز وجل المعونة . وبذلت الجهود الجبارة لكبح النيران في أماكنها واستخدم لذلك جميع السقائين تحت إمرة أربعة وعشرين من رجال الأمراء فكانوا ينقلون المياه من الآبار والصهاريج والحمامات لكبح النار ، وكنت ترى الشارع الموصل من حى الدليم إلى باب زويلة كأنه نهر يفيض بمائه المتدفق . وقد لوحظ أن أكثر هذه الحرائق موجهة إلى الجوامع ودلت الحرائق على أنها من فعل فاعل ، وذلك من قطع الأقمشة المبتلة بالزيت والقطران والنفط التي عثر عليها وقبض على نصراني في جامع الظاهر وفي يده كميات من النفط والقطران يحاول إشعالها ثم اعترف بأن تلك الحرائق مدبرة وهي من عمل النصارى انتقاماً لما فعله المسلمون بتخريب كنائسهم ، ولما دعى بطريق القبط لمعرفة رأيه استهجن فقال أبناء طائفته ونهاهم عنها فأعيد إلى بيته معززاً مكرماً بين صفين من رجال حرس السلطان ، ولولا الجند لا تنقم منه الجمهور الهائج الذى عجب كيف أن بطريق القبط يعود في مثل هذا الحفل العظيم .

واضطرب السلطان أن يقاوم الفوضى فأرسل جنوده في جميع أنحاء القاهرة لنشيت شمل الجماعات بكل

الوسائل ، وقبض في يوم واحد على مائتين من المشايخين بالقرب من النيل، ومثلوا بين يدي السلطان فغيرهم بين قطع أيديهم أو شنتهم . وعيناً حاول الأمراء أن يتوسطوا لهم لتخفيف حكمه، فكان يرفض وساطتهم لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، فنصبت المشانق على جانبي الطريق المؤدى من باب زويلة إلى ميدان الرملة وعلق كثير من الجناة من أيديهم — ليكونوا عبرة لغيرهم .



ولم يسبق أن تمتع البناء أو المارة بفترة ناجحة مزدهرة كما حدث في أثناء حكم الناصر محمد ، امتاز عهده بالإنتاج الفني السامى ، وتدل المبالغ العظيمة التى صرفها السلطان وأمراؤه على المباني على ما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والثروة ؛ وقد احتفظ ببعض قطع أثاث الناصر منها مائدة من النحاس المطعم بالفضة فى متحف الفنون الإسلامية ، وأهم مبانيه العظيمة الأخرى مدرسة بين القصرين (١٣٠٤ م) المجاورة للبيارستان المشهورة ببابها القوطى الذى جليبه معه أخوه خليل من عكاء ، وكذلك مسجده بالقلعة (١٣١٨ م) وكلا الأثرين يدلان على جمال الذوق، مع أنهما لا ينان الآن على ما كانا عليه من بهاء ورونق تلك الأيام — فإن القبة العظيمة التى اعتلت جامع القلعة سقطت واختفت قطع القاشانى الرشيقة التى كانت تتحلى بها القبة ، واندثر النحاس الذى أحاط بعصلى السلطان «مقصورته» ولا يزال إلى الآن بعض الناور السماوية التى تحيط به على جدران الجامع ولكن ذهب زجاجها الملون البديع ، وتدل بقايا العمدة الجرانيتية العشرة الرخام الدقيق المطعم بالصدف المصوق على حائط الجامع القبلى ، وقليل من الآثار الأخرى على مجده السالف — وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المسجد مشدته المغطاة بالبلاط الأخضر ؛ وكان فى القلعة بهو الأعمدة وهو من أجزاء القصر الأبلق الذى شيده فى عهده . وفى أيامه زيدت أجزاء كثيرة فى القلعة كما أن مجرى الميرون التى كانت تصل المياه من النيل إلى القلعة من أعمال الناصر وبعضها من أعمال الأيوبيين . وقد شيد الناصر محمد جامعا بجانب مشهد السيدة نفيسة ، وكذلك قبة النصر بالقرب من التل الأحمر وزوايا أخرى ؛ ولما كان الناس فى كل عصر على دين ملوكهم فقد تبع الأمراء سنة سلاطينهم فى بناء الجوامع والمدارس والمقابر . ولقد رأى الرحالة ابن بطوطة الذى زار القاهرة فى عام ١٣٢٥/١٣٢٦ م كيف كان يتنافس أمراء مصر على تخليد أسمائهم فشيدوا الخوانق والتكايا العظيمة ومنها خانقاه بيبرس الجاشنكير ولا تزال باقية ، ويقول ابن بطوطة أنها عجيبة وصيقلتها مجهزة بالعقاقير الوفيرة ، وكان المبلغ الذى يصرف يوميا وقد قدره الرحالة بألف دينار مبلغاً ضخماً ، وبلغ عدد المساجد والمدارس التى شيدت بين عامي (١٣٢٠ — ١٣٦٠ م) أربعين وهذا العدد أكثر من ربع ما شيد منها منذ فتح العرب مصر حتى أيام القرينى (القرن الخامس عشر) ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم وهو صورة رائعة لما كان عليه المالك من مجد وأبهة . ومن هذه الجوامع — جامع الأمير حسن (٧١٩ هـ — ١٣١٩ م) وجامع ألس (٧٣٠ هـ) وقوسون (٧٣٠ هـ) وبشتاك — (٧٣٦ هـ) والتغيا المردانى (٧٤٠ هـ) وأسلم النيهانى (٧٤٦) وآق سنقر (٧٤٧) وأرغون الاسماعلى (٨٤٨) ومنجق

(٤٥٠) وشيخون (٧٥٠) ومن المدارس مدرسة سنجر الجاولى (٧٠٣) وأحمد المهندار (٧٢٥) وأقبجا (٧٣٤ هـ) وصرغتمش (٧٥٧ هـ) . ومن الخانات خانقاه قوسون (٧٣٦) وشيخون ٧٥٦ — وبكلل هذه العماثر جامع السلطان حسن — المواجه للقلمة (٧٥٧ — ٧٦٠ هـ) ، وهو أجمل ما تركه الممالك وأخف مساجدهم الفاهرية .

ولكى نصف مساجد العصر الناصرى يجب أن يفرّد سفر خاص . حقيقة أن بعضها قد شمله الحراب إلا أن مخلفاتها تدل على بهائها السابق . ويوجد عدد ليس بالقليل جدت عمارته بجامع آق سنقر وجامع أرغون شاه الاسماعيلى ، فقد جدد الأول ابراهيم أغا فى سنة ١٦٥٢ وجدد الآخر أحد الأمراء . وهذه الجوامع المذكورة تختلف كلها فى تفاصيل الهندسة وزخرفتها المعمارية . وليس من السهل أن يوضع لها وصف شامل واحد . وكل جامع أو مدرسة أو خانقاه مما ذكرتها تستحق وصفاً خاصاً . ولكن قد تتفق كلها فى ظاهرة واحدة لأن الجوامع القديمة تكاد تشترك فى بساطتها الخارجية من حيث الزخرفة . وفى جوامع الممالك ترى اقتباساً من فن مبانيهم التى شيدوها فى فلسطين وسوريا ، وهو فن يتاز بواجهة رائعة — تشمل الطنف والبيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية ، والظاهرة الثانية هى المأذنة أصبحت أرق وأرشق مما كانت عليه ، فتجدها قد شيدت من الحجر المتقن النحت كما أتقن ذوق تصميمها وتراها تتحول من قاعدة مربعة إلى أخرى مشتمة فأسطوانية ، وهى ذات مسحة أخاذة وتزيدها شرفاتها الدائرة حول خصرها فتنة . أما الظاهرة الثالثة فاتخاذ القباب الكبيرة والقباب الصغيرة فوق المحراب أو المدخل — وهذه مزية أخذ بها أكثر مهندسى جوامع العصر الناصرى .

وليس هناك شك فى أن الممالك أجادوا بناء القباب ، واشتملت أكثر مساجدهم ومدارسهم على مقابر مشيدها — وكان القبر فى كثير من الأحيان متصلاً بالبناء الأصيل وقد بدأ فى عصر الممالك مشروع تجميل القاهرة بتلك المنشآت الرائعة الجمال التى لا تزال تسود فن العمارة فى العالم . وأعود ثانية لأقول أنه من ناحية أبنية العصر الناصرى اتخذت الواجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالباً من لونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الأبيض والأسود وفى أعلى الواجهات ابتكر طراز للكتابة ينتهى بأفريز تعلوه الشرفات ، وفى داخل الجوامع ذوات الإيوانات استعملت عمدة الرخام دعائم دون غيرها وكانت تؤخذ من العماثر القديمة . وأما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التى تحملها نقشاً جميلاً محلى بالذهب وتعمل وزرات الجدران بالرخام والكل منسجم للغاية . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية التى لم تبق إلى اليوم كاملة ، ولكن الأجزاء الباقية منها تبين بجلاء ما اتسمت به منذ ستائة سنة .

القاهرة في أيام أسرة الناصر محمد بن قلاوون

لا شك أن من أهم مراحل تطور القاهرة العمرانية وللمعمارية في العصر الوسيط ، كانت التي مرت بالحاضرة الإسلامية الكبرى على أيام أسرة قلاوون ، التي استأثرت بحكم البلاد زهاء قرن من عام ١٢٧٩ إلى عام ١٣٨٢ حتى تولى برقوق العرش مؤسساً دولة المماليك البرجية .

وكان الملك الناصر محمد يحب العمارة ، فانه منذ قدم من الكرك إلى أن مات أقبل على (١) البناء المستمر فكان ينفق في كل يوم مدة سنى حكمه ثمانية آلاف درهم ، فاذا رأى منها ما لا يعجبه هدمها كلها وجدها على ما يختاره . واستجد في أيامه عمائر كثيرة منها : حفر خليج الاسكندرية ، حفروه في مدة أربعين يوماً ، عمل فيه نحو المائة ألف رجل من النواحي (٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) ، وأنشئت عليه قرية جديدة باسم الملك ، وفرح الناس بهذا الخليج فرحاً زائداً .

أنشأ الناصر محمد الميدان (٢) تحت قلعة الجبل وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار ، ولعب فيه بالكرة في كل يوم ثلاثاء مع الأسراء والخاصكية وأولاد الملوك . ثم عمر فوق الميدان القصر الأبلق (٣) وأخرب البرج الذي كان عمره أخوه الأشرف خليل على الأسطبل وجعل مكانه القصر المذكور (٧١٢ هـ) وعمر فوقه رفرفاً وعمر بجانبه برجاً نقل إليه المماليك ، وغير باب النحاس (٤) من قلعة الجبل ووسع دهليزه وعمر في الساحة تجاه الأبواب طباقاً للأمراء الخاصكية ، وغير عمارة الإيوان (٥) مرتين ثم في الثالثة أقره

(١) أبو المحاسن بن تغردى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص ١٧٦ - ٢١١ طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ .

(٢) ذكر هذا الميدان بأسماء متنوعة ، ميدان القلعة والميدان الأسود أو قره ميدان ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له المنشية الخطط المقرزية ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) القصر الأبلق أنشأه الناصر محمد في شعبان سنة ٧١٣/١٣١٣ وانتهت عمارته سنة ٧١٤/١٣١٤ ، وأنشأ بجواره حديقة وقد اندثر القصر وكان قائماً في الجهة الغربية من القلعة حيث المكان الواقع على بين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التي بها جامع محمد على .

(٤) كان هذا الباب من أجل أبواب الدور السلطانية بالقلعة (الخطط ج ٢ ص ٢١٢) .

(٥) الإيوان هو الذي عرف بدار العدل أنشأه الملك المنصور قلاوون ثم جده ابنه الملك الأشرف خليل فرفر بالقاعدة الأشرفية ، ثم هدمه الملك الناصر محمد ، وأعاد بناءه في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣١٩ م ، وزاد فيه . مكانه اليوم جامع محمد على بالقلعة .

على ما هو عليه وحمل إليه العمدة الكبار من الصيد ، فجاء من أعظم المباني الملوكية ، ورتب خدمته بالإيوان ، وعمر بالقلمة أيضاً دوراً للأمرء الذين زوجهم لبناته ، وأجرى إليها المياه وعمل بها الحمامات ، وزاد في باب القلمة (١) من القلمة باباً ثانياً . وعمر جامع القلمة (٢) والقاعات السبع (٣) التي تشرف على الميدان لأجل سراريه . وعمر باب القرافة (٤) وكان غالب عمائره بالحجارة خوفاً من الحريق . وعزم على أن يغير باب المدرج (٥) . ويعمل له دركا ، فمات قبل ذلك . وعمر بالقلمة حوش الغنم وحوش البقر وحوش المعزى فأوسع فيها نحو خمسين فدانا .

(١) اندثر هذا الباب ، وكذلك الباب الذي شيد من قبل بنفس الاسم ، وكانا واقعين على مسافة قريبة خلف باب القلمة الحالي وعرف بباب المدافع ، وفي عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م جدد محمد علي باب القلمة الحالي الذي يعرف اليوم بالبوابة الداخلية وهذه البوابة واقعة بعد البوابة الوسطى وتوصل إلى المتحف الحربي وجامع سيدي سارية .

(٢) هو الجامع القائم اليوم إلى يسار الداخل إلى القلمة قبل الوصول إلى جامع محمد علي ، أنشأه الناصر محمد في عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ، وكان في مكانه جامع قديم والمطبخ السلطاني ومخازن الفروشات ، فهدم الجميع ، وأدخلها في الجامع الناصري (المخطط القرظية ج ٢ ص ٢١٢ و ٣٢٥) . وقد صلى فيه عند فراغه في أول رمضان سنة ٧٣٦ . قامت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاح وترميم هذا الجامع في الأربعينات .

(٣) كانت القاعات السبع تشرف على الميدان وباب القرافة ، وقد أسكن فيها الناصر محمد سواريه ومكانها اليوم قصر الجوهرة الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية بالقلمة (المخطط القرظية ج ٢ ص ٢١٢) .

(٤) أحد أبواب القلمة (المخطط ج ٢ ص ٢٠٤) وهو خلاف باب القرافة من أبواب القاهرة الخارجية القديمة التي كان يخرج منه أهل القاهرة إلى قراة الإمام الشافعي . وكان باب القرافة بسور القلمة القبلي بين البرجين المعروفين ببرج المطار وقد سد من الخارج في أيام العثمانيين ، وآثاره من الداخل موجودة وقد كشفت إدارة حفظ الآثار عن دهنه وأصلحته (النجوم الزاهرة حاشية ٢ ص ١٨١ ج ٩) .

(٥) أقدم أبواب القلمة أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٧٩ / ١١٨٣ م ، ولا يزال باقياً عند يسار الداخل إلى القلمة من بابها العام . (أنظر فصل القاهرة في أيام الأيوبيين) .

وعمر الناصر الخانقاه^(١) بناحية سرياقوس ورتب فيها مائة صوفي لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج إليه . وقد صارت الخانقاه مدينة عظيمة . وعمر القصور بسرياقوس ، وعمل لها بستاناً حمل إليه الأشجار — من دمشق وغيرها ، فصار بها عامة فواكه الشام . وحفر الخليج الناصري^(٢) خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس ، وعمر على هذا الخليج عدة قناطر^(٣) وصار يجانبى هذا الخليج عدة بساتين وأملأك وعمرت به أرض الطبالة^(٤) بعد خرابها من أيام العادل كما كتبنا . وعمرت جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رمالاً ، يرمى منها الممالك للشباب ؛ وتلعب الأمراء بها الكرة ؛ فصارت كلها دوراً وقصوراً وجوامع وأسواق وبساتين ، وبلغت البساتين بجزيره النيل في أيامه مائة وخمسين بستاناً بعد ما كانت نحو العشرين بستاناً . واتصلت المائر من ناحية منية السيرج على النيل إلى جامع الخطيرى إلى

(١) ذكر المقرئى هذه الخانقاه (الخطط ج ٢ ص ٢٢٤) أنشأها الناصر ، على بعد فرسخ في شمال شرق سرياقوس ، بدأ بعمارها في ٧٢٢ هـ / ١٢٢٣ م ، واحتفل بافتتاحها يوم ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م بحضور الناصر ، ورتب لها الأوقاف الكافية ، ثم أقبل الناس على البناء والسكنى بجوارها وشيدوا الدور والحوانيت والحانات والحمامات حتى صارت بلدة كبيرة عرفت باسم خانقاه سرياقوس ، وقد اندثرت خانقاه وكانت واقعة في الفضاء المجاور الآن لجامع الملك الأشرف من الجهة الغربية .

(٢) الخليج الناصري ذكره المقرئى (ج ٢ ص ١٤٥) فقال أن الملك الناصر محمد أمر بحفر خليج من النيل يتصل بالخليج الكبير (القاهرة) لزيادة الماء فيه وكان فيه بموردة البلاط من بستان الخشاب ماراً بأراضى اللوق وبركة قرموط وباب البحر ، ثم أرض الطبالة ، وعندها يصب الخليج ماء في الخليج الكبير بدى في حفره في أول جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وتم حفره في شهرين . وكان هذا الخليج موجوداً حتى في عام ١٨٠٠ (النجوم الزاهرة ، حاشية محمد رمزي ج ٩ ص ٨٠) .

(٣) بلغ عدد القناطر التي عمرت على الخليج الناصري خمس قناطر هي : قنطرة الفخر وقنطرة قدادار وقنطرة الكتبة (الخطط ج ٢ ص ١٥٠) بخط بركة قرموط وقنطرة باب البحر التي عرفت باسم قنطرة الليمون وقنطرة المدبولي وقد اندثرت وقنطرة الحاجب التي كان يتوصل بها إلى أرض الطبالة التي أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ وعرفت باسم قنطرة البكرية وقد اندثرت .

(٤) كانت أرض الطبالة من أجمل متنزهاة القاهرة على جانب الخليج الغربى وموقعها اليوم منطقة السكن التي تحدد من الشمال والغرب بشارع الظاهر ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكنها ومن الشرق بشارع بور سعيد . وقد وهب الخليفة للمستنصر بالله الفاطمى هذه الأرض إلى مغنيته السماء الطبالة .

حكر ابن الأثير^(١) وزرية قوصون^(٢) وإلى منشأة المهراني^(٣) إلى بركة الحبش. حتى كان الإنسان يتعصب لذلك، فإنه كان قبل ذلك بمدة يسيرة تلالا ورمالا وحلفاء، فصار لا يرى قدر ذراع إلا وفيه بناء. كل ذلك من حجة السلطان للتمجير. فصار كل واحد في أيامه يفعل ذلك ويتقرب إلى خاطره بهذا الشأن، وصار لهم أيضاً رغبة في ذلك؛ كما قيل: الناس على دين ملوكهم، بل قيل أنه كان إذا صمغ بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شكره في اللأ وأمد في الباطن بالمال والآلات وغيرها. فعمرت مصر في أيامه وصارت أضفاف ما كانت عليه.

وقد عمر في أيام السلطان الناصر محمد القطعة (المنطقة) التي فيما بين قبر الامام الشافعي إلى باب القرافة طولاً وعرضاً بعد ما كانت قضاء لسباق خيل الأمراء والأحفاد والخدام، فكان يحصل هناك أيام السباق اجتماعات جليلة للتفرج على السباق إلى أن بنى السلطان محمد الناصر تربة الأمير بيضا التركاني تربته بعد وفاته عام ١٣٠٧ هـ / ١٣٠٧ م، ثم أنشأ الناس فيه تربهم.

(١) ينسب هذا الحكر إلى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الذي أنشأ داراً على النيل وبني الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير وكان يقع في المنطقة التي تعرف اليوم بمشش الشيخ على وعشش شرکس في الجهة الجنوبية من بولاق وبجدها من الغرب شارع ساحل الغلال حيث كان يجري النيل تحت في ذلك الوقت، ومن الجنوب والشرق شارع فم التربة البولاقية بالقاهرة.

(٢) مكان هذه الزرية اليوم الأرض التي عليها دار الآثار المصرية وملحقاتها بشارع مریت باشا بالقاهرة. وأما خط زرية قوصون فكان يشمل المنطقة الواقع فيها دار الآثار المصرية، وثكنات قصر النيل قبل هدمها (محافظة القاهرة، وهيلتون ودار جامعة الدول العربية).

(٣) ذكر القريري هذه المنشأة (ج ١ ص ٣٤٥)، فقال: ان موضعها فيما بين النيل والخليج الكبير (المصري) ويعرف موضعها بالكوم الأحمر. ولما أنشأ الوزير صاحب بهاء الدين على الجامع بخط الكوم الأحمر أنشأ الأمير سيف الدين بلبان للمهراني داراً وسكنها وبني مسجداً بجوارها فعرفت هذه الخطة به، وقيل لها منشأة المهراني، وأقبل الناس في البناء وأكثروا فيها من المار (الخطط ج ١ ص ٣٤٣ ج ٢ ص ١١٤ و ج ٢ ص ١٣٦) وذكرها ابن اباس في بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٠) فقال: أن الأمير شهاب الدين أحمد بن عمود المني أنشأ قصراً عظيماً يطل على النيل بمنشأة المهراني. وعلى العموم فقد كانت المنشأة تقع بين سيالة جزيرة الروضة والخليج المصري بأوله من جهة فم الخليج ومن الجنوب ميدان ومنتره فم الخليج، والحد الشرقي بعضه مساكن أقيمت على ذات الخليج بعد ردمه وبعضه شارع الخليج المصري (بور سعيد) والحد البحري شارع كوبري محمد علي وشارع بستان الفاضل (م. رمزي).

وعمر الناصر في أيامه الصغراء التي ما بين قلعة الجبل وخارج باب المحروق^(١) إلى تربة الظاهر برقوق ، وأول من عمر فيها الأمير قراستقر تربته^(٢) وعمر بها حوض السيل يملؤه مسجد ، ثم اقتدى به جماعة من الأمراء والخوندات والأعيان مثل خوند طغاي ، عمرت بها تربتها العظيمة^(٣) ومثل طشتمر حمص أخضر^(٤) الناصري ومثل طشتمر طليعة الناصري وغيرهم . وكان هذا الموضع ساحة عظيمة وبه ميدان القيق^(٥) من عهد الملك الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل المواكب به برسم سباق الخيل ، فلما عمر قراستقر تربته عمر الناس بعده حتى صارت الصغراء مدينة عظيمة ، وعمر الملك الناصر أيضاً للملك عدة قصور خارج القاهرة وبها .



القصر ————— والدور

نذكر منها قصور الأمير طقتمر الدمشقي بحجرة البقر^(٦) وبلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهم . فلما مات

(١) باب المحروق من أبواب القاهرة القديمة في سورها الشرق المشرف على الصغراء بناء صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ / (الخطط ج ١ ص ٣٨٣) وقد عرف باسم باب القراطين الذي أحرق أثناء إحدى الثورات وقد خرب هذا الباب ، ومكانه اليوم على رأس درب المحروق داخل شارع النبوة .

(٢) اندثرت هذه التربة وملحقاتها ويتعذر تعيين مكانها

(٣) أنشأت هذه التربة الخاتون طغاي والدة الأمير أنوك بن الملك الناصر محمد خارج باب البرقية بالصغراء ، وهناك إلى اليوم خانقاه ، وبها قبة تحميها تربة خوند طغاي التي أنشأتها حوالي عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ ، وهي تقوم على ناصية شارعى خوند طغاي والسلطان أحمد بجبانة المجاورين شرق القاهرة .

(٤) هذه التربة أنشأها الأمير طشتمر سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م ، ولا تزال موجودة يملوها قبة بشارع الطيفي بجبانة المجاورين .

(٥) ويعرف بالميدان الأسود (قره ميدان) وهو اليوم صلاح الدين

(٦) هذا القصر هو بذاته بيت طشتمر الساقى حمص أخضر وكان واقماً في المنطقة التي تحدد اليوم من الغرب بشارع الحلبة فيما بين زاوية الشيخ عبد الله وبين مدخل شارع المظفر ، ومن الجنوب شارع المظفر ومن الشرق بحارة رفعت وقد أزيل القصر وملحقاته ، وأقيم على أرضه المباني الحديثة .

طقتهم أنعم به على الأمير طشتنر حمص أخضر فزاد في عمارته، ومنها قصر الأمير بكتمر الساقى (١) على بركة الفيل بالقرب من الكباش، فعمل أساسه أربعين ذراعاً وارتفاعه أربعين ذراعاً فزاد مصروفه على ألف ألف درهم . ومنها الكباش (٢) حيث كان عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب فعمله الملك الناصر سبع قاعات برسم بناته ينزلون فيه للفرجة على ركب السلطان الميدان الكبير (٣)، لم ينصر ما أنفق فيه لكثرتهم . ومنها اسطبل الأمير قوصون بسوق الخيل (٤) تحت القلعة تجاه باب السلسلة (٥) وكان أصله اسطبل الأمير سنجر البشقدار وسنقر الطويل . ومنها قصر ربهادر الجوباني (٦) بجوار زاوية البرهان الصالح بالجسر الأعظم تجاه الكباش . ومنها قصر قطلو بما الفخرى (٧) .

(١) ذكر القرزى (ج ٢ ص ٦٨) أنه كان من أعظم مساكن مصر وأجلها قدراً وأحسنها بدياناً وموضعه على بركة الفيل تجاه الكباش أنشأه الملك الناصر محمد لسكنى أجل أمراء دولته الأمير بكتمر الساقى وقد بقى هذا القصر قائماً نحو ثلاثمائة سنة ثم هجره الأمراء وخرّب ، فبنى في محله الأمير صالح بن القاسم داره المشهورة وبذل الجهد في تنسيقها وتقليب مع الأيام حتى بنى في مكانها مصنع للسلاح والبارود ثم تحولت مصنفاً فسجناً فسكنى .

(٢) تعرف اليوم بقلعة الكباش وتشرف من بحريها على شارع مراسينا ومنتزه الحوض المرصود بقسم السيدة زينب .

(٣) هو الميدان الناصرى الذى أنشأه الناصر على النيل بأرض بستان الخشاب (الخطط ج ٢ ص ٢٠٠) وكان واقفاً في المنطقة التى تحد اليوم من الغرب بشارع القصر العالى على النيل ، ومن الجنوب شارع والده باشا بأرض القصر العالى ومن الشرق شارع قصر العين ومن الشمال شارع رسم باها وما في امتداده إلى النيل .

(٤) سوق الخيل كان واقفاً تحت قلعة الجبل في الجهة التى عرفت بالرميلة والآن بالمشية بقسم الخليفة

(٥) يعرف باب السلسلة اليوم بباب المزب بالقاعة في جزئها الأسفل ويطل على ميدان صلاح الدين .

(٦) اندثر هذا القصر وكان واقفاً في الجهة الغربية من جامع لاجين اللا لا المعروف بجامع ابن سعيد جفمق بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب .

(٧) الراجح أن هذا القصر كان بحارة برجوان بالقرب من جامع زين الدين عبد الباسط بن خليل وقد اندثر .

وقصر الطنبغا المارداني وقصر يلغا الياوي^(١) ، وهؤلاء أجمل ما عمر من القصور ، وكانوا في موضع المدرسة الناصرية الحسنية^(٢) أخذها الملك الناصر حسن وهدمها وعمر مكان ذلك مدرسته المشهورة به . وعمر في أيامه الأمراء عدة دور وقصور منها : دار الأمير أيدغمش أمير أخور^(٣) وقصر بشتك وغيره .

وقد خرب السلطان الناصر ميدان اللوق^(٤) الذي كان عمره الظاهر بيرس وعمله بستاناً ؛ ثم أنعم السلطان بالبستان المذكور على الأمير قوصون ، فبنى قوصون تجاهه زريته المروفة بزرية قوصون بليانا ووقفه . واقتدى الأمراء بقوصون في العمارة . ثم أخذ قوصون بستان الأمير بهادر رأس نوبة وحكره للناس ومساحته خمسة عشر فدانا فنوه دوراً على الخليج ، فعرف بحكر قوصون وحكر السلطان حول البركة الناصرية^(٥) أراضي البستان (فعمروها الناس وسكنوا فيه ، ثم حكر الأمير طقزدمر

(١) يستفاد مما ذكره للقرنزي في خطه (ج ٢ ص ٧١) أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أمر ببناء قصرين أحدهما لسكنى الأمير يلغا الياوي والثاني لسكنى الأمير الطنبغا المارداني لزيادة رغبته فيهما وعظيم محبته لهما وليكونا بالقرب من قلعة الجبل ، ففي عام ٧٣٨ هـ / اختار الملك الناصر مكان هذين القصرين بسوق الخيل في الرملة تحت القلعة وأمر بهدم الدور والاسطبلات التي كانت قائمة وقام بتكاليف العمارة من ماله الخاص . وقد بدأ ببناء قصر يلغا الياوي فجاء في غاية الفس ، وفي ٧٥٧ هـ هدم السلطان الناصر حسن ابن محمد هذين القصرين وأدخل أرضهما في مدرسته (مسجد السلطان حسن) .

(٢) مسجد ومدرسة السلطان حسن بمحي الخليفة .

(٣) دار الأمير أيدغمش موقعه في الجزء الشرقي من مسجد السلطان حسن وقد اندثر . أما قصر بشتك (الخطط ج ٢ ص ٧٠) ، فكان من جملة القصر الكبير الشرقي مسكن الخلفاء الفواطم آل إلى الأمير بدر الدين بكتاش الفخري ، ثم اشتراه الأمير بشتك من ورثة بكتاش وأضاف إليه قطعة من حقوق بيت المال ثم دار اقطوان الساق ومن الجميع بنى قصراً نفياً ، كان ارتفاعه أربعون ذراعاً وللواء يجرى من أعلاه وله شبائيك تشرف على شارع القاهرة ، بدأ البناء في سنة ٧٣٥ هـ ، وأتمه في سنة ٧٣٨ هـ وبقياه لاتزال قائمة . (م . رمزي)

(٤) هو الميدان الظاهري .

(٥) كانت بركة الناصرية من جملة جنان الزهري (الخطط ج ٢ ص ١٦٥) حفرها الملك الناصر محمد لما أراد بناء زرية بجانب الجامع الطيرسي على النيل واحتاج في بنائها إلى طين فأمر بنقله من مكان هذه البركة إلى مكان الزرية في سنة ٧٤١ هـ / وبعد نقل الطين من البركة أجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطاني الكائن بأرض بستان الخشاب فامتلاّت بالماء وصارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحكر الناس حولها وبنوا الدور الكبيرة . وقد بليت هذه البركة على خريطة القاهرة التي رسمتها البعثة الفرنسية سنة ١٨٠٠ =

المحمى الناصرى بستاناً بجوار الخليج^(١) ومساحته ثلاثون فداناً وبني له قنطرة عرفت به^(٢) ، وعمل هناك حماماً وحوانيتاً أيضاً ، فصار حكراً عظيماً المساكن ، ثم حكر الأمير أقبغا عبد الواحد بستاناً بجوار بركة قارون^(٣) ظاهر القاهرة ، فعمره عمارة كبيرة ، وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة وحكروها وحكرت دادة السلطان الملك الناصر الست حدق والست مسكة القهرمانه حكرين عرفاهما وأنشأت كل واحدة منهما في حكرها جامعاً^(٤) ، فقام به الجمعة ، فزادت الأحكار في أيام الملك الناصر على ستين حكراً ، وهذا اتصلت العائز من باب زويلة إلى سد مصر^(٥) بعد ما كانت ساحة مخيفة كل ذلك لما علم الناس من حب السلطان للمارة .

== باسم بركة سقى نصره أو بركة السقاين ومكانها المنطقة التى يخترقها الآن شارع نصره ويمحدها من الشرق شارع عماد الدين (محمد فريد) ومن الغرب شارع مصطفى كامل (الشيخ عبد الله سابقاً) ومن الجنوب شارع الاسماعيلى (راجع الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٩٧) ويستنتج محمد رمزى من بحوث على مبارك فى خطته أن مكان هذه البركة التى عرفت أيضاً باسم بركة الشامات وبركة المعهد وبركة قاسم بك أن قصور وزارات المالية والمعارف والحربية وبعض ما يجاورها من المساكن تقوم فى مكانها .

(١) ذكر المقرئى هذا الحكر (ج ٢ ص ١١٦) فقال أن مساحته بلغت ثلاثين فدانا ، اشتراه طقزدمر نائب السلطنة بمصر والشمام ، وقاع أخشابه وغرسه ، وأذن للناس فى البناء عليه ، فحكروه وأنشأوا به الدور وصار الحكر مسكن الأمراء والأحفاد وبه السوق والحمامات وتقع أرض هذا الحكر على الجانب الغربى من الخليج المصرى ، ومن الغرب شارع الناصرية ومن الجنوب حارة قواوير وعطفة مرزوق ومن الشرق شارع الخليج المصرى (بور سعيد) .

(٢) قنطرة طقزدمر (الخطط ج ٢ ص ١٤٧) ، وكانت على الخليج المصرى بخط المسجد المعلق يتوصل منها إلى بر الخليج الغربى وحكر طقزدمر ، وقد أنشأها الأمير حول عام ١٣٢٩ / ٧٣٠ م ، ثم عرفت باسم قنطرة درب الجمائز ، ولما تم ردم الخليج سنة ١٨٩٨ اختفت القنطرة ، ومكانها اليوم فى نقطة واقعة بشارع بور سعيد تجاه مدخل شارع قنطرة درب الجمائز الموصل إلى حارتى السلطان الحنفى والهياتم .

(٣) صحتها بركة الفيل .

(٤) الواقع أن هذين الإسمين هما لسيدة واحدة . الست حدق والست مسكة وهى الشهرة التى عرفت بها الست حدق . والجامع الذى أنشأته بخطه المريس ذكره المقرئى فى الخطط (ج ٢ ص ٣١٣) وكان فى الجانب الغربى للخليج بالقرب من قنطرة السد أنشأته سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م فى مكان منظره السكره ، وقد اندثر الجامع ولم يبق منه إلا القاعة التى بها ضريح الشيخ محمد المواردى الكائن بمشش المواردى الواقعة جنوبى محطة السيدة زينب ، أما الجامع الآخر فلا يزال عامراً تقام فيه الشعائر الدينية بسكة سوق مسكة بالقاهرة ، وظاهر من الكناية المقوشة على بابه أنه أنشئ فى عام ٧٤٠ هـ / ١٣٢٩ م ، وفرغ من بائه فى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م كما ذكره المقرئى . (م . رمزى) .

(٥) المقصود قنطرة السد التى كانت على الخليج المصرى فيما بين مصر والقاهرة .

مساجد القاهرة

وعمرت في أيام الناصر محمد بالقاهرة عدة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعاً ؛ منها : الجامع الناصري بقلعة الجبل ، جدده وأوسعه ، ومنها الجامع الجديد الناصري^(١) على نيل مصر ، ومنها جامع الأمير طيرس الناصري نقيب الجيش على النيل بجوار خانقائه ، وقد اندثر من سنين ثم عمر طيرس المذكور مدرسته^(٢) المشهورة به بجوار الجامع الأزهر ، ولما خرب جامعهم المذكور الذي كان على النيل نقل الصوفية الذين كانوا به إلى المدرسة المذكورة ، ومنها جامع المشهد النفيسي ، ومنها جامع الأمير بدر الدين محمد التركماني بالقرب من باب البحر ، ثم جامع الأمير كوارى المنصورة بآخر الحسينية وجامع كريم الدين خلف الميدان . وجامع شرف الدين الجاكي^(٣) بسوقة الريش وجامع الفخر ناظر الجيش^(٤)

(١) اندثر هذا الجامع وقد ذكره المقرئى (ج ٢ ص ٣٠٤) عمره القاضي نضر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد ، شرع في بنائه سنة ٧١١ هـ ، وانتهت عمارته في ٧١٢ هـ وكان من أكبر الجوامع وكان واقفاً على سيالة جزيرة الروضة قبلى سواقى مجرى الماء القائمة على رأس حائط اليون التى عند قم الخليج فى المنطقة التى يخترقها اليوم شارع وحارة وعطفة السكر والليمون بمصر القديمة . (م . رمزى) .

(٢) عمر هذا الجامع الأمير علاء الدين طيرس الحازندار نقيب الجيوش بشاطئ النيل فى أرض بستانه الخشاب وعمر بجواره خانقاه سنة ٧٠٧ هـ وقد خرب هذا الجامع وكانت الخانقاه باقية لغاية سنة ١٩٢٦ باسم جامع الطيرس أو جامع الأربعين بشارع الشيخ بركات بقصر الدوبارة وقد أزالها وزارة الأوقاف وأنشأت على أرضها فى عام ١٩٢٨ عمارة للاستغلال واقعة تجاه جامع الشيخ بركات .

(٣) أنشأها علاء الدين طيرس فى غربى الأزهر مما يلى الجهة البحرية ، تقع على عين الداخل من الباب الكبير الغربى للجامع الأزهر المعروف بباب المزينين تجاه المدرسة الاقباقوية المجمولة الآن مكتبة للأزهر الشريف وقد جدها عبد الرحمن كتنخدا سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م .

(٤) مكن سوقة الريش اليوم ، القسم الشرقى من سكة المنصورة ويتوسطه زاوية الشيخ محمد بن محمود الموصلى .

(٥) أنشأ هذا الجامع نضر الدين محمد ناظر الجيش المعروف بالفخر حول سنة ٧٣٠ هـ ومكانه اليوم جامع معروف باسم الشيخ فرج ، جدده محمد بك طاهر فى سنة ١٢١٨ هـ كما هو موضح فى اللوح المثبت بأعلى باب المسجد ، يقع بشارع جزيرة بدران من الجهة الغربية من النيل بقسم روض الفرج ، وكان النيل يسيراً قديماً تحت هذا الجامع ولسبب طرح البحر ابتعد الجامع عن النيل .

على النيل فيما بين بولاق وجزيرة النيل ، وجامعاً آخر خلف خص الكيالة ببولاق^(١) . وجامعاً ثالثاً بالروضة^(٢) وجامعاً بناء الأمير حسين بالحسكر^(٣) وبني له قنطرة^(٤) على الخليج بالقرب منه ، وجامع الأمير قيدان الرومي^(٥) بقناطر الأوز^(٦) . وجامع دولة شاه مملوك الملائي بكوم الريش^(٧) وجامع الأمير ناصر الدين

(١) أنشأه نغر الدين محمد ناظر الجيش حول سنة ٧٣٠ هـ ولا يزال موجوداً باسم جامع أبي الصلاء ببولاق ، جده الخواجه نور الدين على حول سنة ٨٩٠ هـ ، وقد عمل في هذا الجامع عدة عمارات آخرها تمت في سنة ١٩٣٥ بعد توسيع مساحته من ٨٤٣ متراً إلى ١٢٦٤ متراً مربعاً .

(٢) أنشأه نغر الدين محمد ناظر الجيش سنة ٧٢٠ هـ (الخطوط ج ٢ ص ٣١١) وهو باق بجزيرة الروضة وجده السلطان قايتباي في عام ٨٨٦ هـ ، وزاد فيه زيادة أخرى في عام ٨٩١ هـ ، ويعرف اليوم بجامع الفخر أو جامع القس أو جامع قايتباي .

(٣) أنشأه الأمير حسين بن أبي بكر سنة ٧١٩ هـ على قطعة من بستان بجوار غيط العدة . ولما مات دفن به (٧٢٩ هـ) ، والجامع قائم اليوم بحارة الأمير حسين من جهة ميدان أحمد ماهر .

(٤) قنطرة الأمير حسين ورد ذكرها في الخطوط (ج ٢ ص ١٤٧) وكانت تقع على الخليج الكبير ويتوصل منها إلى بر الخليج الغربي حيث جامع الذي أنشأه بحكر النوبي (الحاشية السابقة) وقد أنشئت في أواخر سنة ٧١٩ هـ وبقيت إلى عام ١٨٩٧ حيناً ردم الخليج ومكانها اليوم في الزاوية البحرية الغربية بميدان أحمد ماهر تجاه مدخل حارة الأمير حسين ، وكان للأمير حسين داراً فتح من أجلها خوخة في سور القاهرة الغربي تجاه جامع وقنطرتة المذكورة (محمد رمزي) .

(٥) ذكر المقرئ في هذا الجامع (الخطوط ج ٢ ص ٣١٢) وكان يقوم خارج القاهرة على الجانب الشرقي للخليج في ظاهر باب الفتوح تجاه أرض البعل .

(٦) مكان قناطر الأوز بشارع بورسعيد تجاه الحارة التي اسميت حارة قنطرة الظاهر أنشأها لللك الناصر محمد في سنة ٧٢٥ هـ وكانت هذه القناطر من أجل متنزهات القاهرة أيام وجود الماء في الخليج للملح حافته الشرقية من البساتين الجميلة وكان تجاه هذه القنطرة من الغرب منظر البعل وبها عرفت أرض البعل التي هناك وقد بقيت هذه القنطرة حتى عام ١٨٩٧ هـ . وهذا وقد شيد السلطان الناصر قنطرة أخرى عرفت بقنطرة الظاهر أو القنطرة الجديدة وكان يتوصل إليها من رفاق السكحل وخط جامع الظاهر (٧٢٥ هـ) وعرفت أيضاً باسم قنطرة الامباني .

(٧) عمره دولة شاه ، وقد اندثر من سنة ٨٠٦ هـ وقد ذكره المقرئ في الخطوط (ج ٢ ص ٣٢٥) أمام كوم الريش فبلد بين أرض النيل ومنية السريج من أجل متنزهات القاهرة ، وكان به سوق عامر وجامعان لأحدهما منارة عجيبة وقد خرب كوم الريش سنة ٨٠٦ هـ .

الشرايشى الحرائى بالقرافة . وجامع الأمير آقوش نائب الكرك بطرف الحسينية بالقرب من الخليج^(١)
و جامع الأمير آق سنقر شاه العمائر^(٢) قريبا من الميدان^(٣) . وجامعا خارج باب القرافة^(٤) عمره جماعة
من العجم . وجامع التوبة^(٥) بباب البرقية^(٦) عمره مغلطاي أخو الأمير الماس . وجامع بنت الملك

(١) ذكره المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٣١٢) باسم جامع نائب الكرك وقد اندثر ، وكان واقعا
بشارع رمسيس تجاه مدخل شارع محمود باشا فهمى (شارع المدارس سابقا) بخط السكاكى .

(٢) ذكره المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٣٠٩) وقد أنشئ حول سنة ٧٢٥ هـ ولا يزال موجودا
يعرف اليوم بجامع أبو طبل نسبة إلى الشيخ محمد أبو طبل المدفون فيه ووجهته غربية محبوبة بدكاكين وليس
ظاهرا منها إلا باب الجامع بشارع المذبح بخط حارة السقاين (محمدمزى) .

(٣) يرجع محمد رمزى أن هذا الميدان هو ميدان الهارى لأنه أقرب للميادين إلى جامع آق سنقر شاه
العمائر . وذكر المقرئى ميدان الهارى فى خطه (ج ١ ص ١٩٩) بأنه بالقرب من قناطر السباع فى
بر الخليج الغربى من جملة جنان الزهرى . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٠ هـ وفى عهد
الملك الناصر فرج بن برقوق تلاشى أمر الميدان . وموقع هذا الميدان اليوم فى المنطقة التى تحد من الجنوب
بشارع للتبدان (عز العرب) ومن الشرق بشارع الناصرية ومن الشمال شارع جامع الاسماعيلى ومن
الغرب شارع نوبار باشا .

(٤) اندثر هذا الجامع وأقيم فى مكانه مقابر ضخمة فى جبانة جلال الدين السيوطى الواقعة جنوبى القلعة
خلف السجن .

(٥) صوب محمد رمزى اسم هذا الجامع فجعله جامع البرقية بدلا من التوبة ، ذكره المقرئى فى خطه
(ج ٢ ص ٣٢٦) عمره مغلطاي الفخرى أخو الأمير الماس الحاجب وكمل فى الحرم سنة ٧٢٠ هـ .
ولا يزال الجامع موجودا ويعرف بجامع الغريب نسبة إلى الشيخ الغريب المدفون فيه وقد جدده الأمير عبدالرحمن
كتخدا فى سنة ١١٦٨ هـ كما هو مذكور فى اللوح الرخامى المثبت بأعلا الباب وكان هناك مشروع لعدم
الجامع وبناء آخر بدلا منه .

(٦) باب البرقية أحد أبواب القاهرة فى سورها الشرقى ، أنشأه جوهر فى عام ٣٥٩ هـ ، وذكره المقرئى
فى خطه (ج ١ ص ٣٨٠) و (ج ٢ ص ٧٨) وقد كان هناك بابان عرفا باسم باب البرقية أحدهما
أنشأه جوهر والثانى أنشأه صلاح الدين فى سور القاهرة الشرقى الخارجى ، وقد تكلم عنه القلقشندى
(ج ٣ ص ٣٥٤) ولا يزال هذا الباب موجودا إلا أنه مطمور فى التراب تحت التل الواقع على يمين الداخل
فى الطريق المعروفة بقطع المرأة الموصلة من شارع الغريب إلى جبانة المجاورين والمفنى (محمد رمزى —
النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٠٥) .

الظاهر^(١) بالجزيرة المستجدة المروفة بالسوطانية^(٢) وجامع الأمير اللاس الناصري الحاجب بالقرب من حوض ابن هنس^(٣) بالشارع الأعظم خارج القاهرة . وجامع الأمير سيف الدين قوصون الناصري^(٤) بالقرب منه أيضا على الشارع وخارج القاهرة . وله أيضا جامع خاتناه^(٥) خارج باب القرافة وجامع^(٦)

(١) أنشئ هذا الجامع حول سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م، ومكانه اليوم جامع الجزيرة الحالى، وقد تجدد عدة مرات آخرها تجديد الخاصة الملكية بأمر الحديوى اسماعيل فى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٧١ م. وهو عامر بإقامة الشعائر الدينية وواقع على النيل فى حديقة النهر بأرض الجزيرة الكبرى بالقاهرة، وقد تجدد أخيراً .

(٢) الجزيرة الوسطانية والوسطى هى بذاتها جزيرة أروى التى ذكرها المقرئى (ج ٢ ص ١٨٦) تقع فى وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الجزيرة أنحسر عنها الماء حول سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ - ١٣٠١ م، وبني فيها الناس الدور والأسواق والجوامع والطواحين وغرسوا فيها البساتين وحفروا فيها الآبار وصارت من متنزهات القاهرة، يحف بها الماء من جميع جهاتها ثم تلتشى منها أغلب ما كان بها فى شراقي سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م، وقد أوضحت على خريطة القاهرة التى رسمتها الحملة الفرنسية عام ١٨٠٠ باسم جزيرة بولاق وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو الجزيرة الكبيرة أو جزيرة الزمالك أو جزيرة المرض وهى الآن من أحسن المواقع للسكنى بالقاهرة والتنزه، وبها نوادى رياضية ومستشفيات وفندق البرج والبرج ومتحف مختار . الخ . أما الزمالك فهى كلمة تركية معناها المشى التى تنصب من القش أو العشب لإقامة الجند . (محمد رمزى)

(٣) لا يزال جامع اللاس موجودا بأول شارع الخلية من جهة شارع محمد على (القلعة) بالقاهرة، وقد أنشئ ٧٢٩ وكل فى سنة ٧٣٠ هـ / وقامت إدارة حفظ الآثار العربية بعدة إصلاحات انتهت منها فى سنة ١٩١١ (الخطط ج ٢ ص ٣٠٧) .

(٤) جامع قوصون (الخطط ج ٢ ص ٣٠٧) ابتداء عمارته الأمير قوصون فى سنة ٧٣٠ هـ ولم يبق منه اليوم إلا بوابته الشرقية التى بشارع السروجية وبوابته البحرية التى بداخل درب الأغوات وبقياً زخارف وشبابيك جصية بالخائط البحرى وقد أخذ جزء من هذا الجامع أثناء شق شارع محمد على (القلعة) ورسمى السامة هذا الجامع بجامع قيسون .

(٥) يقع هذا الجامع خارج باب القرافة تجاه خاتناه قوصون ويقع تجاهها الآن الجامع المعروف بجامع المسيحية وربما يكون هذا هو جامع قوصون بذاته ، جدده مسيح باشا والى مصر فى سنة ٩٨٤ هـ ، ويعرف أيضاً بجامع الشيخ القرافى المدفون فيه وهو خارج باب القرافة جنوب سجن المنشية بشارع المسيحية .

(٦) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣ من الجزء ٨ (النجوم الزاهرة) .

الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى بساحل بولاق وجامع^(١) أخى صاروجا بشون القصب^(٢) وجامع الأمير بشتك^(٣) الناصرى على بركة الفيل تجاه خانقاه^(٤) . وجامع الأمير آل ملك بالحسينية^(٥) وجامع الست حدق الدادة فيما بين السد وقناطر السباع . وجامع الست مسكة قريشاً من قنطرة آق سنقر^(٦) وجامع الأمير الطنبغا الماردانى^(٧) خارج باب زويلة .

(١) ذكره المقرئى باسم جامع صاروجا (ج ٢ ص ٣١٥) ، وقال عنه أنه يطل على الخليج الناصرى بحطة جامع العرب بالقرب من بركة الحاجب التى تعرف ببركة الرطلى انشاء الناصر الدين محمد أخو الأمير صاروجا حبيب الجيش عام ٧٣٠ هـ ، وقد اندثر الجامع ، وكان واقفاً بشارع أرض الحرمين قرب تلاقيه بشارع الظاهر حيث كان يمر الخليج الناصرى فى تلك الجهة .

(٢) كانت تقع هذه الشون بأرض الحرمين التى كان بها الجامع المذكور فى الحاشية السابقة .

(٣) عمر هذا الجامع الأمير بشتك وكنى فى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م ، وقد جدد فى سنة ١٢٧٧ هـ (الخطط التوقفية ج ٤ ص ٦٥) ولا يزال هذا الجامع قائماً بشارع درب الجماميز بالقاهرة ويعرف بجامع مصطفى باشا فاضل من وقت أن جددته الأميرة ألفت هانم قادن والدة مصطفى فاضل (١٢٧٧ هـ) .

(٤) ذكرها المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٤١٨) باسم خانقاه بشتك وقد اندثرت ومكانها اليوم سهل الأسيرة ألفت هانم قادن ، أنشأته فى سنة ١٢٨٠ هـ بشارع درب الجماميز تجاه جامع بشتك المذكور فى الحاشية السابقة .

(٥) اندثر هذا الجامع وأقيم على أرضه قبور وكان واقفاً بشارع نجم الدين تجاه جامع الخواص من الجهة الشرقية بجبانة باب النصر بالقاهرة أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك وكنى ، وأقيمت فيه الخطبة سنة ٧٣٢ هـ . (محمد رمزى) .

(٦) ذكر المقرئى قنطرة آق سنقر (ج ٢ ص ١٤٧) ، فقال أنها كانت على الخليج الكبير يتوصل إليها من خط قبو الكرماني ومن حارة البديعيين التى تعرف اليوم بالجبانة ، وذكر ابن إياس أنها أنشئت حول سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وقد كانت موجودة حتى عام ١٨٩٨ باسم قنطرة سنقر . وبرد المخلج المصرى لاختفت القنطرة ومكانها اليوم شارع بور سعيد تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر بالقاهرة .

(٧) يقع جامع الطنبغا الماردانى فى شارع التبانة بالدرب الأحمر خارج باب زويلة (الخطط ج ٢ ص ٣٠٨) وأقيمت أول خطابة فيه يوم الجمعة ٢٤ رمضان سنة ٧٤٠ هـ (ولا يزال هذا الجامع موجوداً وهو مقصد رجال الفن الإسلامى لشاهدة جمال زخارفه .

وجامع المظفر^(١) بسوق الجيزة من الحسينية . وجامع جواهر السحرقى^(٢) قريبا من باب الشعرية^(٣) وجامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقراقة^(٤) وغير ذلك من المدارس والمساجد . وهذا كله بمصر .
ومن الجوامع والمدارس التي تعتبر من منشآت عصر الملك الناصر محمد في القاهرة ، ذكر المؤرخ محمد رمزي المماثر الآتية^(٥)

(أ) المدرسة القراستقرية ، أنشأها الأمير فخر الدين قراستقر المصوري نائب السلطنة سنة ٧٠٠ هـ . ومكانها اليوم مدرسة الجالية الابتدائية بشارع الجالية (الخطط ج ٢ ص ٣٨٨) .

(ب) المدرسة السعدية أنشأها الأمير فخر الدين منقر السعدى نقيب المالك السلطانية في سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ولا تزال قائمة إلى اليوم بشارع السيوفية وكانت مستعملة تكية للولوية (الخطط ج ٢ ص ٣٩٧) .

(ج) المدرسة المهندارية أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزي المهندس ونقيب الجيوش في سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع المهندس بشارع التبانة بقسم الدرب الأحمر (الخطط ج ٣ ص ٣٩٩) .

(١) ذكره القرينى (الخطط ج ٢ ص ٣٢٦) باسم جامع ابن الفلك (مظفر الدين) وهو اليوم الجامع المعروف باسم جامع البيوى بخط الحسينية بالقاهرة ، جدده عثمان آغا في سنة ١١٨٠ هـ كما هو مكتوب بأعلى بابه . وفي سنة ١٩٣٩ أجرت فيه وزارة الأوقاف اصلاحات من الداخل وبه ضم الشيخ على البيوى .

(٢) ذكره القرينى باسم جامع الطواشى (الخطط ج ٢ ص ٣٢٥) وقد أنشأ الطواشى جواهر السحرقى اللالا الصالحى في سنة ٧٤٢ هـ / في عهد الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون أى بعد وفاة الناصر بسنتين ، ولا يزال هذا الجامع موجودا باسم جامع الطواشى بشارع الطواشى بقسم باب الشعرية .

(٣) باب الشعرية أحد أبواب القاهرة في سورها البحرى الذى أنشأه صلاح الدين غربى الخليج المصرى وقد سمي باسم طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية وكان يقع في ميدان العدوى على رأس سوق الجبرية قبل توسيع الميدان المذكور . وقد أزيل هذا الباب سنة ١٨٨٤ لخلل مبانیه .

(٤) ذكره القرينى (الخطط ج ٢ ص ٣٢٤) أنشأه القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر ، وأقيمت أول خطبة فيه يوم الجمعة ٢٤ صفر سنة ٦٨٣ هـ وقد اندثر وزالت معالمه وكان واقفاً بجبانة الإمام اللبى بالقرب من تربة الفخر الفارسى خارج القاهرة ، وقد بنى في عهد الملك منصور قلاوون .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(د) للدرسة الملكية أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصر في سنة ٧١٩ هـ ، كما هو ثابت بالنقش على بابها ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع الجوكندار بشارع أم الغلام بقسم الجمالية وتسميه العامة زاوية حالومة وهو رجل مغربي طالت خدمته بهذا المسجد فعرف به (الخطط ج ٢ ص ٢٩٢)

(هـ) جامع ابن غازي أنشأه نجم الدين بن غازي دلال المالك في سنة ٧٤١ هـ / ١٢٤٠ م ، ومكانه اليوم الجامع المعروف بجامع الشيخ نصر بشارع درب نصر يولاق (الخطط ج ٢ ص ٣١٣) .

(و) جامع ابن صارم ، أنشأه محمد بن صارم شيخ بولاق ، من منشآت عصر الملك الناصر محمد ومكانه اليوم جامع الشيخ عطيه بدرب نصر يولاق (الخطط ج ٢ ص ٣٢٥) .

(ز) جامع الشيخ سعود ، أنشأه الشيخ سعود بن محمد بن سالم المياطي في سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ولا يزال قائماً إلى اليوم باسم جامع الشيخ سعود بمطلة الشيخ سعود بدرب الإقاعية بقسم باب الشرعية (الخطط ج ٢ ص ١٠٧) .

(ح) جامع فلك الدين فلك شاه وهو منشئ في سنة ٧٢٠ هـ / ١٢٢٠ م كما هو ثابت من النقش في لوح الرخام الموجود بأعلى محراب المسجد ، ولا يزال هذا الجامع موجودا ومعروفا باسم جامع الجنيد بشارع الفرنج الجديد بقسم السيدة زينب .

مدرسة السلطان حسن

وكمثال واضح لطراز المباني في القرن الرابع عشر ، لا نجد خيراً من ذلك البناء الرائع ، وهو مدرسة وجامع السلطان حسن — فهو يضم مميزات العمارة في العصر الناصري ، وكان السلطان حسن قد اعتلى العرش للمرة الأولى في سنة (٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) وعزله أمراؤه في عام ٧٥٢ هـ ولكنه استطاع خلع أخيه الصالح واستعاد عرشه عام (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٢٥٤ - ١٣٦١ م) ، ولم يكن محبوباً أو محترماً وعمله الوحيد الطيب الذي تركه بعد موته هو ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع السلطان حسن ، وهو أجمل جوامع القاهرة وكان موضعه بيت الأمير يلغا اليحياوى ، وأبتدأ السلطان عمارته في سنة سبع وخمسين وسبعمائة وعمله في أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل ، لا يعرف في بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع . أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد ، وأرصد لصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستائة جنيه) ولقد قيل أنه صرف على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم ، وذراع هذا الإيوان خمس وستون ذراعاً في مثلها ، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بالمداين في المراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ، وكذلك للنبر الرخاى الذى لانظير له والبوابة العظيمة ، وقد عزم السلطان على أن يبنى أربع منائر ، فتمت ثلاث منها إلى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من . للدخل فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس ، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها ، ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها .

أبشر فسمدك يا سلطان مصر آتى بشيره بعقال سار كالثل
إن المنارة لم تسقط لنقصه لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرى القرآن فاستمعت فالوجد فى الحال أداها إلى الليل

واتفق أن قتل السلطان بمكيدة دبرها بعض كبار أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوماً ، ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع قائم قسماً منه بشير الجمدار^(١) .

(١) كشف الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نوفمبر عام ١٩٤٤ عن اسم مهندس هذا المسجد ، واسمه محمد بن يليك مكتوباً فى الطراز الجصى بالمدرسة الحنفية — تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨١

ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد ١١٣ قدماً مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة الساخوذة من أنقاض الأهرام وتحلى النوافذ العديدة وجهته الممتدة . وأجل مظاهر الجامع طنقه الفخم المكون من ست محطات ، من للقرنصات واحدة تعلو الأخرى ويتوجن جدرانه الشامخة بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية — والأعمدة ذوات التيجان المقرنصة .

ولا يقل داخل الجامع أبهة وروفاً عن خارجه ، فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزيه وتزيده حسناً وجمالاً ، في مقصورة القبر كتبت آية الكرسي بالكوفية على الجدران الأربعة على ألواح الخشب الثمين ، وتعلو المقصورة القبة الجديدة ، وهى ليست بقبة الجامع الأصلية . فقد تهدمت في عام ١٦٦٠ ، وكان قد وصفها «بيتروديلافالى» الرحالة لما زار القاهرة عام ١٦٦٦ م .

هذا وأكثر مشكواته النعاسية ومصابحه الزجاجية المطلية بالبناء لا تزال محفوظة في متحف الفن الإسلامى ، ولا شرع السلطان الملك المؤيد شيخ في عارة جامعته بجوار باب ذويلة ، اشترى باب الجامع النعاسى ونقله إلى جامعته عام ٨١٩ هـ — ١٤١٦ م .

وكان هذا الجامع مركز مقاومة ضد قلعة الجبل فقلاتكون فتنة بين زعماء الدولة حتى يصعد إلى سطحه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمي منه على القلعة ، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم الدرج الذى كان يصعد منه إلى المنارتين ويصل الإنسان من هذا الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة ، وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان يجانب هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود إليه ، وسد من وراء الباب النعاسى وفتح شباك من شبائك أحد مدارس هذا الجامع الأربعة وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقي الأذان على درج هذا الباب ، ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزاً للتناوشات وتبادل الطلقات لفترة طويلة ولا تزال آثار بعض «الجلل» باقية عليه الآن ، وقد ذكر «ستانلى لين بول» أن أحدى مأذنتى الجامع كانت تتصل بسور القلعة بجبل كان يلعب عليه «بهلوان أوروبى» تسلية للجواهر التى كانت تعد لمشاهدة مخاطراته — ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزد إلا عظمة ووقاراً بالرغم مما ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة — وهو لا يزال أعين وأخضر أثر إسلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .

المدارس المملوكية

ولقد أسس في أنحاء القاهرة على أيام المماليك مدارس كثيرة ، فأنشأ الظاهر يبرس المدرسة الظاهرية عام ٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ ، ورتب بها لتدريس — الشافعية تقي الدين بن رزين ، وللحنفية محب الدين عبد الرحمن ، ولتدريس الحديث الحافظ مشرف الدين الديبائى ، ووقف بها خزانة كتب ، كما بنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين وأوقف عليها ربع السلطان خارج باب ذويلة (تحت الربع اليوم) ، وكانت من

أجل مدارس القاهرة ولكن اضطرابات إدارتها وتنازع الحنفية والشافعية وأولاد الظاهر ، أدى إلى ضعفها وفساد أمرها (١) .

المدرسة الظاهرية الجديدة :

أسس الظاهر هذه المدرسة التي تمت عمارتها في رجب سنة ٦٦٨ هـ ، وتولى تدريس الحنفية بها علاء الدين السيرامى ، والشافعية وحيد الدين الرومى والمالكية شرف الدين بن مكين ، والحنابلة صلاح بن الأعمى وكان أستاذ التفسير الشيخ سراج الدين البلقينى (٢)

المدرسة المنصورية :

أنشأها هي والقبة التي تجاهها واليماستان ، الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣ هـ — ١٢٨٤م ، وموقعها داخل باب اليماستان بالنحاسين (الآن) ، ورتب بها دروساً للمذاهب الأربعة وجعل بالقبة خزانة كتب (٣) .

المدرسة الناصرية :

بدأ بناءها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، ووضع أساسها لكنه خلع بعد بدء العمل فيها بقليل ، فلما جاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أعادها ، وكان ذلك في عام ٧٠٣ هـ — ١٣٠٤م قال عنها المقرئى إنها من أجل مباني القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدي بنى آدم ، فإنه من الرخام الأبيض البديع الفائق الصناعة ، وأول من رتب في تدريسها قاضى القضاة زين الدين المالكي ، وشرف الدين عبد الغنى الحنبلى ، وأحمد بن السروجى الحنفى (٤) ، وصدر الدين محمد المعروف بابن الوكيل الشافعى ، وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها ، السكر في كل شهر لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحى في كل سنة .

المدرسة الطبرسية :

كانت ملحقة بالأزهر ، أنشأها الأمير علاء الدين طبرس الخازندار تقيب الجيوش وقرر بها درساً

(١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٣ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(٤) المصدر نفسه : ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

لشافعية ، تأتى فى رخامها وتذهب مقوفها حتى جاءت فى أبعد زى وأحسن قالب ، وقد بلغت النفقة عليها جملة كثيرة . تم بناؤها عام ٥٧٠٩ هـ — ١٣٠٩ م ، وكان بها خزانة كتب^(١) .

المدرسة الجاولية :

أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى سنة ٧٢٣ هـ — ١٣٢٣ م وجعلها لطلاب العلم والصوفية وكان هذا الأمير من علماء الشافعية ، وله فى الفقه الشافعى مصنفات^(٢) وهى قرية من جامع ابن طولون .

المدرسة الجمالية :

شيدها الأمير الوزير علاء الدين مغلطى الجمالى سنة ٧٣٠ هـ — ١٣٢٩ — ٣٠ م وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية وولى تدريسها ومشيخة المتصوفة . وكان شأن هذه المدرسة كبيراً ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظاهرها وفى سورية . وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولادة أمرها وتخريبهم أوقافها وصارت منزلاً يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى الفقه^(٣) .

المدرسة الأقباقوية :

أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ هـ — ١٣٣٩ م وقرر فيها دروس الشافعية والحنفية وجعل فيها عدة من الصوفية ، وكانت ملحقة بالأزهر وعمرها عبد الرحمن كتنخدا الذى جدد المدرسة الطيرسية نشأة جديدة وجعلها مع هذه المدرسة المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذى أنشأ خارجها .

المدرسة الصرغتمشية :

بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى سنة ٧٥٧ هـ — ١٣٥٦ م وخصصها للفقهاء الأحناف ورتب بها دروساً للحديث وهى ملاصقة لجامع بن طولون^(٤)

(١) القريزى : الخطط ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه . ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٣) » . ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٤) القريزى : الخطط ج ٤ ص ٢٥٦ .

مدرسة مسجد السلطان حسن :

وهي من أعظم عمارات القاهرة الإسلامية ، شيدها السلطان حسن بن الناصر محمد في الفترة الثانية من حكمه . بدأت عمارتها سنة ٧٥٧ هـ - ١٣٥٦ م واستمر العمل فيها ثلاث سنوات ولكنها لم تكتمل إلا سنة ٧٦٤ هـ بعد وفاة السلطان حسن بعامين ، وكانت المدرسة للمذاهب الأربعة ، ومن تولوا التدريس بها العالم الشافعي بهاء الدين السبكي (١) .

المكتبات في عصر المماليك البحرية

وبما يوضح ازدهار الثقافة في هذا العصر ، وجود عدد كبير من المكتبات الملحقة بالمدارس التي أنشأها المماليك . ومن أولى تلك المكتبات ، المكتبة الظاهرية التي ألقمها الظاهر بيبرس بمدرسته بخط بين القصرين سنة ٦١٢ هـ ، وقد اشتملت على أمهات الكتب في شق العلوم (٢) وكان بجامع الظاهر الكبير خزانة كتب . وقد وقف الشيخ الفقيه يحيى بن عبد الوهاب سنة ٧٢١ هـ كتبه على تلك الخزانة .

وقد كان بالمدرسة المنصورية التي أسسها المنصور قلاوون بخط بين القصرين في سنة ٦٨٣ - ٦٨٤ هـ خزانة كتب جليلة وكان مكانها بالقبة (٣) وقد أمدتها السلطان بأصاحف الشريفة وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدب والشعر . وقد رتب المنصور لخازن كتبها في كل شهر أربعين درهماً وله خمسة مساعدين ، كما جعل له خدم وقومة وفراشون وبوابون (٤) .

وكان في المدرسة الناصرية بجوار القبة المنصورية خزانة كتب جليلة ، أدركها القرينى وتكلم عنها . وقد زودت المدرسة المنكوتورية التي أنشأها سيف الدين منكوتمر الحساى بحجارة بهاء الدين بالقاهرة سنة ٦٩٨ هـ بخزانة كتب (٥) . كما احتوت أيضاً المدرسة الطبرسية التي أسسها علاء الدين طبرس تقيب الجيوش في عهد السلطان لاجين سنة ٧٠٩ هـ على خزانة كتب عظيمة (٦) .

(١) القرينى : الخطط ج ٤ ص ١١٧ .

(٢) » السالك ج ١ ص ٥٠٤ والخطط ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٣) » الخطط ج ٢ ص ٣٨٠ ، ٤٠٧ .

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية ص ١٨

(٥) القرينى : الخطط ج ٢ ص ٣٨٧ .

(٦) » الخطط ج ٢ ص ٣٨٣ .

واشتملت أيضاً مدرسة سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصرى وكانت تجاه داره بخط المشهد الحسنى على خزانة كتب معتبرة^(١). وقد كان في مدرسة خوندتر الحجازية ابنة السلطان محمد بن قلاوون التى أنشأها سنة ٧٦١ هـ خزانة كتب قيمة عامرة بال مؤلفات في مختلف العلوم — كما أنه كان في مدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان وزوجة الأمير الجاى الیوسفى بالنبانة (٧٧١ هـ) مكتبة احتوت على الكتب والمصاحف الشريفة .

وقد زودنا الدكتور عبد اللطيف فى كتابه المفيد بثبت طيب اشتمل على هذه المكتبات النفيسة ، فذكر أنه كان فى المدرسة صاحبة البهائية التى أنشأها صاحب بهاء الدين بن حنا سنة ٦٥٤ هـ فى زقاق القناديل بمصر القديمة ، خزانة كتب جليلة وربما يرجع الفضل فى ذلك إلى قريبا من سوق الكتب فى تلك المنطقة . أما مدرسة صرغتمش التى أنشأها هذا الأمير سنة ٧٥٧ هـ بجوار جامع ابن طولون فقد زخرت بكتب الفقه الحنفى والحديث والمصاحف . وقد كان بمدرسة السلطان حسن بن قلاوون بخط سوق الخيل بالقاعة (٧٥٧ — ٧٦٤ هـ) مكتبة عظيمة احتوت على كتب علم الحديث ومصطلحه وكتب اللغة والنحو^(٢) وقد كانت مكتبة المدرسة الأشرفية التى شيدها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٤ هـ وكلمت عبارتها فى سنة ٧٧٧ هـ ، من أكبر المكتبات المدرسية المملوكية وزخرت بالكتب النفيسة والمصاحف ، ولكن هذه المدرسة لم تطل مدة بقائها ، فقد هدمها السلطان فرج بن برقوق ثم شيد مكانها المؤيد شيخ المحمودى البيارستان المؤيد سنة ٨٢١ — ٨٢٣ تحت قلعة الجبل^(٣) .

وقد كان أمناء مكتبات المدارس المملوكية يتقاضون مرتبات متفاوتة تبعاً لمركز الأمين أو الخازن وسمته ومهمته ، ومقدار ما يسهم به من أعمال فنية وإدارة وغيرها فى المكتبة ، وتبعاً لمقدار ريع الوقف السنوى ، وقد جاء فى كتاب دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية « بيان المرتب الشهرى لبعض أمناء المكتبات المملوكية^(٤) » .

(١) القرىزى : الخطوط ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) وثيقة السلطان حسن . أوقاف ٨٨١ ص ١٢ و ٤٣٦ و ٤٤٢ و ٤٤٥ محكمة ٤٠ و ٤٢ محطة ٦ .

(٣) القرىزى : الخطوط ج ٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٨ .

(٤) أمين مكتبة السلطان المنصور قلاوون — ٤٠ درهم ، أمين مكتبة السلطان محمد بن قلاوون — ٣٠ درهم ، أمين مكتبة الأمير صرغتمش — ٥٠ درهم أمين مكتبة السلطان حسن بن قلاوون — ١٠ دراهم ص ٨١ .

ولكن حدث في أواخر حكم الفاطميين أن غرق في النيل بالقرب من شمالى المقس ثغر القاهرة مركب اسمه « الفيل » وترك في مكانه ، فتراكت فوقه الرمال وسرعان ما ظهرت هناك جزيرة وسط المياه ارتفعت أراضيها تدريجياً ، فعرفت في ذلك الوقت باسم جزيرة الفيل . ثم اتسعت مساحة الجزيرة ، واتخذت شكلها النهائي عام ٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م ، فرعت في أيام صلاح الدين الأيوبي وأوقفت أراضيها على المدرسة الصلاحية التي أنشئت إذ ذاك بالقرافة الصغرى بجوار قبر الإمام الشافعى ، واستمرت مساحة هذه الجزيرة في الزيادة حتى كانت أيام قلاوون ، فأمر بوقف الأرض التي زادت على حدود هذه الجزيرة على بيارستانه المعروف بالنحاسين ^(١) .

و لاق

(١) مكان جزيرة الفيل اليوم هي المنطقة التي يمر فيها شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال ، وكان يجدها وقت أن كانت وسط المياه من الغرب النيل حيث يمتد الآن طراد النيل القديم وشارع أبو الفرج ومن الجنوب النيل حيث يقع الآن شارع جزيرة بدران وشارع بركات ومن الشرق والشمال سيالة مياه كانت فاصلة في ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض المطبالة التي تشمل منطقة محطة كوبري الليحون والفجالة وبركة الرطلي وبين أرض البعل التي تعرف اليوم بالشرابية ومهحشة وبين مية السبرج ، ومنها إلى قم التربة الاسماعيلية ثم عرفت الجزيرة بالعهد التركي .

مروان على مصر . اتصل الطرح الخامس أيضاً بالقسم الجنوبي من الطرح الثالث (٥٢٠ هـ — ١١٢٦ م في أيام الدولة الفاطمية) في المسافة الواقعة بين جامع سليمان الفرنساوى الواقع بشارع عمرو بن العاص (كورنيش النيل حالياً) بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع قصر العيني بشارع اسماعيل باشا سرى بالمنيرة .

ليس هذا لحجب . فقد حدث في أوائل حكم المماليك البحرية الطرح السادس الذى ظهر حوالى ٦٦٠ هـ — ١٢٦٢ م إذ طرح النيل أرضاً جديدة اتصلت بالطرح الثالث في المسافة الواقعة بين ميدان التحرير وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع مارييت باشا بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) .

ولم تانية إلى الأرض التى عليها اليوم قسم بولاق بأكله ، فقد ظهرت نتيجة للطرح السابع الذى ظهر حوالى ٦٨٠ هـ — ١٢٨٢ م ، وظلت بولاق تقرأ لمدينة القاهرة منذ ٧١٣ هـ — ١٣١٣ م حتى أيام الوالى سعيد حيناً أنشأ أول خط سكة حديد بين الإسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٦ ، فأخذت مكانة بولاق في الأنفول ، ولكنها عادت مرة ثانية إلى الصعود حيناً أنشئ الطريق الذى يربطها بالأزبكية في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم أخذت بولاق تتسع في عمارتها حتى اتصلت مبانيها بمدينة القاهرة في الثلث الثانى للقرن التاسع عشر .

وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون امتد العمران بين باب الخلق والسيدة زينب بعد أن استجد أكثر من ستين حكراً على ضفة الخليج الغربية ابتداء من قناطر السباع — (ميدان السيدة زينب) .

وكان لتحويلات شاطئ النيل إلى الغرب في أيام المماليك البحرية فضل كبير في زيادة رقعة مصر والقاهرة وقد وصف المدينة ابن فضل الله العمري المؤرخ الجغرافى في القرن الرابع عشر بقوله :

« ولم تزل القاهرة في كل وقت تزايد عمارتها وتتجدد معالمها ، خصوصاً بعد خراب الفسطاط عام ٥٦٤ هـ — ١١٦٨ م وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هى عليه في زماننا من القصور العالية والدور الضخمة والمنازل الرحبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والجوامع الفاخرة ، مما لا يسمح بمثله في قطر من الأقطار ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار (١) .

ومن الطريف أنه في سنة ٧٣٣ هـ — ١٣٢٣ م أمر الناصر محمد بن قلاوون بالقبض على النجمين وتسليمهم إلى والى القاهرة فضربوا وحبسوا (٢) وكان هؤلاء ينصبون على النساء ويغررون بهن .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٢٤ ص ١٦١ .

ويعزى إلى هذا السلطان تجميله لبركة الفيل والحفاظ على رونقها ، فانه أمر بإقامة حوائط بطول البركة ليجب الأجزاء التي لم تعمر من جهة الجسر الأعظم (١) .

وفي أيام الناصر محمد ، أنشأ الأمير آق سنقرشاد الممّر السلطانية قنطرة سنقر على الخليج الكبير تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر .

أرض اللوق

عرفت بخط الاسماعيليه وكانت تشمل المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع قنطرة الدكة ومن الغرب بشارع رمسيس (الملكة نازلي سابقاً) إلى أوله عند مضخات مصلحة المجارى ، ثم يعطف الحد إلى قصر النيل ويسير محاذياً للنيل إلى كوبري النيل (محمد علي سابقاً) ومن الجنوب بمستشفى قصر العيني وشارع بستان الفاضل ومن الشرق بشارع بور سعيد (الخليج المصري سابقاً) فشارع سعد الدين فشارع نوبار باشا إلى أن يتقابل مع شارع الشيخ ريحان ، ثم يعطف الحد نحو الشرق حتى يتصل بشارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً) عند نقطة تلاقيه بشارع التحرير (الحديو اسماعيل سابقاً) ثم يستقيم الحد متجهاً إلى الشمال في شارع محمد فريد إلى أن يتقابل مع الحد البحرى عند شارع قنطرة الدكة .

وكان الحد الشرقى لأرض اللوق هو مكان الشاطئ الشرقى للنيل لغاية عام ٦٨٨ م أى أن النيل كان يجرى عند هذا الحد قبل ظهور أرض اللوق (٢) وقد ظهرت اللوق في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية كطرح بحر ثم أضيفت إليها طرقات أخرى في أوائل أيام دولة المماليك البحرية (٣) وسُميت لوقاً لأنها كانت أرضاً لينة تلاق لوقاً عند زراعتها بعد الفيضان الذي كان يغمرها وتزرع زراعات شتوية أسوة بأراضي اللوق في أراضي الجياض .

وقد أنشئ بأرض اللوق ، البساتين والمنشآت مثل منشأة القاضي الفاضل وبستانه ومنشأة ابن ثعلب وبستانه ومنشأة الكتبة وغيرها مما ذكره القرينى ثم زالت تلك المنشآت وبقيت اللوق أرضاً زراعية إلى عام ٦٦٠ هـ — ١٢٦١ حينما قدم على مصر طائفة من التتر ، فأَنزَلهم الملك الظاهر بيبرس في دور كان قد

(١) القرينى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) محمد رمزي : النجوم الزاهرة .

(٣) فؤاد فرج : القاهرة ج ٣ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

أمر ببنائها لهم في أراضي اللوق، ومنذ ذلك الحين أصبحت بها عدة أحكار عامرة بالسكان، ثم خربت وطمحلت هذه الأراضي إلى أراضي زراعية مرة ثانية وبقيت على ذلك إلى عام ١٨٥٨ ، وفي زمن الحديو إسماعيل بدأ الأهالي فيها بالمهارة والبناء حتى شغلت المنطقة بالدور والقصور وتخللتها الشوارع والميادين ؛ وقد عرفت بخط الاسماعيلية نسبة إلى الحديو اسماعيل . .

المجتمع العلمى فى أيام الممالىك

ازدهرت مصر فى أثناء حكم الممالىك بطائفة من العلماء الذين خدموا الأمة العربية ، ويقابلنا ابن الحاجب العالم اللغوى الشهير^(١) والمتوفى عام ١٢٤٨ م . وقد كان مؤلفه « السكافى » فى قواعد اللغة العربية مرجع أجيال متعاقبة من الطلاب والتعلمين فى المدارس الإسلامية ، بل وتناول العلماء كتابه بالشرح والإيضاح والتعليق عليه .

وكان ابن هشام^(٢) أيضا (١٣٠٨ — ١٣٦٠) ، بالرغم من أنه كان فى وقت ما أستاذ دراسات القرآن فى القاهرة — من علماء اللغة ، واشتهر فى هذا اللون من التأليف ، كما اشتهر فيه مثله بدر الدين الدمايى (١٣٦٢ — ١٤٢٤) ، وهو من مواليد الاسكندرية^(٣) ، وظهر من كتاب النثر العالم الزيدى (توفى فى عام ١٧٩١ م) صاحب قاموس تاج العروس ، وقد طلب العلم فى مصر حيث قضى الشطر الأكبر من حياته .

وتلقى جلال الدين السيوطى — وهو من أعظم رجالات المسلمين الذين ألفوا المصنفات (دوائر المعارف) من أهالى أسوط . وقد تولى عدة وظائف عامة فى القاهرة ، ثم ركن إلى جزيرة الروضة متقاعدآ عن

(١) هو العلامة عثمان بن عمر بن أبى بكر السكردى الممالكى النحوى الفقيه ، المعروف بابن الحاجب المولود بعد سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٥ م باسنا والمتوفى بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ . راجع ترجمته فى المنهل الصافى ج ٤ ص ٤٤ — ٤٧ .

(٢) هو العلامة عبد الله بن يوسف بن هشام جمال الدين النحوى الحنبلى المولود سنة ٧٠٨ هـ والمتوفى سنة ٧٦١ هـ ، راجع ترجمته فى المنهل الصافى ج ٣ ص ٥٥١ .

(٣) هو العلامة المحقق محمد بن أبى بكر القرشى الاسكندرى الممالكى بدر الدين الدمايى المولود بالاسكندرية سنة ٧٦٢ هـ والمتوفى بالهند سنة ٨٢٧ — أو ٨٢٨ . راجع ترجمته فى الضوء اللامع ج ٤ ص ٤٢٩ .

العمل حيناً أعني من الوظائف التي كان يتولاها . وعاش السيوطي ستين سنة بين عامي ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م ومن الصعب أن نجد عالماً من علوم المسلمين لم يحرفه قلم السيوطي بالتأليف والتحرير والتصحيح والإيضاح . وقد ذكر « بروكيلمان » المستشرق الألماني ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مؤلفاً للسيوطي . وقد يكون هذا الثبت الذي أتى عليه بروكيلمان يفتقر إلى الدقة . بيد أن الشيء الذي لا مريية فيه هو أنه لا يوجد مؤلف آخر في العربية له ما للسيوطي من مؤلفات وأبحاث (١) .

على أننا في مثل هذا الكتاب لا يتسنى لنا أن نقف إزاء كل من تصدر من المصريين في علوم اللغة والشعر أو الطب والكيمياء أو الهندسة والفلك ، لتحدث عن تاريخ حياته ومؤلفاته . فلهذه اليبادين مراجعها المستفيضة ، ولكن من الضرورة بمكان أيضاً ألا ندع هذا العرض دون أن نذكر في المامة سريعة ألع الأسماء ؛ وإمله يتيسر منها أن ندرك صورة صحيحة للحياة الفكرية والعلمية في مصر أثناء حكم المماليك .

ها هو ذا العالم العلامة محمد بن موسى بن كمال الدين الدميري الأصل القاهري (٢) الشافعي - المولود حوالي سنة ٧٤٢ هـ - ١٣٤٤ م بالقاهرة ، توفي سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م مؤلف الموسوعة العربية الكبرى في علم الحيوان (حياة الحيوان الكبرى) .

والجلداكي - مثله مثل الدميري - قاهري اشتهر بدراساته في علم الكيمياء . وقد توفي قبل مولده الدميري بعامين أي في عام ١٣٤٢ م . والنواجي ١٤٥٥ صاحب مؤلف في التحاليل الطيبة (٣) - وابن سيد الناس ١٣٥٤ م ، واشتهر بسفره في حياة النبي . والجندی ١٣٦٥ م ، وتاج الدين السبكي (١٣٥٥) ، الذي عاصر اثني عشر من السلاطين والمماليك . وهو مصلح مصري اس نواحي الضعف في الحكومة وفي طبقات الأمة لذلك الهد فتصدى لقدحها بصراحة وجراءة تدعوان إلى الإعجاب ، ثم وصف وسائل الإصلاح وهي تدور حول قيام كل بواجبه في دائرة عمله (٤) .

(١) نذكر في ميدان اللغة طاهر بن بابشاذ الذي تولى ديوان الانشاء في العصر الفاطمي ، وكان إمام عصره في النحو وكذلك بن برى وابن مالك الطائي ، وكان ابن منظور صاحب « لسان العرب » من رجال ديوان الانشاء بمصر في عصر المماليك .

(٢) راجع ترجمة حياته في الضوء اللامع ج ٦ ص ١٧ .

(٣) هو العلامة محمد بن حسن بن شمس الدين النواجي نسبة لنواج بالقرية المولود بالقاهرة بعد سنة ٧٨٥ تقريباً والتوفي سنة ٨٥٩ هـ - راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ٤ ص ٥٣٢ - ٥٣٨ .

(٤) ولد السبكي حوالي (٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) بالقاهرة - راجع كتاب البيت السبكي للأستاذ محمد الصادق حسين (١٩٤٨) .

وبرز من رجال الشريعة على المذهب الحنفي ابن نجيم المصري^(١) . وتوفي عام ١٥٦٣ م . والدمرطاشي (ت ١٥٩٥) — ومن الشافعية البلقيني (ت ١٤٠٣)^(٢) وذكريا الأنصارى (ت ١٥٢٠)^(٣) قاضى القضاة الملقب بشيخ الاسلام المولود بسنبكة من الشرقية ، ثم الحفاجى سنة ١٦٥٩ ، الذى اشتهر فوق درايته بالشريعة بعلوم اللغة والشعر^(٤) .

وقد لعبت مصر دورا هاما فى تاريخ ناحية من الأدب العربى من المتعذر أن يفكر فيها أديب عربى . وينوه بها كتاب العرب فى مقدمة مؤلفاتهم فى الأدب العربى . هذه الناحية هى الأدب القصصى الخيالى . وأظهر ما كتب فيه هو كتاب « ألف ليلة وليلة » كما توجد مجموعة طيبة أخرى من هذا القصص الروائى لها قيمتها التأليفية . وعلة تقديم كتاب ألف ليلة وليلة عليها هى أن المستشرقين فى بلاد الغرب لم يعنوا إلا بترجمة ألف ليلة ، فقد كان فى وسعهم بسبب احتوائه على مجموعة من القصص أن يترجموا أجزاء منها . تعتبر فى حد ذاتها كتابا كاملا — وأشهر هذه القصص : عنتره العيسى — أبو زيد الهلالي — الظاهر بيبرس ، وغيرها .

وكان فن القصص فى فترة ما ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر . كما يبدو أن الراوية أو القاص الذى يسامر الناس فى المقاهى قاصا عليهم تاريخ حياة عنتره ، أو أبى زيد لم يعد له وجود فى المدن الكبرى . بيد أن الشيء الذى لا مرأى فيه أنه كان لهذا أثره فى خلق جو من كتاب القصة المصرية الصميمة تنبئ بواورها فى صورة طيبة الآن نذكر منهم محمود تيمور والسحار وبا كثير والسباعى ، ونجيب محفوظ .

* * *

قلنا أن مصر والشام كانتا مهدى المملات والمجاميع الاسلامية . فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للدووعات المختلفة ، كانوا من المصريين أو كانوا من الشاميين فى عصر اتحاد البلدين . فالنورى صاحب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » كان من رجال السلطان المملوكى الناصرى محمد بن قلاوون^(٥) وابن فضل الله

(١) راجع ترجمة حياته فى شذرات الذهب ج ٤ ص ٥٩٤ .

(٢) راجع ترجمة حياته فى الضوء اللامع ج ٣ ص ٨٠٣ .

(٣) راجع ترجمة حياته فى الضوء اللامع ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) شهاب الدين الحفاجى — راجع ترجمته فى خلاصة الأثر ج ١ ص ٢٣١ — ٣٤٣ .

(٥) مصرى من نوبة (١٢٨٢ — ١٣٢٢) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد .

العمرى صاحب « مسالك الأبصار » تولى القضاء بعصر في عصر المماليك (١٣٠١ - ١٥٤٨ م) وقد كان معاصراً للنورى ، وكتابه في التراجم والتاريخ والجغرافيا مملوء بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة إلى أنافة في التعبير وجمال في الأداء يفوق النورى وهو يقع في أكثر من عشرين جزءاً لم تخرج منه المطبعة سوى الجزء الأول . ثم أبو العباس أحمد القلقشندي صاحب « صبح الأعشى » كان أيضاً من الموظفين المصريين في ذلك العصر (ت ١٤١٨) . وجلال الدين السيوطي تولى الافتاء بعصر وتوفي في بداية القرن العاشر الهجرى (١٦ م) بعد أن ألف الكتب والرسائل العديدة في التفسير والتاريخ والحديث والفقه وعلوم اللغة . . الخ . وقد مر ذكره .

التساريف

ويقابلنا في حقل كتابة التاريخ المؤرخ الكبير صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيد مر العلائي المعروف بابن دقماق^(١) صاحب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وقد وصل إلينا أيضاً كتاب « الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين » وجزء من مؤلف آخر هو « نزهة الأنام في تاريخ الاسلام » .

وشهاب الدين الأوحدي (٧٦١ - ٨١١ هـ) (١٣٦٠ - ١٤٠٨ م)^(٢) وابن الداية وابن أبي أصيعة وابن الراهب القبطي وأباشامة وابن واصل والقفطي وابن شداد ... الخ .

كما وصل إلينا كتاب قوانين الدواوين ، وهو مؤلف يصور قوانين أوامر الدولة المصرية على عهد حكم صلاح الدين الأيوبي . ومؤلفه الأسعد ابن مآني^(٣) . وعمن ولدوا في القاهرة أيضاً ابن الفرات مؤلف كتاب « تاريخ الدول والملوك » . ولد عام ١٣٣٤ م ، وقد أراد أن يضمن كتابه التاريخ الاسلامي فبدأ

(١) ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠ هـ وتوفي بها سنة ٨٠٩ هـ (١٣٤٩ - ١٤٠٦ م) .

(٢) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) هو أبو للكارم أسعد بن المهذب المصري القبطي الأصل ناظر دواوين مصر المتوفى بحلب سنة (١٩٠٢ هـ ١٦٠٦ م) عن اثنتين وستين سنة . راجع ترجمته في القرينى ج ٢ ص ١٦٠ — وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية للملكية بإشارة المغفور له الأمير عمر طوسون — وراجعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية — عام ١٩٤٣ .

من القرن الرابع عشر للميلاد راجعاً للوراء ، بيد أنه وصل إلى القرن العاشر فحسب عندما وافاه أجله في عام ١٤٠٦^(١) .

وإذ ذكرنا هؤلاء ، فيتعين أن نثبت بحق ألع المؤرخين المصريين الذين خلدت مؤلفاتهم التي كتبوها في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري) وهي تمتد مكتبة مجيدة في التراث المصري الاسلامي . ويعتبر أحمد بن علي القريري ألع جماعة . وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يعتبر المرجع المفيد لدراسة مصر الاسلامية لجميع المؤرخين . ومن أهم أسفاره :

عقد جواهر الاسفاط من أخبار مدينة الفسطاط — اتعاط الحنفا بأخبار الخلفاء — السواك لمعرفة دول المملوك — للقفي الكبير — العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة — النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم — إغاثة الأمة بكشف الغمة . ويعمل الدكتور زيادة منذ سنوات في اخراج طبعة علمية للسلوك .

وقد صمم القريري مشروع دائرة معارف من ثمانين مجلدا ليسجل فيها حياة أعلام المصريين ، بيد أنه لم يكمل منها إلا ستة عشر جزءا فحسب . كما أنه لم يكمل أيضاً مؤلفاً آخر هو كتابه (درر العقود) . وفضلا عن هذا كله فللمقريري بضعة بحوث في علم الحديث^(٢) .

ومن مؤرخي مصر المعاصرين للمقريري ، أحمد بن حجر الذي عرفنا من مؤلفاته : فتح الباري في شرح البخاري — الجمع المؤسس والمعجم المفهرس — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة^(٣) .

وكذلك العيني صاحب (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان)^(٤) . وابن عريشاه مؤلف « عجائب

(١) لا يزال كتاب ابن الفرات محفوظا في دار الكتب المصرية (رقم ٣١٩٧) — أنظر ترجمته في الضوء اللامع ج ٨ ص ٥١ .

(٢) ولد المقريري بالقاهرة سنة (٧٦٠ هـ ١٣٦٤ م) بحارة برجوان بقسم الجمالية ، وانكب على الدرس والتحصيل وأظهر نجابة ومقدرة ، ثم التحق بديوان الانشاء بالقلمة حيث ظل يعمل موقعا حتى سنة ١٣٩٨ عندما اختاره السلطان بروق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري . فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين وفي سنة ١٤٠٨ انتقل إلى دمشق للاضطلاع بمنصب كبير ، وتولى التدريس أيضاً ، ورحل إلى عدة بلدان ، وتوفي عام (٨٤٥ هـ - ١٤٤٢ م) راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ١ ص ٥٣٢ ، وفي المنهل الصافي ج ١ ص ٢٣٣ ، وفي « المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي » للدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٣ — ١٧ .

(٣) راجع ترجمة حياته في المصدر السابق ص ١٨ — ٢٠ .

(٤) هذا الكتاب يقع في ٢٣ جزءا ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ معارف ، وقد ولد العيني في الشام ، وجاء إلى مصر ، وعين في أوائل القرن التاسع الهجري محتسباً للقاهرة والوجه البحري .

المقدور في أخبار تيمور»^(١) . و خليل بن شاهين صاحب « زبدة كشف الممالك و بيان الطرق والمساكن»^(٢) وأبو المحاسن بن تغرى بردى الذى ألّف عدة أسفار في التاريخ الاسلامى ، نذكر منها :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — الدليل الشافى على المنهل الصافى — مورد اللطافة في ذكر من ولى السلطنة والخلافة — حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور — نزهة الرأى في التاريخ — البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر — نزهة الألباب في اختلاف الأسماء والألقاب — حلية الصفات في الأسماء والصناعات — البشارة في تكملة الإشارة — الانتصار للسان التتار — الرياضيات والموسيقى — السكر الفاضح والعطر الفائح^(٣) .

وعاصر أبا المحاسن اثنان من مشاهير المؤرخين هما ابن الصيرفى^(٤) . وأبو الخير السخاوى^(٥) .

ولأولها : نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان — أنباء الحصر في أبناء العصر — سيرة الأشرف قايتباى — الجوهرية في السيرة النبوية .

ولثانيهما عدة مؤلفات قيمة ، أهمها : التبر المسالوك في ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول الإسلام — الذيل المتناهى — الذيل على طبقات القسراء — المتقى من تاريخ مكة — تلخيص تاريخ

(١) هو أحمد بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن عريشاه ولد سنة (٧٩١ هـ — ١٣٨٩ م) بدمشق ورحل منها إلى بلدان عدة . ونزح إلى القاهرة في زمن الملك الظاهر جقمق . ومات عام ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م أنظر جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) توفى خليل بن شاهين بالقاهرة عام ١٤٦٩ .

(٣) ولد أبو المحاسن في القاهرة في يناير سنة ١٤١١ م بدار الأمير منجك اليوسفى بحى القلعة الحالى — تقلد كثيرا من الوظائف الرفيعة في الدولة المملوكية ونهض بمسؤوليات كبيرة منها نيابة دمشق وأتابكية العسكر بمصر ، وتزوج السلطان فرج من كبرى بناته فاطمة ، وتوفى سنة ١٤٧٠ (راجع ترجمته في كتابه النجوم الزاهرة طبعة كاليفورنيا ج ٦ . ص ٤٣٢ — ٤٣٥) .

(٤) ولد ابن الصيرفى بالقاهرة سنة ١٤١٦ وتعلم تعليما سيرا وتلمذ لابن حجر المسقلانى ، واشتغل بالتجارة والخطابة في المساجد وغيرها من الوظائف الصغرى ، وكانت وفاته في يونيو سنة ١٤٩٤ .

(٥) ولد أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى عام ١٤٢٧ بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم بالظاهر ، وتلمذ لابن حجر المسقلانى وحج مع أبيه وأمه سنة ١٤٥٢ فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها . وتنقل بعد ذلك بين مصر والشام والحجاز فحج خمس مرات ، وتوفى السخاوى بالمدينة سنة ١٤٩٧ .

العين — الاعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر — القول المنبئ في ترجمة ابن عربي .

وكان محمد بن أحمد بن إياس المصرى ، كأبى المحاسن سليل أسرة مملوكية^(١) ترك لنا : بدائع الزهور في وقائع الدهور — عقود الجمان في وقائع الزمان — نزهة الأعمى في المعجائب والحكم — مرج الزهور في وقائع الدهور ، نشق الأزهار في عجائب الأقطار .

ومن زملاء ابن إياس — المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى الذى كتب فى فنون عدة من أهمها كتب التاريخ الآتية :

حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — بدائع الزهور في وقائع الدهور — تاريخ أسيوط — الشماريخ في علم التاريخ — نظم القبان فى أعيان الأعيان — الملتقط من الدور الكئنة .

والمؤرخ عبد الباسط بن خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به من سلالة أسرة مملوكية ، وقد ولد ببلطية بأطراف آسيا الصغرى حيث كان أبوه متولياً نيابتها من قبل السلطان جقمق . وقد شغف بالسفر وبالتحصيل الواسع ثم استقر أخيراً بالقاهرة ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوف واعتبره السخاوى من تلاميذه فى التاريخ . ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ كتاب « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » وكتاب « نيل الأمل » ، وهو تكملة لتاريخ الذهبى ، وكتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وكتاب « تاريخ الأنبياء » . وتوفى عبد الباسط سنة ١٥١٤ بعد مرضه بالسل .

وزميله حسن بن حسين الطولونى المولود فى عام ١٤٣٢ ، مال إلى التاريخ والفقه والأدب والفناء والفروسية ، ونال حظوة لدى السلطان اينال والسلطان قايتباى الذى ولاه نيابة القلعة . فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحصينها تحصيناً عظيماً . ولابن الطولونى : « كتاب النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » . وقد مات عام ١٥٧١ .

وينبغى علينا أن نضيف إلى رجال التاريخ المصريين :

الادفوى (توفى سنة ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) ، صاحب الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد .

(١) ولد ابن إياس بالقاهرة سنة ١٤٤٨ ، وقد أنجب فى حياته الطويلة (٨٤ سنة) خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث . عاش عيشة راضية واشتغل بالتأليف فى التاريخ ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات . وهو معاصر للسيوطى وابن خليل وابن طولون الدمشقى وابن زنبيل الرمال وكانت وفاته فى عام ١٥٢٤ .

والبدر السافر وتحفة المسافر في تراجم مشاهير القرن السابع — والمؤرخ ابن قطلوبغا (توفي سنة ١٨٧٩ هـ ١٤٧٤ م) . والمؤرخ ابن وصيف شاه المصرى صاحب « جواهر البحور ووقائع الأمور ومعجائب الدهور » وجمال الدين بن واصل الفقيه الفيلسوف المؤرخ صاحب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . والمؤرخ أبو البقاء ابن الجيمان (توفي نحو عام ٩٠١ هـ — ١٤٩٥ م) صاحب القول المستطرف في سفر الملك الأشرف ... وغيرهم .

والمؤرخ ابن زنبيل الرمال كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة — والدرة القيمة في مصر القديمة — وتحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من المعجائب والغرائب — وقد توفي بعد سنة ١٥٥٢

مجتمع القاهرة كما وصفه العبدري

وفي أخريات النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، زار مصر محمد بن محمد بن علي العبدري ، وهو من علماء المغرب ^(١) وكان صريحاً فيما كتبه عن القاهرة وعلمائها .

بدأ العبدري بالإسكندرية ، فقال عنها : « الإسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراف اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة ... مدينة فسيحة الميدان ، مليحة البنيان ، كأنه لم يعب عنها شخص الإسكندر ، مماس فيها من عجائب مبانيها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسن أحسن غيرها وحجب ... ثم وصف أهم مبانيها ومنارها الفريد ، وعرج على وصف أحوال أهلها . وذكر عدداً كبيراً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها ، وما سمعه منهم ، أو ما قرأه عليهم ^(٢) .

وانتقل العبدري إلى القاهرة ، فقال : ... فوجدناها معيدة المعنى لبعض ما رأينا بها وسمعنا . وكان وصل إليها في أخريات رمضان ، فأتم الشهر بها وصلى مع أهل القاهرة صلاة العيد . ويبدو أنه لم يلق منها ترحاباً « ولم أر منهم يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة » فأثر ذلك في نفسه . ونزل العبدري بالمدرسة الكاملية بالجمالية ، وعنها يقول : وكنت نزلت بالمدرسة الكاملية منها في علو تشرف على السوق ،

(١) عزم العبدري على الرحلة إلى ديار الشرق الإسلامية في عام ٦٨٨ هـ — ١٢٨٩ م وسجل ما رآه في ذهابه وإيابه . ما تزال رحلته مخطوطة ، اختصرها ابن قنفذ صاحب الوفيات . راجع الاعلام للزركلي ٧ ص ٢٦٠ .

(٢) صلاح الدين النجد : المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى ، بيروت ١٩٦٣ ص ٧٠ — ٨٢ .

فكنت قلما أرقد إلا منغصاً لصياح الباعة ، وهم يبيعون طول الليل ، وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضع إلا من السوق ... والطرق غاصة بالخلق ، حتى ترى الماشي فيها ماله هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه ، ولا يمكنه تأمل شيء في السوق لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل ، وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً ، فتسكأر عليه الزحام حتى أسقط عنها ، واندفعت في غمار الخلق ، ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها ، حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها .

وقد ذكر البدرى بعض الشيوخ الذين رآهم في القاهرة ، فأثنى على عبد المؤمن بن خلف الدماطى الذى نجا وحده من نقده . فقال عنه : « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ ... المحدث بالمدرسة الظاهرية ، وقد سمعت منه أحاديث جملة من سنن الشافعى وقابل ابن دقيق العيد ، فرآه » حبراً كاملاً عالماً يحق له اللقاء ، وبحراً من علم لاتسكدره الدلاء ، له تفنن في فنون العلوم ، وتسلط عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم ، وقلما يلقى له في سمة المعارف نظير ، أو يوجد من يماثله في صحة البحث والتنقير ، وله في البلاد ذكر شهير ، وصيت مستطير ، وخطر خطير ، يضرب في كل فن بسهم مصيب ، ويحظى منه بأوفر نصيب ... فهو الآن قطب مصر وعلمها ، لولا وسوسة تصعبه ، وأخلاق يحل عنها منصبه ، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور ، أو تليت لها سورة كانت أبشع السور ...

وقد أعجب البدرى بنهر النيل ، فقال عنه : ... ونيلها من عجائب الدنيا عذوبة واتساعا وغلة وانتفاعا ، وقد وضعت عليه المدائن والقرى ، فصار كسلك اتظم درراً . وشاهد الأهرام ، وزار مشهد الحسين ومشهد السيدة نفيسة وتربة الإمام الشافعى .

لقد سجل البدرى في رحلته العيوب وحدها كما رآها ، في حين أغفل الآخرون تسجيلها ، وذكر ما رآه من جميل وحسن ! . ساعه الله

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

ابن بطوطة (١٣٣٦)

لدينا صورة واضحة للمجتمع القاهري رسمها أعظم الرحالة المسلمين وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار ، وهذا الرحالة هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله المروف بابن بطوطة .

ولد بطونجة سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٤ م) ونشأ في بيت كريم ودرس على منهاج آباءه ، ففقه وتأدب ومارس الشعر أيضاً . وغادر وطنه سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) لأداء فريضة الحج ، ولكنه ظل حول ثمانية وعشرين سنة في أسفار متصلة ، ثم عاد إلى فارس واتصل بسلطانها أبي عنان المرنى ، وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره ، فأمر كاتبه محمد بن جزى السكبي أن يذون ما ي عليه عليه هذا الرحالة ، ففعل بعد ما أضاف بعض الأشعار إليها ، وقد استعان بما دونه ابن جبير في كتاب رحلته ، ثم سماها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » و فرغ منها سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م)^(١) .

خرج ابن بطوطة من طنجة في رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونيو ١٣٢٥) للحج عن طريق مصر وسنه إذ ذاك اثنان وعشرون سنة ، ثم اتسمت دائرة أغراضه وجولاته ، فظل في رحلته هذه أربعاً وعشرين سنة تقريباً ، زار في أثنائها معظم بلاد العالم الاسلامي ، ورجع إلى وطنه سنة ١٣٤٩ ، لكنه لم يقيم بقاس طويلاً بل رحل عنها إلى الأندلس ، وسلطان غرناطة وقتئذ أبو الحجاج يوسف الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد بالأندلس ، ثم رجع إلى بلده ليقوم برحلة ثالثة إلى بلاد السودان وغربي أفريقيا ،

١ — طبعت رحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمة فرنسية في منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرقين ديفريمرى وسانجتي وطبعت بالقاهرة طبعتين ، ونشر الأستاذ جب ملخصاً لها بالإنجليزية في سلسلة (Broadway Travellers) سنة ١٩٢٩ ، ثم نشر الرحلة كاملة في عدة أجزاء بعد ترجمتها . ١٩٥٩ — ١٩٦٢ .

فبدأ من فاس سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) وأوغل في الصحراء الكبرى، ووصل إلى وزار تيكنتو وبعض مدن إقليم الطوارق ، وهناك وصله كتاب من عند السلطان أبي عنان يطلب إليه الحضور إلى مراکش ، فامتلح ووصل فاس (٧٥٤ هـ - ١٣٥٤ م) فأقام بها حتى وفاته سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) (١) .

وبهنا هنا أن تقتطف ما يعنينا من رحلة ابن بطوطة إلى مصر، وبخاصة القاهرة التي أسهب كثيراً في ذكر من قاباهم بها من العلماء ، يقول :

«... ثم وصلنا في أول جمادى الأولى (٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م) إلى مدينة الاسكندرية حرسها الله، وهي الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجبة الشأن ، الأصيل البنيان ، بها ما شئت من تحصين وتحصين وما تر دنيا ودين، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ، فهي الفريدة تجلى سناها ، والحريدة تجلى في حلاها ، الزاهية بمجالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طريقة فإليها انتهؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا في عجائبها فأغربوا، وحسب المشرف إلى ذلك ماسطره أبو عبيد في كتاب المسالك (٢) ». وقد أسهب ابن بطوطة في وصف الاسكندرية ومنازلها وعلمائها .

خرج ابن بطوطة من مدينة الاسكندرية فوصل قرية تروجه وهي على مسيرة نصف يوم من الاسكندرية بها قاض ووال وناظر ، وقد نزل الرحالة بها على رجل فاضل اسمه عبد الوهاب ، وأضافه ناظر القرية زين الدين ، ثم قصد دمنهور وكان قاضيها في ذلك العهد شجر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية . ورحل إلى مدينة قوة .

وفي اليوم التالي رحل إلى مدينة النحرارية وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده في خدمة ملك الهند ، ثم قصد مدينة ايار وهي قديمة البناء كثيرة المساجد ذات حسن زائد ، ثم توجه إلى مدينة المحلة الكبيرة ، ثم عرج على مدينة البرلس ، وقصد بعد ذلك مدينة دمياط ؛ ومن طريق ما ذكره ابن بطوطة عنها أنها كانت مسورة، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن الوالى ، فن كان في الناس معتبراً أعطاه رجال الإدارة الإذن على ورق مختوم بخاتم الوالى ، فيسمح له حراس باب المدينة بإبراحتها عند رؤية هذا الخاتم .

(١) أنظر رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة للدكتور محمد مصطفى زياده ١٩٣٩ ، والرحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكى محمد حسن ١٩٤٥ .

(٢) كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكرى الأندلسى (١٠٤٠ - ١٠٩٤)

ثم سافر الرحالة إلى فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل ونزل بخارجها حيث لحقه فارس جاء من دمياط ، ثم سافر إلى أشمون الرمان وهي مدينة عتيقة كبيرة على النيل ، ثم سافر منها إلى سمود وهي على النيل حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هذه المدينة ركب ابن بطوطة النيل مصعداً إلى مصر بين مداثن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه كلما أراد النزول بالشاطئ نزل للموضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، ثم وصل إلى مدينة مصر (القاهرة) . فذكر عنها :

«... وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد المتناهية في كثرة العمارات المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضيف والقادر وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضع ونيب وشريف ومشروف ومنكر ومعروف ، توج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سمة مكانها وامكانها ، شباها يجد على طول العهد وكوكب تعدلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرته الأم وتملك ملكها نواصي العرب والعجم ، ولها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لدوى العربية . قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وأما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والخور عينها وروضتها الفردوس والنيل كثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطئ مصر جنّة ما مثلها من بلد
لا سيما منذ زخرفت ببلها للطرد
وللسرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة^(١) مامسها داودها بسبرد
سائلة هواؤها يرعد عارى الجسد
والفلك كالأفلاك بين حادر ومصعد

تمال إن بمصر من السقائين على الجبال اثني عشر ألف سقاء . وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن ببلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق ، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان التزهة والتفرج

(١) مسرودة أى ملسوجة أو مخيطة .

وبه البساتين الكثيرة الحسنة، وأهل مصر ذوو طرب وسرور وهو . شاهدت بها مرة فرحة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصابعه ، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوائيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

(مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا) :

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الدكر تقام فيه الجمعة ، والطريق يمر منه من شرق إلى غرب ، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي . وأما للمدارس بمصر فلا يحيط أحد بمحصرها لكثرتها ، وأما للمارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك للنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويذكر أن مجاه^(١) ألف دينار كل يوم ، وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم . وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ، ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب ، ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خادم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جموا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين ، ولهم الخلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أنوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستباح ، وهم أعزب ، وللمتزوجين زوايا على حدة ، ومن للمشتغل عليهم حضور الصلوات الخمس والبيت بالزاوية ، واجتماعهم بقية داخل الزاوية ، ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مخضعة به وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بلسخ من القرآن العظيم مجزأة يأخذ كل فقير جزءاً ويحتمون القرآن ويذكرون ، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يعملون بعد صلاة العصر ، ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة ويحناء المكاز ويسراه الأبريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى ، وأى الزوايا زل في طريقه ، ومن شيخه ، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجاده في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي إلى سجاده فيحلب وسطه ويصلي ركعتين . ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم ، ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويقرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجاده فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم ، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

قرافة مصر ومزاراتها :

وأما القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها ، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويعملون عليها الحيطان

(١) مجاه أى جباهه .

ف تكون كاللدور وينون بها البيوت ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان ، ومنهم من يبنى الزاوية والدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى البيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضاً إلى البيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الأسواق بصنوف المساكين . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام ، وعليه رباط ضخمة عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفاً بها وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم ، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام ، وكانت بحماية الدعوة مجتهدة في العبادة ، وهذه التربة أنيقة البناء عليها رباط مقصود . ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن أدریس الشافعي (رضه) وعليها رباط كبير ، ولها جارية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان الجنية البديان للتناحية الاحكام للفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً . ويقراة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جهم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم .

نيل مصر :

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض غدوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، وللدن والقرى بفضله منتظمة ليس في العمور مثلاً ، ولا يلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس في الأرض نهر يسمى بحراً غيره ، قال الله تعالى : « فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » فبها يما وهو البحر ، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء إلى سدره المنتهى فإذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال : أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، وفي الحديث أيضاً أن النيل والفرات وسبحان وجيخان كل من أنهار الجنة ، ويجري النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفافها وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها ، ونهر السند مثله في ذلك ، وأول ابتداء زيادته في حزيران ، وهو يونيه ، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً ثم خراج السلطان فإن زاد ذراعاً كان الحصب في العام والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء ، وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد . والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهي النيل والفرات والدجلة وسبحون وجيخون ، وتمثلها أنهار خمسة أيضاً : نهر السند ، ويسمى بنج اب ، ونهر الهند ويسمى الكنك وإليه تمج الهند وإذا حرقوا أمواتهم رموا برماهم فيه ويقولون هو من الجنة ؛ ونهر الجون بالهند أيضاً ، ونهر اتل (١) بصمراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا (٢) ، ونهر السرو بأرض الخطا (٣) ، وعلى ضفته مدينة

(١) هو نهر الفولجا بروسيا

(٢) هو النهر الأصغر بالصين

(٣) الصين الشمالية

خان بالق^(١) ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا^(٢) ثم إلى مدينة الزيتون^(٣) بأرض الصين .

والنيل يفتقر بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً و صيفاً ، وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فلذا أمد ترعها فاضت على المزراع .

الأهرام والبرابي^(٤) .

وهي من العجائب المذكورة على مرالدهور ، وللناس فيها كلام كثير في شأنها وأوليسه بنائها ، ويرعون^(٥) أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى أخوخ ، وهو ادريس عم ، وأنه أول من تسكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية ، وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ، ودرس الصنائع ، فبنى الأهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ، ويقال أن دار العلم والملك بمصر بمدينة منف وهي على بريد من الفسطاط ، فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام فاخط عمرو بن العاص رضى الله عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد . والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهي السمو ، مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل الخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ؛ فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين للأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فليج في ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي ، فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثمة التي بها إلى اليوم ، ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدوها سواء فطال عجبهم من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً .

سلطان مصر :

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ، وكان قلاوون يعرف بالألقاب لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهباً وأصله من قلمجق . وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفاً ابتهاؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج ، من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى في الدربين المصرى والشامى ، وبنى زاوية عظيمة بـرياقص

(١) مدينة بكين (٢) مدينة هانغ (٣) مدينة قشيو

(٤) لفظة قبطية أصلها « يرب » ومعناها الهيكل أو المعبد .

(٥) دلت الاكتشافات الحديثة على بطلان هذه المزاعم .

خارج القاهرة ، لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكلف الفقراء والمساكين ، خليفة الله في أرضه ، القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسعى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله ، وسأني ذكر ماعمره أيده الله من المدارس والمرستانات والزوايا ببلاده (حرسها الله وحفظها بدوام ملكه) .

بعض أمراء مصر :

منهم ساق الملك الناصر وهو الأمير بكتومور وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء مملوئة مضمومة وآخره راء وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم ، ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدوادار وهو الذي يلي بكتومور في المنزلة ، ومنهم طشتمر المعروف بمحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن ، وله الإحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة ، وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس (يعنون الملك الناصر) أخرجه ، فأخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه . ومنهم وزير الملك الناصر ويعرف بالجمالي ؛ بفتح الجيم . ومنهم بدر الدين بن الباب . ومنهم جمال الدين نائب السكر ، ومنهم تقي الدين ، ومنهم بهادور الحجازي ، ومنهم قوصون . وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ، ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكانه القاضي شجر الدين القبطي وكان نصرانياً من القبط فأسلم وحسن إسلامه ، وله المسكارة العظيمة والفضائل الثامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل ، ومن عاداته أن يجلس عشى النهار في مجلس له باسطوان ^(١) داره على النيل ويليه المسجد فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأوى بالطعام ولا يمنع حينذاك أحد من الدخول كائناً من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر بما وكأ له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بأن يصحبه إلى خارج الدار ، وهناك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدر له ، ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري ، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

القضاة بمصر في عهد دخولي إليها :

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلام منزلة وأكبرهم قدراً وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضي الإمام بدر الدين من جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك ، ومنهم قاضي القضاة المالكية الإمام الصالح تقي الدين الإخناعي ، ومنهم قاضي القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريري وكان شديد

السطوة لا تأخذه في الله لومة لأثم وكانت الأمراء تخافه ، ولقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوماً لجلسائه إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري ، ومنهم قاضي القضاة الحنبلي ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بمعر الدين .

وكان الملك الناصر رحمه الله يقعد في النظر في المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها ، وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله في ذلك مسلكاً لم يسبق إليه ولا مزيد في العدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله بذاته السريعة لكل متظلم وعرضه بين يده المستقيمة أبي الله أن يحضرها سواء أدام الله أيامه ، وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلام منزلة في الجالوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ، ثم قاضي المالكية ؛ ثم قاضي الحنبلية ، فلما توفي شمس الدين الحريري وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفي أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه ، وذكروا أن العادة جاءت بذلك قديماً ، إذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد ، فأمر الملك الناصر بذلك ، فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس آنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعدته حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك .

بعض علماء مصر وأعيانها :

فمنهم شمس الدين الأصمباني إمام الدنيا في المقولات ، ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي ، ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ، ومنهم ركن الدين بن القويح التونسي ، من الأئمة في المقولات ، ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ، ومنهم بهاء الدين بن عقيل ، فقيه كبير ، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان القرناطي ، وهو أعلمهم بالنحو ، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي ، ومنهم برهان الدين الصفاقسي ، ومنهم قوام الدين الكرمانلي ، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتي في المذاهب ، ولبابة عبادة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ، ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرج والزهاد منفرداً عن أصحابه ، ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ، ومنهم شيخ شيوخ الفقهاء بديار مصر مجد الدين الاقصرائي نسبة إلى أقصر من بلاد الروم ، ومسكنه سرياقص ، ومنهم الشيخ جمال الدين الحويرائي ، والحويرا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ، ومنهم تقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين ، ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الإمام الشافعي مجد الدين ابن حري ، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهوتي من كبار الفقهاء ، وله بمصر رئاسة عظيمة وجاء .

يوم الحمل بمصر :

وهو يوم دوران الحمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب قضاة القضاء الأربعة ووكيل بيت المال والمحاسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج إليهم الحمل على جمل وأمامه الأمير للمعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جهالهم .

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه صاحب تاج الدين ابن حناء بدير الطين ، وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والليل الذى كان يكتحل به ، والأشفي الذى كان يخفف به نعله ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ، ويقال أن صاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم ، بنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة ، ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها إلى مدينة بوش ، وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كثرة ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى إفريقية ، ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة لادلا ، وهذه المدينة كثيرة السكان أيضاً كمثل الذى ذكرنا قبلها ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية ، ثم سافرت منها إلى مدينة يا ، ثم سافرت منها إلى البهسة ، وهي مدينة كبيرة ، وبساتينها كثيرة ، وتصنع هذه المدينة ثياب الصوف الجيدة ، ومن لهيته بها قاضيها فاضل ، العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس ، ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ، ونزلت عنده وأضافني ، ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب ، وهي مدينة كبيرة المساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل ، حق لها على بلاد الصعيد التفضيل ، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد .

الفساهرة في رحلة البلوى

كانت زيارة خالد بن عيسى البلوى إلى مصر^(١) في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان من كبار القضاة بالأندلس ، رحل إلى الحج ، وصف رحلته المعروفة باسم « تاج الفرق في تحلية أهل المشرق » ، وقد وصف بها مصر ، ونوفى بمداوم ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ - ١٣٣٦ م .

ذكر أنه وصل إلى القاهرة ، فنزل بقرب الجامع الأعظم للشهور بجامع ابن طولون ، وقد أدهشه ما رآه من ازدهار أيام الناصر محمد في مصر ، فوصفها بأنها « أيام أمن وسكون ودعة . . فالسحب ذيل

المعز ، وانضرب رواق الأمن ، وانسدل ستر العافية ، على الملأ والكافة . قال البلوى : وأخبرني الإمام . . شمس الدين الكركي ، قال : « أخصيت الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم فبلغت إلى مائتي ألف جبل ، ما عدا البغال . وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقي بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ، ما عدا السقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها . وقال عن المارستان : « ولو لم يكن للقاهرة ، ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها ، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسناً وجمالاً واتساعاً ، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبداع إنشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال ... ثم يتابع قوله : وأخبرني العالم المؤرخ شمس الدين الكركي أنه يكمل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين إليه ، والناقلين الخارجين منه أربعة آلاف نفس ، وتارات يزيدون وينقصون ، ولا يخرج منه كل من يرا فيه من مرض حتى يعطى متوليه إحساناً إليه ، وإنعاماً عليه : كسوة للباسه ، ودراهم لتفقاته .

وقد وصف البلوى مشاهد القاهرة ، ومسجد رقية وتربة زيد بن الحسين ، والقرافة ، وسرد أسماء بعض العلماء الذين رآهم أو قرأ عليهم .

* * *

أهم آثار عصر المماليك البحرية

(٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

رقم الأمر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٣٧	مدرسة الظاهر بيبرس البندقدارى بالنحاسين	٦٦٠-٦٢	١٢٦٢-٦٣
١	جامع السلطان الظاهر بيبرس بالظاهر	٦٦٥-٦٧	١٢٦٦-٦٩
١٤٦	زاوية وخانقاه أيدكين البندقدارى بشارع السيوفية	٦٨٣	١٢٨٤-٨٥
٢٤٣	مدرسة وبهارستان وقبة السلطان قلاوون بالنحاسين	٦٨٣-٨٤	١٢٨٤-٨٥
٢٧٥	قبة الأشرف خليل بشارع الأشرف	٦٨٧	١٢٨٨
٥٩٠	» حسام الدين توران طاي	٦٨٩	١٢٩٠
٢٤٩	قصر البين آق (الحسامى) بشارع التبانة	٦٩٢	١٢٩٢
٤٤	قبة الناصر محمد ومدرسته بالنحاسين	٦٩٥-٧٠٢	١٢٩٥-١٣٠٤
٣١	مدرسة قراستقر بالجالية	٧٠٠	١٣٠٠-١
٢٢١	مدرسة ومسجد سنجر الجاولى بقلعة الكبش	٧٠٣	١٣٠٣-٤
٣٢	خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجالية	٧٠٦-٩	١٣٠٦-١٠
٧٨	قناطر المياه (عصر الناصر محمد بن قلاوون) ببحر الخليج	٧١٢	١٣١٢
٥٤٩	بقايا قصر الناصر محمد بن قلاوون	٧١٤	١٣١٤
٢٧٠	قبة صفى الدين جوهر بالركبة	٧١٤	١٣١٥
٢٦٣	مدرسة وقبة سنقر السعدى (حسن صدقة)	٧١٥-٢١	١٣١٥-٢١
٢٤	مسجد الملك الجوكندار بشارع أم الغلام	٧١٩	١٣١٩
٢٣٣	جامع الأمير حسين بالمنصورة	٧١٩	١٣١٩
٢٦١	قبة سنجر المظفر بالسيوفية	٧٢٢	١٣٢٢
١١٥	مسجد أحمد المهندار بالدرب الأحمر	٧٢٥	١٣٢٤-٢٦
٥٦١	مبيل الناصر محمد	٧٢٦	١٣٢٦
٢٦	مدرسة مغلطاي الجمالى بقصر الشوق	٧٢٠	١٣٢٩-١٣٣٠
١٢٠	مسجد الأمير الماس بالحلمية	٧٣٠	١٣٢٩-٣٠
١٤٣	مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلمة	٧٣٥	١٣٣٥
٩٢	قبة طشتمر (حمص أخضر) بالقرافة الشرقية	٧٣٥	١٣٣٥
٢٠٥	مسجد الأمير بشتاك (الباب الداخلى والمنارة)	٧٣٦	١٣٣٦
١٧٦	جامع شرف الدين بالجزاوى	٧١٧-٣٨	١٣١٧-٢٧
٢٦٦	قصر الأمير يشبك (قوصون)	حوالى ٧٢٨	١٣٣٧
٣٤	» » بشتاك بالنحاسين	٧٣٥-٤٠	١٣٣٤-٣٩
١٢٠	مسجد الطنبغا الماردانى بالتبانة	٧٣٩-٤٠	١٣٣٩-١٣٤٠
٢٥٢	» الست مسكة بالحنفى	٧٤٠	١٣٣٩-٤٠

تابع أم آثار عصر الماليك البحرية

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
١١	وكالة قوصون بباب النصر	قبل ٧٤٢	١٢٤١
٢٤٤	مدخل حمام بشتاك بسوق العزى	قبل ٧٤٢	١٣٤١
١١٢	مسجد أصل السحدار بدرب شمالان	٧٤٥-٤٩	١٣٤٤-٤٥
٢٢	« ايدمر البهلوان بأم الغلام	قبل ٧٤٧	١٣٤٦
١٢٣	« أفسنقر ابراهيم أغا مستحقطان بشارع التبانة	٧٤٧-٤٨	١٣٤٦-٤٧
٢٠٣	« أرغون شاه الاسماعلى بالناصرية	٨٤٨	١٣٤٧
٢٤٢	مدرسة قطلوغا الذهبى بسوق العزى	٧٤٨	١٣٤٧
٢٦	قبة ومدرسة تاتار الحجازية بالجالية	٧٤٨-٧٦١	١٣٤٨ و ١٣٦٠
١٣٨	مسجد منجك اليوسفى بالخطابة بالقلعة	٧٥٠	١٣٤٩
١٤٧	مسجد الأمير شيخو بشارع الصليبية	٧٥٠	١٣٤٩
٥٠	قاعة محب الدين	٧٥١	١٣٥٠
٢٦٧	قصر الأمير طاز بالسيوفية	٧٥٣	١٣٥٢
١٤٤	سبيل الأمير شيخو بالخطابة	٧٥٥	١٣٥٤
١٥٢	خانقاه وقبة الأمير شيخو بشارع الصليبية	٧٥٦	١٣٥٥
١٤٠	مسجد خانقاه نظام الدين بالخطابة	٧٥٧	١٣٥٦
٢١٨	مدرسة سرغتمش بشارع الحضرى	٧٥٧	١٣٥٦
١٢٣	مسجد ومدرسة السلطان حسن بشارع القلعة	٧٥٧-٦٤	١٣٥٦-٦٢
٢٩٨	قبة تنكزيغا بالقرافة القبلية	حوالى ٧٦٠	١٣٥٩
٢٦٩	مدرسة بشير أغا الجمدار بنور الظلام	٧٦١	١٣٥٩-٦٠
٤٥	« مدرسة الأمير مثقال بدرب قرمز	٧٦٢	١٣٦١-٦٢
٨٥	قبة الأمير تنكزيغا بالقرافة الشرقية	٧٦٤	١٣٦٢
٨٠	« الأميرة طولبية »	٧٦٥	١٣٦٣-٦٤
١٥٢	مدرسة خشقدم الأحمدي بشارع الصليبية	٧٦٨-٧٨	١٣٦٦-٧٧
١٢٥	مدرسة أم السلطان شعبان بشارع التبانة	٧٧٠	١٣٦٨-٦٩
٣١٠	قبة أفسنقر بقنطرة سنقر	٧٧١	١٣٧٠
١٨٥	مسجد أسنغا بدرب سعادة	٧٧٢	١٣٧٠
١٨	المدرسة البقرية بحارة عطوف	قبل ٧٧٦	١٣٧٤
١٢١	مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح	٧٧٤	١٣٧٣
١٣٩	قبة الأمير يونس الدوادار بالخطابة	قبل ٧٨٣	١٣٨٢
١٥٧	« يونس الدوادار (أنس) بالقرافة الشرقية	٧٨٣-٨٤	١٣٨٢
٢٢٥	بوابة درب اللبان بالمحجر (القلعة)	القرن الثامن	القرن الرابع عشر
٢٨٧	بقايا ربيع طنجع بالسيوفية	» »	» »

الفصل الخامس قاهرة المقرئى

من ١٣٦٤ إلى ١٤٤١

يدين جميع المؤلفين الذين يكتبون عن القاهرة وآثارها القديمة كالساجد والمدارس والوكالات والسبل.. أو أولئك الذين يتبعون تاريخ تطور المدينة المعزية في أيام الفواطم والأيوبيين ودولى المالك إلى المؤرخ الخالد الذكر أحمد بن على المقرئى ، القاهرى ، فقد ولد سنة ١٢٦٤ بحارة رجوان بقسم الجمالية ، ويقصد بالحارة هنا الخان أو الوكالة أو العمارة الكبيرة . وقد عرفت هذه الناحية بصخبها وضوضاء الحياة فيها . كفل جده لأمه تعليمه . وكان اسمه ابن الصايغ الحنفى ، وانسكب على التحصيل والتعلم ، وأظهر نجابة ثم درس الفقه بعد انتقاله إلى المذهب الشافعى . وبعد أن أكمل تعليمه ، عمل موقماً بديوان الإنشاء بالقلمة ، فكان يجتاز الشارع الأعظم من داره إلى محل عمله في كل يوم ؛ ثم غدا بعد ذلك قاضياً عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً للجامع الحاكم ، ومدرساً للحديث بالدرسة المؤيدية . وفي عام ١٣٩٨ اخذ إزاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين . وفي ذلك الوقت تزوج المقرئى وأنجب .

تقلب المقرئى في عدة وظائف قضائية في القاهرة ودمشق ، وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ، ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده ، ثم زهد في الوظائف العامة واستقر في القاهرة ، وتفرغ إلى البحث والكتابة ، وخص مصر وأخبارها وآثارها بأعظم قسط من جهوده وبحوثه ، وكتب في ذلك عدة كتب جليلة .

وهكذا نرى أن العصر الذى عاش فيه المقرئى يمتد من أواخر القرن الرابع عشر إلى أوائل القرن الخامس عشر . وقد عاصر المقرئى من ملوك مصر عشرة متعاقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين في تطور القاهرة والمجتمع المصرى ، الأولى : في أواخر القرن ١٤ حينما كانت القاهرة بعد ما أصابها من وباء ، ترتدى ثوباً جديداً من الحياة ، والثانية : بعد الحزن الذى توالى عليها بين عامى ١٤٠٣ ، ١٤٠٩ ، من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أغاض المقرئى في أخبار هذين المصرين وأحوالهما وآثارهما^(١) ، كما يتضح لنا ذلك فيما دونه في مؤلفاته القيمة .

(١) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطوط المصرية ، ص ٥٢ — ٥٦

تطور القاهرة

وقاهرة تلك الأيام صورة تلك المدينة التي يتبع وصفها القارئ في ألف ليلة وليلة . لقد قرأنا وصف القاهرة السلاطين ولكن ليست المصحة صورة لآثار سلاطينها وحكامها ، فللقاهرة حياتها الأخرى — تلك الحياة الحية التي قاومت المستبدين جيلاً بعد جيل ، فليست القاهرة وفقاً على مساجد ومدارس ومنابر ووكالات الحكام من سلاطين وأمراء ، فلها في كل عصر قلب الدمار النابض ومقر تجارتها ومتمتع أهلها الاجتماعية وصبت ثقافتها ومنازة دينها .

إننا الآن في القاهرة ، تلك المدينة التي عرفها القريري والتي عاش تحت سمائها ... لم تكن ذلك المقل الحدود الذي اشتمل على القصور الفاطمية بأسوارها العالية ... فقد امتدت من جميع نواحيها إلا من ناحيتها الشرقية وتمتد عمارتها بوابتها الشمالية وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية^(١) كثرت فيها المساجد والزوايا والدور وانتشرت مبانيها إلى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمي والنيل ، وانحسر النهر وتقلص مأوؤه عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض بالظهور فنشأ ميناء جديد عرف باسم بولاق وبنيت مجموعة من المنازل مكان مجرى النيل القديم (١٣١٣ م) وأقدم الأثرياء على إنشاء القصور والناظر، وغرسوا حولها البساتين العظيمة، وانتظمت العارة في الطول على حافة النيل من منية السرج إلى موردة الخلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر ، وعمر على حافة النيل القرية من تجاه الخندق شمال القاهرة إلى منشأة المهراني ، وبقيت هذه المسافة كلها بساتين وأحكار أعامرة بالدور والأسواق والحمامات والجوامع وغيرها .

ويمكن للباحث الراغب في معرفة تفاصيل امتداد القاهرة أن يقرأ الخطط القريرية بإمعان ، فهي المرجع الفريد حقاً ، لأن مؤلفها معاصر لهذه المرحلة الهامة .

(١) كان هذا الحي في أول الأمر حارة كبيرة واقعة خارج سور القاهرة الشمالي تجاه باب الفتوح والحسينية منسوبة لجماعة الأشراف الحسينيين قدموا من الحجاز واستوطنوا ذلك الخط على أيام الكامل محمد بن العادل وفي رأي آخر في أيام الحاكم بأمر الله . وفي عصر الجراكسة أصبحت الحسينية تتألف من عمالي حارات .

أرض الطبالة

عمرت في شرق بولاق (الظاهر الآن) منطقة جديدة من الأراضي عرفت بأرض الطبالة ، حصرت بين الخليج الناصري والمقس ، وكانت من أحسن المتنزهات يمر النيل من غربها عند ما يندفع من المقس حيث كان جامعها إلى أن ينتهي إلى الموضع الذي عرف بالجرف على جانب الخليج الناصري بالقرب من بركة الرطلى ، وكان منظر هذه المنطقة في أيام الربيع خلابة جميلاً ، وفيها قال الشاعر المصري سيف الدين على :

إلى طبالة يعزوف أرضاً لها من سندس الريحان بسط
رياض كالمراس حين تجلى بزین وجهها تاج وقرط

ويعزى إطلاق ذلك الاسم عليها إلى الأمير أبي الحارث أرسلان البساسيري عند ما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسي وخرج من بغداد يريد الإتياء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة ، أمدته الخليفة المستنصر بالله حتى استولى على بغداد ، وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة العباس فيها وأقام الدولة الفاطمية ، وأرسل كل تحفة وحناءه النفيسة إلى القاهرة ، فسر الخليفة المستنصر سروراً عظيماً ، وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة ، فوقفت « نسب » طبالة المستنصر وأنشئت تحت القصر وحولها طائفتها :

يا بني البساس ردوا ملك الأمير معبد
ملككم ملك معمار والمواري تسترد

فأعجب المستنصر بها وقال لها « تنى » فسألت أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض ، وقيل لها أرض الطبالة ، وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى عرفت بتربة « نسب » . وقد عمرت هذه الأراضي ، وبنت بها دوراً ويوتاً وكانت من ملح القاهرة وبهجتها ، وقد خربت سنة ست وتسعين وستمائة عند حدوث الغلاء والوباء في سلطنة الملك العادل وبقيت خراباً إلى ما بعد سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م فشرع الناس في سكناها قليلاً قليلاً ، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب ، فما زال المهندسون حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوايين التي عرفت فيما بعد ببركة الرطلى فمروا به من هناك حتى مصب الخليج الكبير . فعمر الأمير هناك القنطرة التي عرفت بقنطرة الحاجب عند الخليج الناصري ، وبذلك أعيدت العبارة ثانية إلى أرض الطبالة وصارت بها عدة حارات منها حارة العرب والأكراد و... الخ ، إلى أن حدث الغلاء في أيام الأشرف شعبان بن حسين فخر كثير آمن حارات أرض الطبالة وبقيت منها بقية إلى أن اندثرت منذ سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ، وصارت أكواماً . وكان من أشهر جوامع الطبالة جامع الكيفي الذي شيد على الخليج الكبير في عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وجامع سروجه (٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) بالقرب من بركة الرطلى - وإذا بعدنا

نحو الشرق قليلا ، وجدنا مساجد أخرى شيد منها جامع الملك ٧٣٢ هـ وابن الفلك في حي الحسينية ، وجامع عكوش وابن المغربي ، وخانقاه يونس النوروزى الداوادر ، وخانقاه ابن غراب (٧٩٨ هـ) وزاوية الجبرى (٦٨٧ هـ) والقلندرية (٧٢٢ هـ) والخلاطى (٧٣٧ هـ) خارج باب النصر ، ومن هذه المساجد نستطيع أن نعرف على مدى نمو القاهرة من ناحية الشمال .

وكانت القاهرة إذ ذاك تشغل المساحة التى كانت تشغلها حتى أوائل القرن الماضى ، قبل أن تتسع وتمتد وتوجد ضواحيها الحالية التى أنشئت منذ نصف قرن أو أكثر بقليل . وأعتقد أنه لم يكن هناك فرق يذكر بين حال القاهرة خلال القرن الخامس عشر وتلك القاهرة التى أجاد وصفها فوج من الرحالة والمستشرقين الأوربيين ، وفي طلبتهم ويلكنسون وبورخاردت ولين وجون فلبس وهائى — وهؤلاء أجادوا وصفها أو تصويرها في مؤلفاتهم أو لوحاتهم الخالدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر — والذين يدققون النظر في لوحات هؤلاء يتصورون بوضوح تلك القاهرة التى كانت إلى أوائل القرن التاسع عشر تحمل طابع القرون الوسطى .

وكيف يكون منظر القاهرة مختلفاً لذلك الزائر الجديد عند ما يصل إلى الاسكندرية فيركب إحدى السفن لتنتقله على ترعة المحمودية ، وبعد أيام يصل إلى ثغر بولاق ومنها يستأجر مطية يصل بها إلى باب الحديد على بعد ميل تقريباً ، فيصل القاهرة من ناحيتها الشمالية الغربية من المدينة .

كان يوجد طريقان رئيسيان يؤديان من بولاق إلى القاهرة — أولهما الشمالى غير منظم ولكنه الممر العام للتجارة ، وثانيهما الجنوبى ويحجر الزائر على عبور قناتين ليصل إلى الجانب الغربى من حديقة الأزبكية وإذ ذاك يمر بجامع أبو العلاء على يمينه . وقد رفع الفرنسيون أثناء الاحتلال الفرنسى مستوى الطريق لى لا يعرقله الفيضان ، وحاولوا أن يصلوا به إلى القلعة بطريق مستقيم وواسع ، وهذا المشروع وإن لم ينجح أثناء حكم الفرنسيين إلا أنه تم فيما بعد وعرف باسم شارع فؤاد الأول ، ثم ٢٦ يوليو فى أعقاب ثورة عام ١٩٥٢ .

وقد لعبت القاهرة دوراً عظيماً في التجارة فكانت ملتقى تجارات الشرق بالغرب ، وعادت على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة ، وكان لابد لهذا النشاط التجارى من أسواق ووكالات وخانات وفنادق — وكانت القاهرة مزدحمة بمثل تلك المنشآت التى ترمى كلها إلى غرض واحد ، فهى عبارة عن مجموعة من البيوت التجارية أو الحوانيت التى تحيط بساحة أفناء ، وأمام هذه الحوانيت باقيات مسقوفة يضع فيها التجار بضاعتهم الزائدة على حاجة العرض كما يستعملونها سكناً لهم إلى انتهاء مهمتهم ، ومكانا يستخدمونه أيضاً لراحة حيواناتهم ، وأشهر هذه الخانات الباقية إلى يومنا هذا خان الخليلي ، وكان موضعه ضريح القصر الذى فيها قبور الخلفاء الفاطميين ، وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلي أمير النور (أمير الخيل) للملك الظاهر برقوق وخان الحمزاوى أو سوق القماش ، ووكالة قايتباى ووجتها ما يعتبران مثليين بديعين لزخرفة النقش في تلك

الأيام، والأولى بالقرب من جامع الأزهر والثانية بالقرب من السروجية، ولقد كان في القاهرة عندما وصفها « المستشرق لين بول » عام ١٨٣٥ مائتا وكالة ، لا تزال الآن بقية منها .

خانات القــــــــــــــــاهرة وفنادقها

وفي أثناء القرن الخامس عشر صارت خانات القاهرة أسواقاً للتجار الذين ازدحمت بتاجرهم ، وكان أمراء الممالك يدركون الفوائد التي تعود عليهم من بناء الوكالات ، فكان يفخر الأمير إذا شيد وكالة كبيرة تعود عليه كل غرفة من غرفها بإيجار شهري يناسبها ، وكان من أشهر تلك الخانات التي ازدحمت بها القاهرة خان مسرور وها إثنان أحدهما الكبير على يسار الذي يسلك الطريق من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة السكلمية هي سوق الرقيق . وكان مسرور هذا خادماً من خدام القصر واختص بالسلطان صلاح الدين . وقد أدرك المؤرخ المقرئ ذلك الخان وهو في غاية العماره وكان ينزل فيه أعيان التجار الشاميين بتجارهم وكان من أجل الخانات وأعظمها ، فما كثرت المحن بحروب بلاد الشام منذ غارة تيمورلنك تلاشت أحوال مصر وقل الثمار وتهدمت عدة أماكن منه .

ومن أسواق القاهرة أيضاً قيسارية جهار كس التي بناها ابن عبد الله غر الدين أمير النصور الناصري الصلاحى ، وقد رأى المقرئ جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون : « لم نر شيئاً في البلاد مثلها في حسنها وعظمتها واحكام بنائها » . وبني بأعلاها مسجداً كبيراً وربماً معلقاً .

وفندق بلال المعنى الذى أنشأه الأمير الطواشى حسام الدين بلال المعنى أحد خدام الصالح وكان معظماً إلى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة ، وكان الملك المنصور قلاوون إذا رآه يقول : « رحم الله أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب أنا كنت أحمل خفي هذا الطواشى حسام الدين كما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها له » وكان الفندق المذكور يقع بين خط حمام خشية وحارة العدوية .

وقال المقرئ عنه : « لقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير فلا يبقى من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل الصناديق من الذهب والفضة ما يحل وصفه » . وقد تلاشى هذا الفندق حتى أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل فندقاً آخر بالقرب منه .

وخان السبيل الذى بناه خارج باب الفتوح الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش وزير صلاح الدين وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر وبه بر ساقية وحوض — ووكالة قوسون وكان موضعها بين الجامع الحاكى ودار سعيد السعداء ، وقد بناها الأمير قوسون وجعلها فندقاً كبيراً للتجار بدائرة عدة مخازن واشترط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة ، وقد ذهش المقرئ لما زارها لكثرة ما فيها من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين ، وكان يعملوها أرباع تشتمل على

ثلاثة وستين بيتاً أدركها المقرئ لما كانت عامرة كلها وقد سكنها نحو أربعة آلاف نفس — فلما كانت سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م خرب كثير من هذه البيوت ، وفندق دار التفاح ، وكان تجاه باب زويلة وتردد إليه القوا كه على اختلاف أصنافها مما يثبت في بساطين ضواحي القاهرة ، ومن التفاح والكثري والسفرجل الوارد من الشام . وقد أنشأ هذا الفندق الأمير « طشوزدمر » بعد سنة أربعين وسبعمائة ووقفها على خاتمه بالقرافة . وخلا ما ذكرنا من الحانات والفنادق كان يوجد خان منكورش (بالقرب من الجامع الأزهر) وكان أحد ماليك السلطان صلاح الدين ، وفندق ابن قريش ووكالة باب الجوانية وفندق طارنطاي (خارج باب البحر ظاهر المقس) وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام ، كان فيه ستة عشر عموداً من الرخام ويعلموه ربع كبير .

وكان في القاهرة الكثير من أمثال هذه المباني العظيمة كتب تاريخها المؤرخ المقرئ ، فأفاض في وصف خطط القاهرة القديمة وتطورات المدينة الجغرافية والعمرانية وأحيائها وآثارها ومساجدها ومدارسها وقصورها وبساتينها وميادينها وحماماتها وشوارعها وأسواقها ، وصف كل ذلك بأسلوب يعزى الإنسان على قراءته بسهولة وبصورة ممتعة بعيدة عن الخيال المنمق . لقد كانت القاهرة المقرئية مدينة رائعة الجمال ضخمة البناء جميلة العمارة متجانسة في كل شيء ، وكانت قصور للمالِك القدماء والتي لا تزال آثار بعضها لليوم — كبقايا قصر بشتاك وبوابة دار منجك السلاحدار (٧٤٨هـ) بالقرب من جامع السلطان حسن ، وبعض ممتلكات قايتباي وقصر الأمير ماماي الذي بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التي نعرفها اليوم ببيت القاضي — كل هذه المنشآت كانت في كامل مجدها حينذاك — وكان يقع قصر بشتاك في أيام المقرئ تجاه الدار اليسرى (وهذه كانت أعدت في أيام الفاطميين للأفرنج بخط بين القصرين) وكان يقصد إليه من باب البحر الذي عرف بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية وما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الهخري المعروف بأمر سلاح وصار ينزل إليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الحضرة السلطانية بقلعة الجبل في موكب عظيم ، ويدخل كل منهما داره .

وقد وصف مؤلف الخطط هذه الدور وصفاً جيداً فذكر منها عدداً وفيراً نأى هنا على أهمها ، دار الأحمدى ودار قراسنقر ودار أمير مسعود ودار نائب الكرك ودار بيبرس الحاجب ودار الدوادار ودار الذهب ودار بكتمر ودار الجاولي ودار طولباي ودار البقر ودار طاز ودار صرغتمش ودار بهادر المقدم . . الخ وكان وصفها فيما لا يقل عن الأربعين صفحة . وقد تكلمنا على معظم تلك المأثر .

أخطاط القاهرة

وكانت أخطاط القاهرة يفصلها عن بعضها البوابات الخشبية الضخمة التي كانت توصل على سكان الحي بعد غروب الشمس ، وأهم الخطط التي ذكرها المؤرخ الملامة المقرئ خط خان الوراقا وخط باب القنطرة

وخط بين السورين وخط يمتد من باب الكافورى فى الغرب إلى باب سعادة ، وكانت بهذا الخط قناطر اللؤلؤة وقناطر دار الذهب وقنطرة العزلة ، وهى بجوار قنطرة الموسكى وخط الكافورى ، وكان بستاناً قبل بناء القاهرة وخط الحرنفش ، وكان بين حارة برجوان والكافورى ، ويصل الإنسان إليه من بين القصرين وخط باب المارستان وخط بين القصرين ، وقد كان من أعمار أخطاط القاهرة ، وكان فى عصر الدولة الفاطمية قضاء كبيراً يقف فيه عشرة آلاف من الجند المشاة والحالة — ولما حكمت الدولة الأيوبية صار هذا الموقع سوقاً مبتدلة ، ثم منزهاً نمر فيه أعيان الناس ، وكانت تقعد فيه عدة حلقات لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار وأنواع اللعب واللهو ، ولما حدثت عن سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م تلاشى كل هذا .

ومن الخطوط أيضاً خط الخشبية وخط سقيلة العداس وخط البندقانيين وخط دار الديباج ، وسى بهذا الاسم لأن دار الوزير يعقوب بن كلس التى جعلتها المدرسة الصالحية ودرب الحريرى والمدرسة السيكية كانت عملت داراً يلسج فيها الديباج والحرير للخلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج .

أسواق القاهرة

وكان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شىء كثير جداً والدليل على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنتا وخمسون سوقاً أدرك بعضها المقرزى .

وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب وكانت التوافذ والشريات تطل على السوق بشكل جذاب يستوقف النظر .

ومن أشهر الأسواق التى ذكرها المقرزى فى خططه القصبة ، وكانت أعظم أسواق مصر احتوت على إثني عشر ألف حانوت وامتدت من الحسينية إلى الشهد النقيسى ، ولقد أدرك المقرزى هذه المسافة الممتدة بأسرها ورآها عامرة بالحوانيت خاصة بأنواع المأكول والمشرب والأمتة التى تهيج رؤيتها ، وقد تفرعت على هذه الأسواق أسواق صغيرة أخرى ، أهمها سوق باب الفتوح وسوق حارة برجوان وسوق الشعاعين وسوق الدجاجين ، ومن الأسواق أيضاً سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح ، وكانت تمتد بين مدرسة الظاهر بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد جددت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع اللشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح ، وسوق باب الزهومة وسوق اللحامين وسوق الجوخين وسوق الحلاويين وسوقة أمير الجيوش وسوق الصناديقين والحريريين والنبريين والحراطين والقرايين ، وغير ذلك من السوقيات العديدة .

وقد وصف المقرزى فى كتابه الخالد ٣٧ حارة أوحيا وثلاثين خطاً و٦٥ شارعاً أو دربا و٢١ زقاقا

وخوخة و٩٠ رجة أو ميداناً و٥٠ سوقاً و٢٣ قيسارية و١١ خاناً أو فندقاً أو وكالة و٥٥ قصرأ ودارأ و٤٤ حماماً و١٨ بستاناً و١١ ميداناً للسباق وغيرها .

فمن تلك الحارات ذكر حارة بهاء الدين ورجوان وزويلة والمحمودية والجودرية والوزيرية والباطلية والروم والديلم والأتراك والصالحية والبرقية والعطوفية وقائد القواد والأمراء والمنصورية والملاية والحسينية . . الخ . . ومن الدروب التي ذكرها درب الترك وشمس الدولة وتوران شاه ودرب ابن طلائع ، ودرب أمير حسن وأرقطاي ، ومن الأزقة طريف منعم ، ومن الخوخ ، أيد غمس الأزرق وعسيلة والصالحية وخوخة حسين . ومن الرحاب ، ذكر رجة باب العيد ، ورجة قصر الشوك ورجة الجامع الأزهر ورجة البدرى ورجة أقبا ورجة مقبل ورجة المنصوري ورجة بيبرس وأرقطاي ورجة باب اللوق والناصرية .

حمامات القاهرة

أما حمامات القاهرة فبلغ عددها أربعة وأربعين وقد ذكر « المسبى » في تاريخه أن العزيز بالله نزار بن المزمدين الله كان أول من بنى الحمامات بالقاهرة ، وذكر القاضي القضاى أنه كان في مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً . قال ابن المتوج أن عدد حمامات مصر في زمنه بلغ أكثر من سبعين حماماً وذكر ابن عبد الظاهر أن عدد حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس وثمانين وستماية قارب من ثمانين حماماً .

وأهم الحمامات التي ورد ذكرها في خطط المقرئى حمام السيدة العمة وحمام السباط وحمام لؤلؤ وحمام تتر وحمام الذهب وحمام السلطان وحمام خوند وحمام الجيوشى وحمام الرومى وحمام كتبغا الأسدى وحمام القاضى وحمام الحسام وحمام الصوفية وحمام بشتك . الخ

المدارس

شيدت في أيام الجراكسة عدة مدارس ، كان في طليعتها :

مدرسة ومسجد الظاهر برقوق بالنحاسين .

بناها الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة وكانت تستخدم كمدرسة وخانقاه . توفي منشئها قبل إتمامها فأكملها ابنه الناصر فرج سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠م كان ابن « الطولونى » هو الذى اختط هذه المدرسة .

مدرسة ومسجد الأشرف برسباى .

أنشأها الملك برسباى سنة ٨٢٦ هـ / ٨٢٧ (١٤٢٣ / ٢٤م) بالخانكاه ولها واجهة كبيرة شرقية تتكون من سبيل وكتاب وباب تجاوره مثناة . والركن الشرقى البحرى للمسجد تربة زوجة الملك الأشرف وابنه .

مدرسة ومسجد جوهر اللالا .

أنشأها الأمير جوهر اللالا الذى كان فى خدمة الأشرف برسباى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٩ / ٣٠ م على ربوة عالية بحرى مسجد الرفاعى .

مدرسة ومسجد أبو بكر مزهر بحارة برجوان .

أنشأها أبو بكر بن محمد سنة ٨٨٤ / ٤٨٥ هـ (١٤٧٩ / ١٤٨٠ م) ولها واجهتان خاليتان من الزخارف والباب الشرقى حافل بالزخارف الرخامية والحجرية ، ويعاوه مثناة من ثلاث دورات ، بها كثير من الزخارف ، وداخل المدرسة حافل بشق الصناعات الجبلية ، فالأيوان كسيت جدرانها بوزرة من الرخام ، والمحراب مصنوع من الرخام الدقيق ، كما أن صناعة النجارة على جانب عظيم من الدقة .

مدرسة ومسجد السلطان العورى .

أنشأها العورى بالعورية سنة ٩٠٩ / ٥٩١٠ هـ — ١٥٠٣ / ١٥٠٤ م ؛ وهى تقابل تربة ويفصل بينهما شارع العورية ويتوصل إليها من سلم يؤدي إلى مدخل فدركاة جميلة مفتوح فى جانبها القبلى باب يوصل إلى طرفة تؤدي إلى صحن المسجد المشتمل على أربعة إيوانات أكبرها الأيوان الشرقى وهذه الأيوانات مغطاة بسقف — جميل فيه نقوش مموهة بالذهب .

المكتبات

رأينا أمراء هذا العصر قد شيدوا الكثير من المساجد والمدارس ، وكانت تلك عامرة بخزانات الكتب العامرة ومنها مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق (٧٨٦ — ٧٨٨ هـ) . وكان بالمدرسة المهدودية خزانة كتب ، قال عنها المقرئى « لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها » . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة حتى أواخر العصر المملوكى واشترط واقفها الأمير جمال الدين محمود أن لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه المكتبة جمعت الكتب الإسلامية . وقد تولى خزانة كتب المدرسة المهدودية السراج عمر أيام الأمير جمال الدين ، ولكنه عزل بسبب تفريطه فى كتبها ، كما عزل خازنها عثمان غفر الدين

البكرى سنة ٨٢٦ هـ لنفس السبب ، ثم تولى أمانة هذه المكتبة الشيخ المؤرخ الحافظ بن حجر العسقلاني واستمرت بيده حتى وفاته (١) .

وقد كان بالخانقاه البرقوقية التي أنشأها السلطان فرج بن برقوق بخارج باب النصر سنة ٨٠١ هـ - ٨١٣ هـ خزانة كتب كبيرة (٢) .

وحينما شيد الأمير جمال الدين الاستادار مدرسته بالجمالية برجة باب العيد سنة ٨١٠ هـ - ٨١١ هـ جمع لها الكتب واشترى الكثير من مكتبة المدرسة الأشرفية بعد هدمها (٣) .

واحتوت المدرسة المؤيدية التي بناها السلطان المؤيد شيخ الحمودى سنة ٨١٨ - ٨١٩ هـ على مكتبة كبيرة كما اشتملت المدرسة الأشرفية التي بناها أبو النصر برسباى سنة ٨٢٦ - ٨٢٩ هـ على خزانة كتب قيمة زخرت بالكتب الدينية ، وكتب الحديث واللغة والآداب والمصاحف . أما السلطان قايتباى الحمودى فأليه تنسب عدة مكتبات ، ففي مدرسته الكبيرة بقرافة المالك أودع بها خزانة كتب ، كذلك كان في مدرسته بقلمة الكبتش . وقد تنافس أمراؤه في بناء المدارس التي أودعوا بها خزانات الكتب ، ومن هؤلاء الأمير يشبك الدوادار الذي كان محبا للعلماء والفقهاء ، يقتنى المصاحف الشريفة والكتب . ولما بنى الأمير أربك أنابك الجيش مدرسته الكبيرة في سنة ٨٨٠ هـ عمل فيها خزانة للكتب .

وقد كان بمدرسة السلطان قانصوه الغورى بخط الشراشين خزانة كتب حوت من صنوف المصاحف والكتب النسخ الكثير ، ورتب لها أمينا ثقة يقوم على خدمتها (٤) وقد وصل إلينا بعض نقائس تلك الخزانة ، منها كتاب نقائس المجالس السلطانية في حقائق أسرار القرانية ، وكتاب الكوكب الدرى في مسائل الغورى وكتاب تذكرة الملوك إلى حسن السلوك والحكايات المستطابة في ديوان الصباية « وهكذا يبدو أن تلك المكتبة كانت زاخرة بشئ أنواع المؤلفات . وقد تنافس أمراء الغورى في تأسيس المكتبات ومن هؤلاء : قانى باى قرا الرماح والأمير خير بك صاحب الجامع بخط التبانة ، والأمير بيبرس عبد الله الذى عمر مسجداً بخط الجودرية الحق به خزانة كتب .

وكان كثير من السلاطين والأمراء والعلماء مغرماً باقتناء الكتب النفيسة بخطوط مؤلفيها ، وجمع المصاحف الكريمة التي كتبها مشاهير الخطاطين . ومن هؤلاء المؤرخ أبو الحسن يوسف بن تغرى بردى

(١) السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ١٤٣

(٢) المقرئى : الخطوط ج ٣ ص ٤٠٢ و ٢٦٤

(٣) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ص ٢٧ - ٢٨

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : المصدر السابق ذكره ص ٣٣ - ٣٥

قد أودع في مدفنه بالصحرَاء خارج باب النصر بالقرب من تربة الأشرف إينال كتبه القيمة وتصانيفه المختلفة ويقلها في خزانة يقيم لها خازناً أميناً ويجعل له سكناً خاصاً به (١).

وكان أمناء المكتبات يتقاضون مرتبات بعضها يعتبر ضئيلاً بالنسبة لواجباتهم ، كان يتقاضى أمين مكتبة السلطان فرج بن برفوق — ٢٠ درهماً وأمين مكتبة الأمير جمال الدين الاستادار ١٠ دراهم ، وأمين مكتبة السلطان برسبای الدقاقى ٢٠٠ درهم يضاف إليها ثلاثة أرطال من الخبز في اليوم ، وأمين مكتبة السلطان قايتباى ٢٠٠ درهم يضاف إليها رطلان من الخبز يومياً ، وأمين مكتبة الأمير أربك (ططنخ) ٣٠٠ درهم وأمين مكتبة السلطان قانصوه الغورى ١٥٠٠ درهم ويخصم منه مرتب الفراش ، وأمين مكتبة الأمير قانى باى الرماح ١٦ درهم .

خلجان القاهرة

كان بظاهر القاهرة عدة خلجان أهمها خليج مصر وخليج فم الخور وخليج الذكر وخليج الناصرى وخليج قنطرة الفخر . أما خليج مصر فكان بظاهر المسطاط ويعبر غربى القاهرة وهو خليج قديم أهمل عصوراً طويلة حتى أعاد حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقيل له خليج أمير المؤمنين ، وقد حفر في سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م وفرغ منه في ستة أشهر ، وما برح هذا الخليج متنزهاً لأهل القاهرة يعبرون فيه المراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصرى وذكر المسبحى أن الحاكم بأمر الله منع في سنة ٤٠١ هـ الركوب في القوارب إلى القاهرة في الخليج وشدد في المنع وسدت أبواب القاهرة التي يوصل منها إلى الخليج وأبواب الطاقات بين الدور التي تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخور . وعن الخليج قال المقرئى :

لا تركب في خليج مصر إلا إذا يبدل السلام
يا سيدى لا تسر إليه إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصايب عليه من فضله لثام

وخليج فم الخور كان يخرج من النيل ويصب في الخليج الناصرى وكان على خليج فم الخور قنطرة كما كان على خليج الذكر الذى حفره كافور الأخشيد مثلها ، وهى قنطرة الدكة التي عرفت أيضاً بقنطرة التركمانى .

(١) وثيقة ابن تفرى بردى محكمة ١٤٧ محظية ٢٣ : انظر مقدمة النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩ — ٢٨
السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٣٠٥ — ٣٠٨

أما الخليج الناصري فكان يخرج من النيل ويصب في الخليج الكبير وقد أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون لقر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس تحمداً لما يحتاج إليه من الغلال وغيرها ، كما أنشأ قصوره وخاناته بتلك الناحية ، وقد بدأ بحفره سنة ٧٢٥ هـ / ١٢٢٤ - ٢٥م ، وجرى المساء فيه بعد شهرين وجرت فيه السفن والغلال وغيرها ، فسر السلطان بذلك ، واشترت الأهالي عدة أراضى غرسوا فيها الأشجار كما أخذوا في العازة على حافتي الخليج فعمروها بين المقس وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمار على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يصب في الخليج الكبير بأرض الطبالة وتنافس الناس في السكن هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق وصار هذا الخليج مواطن للفرح ومنازل للهو والقصف إلى أن منعت المراكب منه .

وكان يخرج خليج قنطرة الفخر ابتداء من بولاق إلى حيث كان يصب في الخليج الناصري وقد كانت على تلك الخليجان عدة قناطر منها أربعة عشر قنطرة على الخليج الكبير والخليج الناصري خمس قناطر وعلى كل من الخليجان الأخرى قنطرة .

الخليج المصري

كان الخليج المصري يخرج من النيل جنوبي قصر العيني عند السواقي السبع التي تعد القناطر المقامة بجانبها بالمياه إلى القلعة ، ويعرف اليوم مكان هذه السواقي بقم الخليج . وكان الخليج يسير نحو الشمال الشرق ثم ينعطف إلى الشرق الجنوبي حتى يصل إلى قناطر السباع حيث ميدان السيدة زينب اليوم ، ثم يعود سيره إلى الشمال الشرقى ماراً غربي بركة الفيل ثم غربي درب الجماميز ثم غربي باب الحرق ، ثم يمتدق سور القاهرة عند باب الشعربة وهو يعرف اليوم بباب العدوى . ويسير خارج القاهرة إلى جامع الظاهر يعبر ثم يسير بين المزارع إلى ناحية الزاوية الحمراء والأميرية وسرياقوس والخانكة .

كان يقع إلى غربي الخليج من الشمال أرض الطبالة وهي المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع الظاهر بشارع وقف الحروبلى وامتداده حتى يتقابل بشارع مهمشة ومن الغرب بشارع غمره إلى ميدان باب الحديد (رمسيس) حيث كان يجري نهر النيل في العصر الفاطمي . ومن الجنوب بشارع العجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصري (بور سعيد اليوم) وكانت تقدر مساحة أرض الطبالة بحوالى مائتى فدان كان الخليفة المستنصر بالله قد وهبها إلى السيدة نسب الطبالة فسميت المنطقة باسمها ، وكانت بها بركة الرطلى ويسمى بها الحى المعروف اليوم . وإلى شمالي هذه البركة كان يمر خليج الطوابة الذي كان يعرف أيضاً باسم خليج الغربي وهو الخليج الناصري القديم .

وكان يلى أرض الطبالة خط المقس ، وكان يشمل المنطقة التي تحد اليوم من الشرق بشارع بورسعيد

و (الخليج المصرى) ومن الشمال بشوارع الطلبة والطوائى والشعبكى وبين الحارات ، ومن الغرب ميدان باب الحديد وشارع رمسيس وشارع عماد الدين ، ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة وشارع القبلة ودرب النطة وشارع القوطية وشارع سوق الزلط وشارع الخراطين حتى تقابله بشارع الخليج . وأهم عمائر هذه المنطقة جامع أولاد عنان الذى عرف أيضا بجامع المقس .

وإلى جنوب خط المقس كانت أراضى زراعية يغمرها ماء النيل سنوياً ، وكان يتخلف فيها بعد الفيضان بركة عرفت ببركة الأزبكية وإلى الشمال الغربى منها كان يقع حى الصارى بدروبه وأزقته حيث كان يقيم بعض أقباط القاهرة ، وقد نقلت إليه البطريركية القبطية فى أيام الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ من مقرها بحارة الروم بقسم الدرب الأحمر .

وإلى شرقى بركة الأزبكية كان يقع خط الأفرنج ، وكان يحده من الغرب بالبركة ومن الشرق بالخليج المصرى ومن الشمال بخط المقس ، ومن الجنوب بشارع الموسكى وبمقبرة كبيرة كانت تعرف بمقبرة الأزبكية وكان بحوارها جامع أزبك الذى هدم عام ١٨٧٥ ، وكانت أهم معالم حى الأفرنج ، حديقة روسيتى التى يخترق أراضيها اليوم شارع الجيش من جهة ابتدائه عند العتبة الخضراء ، وحول هذه الحديقة الغناء كانت دور قناصل الدول الأوربية ، وأهمها دارقنصل فرنسا ثم دار تيانزو القاهرة وهو المسرح الذى أقيم فى أيام الحملة . وكان على شاطئ البركة فندق واجهورن وفندق دوبرج وموقعه اليوم جنوبى نقطة تقاطع شارع الموسكى بشارع الخليج المصرى وفندق جاردينو الإيطالى . وكان لهذا الحى أبواب ضخمة تغلق ليلاً .

وكان يقع قصر الألفى بك غربى بركة الأزبكية وقد قتل فيها الجنرال كليبر الفرنسى وأقام فيها محمد على وبويع على الولاية ، وقد تحول قصر الألفى إلى فندق شبرد عام ١٨٣٤ ثم اتصلت بولاق بحى الأزبكية بطريق مهند لويس كبير مهندسى الحملة الفرنسية (١) .

ظل الخليج المصرى مستعملاً فى إرواء القاهرة وضواحيها قروناً عديدة إلى أن نشأت شركة مياه القاهرة فى عهد الخديو اسماعيل ومدت أنابيب المياه إلى بعض الأحياء فقلت فائدة الخليج وأصبح مباءة تلقى بها فضلات البيوت المظلة عليه ومياهها القذرة وتحول إلى بؤرة للأمراض . وفى عام ١٨٩٧ تعاونت شركة ترام القاهرة مع الحكومة على ردمه ومد به خط الترام الذى كان يصل ما بين غمره وباب الشعرية والسيدة زينب وشارع مدرسة الطب .

وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ صدر مرسوم بتوسيع شارع الخليج إلى ٤٠ متراً بين ميدان السيدة زينب وشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) وتم تنفيذ بعض أجزائه حتى عام ١٩٥٤ حينما نشطت بلدية

القاهرة وقد تولى الإشراف عليها قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى فأكمل توسيع شارع الخليج من باب الخلق إلى غمرة ، وأزيلت المباني الخربة التي اعترضت الطريق ، ثم ألغى نهائياً سير عربات الترام . وفي عام ١٩٦٦ أعيد سير عربات الترام لحل أزمة المواصلات ، وفي أعقاب حملة السويس واستيصال بورسعيد ١٩٥٦ سمي شارع الخليج باسم شارع بورسعيد .

قناطر القاهرة

وأهم قناطر الخليج الكبير قنطرة السد وهي التي كان يتوصل بها إلى ملشاة المهراني وغيرها من شاطئ الخليج الغربى وقناطر السباع بجانب خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى وجانبها الآخر من جهة جنان ازهرى ، وكان أول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ونصب عليها سباعاً من الحجارة فقليل لها قناطر السباع وكانت عالية مرتفعة ، وقد بنى لها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءها بشكل آخر لتنسب إليه ، وليست الملك آخر وانتهى منها في سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م .

وقنطرة عمر شاه وكانت على الخليج ويتوصل منها إلى شاطئ الخليج الغربى وحكر قوسون وقنطرة آق سنقر ويتوصل إليها من خط قبو السكرمانى ومن الجانبية إلى شاطئ الخليج الغربى وقنطرة باب الخرق وكان موضعها ساحلاً وموردة للسقاين في أيام الفاطميين فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين ميدان السلطاني بأرض اللوق وعمر به المناظر في سنة ٦٣٩ هـ أنشأ هذه القنطرة ليرى إليها إلى الميدان المذكور وقنطرة الموسكى ويتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويعرف فوقها إلى بر الخليج الغربى أنشأها الأمير عز الدين موسى قريب صلاح الدين الأيوبي . وقنطرة الأمير حسين وقنطرة باب القنطرة ويعرف فوقها إلى المقس وأرض الطبالة وأول من بناها القائد جوهر وقنطرة باب الشمرية ويسلك إليها من باب الفتوح ويمشى من فوقها إلى أرض الطبالة عرفت فيما بعد بقنطرة الخروبي . والقنطرة الجديدة وقناطر الأوز ويتوصل إليها من الحسينية ، وقناطر بنى وائل التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٥ هـ ، وعرفت بهذا الاسم لأنه كان يسكن بها عرب بنى وائل ، وقنطرة الأميرية وهي آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحي القاهرة بالقرب من المطرية ، وكان منشؤها الملك الناصر أيضاً .

وكانت قنطرة انفخر أول القناطر التي عمرت في الخليج الناصرى بجوار موردة البلاط من أراضي بستان الخشاب ، وقد أنشأها القاضي فخر الدين ناظر الجيش في سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٣٤ م عند انتهاء حفر الخليج الناصرى ، وقنطرة قدادار ويتوصل إليها من اللوق إلى شاطئ الخليج الناصرى مما يلي القيل — وقنطرة الكتبة بخط بركة قرموط ، وعرفت بذلك لكثرة ما كان يسكن بالقرب منها من الكتتاب وقنطرة باب البحر وتوصل إلى باب اللوق وقنطرة الحاجب وتوصل لأرض الطبالة .

وكانت على خليج فم الحور قنطرة المقس ما زال موضعها سداً إلى أن كافت وزارة الصحاح

شمس الدين بن الفرج عبد الله المتقي في أيام السلطان الملك الأشرف شهاب بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان تلك القنطرة فمرقت به .

وكانت من أعظم قناطر مصر قناطر بحر أبو المنجا ولا تزال بعض آثارها لليوم أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيك — وقناطر الجيزة وكانت تعد من الأعمال العجيبة في الزمان القديم ، وقد احتوت على نيف وأربعين قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدي في زمن السلطان صلاح الدين .

بركة القاهرة وضواحيها

وكانت بالقاهرة ومصر وضواحيها عدة برك ، أولها بركة الحبش وكانت في ظاهر القسطنطين من قبلها بين الجبل والنيل وقد أحياها وغرسها قصباً أمير مصر قره بن شريك الممبى ، وقد قال أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسي في وصفه للبركة . . « اتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش واقترشنا من زهرها أحسن بساط واستظلنا من دوحها بأوفى رواق فظلنا تعاطى من زجاجات الأقداح شمساً في خلع بدور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء » .

وقد عاين المقرئ هذه البركة أيام فيض النيل كما شاهدها في أيام التحاريق وفيها قال :

يا بركة الحبش التي يوحى بها طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك في البسيطة حبشة وكأن دهرى كله بك عيد
يا ليت شئرى هل زمانك عائد فالشوق فيه مبدىء ومعيد

ومن البرك بركة الشمعية وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وانقطع عنها الماء وصارت بساتين ومزارع . وبركة شطا وأصبح موضعها كيمان على يسار من كان يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر . وبركة قارون وكان موضعها بين جامع ابن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة ، وبركة الفيل وهي من أكبرها .

وقال عنها ابن سعيد الرحالة . « وأعجبت في ظاهر القاهرة بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب .

وبركة الشقاف وكانت بجوار النوق وجامع الطباخ وعدة مناظر ، منها واحدة للأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وبركة السباعين ثم بركة الرطلى ، وكانت داخلية في نطاق أرض الطبالة — وكان في

شرق هذه البركة زاوية فيها نخل كثير وفيها شخص كان يصنع الأبطال الحديد التي تزن بها الباعة فسميها الناس ببركة الرطلى .

وبركة بطن البقرة وكانت موجودة بعد أرض الطبالة واللوق . وكانت تجاه دار الذهب ، وبركة جناتى وكانت خارج باب الفتوح بالقرب من منظرته وكانت الدور مقامة على حافتها حتى أيام المقرئى . وبركة الحجاج وسميت بذلك الاسم لزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم . وبركة قرموط كانت بين اللوق والمقس وقد ردم جزء كبيراً منها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأدرك المقرئى بها دياراً جليلة تباهى أربابها فى إحكام بنائها وتحسين سقوفها وزخرفتها بالرخام والدهان ، وغرسوا بها الأشجار وأجروا إليها المياه من الآبار ، فكانت تمد من المساكن البديعة للنزهة ، ويقول المقرئى عن دورها ما مررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم . أما الروائع فتتعالى من المطابخ أو غير بخور العود أو نفحات الخمر أو صوت غناء أو دق هاون ونحو ذلك مما يبين ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشتهم وغشاة نعمهم ، ثم هى الآن موحشة خراب قد هدمت تلك المساكن وبيعت أبقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فزالت الطرق وجهلت الأزقة وانكشفت البركة وبقي حولها بساتين خراب . وبركة قراجا وكانت خارج الحسينية قريباً من الخندق وعرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى أحد أمراء مصر أنعم عليه بالامارة السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

والبركة الناصرية وكانت من جملة جنان الزهرى فلما خربت الجنان صار موضعها كوم تراب وقد أعاد إليها روتقها الملك الناصر بفضل الأمير بيبرس الحاجب ، فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحُكِر الناس ما حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برح خط البركة الناصرية عامراً إلى أن كانت الحوادث من عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور .

الفصل السادس

الفاخرة في أيام المماليك الجراكسة

من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتنفت
بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هي والأبصار ترمقها
كواكب قد أداروها على القدر

جاء بعد الناصر محمد أحفاده الضعفاء محمد بن حاجي (الملك المنصور الخامس) وشعبان بن حسن الأشرف وعلي بن شعبان ، ثم حاجي بن شعبان وكانوا جميعهم ألعيب يحركهم الأمراء الأقوياء ، وظهر من هؤلاء جميعاً قوسون وشيخو وصرغتمش وآخرهم برقوق الذي خلع السلطان حاجي بن شعبان في عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) . وتولى العرش مكانه ، ولقب نفسه بالملك الظاهر ، وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك البحرية ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري . وتولى العرش زال مبدأ الوراثة المملوكية .

تولى الحكم المماليك البرجية — أو مماليك الحصن لأنهم كانوا يسكنون القلعة منذ قرن ، ويسمونهم أحياناً المماليك الجراكسة نسبة إلى أصل سلاطينهم ، فاتهم من الشعب الجركسي الذين نشأوا في سيبيريا ثم هاجروا إلى غرب بحر قزوين وإن كان بعضهم من الترك والآخرين من الروم . وكان سلاطين هذه الأسرة الجديدة تحت رحمة أمراءهم أكثر من سلاطين المماليك البحرية وكان أتباع كل أمير مملوك يعد نفسه مستقلاً عن شئون الدولة ، فيطلقون على قفئهم الأشرافية والمؤيدية والناصرية نسبة إلى أميرهم أو ملكهم . وقد عدوا أنفسهم أحزاباً مستقلة بعد موت أميرهم أو خلعهم ويساهمون كما يرغبون في المماركة الدموية وحوادث الساب والنهب . ولم يستطع السلاطين أن يكبحوا جماح مماليكهم كما أنهم عجزوا عن إدارة شئون البلاد بدونهم .

وكانت أخلاق الحكام الجدد على مثال من سبقوهم ، ولم يكن بين « الجراكسة » سلاطين من طراز بيبرس وقلاوون وغيرهما من الفاتحين ، كما أنه لم يكن الجراكسة جنوداً بمعنى الكلمة ولكن كانوا لا يعتمدون على الشجاعة فحسب بل على المؤامرة ، والمكيدة ، فثلا السلطان الرومي « خوش قدم » اشتهر بحيله وجه لرعيته فكان يجي الضرائب ويصرفها لمصلحتهم وقد يعتبر أفضل سلاطين الجراكسة .

وبالرغم من القلاقل الداخلية استطاع ممالك الجراكسة إلى حد ما أن يحافظوا على مكانة مصر بين الممالك المجاورة ، وأن يوسعوا ممتلكاتهم وينشروا تجارتهم ، فقد قاوم « برقوق » تيمورلنك الفاتح التتري ، وكان قد ملاء الأرض بفتوحاته حتى سمع دويها في سورية ، إذ جاء يهدد حدودها ، فنهض إليه برقوق وأوقفه عند حده عام ١٣٩٩م ، ولكن تيمورلنك قبل أخيراً شروطه وعاد من حيث أتى .

وقام سلاطين الجراكسة بعدة معارك على أرض آسيا الصغرى وغزوا قبرس التي اتخذها قرصان البحر مركزاً لأعمالهم وكثيراً ما كانوا يهاجمون الأسطول المصري ، فجهز لهم الملك الأشرف برسبای في عام ١٤٢٦م أسطولاً بناه في بولاق ، ثم أخضع الجزيرة وحمل الملك « جان لوسينان الثالث » على الاعتراف بسلطانه وأداء الجزية ، وكان هذا الملك قد وقع أسيراً في أيدي المصريين في معركة « شروكتنا » وعادوا به مكبلاً إلى مصر ، وأخذوه في موكب إلى القلعة ودفع فديته فنصل البندقية والتجار الأجانب ، ثم ركب في موكب حافل وساروا به بين الشوارع والأسواق بعد أن جعله والياً من قبله . وعقد برسبای مع ملوك الصليبيين — وسلطان آل عمان إذ ذاك مراد بن محمد — معاهدات سلمية دلت على عظم شوكته ، وقال بعض المؤرخين عنه أن برسبای أحق ملوك الجراكسة بالمدح لأنه كان أعلاهم همة وأشدهم عزيمة وأكثرهم دراية بشئون الحكم وقد وصلت الحدود المصرية في عهده إلى ييراموس والفرات .

ولا نجد من عجائب الشذوذ في التاريخ الشرقى أغرب من هؤلاء الممالك في الجمع بين التناقضات، فبينما نجدهم عصبة من الأفاقيين يبيعوا ببيع السلع، ونشأوا أرقاء وأصبحوا سفاكين للدماء ظالمين للعباد، نجد منهم ميلاً للفنون والعلوم والأدب والدين . ولقد أظهر هؤلاء الممالك في معيشتهم وعمائرهم ذوقاً سليماً ورفاهية بالغة . فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباي مولعين بمجالس العلماء والأدباء ، وكان برسبای على قلة إلمامه باللغة العربية يصغى إلى تاريخ العثمانيين الذي كان يقرؤه له « العيني » ، وكان الظاهر « نعيم » الرومي عالماً بأصول اللغات والتاريخ والتصوف، وكانوا يؤدون فرائض الدين كاملة ، لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله — شيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية . وكان المؤيد مع ضعف نفوذه مسلماً عالماً وموسيقياً بارعاً وشاعراً وخطيباً ، بسيط الملبس والمعيشة ، يختلط بالشعب ، كأنه منهم ، شيد عمائر جميلة ، منها جامع المؤيد (١٤٢٥ م) بالقرب من باب زويلة ، وشيد أيضاً البيمارستان المؤيدى (١٤١٨ م) بالقرب من القلعة^(١) ، وبنى برسبای جامع الكبير المعروف بالأشرفية (١٤٢٢ م) بالقرب من الموسيقى عند منعطف العورية ، وبنى برقوق (١٣٨٦ م) المدرسة الظاهرية بين القصرين، وشيد جامعاً فيه مقبرته وإن لم يدفن فيها، وله قبتان . وقد مات ولم يكمله فأنعم ابنه فرج في عام ١٤١٠ ، وهذا الجامع يعد بين أهم الجوامع الرائعة الموجودة في القاهرة الشرقية، ولكن درتها مسجد وضريح قايتباي (١٤٧٤ م) ، وهو مثال جليل لما وصلت إليه عمارة الممالك، فإن قبته تسمو بنقوشها العربية، ومئذنته البديعة التي تناطح السحاب تتحول من مربع فثمان

(١) لا تزال بقايا هذا البيمارستان قائمة بدرب اللبان بحي القلعة .

فدائرة ، وتحتفي زواياها بالمقرنصات، وكذلك إيوانه المربع بالرخام .. كل هذه النفائس مجتمعة تزيد هذا الأثر قدراً واعتباراً .

السلطان قايتباي :

تولى السلطان قايتباي العرش فمسكت على سرير السلطنة ٢٨ عاماً [٨٧٢ — ٩٠١ هـ / ١٤٦١ — ١٤٩٦ م] ، وكان ملوكاً اشتراه « برسباي » ببلغ خمسة وعشرين جنيهاً . وتحول من خدمة سيد لسيد آخر وصار يترقى من رتبة لرتبة حتى أصبح أتابك الجيش للظاهر عزربغا الرومي، وكان الجيش المصري إذ ذاك يكاف الدولة ٣٠٠٠٠ ر. ٣٠٠٠ جنية في السنة .

لقد وصم قايتباي بالشح ، ولكن الواقع لا يقر هذا الوصف ، فقد اشتهرت آثاره الخالدة في الشام وبلاد العرب وجميع أنحاء مصر ، مما يدل على أنه صرف مالا كثيراً في تشييد تلك المباني النفيسة — فقد شيد ضريحاً ضخماً ضمن مقابر المماليك (١٤٧٢ م) ، ومدرسة بالقرب من جامع ابن طولون (١٤٧٥ م) وتعتبر وكالاته أو خاناته من أجمل النماذج لفن الزخرفة العربية التي لازمت العمارة الإسلامية . وكان قايتباي محباً للأسفار ، فقد رحل إلى سوريا، واقليم الفرات، وطاف بأهواء مصر، وزار مكة وبيت المقدس، وكان أينما رحل ترك خلفه آثاراً تتحدث عن مكانته . فمن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة — ولا يمتاز أي عصر من عصور سلاطين المماليك على عصر قايتباي من حيث الانتاج المعماري إلا إذا استثنينا عصر الناصر محمد بن قلاوون .

وفي أيام الجراكسة وعلى الأخص في عصر قايتباي، أدخلت على فن العمار تعديلات جديدة ، فقد استعملوا كثيراً الحجر المنحوت وبناء الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش جميسة، وفي داخل الجوامع، وفي واجهاتها كانوا يدخلون النقوش الرائعة والزخارف — مع أن الخط الكوفي كان قد استبدل به من زمن بعيد الخط النسخي وذلك لجماله الزخرفي، وشيدت القصور العظيمة أيضاً .

وكان المهندسون يعنون على الأخص ببناء الأضرحة، وكانوا يعملونها في ركن غير ظاهر من المساجد ، كما كان الحال في عهد المماليك البحرية ، بل صارت الجزء المهم من الجامع .

ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل دولة الجراكسة تمس غير الباب والمئذنة وبعض المرافق الأخرى ، ولكن في عهد السلاطين الجراكسة راق للمهندسين أن يجعلوا أبنيتهم شائقة في كل واجهاتها الخارجية فامتازت الآثار التي كثرت في مصر في ذلك العهد بالانقان جملة وتفصيلاً .

وعم في عصر الجراكسة عمل الزخرفة نقشاً على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص ، أو الملاط كما فعل مهندسو الفاطميين ، ومن جاءوا بعدهم . وإن المنبر الحجري ذا النقش البديع الذي أقامه قايتباي (١٤٨٤ م) في ضريح برقوق يعد في طليعة النماذج الفنية الرائعة التي تفخر بها القاهرة ، من ذلك النوع ، والحجارة فيه تقوم مقام الخشب وهي عبارة عن ألواح

من الحجر أجيد نحتها ونقشها وتركيبها ، فأصبحت قطعة واحدة أخرجت في قالب دقيق الصناعة ، أو كقطعة من الدنتلة صنعتها يد آنسة رشيقة ، وكثير من أمثال تلك النقوش الجميلة تغطي جدران السلم والضريح .

وكان قايتباى موفقاً في أعماله وقد فاق جميع زملائه ذوقاً وهندسة ، كما أنه اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفصيلات ، وإن دراسة آثاره كلها تندعو إلى الإعجاب والدهشة ! سواء درسنا نقوش مدرسته القريبة من جامع ابن طولون أو مبانيه الأخرى كالوكالات ، والخانات التي اشتملت هي الأخرى بدورها على حصيلة نفيسة من الرسوم المتنوعة ، وتؤيد لنا وكالته بالقرب من الأزهر هذا الرأي بالرغم مما أصابها من الإهمال والحراب ! وتستحق واجبتها التي احتفظ بها عناية الذين يرغبون مشاهدة جمال الزخرفة العربية الهندسية وقد استطاع بعض مهندسي الأجانب استخراج طبعات من هذه الخليات المنقوشة ، ووضعوها في متحف فيكتوريا والبرت بلندن ، ولا شك أن البناء الأصلي لتلك الوكالة كان في أيامه نموذجاً لفن المارة التي تعتبر مرجعاً صادقاً للدراسة .

ويمكن اعتبار عصر قايتباى صورة شبيهة لأيام الناصر من ناحية تشييد المباني العظيمة ، ولا تزال مساجد الجراكسة تجذب إليها الممارين والمصورين والزائرين من شتى نواحي العالم ، فضخامتها الباهرة ومآذنها الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على المداخل وطنفساتها وزواياها المحلاة وناقوراتها الرخامية وقبلاتها الزاهية — كل ذلك كمال في الذوق وحسن التصميم .

ومن أشهر مباني الأمراء : مسجد أربك اليوسفي (١٤٩٥ م) والأمير خيربك (١٥٠٢) . وجامع قاني باي الرماح أمير أخور أيضاً ، وجوامعهم عنوان للنقش الجميل — كذلك تلك الدرة الصغيرة مدرسة القاضي أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠ م) التي أعادت تجديد بنائها إدارة حفظ الآثار العربية ، فردت إليها رونقها السالف وألوانها الأصلية ، وكذلك مسجد الأمير جقمز الإسحاقى .

الرحالة الألماني أرنولد فون هارف

يصف فاهرة محمد بن قايتباى

كانت مصر في المصور الوسطى يمر بها الحجاج المسيحيون في طريقهم إلى بيت المقدس . وكان الفارس الألماني أرنولد فون هارف واحداً من هؤلاء الحجاج الأترياء ، غادر كولونيا في نوفمبر سنة ١٤٩٦ ، بقصد الحج إلى بيت المقدس في رحلة دامت ثلاث سنوات ، زار فيها مصر وبعض بلاد الشرق الأوسط ، ثم عاد إلى بلاده في أكتوبر ١٤٩٨ ، وقد دون ملاحظاته عما شاهده في أثناء رحلته ، حتى أتم كتاباً عنها ، أهده بعد عودته إلى أمير مقاطعة كولونيا ، ليكون مرجعاً يفيد منه من يسافر بعده من الحجاج إلى

الأماكن المقدسة^(١) وقد طبع هذا الكتاب فيما بعد ببولونيا في سنة ١٨٦٠ .

وصف أرنولد دخول سفينته إلى نهر الاسكندرية ومرورها مخفضة الشراع أمام قلعة قايتباي التي تم بناؤها قبل وصوله بعدة سنوات ، وكيف حياها حراس القلعة بطلقات من المدافع ، أجاب عليها ربان السفينة بالمثل ، وبعد ذلك نزل التجار إلى المدينة وأقاموا في فنادق خاصة بتجار البندقية يحرصها المماليك . وبعد أن مكث بضعة أيام ، شاهد فيها آثار الاسكندرية وأسواقها ، ركب إلى رشيد ومنها عن طريق النيل إلى القاهرة ، حيث دفع ضريبة أخرى ، وكان عليه أن يقيم في منزل ترجمان المماليك . ولم تعجبه الإقامة هناك . ولكنه سرعان ما تعرف على اثنين من أصل ألماني ، أحدهما من مدينة بال والآخر من داتزج ، وساعده الاثنان كثيراً في جولاته بالقاهرة .

واستطاع فون هارف بواسطة صديقيه أن يحصل على تصريح من سلطان مصر في ذلك الوقت الناصر محمد بن قايتباي (١٤٩٦ — ١٤٩٨) ليسافر من مصر إلى فلسطين وسوريا وغيرها من البلاد التي كانت تابعة لمصر . واهتم السلطان بأمره ، فدعاه إلى مقابلته ، وتحدث إليه في شئون السياسة الأوربية ، والحروب التي أثارها شارل ملك فرنسا ، وما يتبناها من غزو بلاد الشرق الأوسط . ووصف فون هارف القلعة ، وما شاهده فيها من مبان وقصور ، وقال أنه رأى بها مدرسة للمماليك ، وكان بها خمسمائة مملوك من الفتيه الصغار ، يتدربون على الأعمال العسكرية ، ويتعلمون القراءة والكتابة ، ويشرف على تدريبهم اثنان وثلاثون أستاذاً .

وقد ثار آقردى الدوادار على السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، وحاول خلع له ليحل مكانه ، ولكنه فشل . وتصادف أن وقعت هذه الثورة أثناء وجود فون هارف بالقاهرة ، وإقامته في منزل ترجمان المماليك ، الذي كان من أنصار الدوادار ، فهاجم المماليك من أتباع السلطان منزل الترجمان ونهبوه ، كما نهبوا متاع أرنولد ، ونجا هذا بنفسه بعد مشقة كبيرة ، وبعد أن أبرز التصاريح التي حصل عليها من السلطان .

ويصف فون هارف الحياة في شوارع القاهرة ، فيقول أنه يوجد بها ٢٤٠٠٠ شارع وحارة ، منها ٢٤ شارعاً رئيسياً طويلاً ، يمتد أحدها من المطرية ويمر بالقلعة ، ولم يصل للوفاة إلى نهايته من الناحية الأخرى ،

(١) Harff, Ritter Arnold von Coln, Die Pilgerfahrt des . durch Italien, (١) Syrien, Aegypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palastina, die Türkei, Frankreich und Spanien . . . Coln, 1860 .

أنظر أيضاً : محمد مصطفى : السلطان قايتباي كما رآه الرحالة الألماني أرنولد فون هارف . مجلة الهلال ، ج ٤ المجلد ٦٣ ، إبريل ١٩٥٥ ، ص ٣٢ — ٣٧ .

وأن هذه الشوارع ترش بالماء ثلاث مرات يومياً ، ولكل شارع بوابتان عند طرفيه ، تغلقان ليلاً وتقف عليها الحراس . وفي كل شارع طبخ ومخبزان أو أكثر حسب طول الشارع وحاجة سكانه ، وأن أكثر الناس لا يطبخون في بيوتهم ، بل يشترون ما كلهم من المطابخ العامة والمخابز ، ويبيع الدجاج السلوق أو المحمر في الشوارع ، ويوجد منه الكثير بالقاهرة ، كما أنهم يأكلون الكثير من لحم الضأن والجمال . وتوجد بالقاهرة حمامات كثيرة للرجال وللنساء ، وأرضية هذه الحمامات وجدرانها مكسوة بالرخام ويسخن الماء في غلايات كبيرة ، ثم ينقل بواسطة الأنابيب إلى أحواض رخامية .

وتحدث فون هارف بإسهاب عن كل ما شاهدته ورآه في مصر ، فهو يتكلم عن المساجد والكنائس والشوارع والندارس والأهرام ومقابر سلاطين المماليك ، وعن الأسواق والمخابز والمطاعم والحمامات وأماكن السلع والحاجيات ، وعن العادات والتقاليد والرجال والنساء والزواج والطلاق . وما يبسه المسلمون والمسيحيون واليهود ، وعن المماليك ونظمهم وأجورهم وسلاحهم ومعيشتهم وطغيانهم ، وعن الأعياد والمواسم والحدائق . . . فقد بهره كل هذا فوصفه وصفاً مفصلاً . . .

قاهرة الغورى

وأخيراً يتولى العرش السلطان الغورى (١٤٩٩/٨٩٠٦ - ١٥١٦ م) . وكان قوى الإرادة أعاد الأمن إلى نصابه ، وقضى على المفسد الذى فشا في القاهرة ، ثم زاد الضرائب دفعة واحدة ، فكان يجيئها من أصحاب مركبات المياه والسفن والجمال واليهود ليكتنز المال في الخزائن . فلما أصلح مالية الدولة بدأ يصرفها في تشييد المباني العامة الكبيرة ، فمن شق ترع إلى فتح طرق إلى إقامة حصون السواحل إلى تدعيم القلعة . ثم أصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد مدرسته في عام (٩٠٨ هـ / ١٥٠٤) ومقبرته التي لم يدفن فيها ، وكانت دار المكتبة الزكية وهما مواجهاً لبعضهما في شارع الغورية الذي تغيرت ملامحه كثيراً في الخمسين سنة الأخيرة . وأقام الغورى أيضاً مثذنة الجامع الأزهر ، وشيد جامع القياس في جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين في الرملة وطواحين الهواء في مصر القديمة وجدد بناء عيون المياه الموصلة لقلعة . وكان الغورى مبعجلاً في مجلسه كريماً مع الشعراء ميالاً للموسيقين ، وكان محباً للمال يبحث عنه في كل مكان . وأشهر ما يخلد للغورى على صفحات التاريخ مناوئته لأسطول البرتغاليين في البحر الأحمر وهزيمته لهم في عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م . لسكن حظه السيد فارقه لما خرج في طلبه جيش مصرى ليعصد جيوش العثمانيين الذين توغلوا في البلاد السورية ، فسقط في معركة مرج دابق شهيداً وهرسته أرجل الخيل ، ، فقام المتولى بالأمور الأشرف طومان باي (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) والتحم بالعثمانيين بالقرب من هليوبوليس شمالى القاهرة فدارت الدائرة عليه وهزمه للمماليك . وحاول « طومان باي » فيما بعد أن يجمع قواه لمقاومة الفاتحين بالقرب من باب النصر فاجأه سليم بهزيمة عنيفة في جناحه جعلته يرتد داخل المدينة ، ودار القتال بين المصريين والعثمانيين في شوارعها ثم استولى السلطان سليم على القلعة فقبض على « طومان باي » وأمر بشنقه على باب زويلة ودفنت مصر الجزية لآل عثمان .

تلك هي نظرة تاريخية عامة تتصل بالقاهرة في أيام المالك الجراكسة ، وسنصف الآن مالحق بالمدينة وتطور عمراتها وما استحدث فيها من أخطاط ودور وأسواق ومدارس ، ولا شك أننا ندين إلى المؤرخ المقرئ بتاريخ تلك الفترة من حياة القاهرة . . ومن بعده إلى المؤرخ المصرى ابن إياس .

بركة الأزبكية

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر كانت منطقة الأزبكية المحيطة ببركتها من أجمل متنزهات القاهرة ، فقد عني بها الأمير أوزبك بن ططخ كبير أمراء السلطان قايتباي ، فأزال كيماها وأعاد حفر البركة وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى ، كما أنشأ قصرآ له فعرفت بالأزبكية نسبة إليه . ولما تم عمران المنطقة أنشأ بها مسجداً كبيراً ألحق به مكتبة نفيسة وأنشأ حوله حماماً ووكالة وقياسر للتجارة وقد انتهى من بناء تلك المنشآت حوالى عام ١٤٧٧ ، وكان من نتائج حفر البركة وإقامة رصيف حولها أن رغب سراق القاهرة في سكنى الأزبكية ، فبنوا القصور وغرسوا الحدائق وتبارى الشعراء والأدباء في وصف البركة^(١) ، فقال أحدهم : «إنها بركة مخفوفة بالمرتجات والمناظر تروح إليها النفوس وتقر بها النواظر ، فهي بركة أنيقة المنظر صافية الخبر ، أرضها كالمنبر وعرفها كالسك الأذفر »

ظلت بركة الأزبكية عامرة بالقصور والدور التي يسكنها أعيان مصر ، وألحقوا بها الحدائق وأباحوها للشعب ، فكانت فرحة لسكان القاهرة يهرعون إليها في الصيف والربيع ، ينعمون بالتنزه حول مياهها والتمتع بمباهجها ، وعند جفافها ينعمون بمحضرتها وزهورها وتقام حولها الحفلات ، وفي عام ١٧٧٦ شب حريق في أحد الأحياء حول البركة ، أتلف كثيراً من الدور الكبيرة . غير أن ولاية الأمور حينذاك حتموا سرعة تعميرها فألزموا غير القادرين على التعمير ببيع ما يملكون لمن استطاع التعمير ، وهكذا عمرت في وقت قصير فلم يحل ميعاد الفيضان الثانى حتى كانت الأزبكية أبهج وأحسن مما كانت عليه^(٢) .

أبواب الحسارات

بعد أن امتد العمران خارج القاهرة ، وفتحت في أسوارها أبواب جديدة أقيمت على الدروب والحرارات أبواب لمنع السرقة ، وكان ذلك نتيجة لتعدد حوادث السرقة في عام ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م ، فاهتم الأغنياء بإقامة

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر القادرى : غرر الروضة الدكية في وصف محاسن الأزبكية ؟

وانظر : حسن عبدالوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ص ٤٠ — ٤٢ القاهرة ١٩٥٧

(٢) الجبرتى : تنجائب الآثار ج ٢ ص ٢ — ٣

الأبواب على الحارات والدروب وعينوا لها البوابين ، فكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يعلق عقب الغروب بقليل (١) . وقد ورد ذكر أبواب الدروب والخوخت في عدة حوادث من تاريخ القاهرة نذكر منها على سبيل المثال :

في سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م أمر والى القاهرة بأن ينادى باسم السلطان بأن سكان الأسواق والحارات يعملون عليها دروباً ، فامتلأوا لأمره ، وبنيت بالقاهرة عدة دروب ، منها ماهو على سوق تحت الربع وعلى سوق أحمد بن طولون ، وعلى سوق أمير الجيوش وغير ذلك من الأسواق والحارات ، وذلك بسبب اعتداء اللصوص عليها (٢) وفي سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م أمر الأمير الماس والى الشرطة بالقاهرة بأن يعمر السكان على الحارات والأزقة دروباً في أماكن شتى ، فعمروا دروباً في رأس سوق الدريس وفي الحسينية ، وعلى قطر العاجب وعند المقس (٣) وعدة دروب في أماكن شتى ، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلاً ، وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء وذلك اتقاء شر اللصوص وحوادث المعرائق المفتعلة .

وحينما كانت تقع اضطرابات كانت تغلق أبواب المدينة وأبواب الدروب والخوخت التي بالحارات (٤) كما حدث في ٢٩ ذى القعدة سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م .

وقد بقيت تلك الأبواب فترة طويلة تؤدي وظيفتها إلى القرن التاسع عشر وحدثنا المؤرخ « الشيخ الجبرتي » عنها كثيراً عند كلامه عن أحداث القاهرة (٥) .

وفي عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م منع محتسب القاهرة النساء من النياحة على الأموات ، كما أمر السلطان النورى في شوال سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م بأن ينادى في القاهرة ألا يعمل عزاء بطارات ولا نائمة تنوح على ميت ، ثم أوعز إليه على نائمة عملت عزاء بطارات فقبضوا عليها ولطخوا وجهها بالسواد وعلقوا طاراً في عنقها وأركبوها حماراً وشنموا عليها في أنحاء القاهرة فأقلع النساء عن تلك التقاليد (٦) .

(١) حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها ص ٣٥ — ٣٦

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ص ٣٣٦

(٣) » » » » » » ج ٣ ص ٣٣

(٤) » » » » » » ج ٣ ص ١٤٣

(٥) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٩ ، و ٢ و ٠٠

(٦) ابن إياس : ج ٤ ص ٧٦

ومن عونا بطرق القاهرة أثناء حكم الجراكسة الأمير يشبك دوا دار الملك الأشرف قايتباي ، فإنه في عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٨ م شرع في توسيع الطرق والشوارع والأزقة ، وخاصة الشارع الرئيسى للقاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة وتبييض الدكاكين وواجهات الربوع ، وعهد إلى القاضي فتح الله السوهاجى أحد نواب الشافعية بأن يحكم بهدم ما وضع في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية وسقائف ورواشن ومساطب ، واستمر هذا إلى عام ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩ م حينما أمر بإصلاح وجهات المساجد وطلاء رخامها^(١) ، وكان لتوسيع هذا الطريق الرئيسى وغيره أثر واضح في الكشف عما حجب من واجهات المساجد المظلة على شارع المعز لدين الله .

وقد عين للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال ملاحظ للطرق كان يستحث الناس على سرعة إنجاز أعمال الطلاء والبيض ، وكذلك اهتم بتجميل طرق القاهرة السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، فقد أمر في سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م بأن ينادى في القاهرة بأن جميع أصحاب الحوانيت التى بالأسواق والشوارع يبيضون واجهاتها ويخرفونها بالدهان ، كما أنه أمر بتبييض وجوه الربوع المظلة على الشوارع^(٢)

أعمال الغورى

من العمارات التى أنشأها الغورى في القاهرة المسجد والمدرسة اللتان تحملان اسمه ، والمبذنة التى أقامها في الجامع الأزهر وهى ذات رأسين ، كما أنشأ أيضاً الربع والحوانيت التى كانت بالسوق خلف مسجده ، وبضعة ربوع في خان الخليلي ، كما شيد في باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وبنى بيتاً لولده في البندقيين وغالى في زخرفته ، وأنشأ هناك أيضاً ربواً ووكالة وأمر بإنشاء الميدان الذى تحت القلعة وجلب إليه الأشجار من الشام ، وأجرى إليه الماء من السواقي ، وأنشأ به المناظر والمقعد والمبيت ، وأقام جامعاً خلف الميدان المذكور وجدد معظم عمارة القلعة ، منها الدهيشة وقاعة اليسرى وقاعة الأعمدة وأنشأ المقعد الذى بالحوش ، وجدد أيضاً عمارة المطبخ الذى بالقلعة ، وأنشأ سوقاً للرقيق بالقرب من خان الخليلي ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذى كان بالقرب من قناطر السباع ، بناه بالحجر بعد أن كان بالطوب اللبن ، كما جدد عمارة المقياس وبنى به قصرأ ومقعداً مطلاً على البحر ، وجدد عمارة الجامع الذى هناك وعمارة قنطرة بنى وائل والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب وقنطرة الخروبي وعلاها حتى صارت السفن تمر من تحتها ، وكذلك جدد عمارة قناطر السباع ، وأنشأ بمدينة الطينة على ساحل البحر الأبيض قلعة لطيفة بها أبراج ، كما أصلح طريق العقبة .

وقد قام السلطان الغورى بإنشاء وتحديد كثير من الآثار الإسلامية في مصر وبلاد العرب والشام^(٣) ، فقد شيد في العقبة حصناً منيعاً ، وبنى في مكة ماريستاناً ورباطاً ، وحفر بئراً جديدة .

(١) ابن إياس : ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٧

(٢) » » : ج ١ ص ٣٤٦

(٣) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى . القاهرة ١٩٦٦ .

قاهرة الشرا كسة

كما شاهدتها المؤلف الفيلسوف ابن خلدون

١٣٨٢ - ١٤٠٦

حظيت القاهرة بوصول عبد الرحمن بن خلدون إليها في أول ذى القعدة سنة ٧٨٤/نوفمبر ١٣٨٢ ، فبهرت عظمته وبهاؤها ، وكما بهرت على مر العصور كل من زارها من أعلام الشرق والغرب .
لنقرأ ما كتبه عنها :

«... ولما رحلت من تونس في منتصف شعبان من سنة أربع وعشرين وسبعمائة (١٣٨٢ م) ، أقمت في البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولشر ليال من جلوس الملك الظاهر (برقوق) على التخت ، وأقمت بالإسكندرية شهراً انتهت أسباب الحج ولم يقدر عامد ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة (٧٨٤) ، فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدجج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسی الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بأفاقه ، وتضئ البدور والكواكب من عليائه ، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويحيي إليهم الثمرات والخيرات ثجبه ، ومرت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ، وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . وسألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله القرني فقلت له :

— كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام :

وسألت شيخنا أبا العباس بن أدریس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب ، يشير إلى كثرة أمته وأمنهم العواقب .

وخضر صاحبنا قاضي المسكر بفاس ، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي^(١) بمجلس السلطان أبي عنان ، بعد تأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وسأله عن القاهرة فقال :

(١) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨) : التريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . حققه الأستاذ محمد بن تاووت الطنجي . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥١ .

— أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار ، ان الذى يتخيله الإنسان ، فأما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتتسع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دخلتها أقمت أياماً ، وانتال على طلبة العلم بها ، يلتصقون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذراً ، فخلصت للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان ، فأبره اللقاء ، وآنس العربة ، وفورلى الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلى وولدى من تونس ، وقد صدم السلطان هنالك عن السفر ، اغتباطاً بعودى إليه ، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه فى تخليه سييلهم ، فخطبه فى ذلك فى ١٥ صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة .

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية^(١) بمصر ، من وقف صلاح الدين بن أيوب ، فولانى تدريسها مكانه ، وبيننا أنا فى ذلك إذ سخط السلطان على قاضى المالكية « جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان ابن خير المالكي » فى دولته لبعض النزعات ، فمزله ، وهو رابع أربعة بعدد المذهب ، يدعى كل منهم قاضى القضاة

ويحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عما كان من نتائج تقدمه فى حظوة السلطان وفى نيل المناصب سريعاً ، فقد كانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمع جبهة الفقهاء والعلماء المحليين ، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذا فقد تولى العلامة ابن خلدون منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد . فلم يعض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء ، كلاماً طويلاً عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة^(٢) .

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عثمان فى كتابه عن ابن خلدون أن هذا العزل لم يكن إهانة بسخط السلطان ونقصته ، فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية ، ولم يعض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرسة الظاهرية البروقية) . . . ثم اشتغل بالدرس فى المهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه وغادر القاهرة فى منتصف شعبان . . . وقصد إلى الحجاز

(١) أنشأها صلاح الدين بجوار تربة الإمام الشافعى .

(٢) محمد عبد الله عثمان : ابن خلدون حياته ، وتراثه الفسكرى . القاهرة . ص ٧١ — ٧٢

يخطر بقل البحر ، ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضاً حتى القصير ، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة في جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م) وقصد السلطان توأ وأخبره بأن نه دعا له في الأماكن المقدسة ، فتلقاه بالعطف .

ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش ، بجوار الجامع الطولوني ، فولاه السلطان إياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية وجلس للتدريس فيها في المحرم سنة (٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م) .

ثم عين ابن خلدون في وظيفة أخرى وهي مشيخة خانقاه بيرس ، فزادت جراته واتسعت موارده ، ولكن قامت ثورة أطاحت بالسلطان برقوق ، وكان زعيمها الأمير يلبغا الناصري نائب حلب ، الذي أعاد الصالح حاجي السلطان الخالوع إلى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً إلى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م) . ولكن استطاع برقوق بعد مؤامرة أخرى أن يعود إلى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه لبضعة أشهر فقط من عزله .

وقد عانى ابن خلدون من جراء هذه الفتنة ، فقد فقد مناصبه وأرزاقه ، فلما عاد برقوق إلى العرش ردت إليه . ولبت أعواماً ينقطع للبحث والدرس حتى مستهل عام ٧٩٧ هـ - ١٣٩٤ م

ولبت ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء نحو أربعة عشر عاماً ، يحول بينه وبين توليه ذلك الجناح من البلاط الذي كان قد أغرى السلطان بعزله ، فلما ضعف ذلك الحزب ، وانقض رجاله ، رده السلطان إلى منصبه القديم ، وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٨٠١ هـ - مايو عام ١٣٩٨ م على أثر وفاة ناصر الدين التتسي قاضي المالكية ، فاستدعاه السلطان من القيوم وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفي السلطان خلفه ابنه الناصر فرج واضطربت الفتن والثورات حيناً . ولما استقر الحال استأذن ابن خلدون في السفر إلى بيت المقدس فأذن له . فسافر وزار أعلامها التاريخية . ثم عاد من رحلته ولحق بركاب السلطان أثر عودته من الشام ودخل معه القاهرة في أواخر رمضان عام ٨٠٢ هـ - ١٤٠٠ م .

وفي المحرم سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وكان ذلك نتيجة لسمي من خصوم المؤرخ . ولم يعض وقت طويل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على حلب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م) . ثم اخترق الشام إلى دمشق . فثارت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط . وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة تيمور واصطعب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون ، الذي حاول الاعتراض والتخلص ، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان بلين القول وجزيل الإنعام ، وقد أفرد ابن خلدون فضلاً لحادث هذه الحملة في التعريف ، وقد يكون من أهمها وصفه المكافحة التي حدثت بينه وبين تيمور والحديث الطويل الذي دار بين الإثنين . وقد انتهز العلامة تلك الفرصة ، فتمسح للعاهل الكبير طرفاً من آرائه

ونظرياته الاجتماعية في العصبية والملوك . وقدم ابن خلدون إلى الفاتح هدية هي « مصحف رائع وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلالة مصر الفاخرة » ولما قدمها إليه وضع تيمور لنك للمصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه . . .

ولما سُم ابن خلدون البقاء في دمشق ، ذهب إلى تيمور لنك يستأذنه في العود إلى مصر . فأذن له وطلب إليه في تلك المقابلة أن يقدم إليه بغلة ، إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها ، وبث إليه تيمور منها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر للمؤرخ دمشق في رجب ٨٠٣ هـ — ١٤٠١ م . ودممه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ، ولكنه وصل سالماً إلى القاهرة في أوائل شعبان سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م .

ولما استقر ابن خلدون في القاهرة أخذ يسعى للعود إلى منصب القضاء ؛ وكان قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبداً إلى النفوذ والجاه بالرغم من دسائس خصومه .

كان قد عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الاقفهي (جمادى الثانية عام ٨٠٣ هـ) فلما عاد المؤرخ عزل هذا القاضي وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان ؛ فلبث في منصبه نحو عام يعمل في جو يفيض بالخصومة ، ولكنه لم يحفل كعادته ، واستمر كما كان من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض ، فاشتعلت ثائرة من حوله الدسائس . وأسفرت الحركة عن عزله مرة أخرى في ١٤ رجب عام ٨٠٤ هـ وولى مكانه جمال الدين البساطي في أواخر رجب ، وكان هذا القاضي يمثل الحزب الذي يناوئ المؤرخ . على أنه لم يمض على ولايته نحو ثلاثة أشهر حتى عزل في أوائل ذي الحجة . وعين ابن خلدون للمرة الرابعة في ١٦ ذي الحجة واستمر في المنصب عاماً وشهرين ، ثم رجعت كفة خصومه فعزل في السابع من ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ ؛ وأعيد البساطي في الشهر نفسه ، ثم عزل في رجب سنة سبع ، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في ٢٦ ذي القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهي فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التتلي لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطي في ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ وعزل في شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة . فلبث في منصبه بضعة أسابيع فقط . وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس ١٤٠٦ م) توفي ابن خلدون ، قاضياً للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر^(١) وهي يومئذ من مقابر العطاء والعلماء^(٢) .

(١) السخاوى : الضوء اللامع . المجلد الثاني من القسم الثاني — ص ٣٧٠

(٢) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون — حياته وتراثه الفكري . ص ٨٩

أهم آثار القاهرة في أيام المماليك الجراكسة

(٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٢٥٠	مسجد ايتمش البجاسى بباب الوزير	٧٨٥	١٣٨٣
١٨٧	» السلطان برقوق بالنحاسين	٧٨٦-٨٨	١٣٨٤-٨٦
١١٨	مدرسة ابنال اليوسفى بالخيامية	٧٩٤-٩٥	١٣٩٢-٩٣
١١٧	مسجد الكردى (المدرسة الحمودية) بالخيامية	١٩٧	١٢٩٥
١٧٧	مدرسة مقبل الداودى بالجزاوى	٧٩٨	١٣٩٥
١٤٩	خاتمه الناصر فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية	٨٠٣-١٣	١٤٠٠-١١
١٢٧	مدرسة الأمير سودون بن زاده بسوق السلاح	٨٠٤	١٤٠١
٣٥	جامع جمال الدين يوسف الاستادار بالجالية	٨١١	١٤٠٨
٢٠٣	زاوية وسيل فرج بن برقوق بشارع تحت الربع	٨١١	١٤٠٨
٢٨٦	مسجد الإمام الليث بمقبرة الإمام الشافعى	٨١١-٩١١	١٥٠٥
١٠٢	مدرسة العيني بشارع الداودارى	٨١٤	١٤١١
١٥١	مسجد قايتباى المحمدى بشارع الصليبة	٨١٦	١٤١٣
١٩٠	جامع السلطان المؤيد بشارع السكرية	٨١٨-٢٣	١٤١٥-٢٠
١٨٤	مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى بشارع منصور باشا	٨٢١	١٤١٨
٢٥٧	البيمارستان المؤيدى بالمحجر	٨٢١-٢٣	١٤١٨-٢٠
٤١٠	حمام السلطان المؤيد	٨٢٣	١٤٢٠
٦٠	مدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش	٨٢٣	١٤٢٠
١٧٥	المدرسة الأشرفية بالأشرفية	٨٢٩	١٤٢٥
١١٩	مسجد جاني بك بالمغربلين	٨٣٠	١٤٢٦-٢٧
١٢٢	قبة جاني بك الأشرفى بالقرافة الشرقية	قبل ٨٣١	١٤٢٧
١٣٤	مسجد جوهر اللالا بدرب اللبان	٨٣٣	١٤٣٠
٣١٨	» السويدى بمصر القديمة	حوالى ٨٣٤	١٤٣٠
١٢١	خاتمه ومسجد السلطان برسباى بالقرافة الشرقية	٨٣٥	١٤٣٢
٢٠٩	مدرسة تغرى بردى بالصليبة	٨٤٤	١٤٤٠
١٥٤	منارة قايتباى الجركسى بالمنشية	٨٤٥	١٤٤١-٤٢
٢٠٦	مسجد قراقبا الحسنى بدرب الحمامين	٨٤٥	١٤٤١-٤٢

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٥٥٧	سبيل الوفائية	٨٤٦	١٤٤٢
١٨٢	جامع القاضى يحيى زين الدين بيمين التهدين	٨٤٨	١٤٤٤
١٧٨	مسجد الجمالى يوسف بالخرزاوى	حوالى ٨٥٠	١٤٤٦
٣٤٤	» القاضى يحيى ببلاق	٨٥٢-٥٣	١٤٤٨-٤٩
٢١٧	» لاجين السيفى بشارع مراسينا	٨٥٣	١٤٤٩
١٨٠	مدرسة جقمق بدرب سعادة	٨٥٥	١٤٥١
١٥٨	قبة وخانقاه ومدرسة السلطان الأشرف إينال بالقرافة الشرقية	٨٥٥-٦٠	١٤٥١-٥٦
٢٠٤	مسجد يحيى زين الدين بالحليانية	٨٥٦	١٤٥٢
١٢٤	قبة برسباى الجاسى بالقرافة الشرقية	حوالى ٨٦٠	١٤٥٦
٦١	رباط زوجة السلطان إينال بالخرنقش	حوالى ٨٦٠	١٤٥٦
٥٦٢	حمام إينال .	٨٦١	١٤٥٦
٢٥	جامع ابن برد بك بأم الغلام	حوالى ٨٦٥	١٤٦٠
٦٠١	قبة عمر بن الفارض	حوالى ٨٦٥	١٤٦٠
١٧١	مدفن جاني بك (نائب جده) بشارع القادرية	٨٦٩	١٤٦٥
٢٨٠	قبة عبد الله الدكرورى	حوالى ٨٧١	١٤٦٦
٢٠٧	مسجد ومنارة مغلباى طاز بحارة بنت للعمار	٨٧١	١٤٦٦
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	قبل ٨٧٣	١٤٦٨
١٠٥	قبة سودون القصرولى بالباطنية	قبل ٨٧٣	» »
٩٧	باب قايتباى والمنارة بالجامع الأزهر	٨٧٣	١٤٦٩
٢١٦	مسجد وسبيل تراز الأحمدي	٨٧٦	١٤٧٢
٩٩	مسجد وضريح السلطان قايتباى بالقرافة الشرقية	٨٧٧-٧٩	١٤٧٢-٧٤
١٨٣	حوض » » » »	»	١٤٧٤
١٠١	مقعد » » » »	٨٧٩	»
١٠٠	قبة الكلشنى بالقرافة الشرقية	حوالى ٨٧٩	١٤٧٤-٧٥
١٠٤	ربع قايتباى » »	٨٧٩	١٤٧٤
٤١٢	سبيل »	٨٧٩	١٤٧٤
٢٢٢	حوض السلطان قايتباى بقلعة الكيش	٨٨٠	١٤٧٥
٢٢٣	مدرسة قايتباى » »	٨٨٠	١٤٧٥
٧٦	سبيل وكتاب السلطان قايتباى بالأزهر	٨٨١	١٤٧٧
٧٥	وكالة السلطان قايتباى بالأزهر	٨٨٢	١٤٧٧
١٢٩	مدرسة وقبة جاني الهلوان بالسروجية	٨٨٣-٩١٦	١٤٧٨-١٥١٠
٤٩	» أبو بكر مزهر خان مرجوش	٨٨٤	١٤٧٩-٨٠
٢٢٤	سبيل السلطان قايتباى بالصليية	٨٨٤	١٤٧٩
	وكالة السلطان الأشرف قايتباى بباب النصر	» »	١٤٨٠-٨١

أهم آثار القاهرة في أيام المماليك الجراكسة

١٩١

الترتيب التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
٨١-١٤٧٩	٨٦-٨٨٤	قبة الفداوية بالعباسية	•
٨١-١٤٨٠	٨٦-٨٨٥	مسجد وحوض قجاس الاسحاق بالدرب الأحمر	١١٤
٩٠-١٤٨١	٩٦-٨٨٦	» قايتباي	٥١٩
١٤٨٥	٨٩٠	منزل قايتباي بحارة المارداني	٢٢٨
١٤٨٥	حوالي ٨٩٠	مسجد السلطان أبي العلاء	٣٤٠
١٤٩٤	٨٩٩	باب قايتباي بالسيدة عائشة (المنشية)	٢٧٨
القرن الخامس عشر	القرن التاسع	باب قايتباي بسوق العزى	٢٣٥
» » » »	نهاية » »	قبة ازدمر بالقرافة الشرقية	٩٠
٩٥-١٤٩٤	٩٠٠	مدرسة الأمير أربك اليوسفي بشارع أربك	٢١١
قبل ١٤٩٦	قبل ٩٠١	حوض السلطان قايتباي بالأزهر	٧٤
١٤٩٦	» ٩٠٤	مسجد السلطان شاه بغيط العدة	٢٢٩
١٤٩٦	٩٠١	مقعد الأمير مامى بالنحاسين	٥١
٩٦-١٤٩٥	٩٠١	قبة يعقوب شاه المهندار بسفح المقطم	٣٠٣
١٤٩٩	٩٠٤	قبة قانصوه أبوسعيد	٣٦٠
١٤٩٩	٩٠٤	» السلطان قانصوه أبو سعيد	١٦٤
١٥٠١	٩٠٦	» طوما نباي بالعباسية	٢
١٥٠٢	٩٠٨	مسجد خير بك بشارع التبانة	٢٤٨
١٥٠٣	٩٠٨	مدرسة قايتباي أمير أخور بالمنشية	١٢٦
٤-١٥٠٣	١٠-٩٠٩	منزل ومقعدوقبة وسيل وكتاب قانصوه الغورى بالغورية	٦٧ و ٦٦
١٥٠٤	٩٠٩	مسجد السلطان قانصوه الغورى بالمنشية	١٤٨
٥-١٥٠٤	١٠-٩٠٩	مدرسة السلطان الغورى بالغورية	١٨٩
٥-١٥٠٤	١٠-٩٠٩	وكالة قانصوه الغورى بشارع التبليطة	٦٤
١٥٠٤	حوالي ٩١٠	قبة الأمير سودون	٢٩٤
١٥٠٦	٩١١	مسجد قايتباي الرماح بالناصرية	٢٥٤
٧-١٥٠٦	١٣-٩١١	مسجد الأمير قرقاش (أمير كبير) بالقرافة الشرقية	١٦٢
١٥٠٦	٩١٢	جامع الدشطوطى بباب الشمرية	١٢
٨-١٥٠٦	١٤-٩١٢	قناطر المياه (عصر الغورى) بغم الخليج	٧٨
١٦-١٥٠١	٢٢-٩٠٦	بقايا قصر الغورى بالصليبة	٣٢٢
١٥١١	٩١٧	باب خان الخليلي بخان الخليلي	٥٤
١٥١١	٩١٧	» » » » »	٥٦
١٥١١	٩١٧	قبة قرقاش بشارع باب الفتوح	١٧٠
اول القرن السادس عشر	أول القرن العاشر	خان الزرا كشة	٢٥١
القرن السادس عشر	أوائل القرن العاشر	وكالة الجلاية	٤٢٥

الفصل السابع

القاهرة في أيام العثمانيين

من ١٥١٧ إلى ١٨٠٠

نبي على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة .
وأصبحت بالدل مقهورة من بعد ما كانت هي القاهرة
« بدر الدين الزيتوني »

الأتراك في مصر

لعل تاريخ مصر الإسلامي لا يشمل عصرًا غامضاً كالعصر الذي كانت فيه البلاد ولاية عثمانية بحجة
يحكمها ولاية يرسلهم السلطان العثماني من قبله ، ذلك العصر الذي يبدأ باستيلاء السلطان سليم على مصر عام
١٥١٧ وينتهي بقيام الدولة المصرية الحديثة سنة ١٨٠٥ .

فالصادر التاريخية عن هذا العصر ليست وافرة ، وإن يكن بعض الأدباء المصريين وكتاب الإفرنج قد
دونوا حوادثه ، فإن للمؤرخ لا يسمه إلا ملاحظة ما في كتاباتهم من نقص وغموض .

استقر السلطان سليم في مصر عثمانية أشهر إلا أياماً قللاً ، قضى أكثرها بحج القيناس بالروضة ، ولم
يجلس على سرير الملك بالقلمة ، كما كان يفعل سلاطين المماليك .

وفي يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شعبان (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) خرج السلطان سليم من بيت
ابن السلطان قايتباي الذي كان خلف حام الفارقاني ، واخترق الصليبة وصعد إلى الرميطة وخرج من القلمة
بموكب عظيم يسبقه ملك الأمراء خير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالي نائب الشام وأمام الحرس السلطاني
فرقة موسيقية . وكان السلطان يمتطي ظهر بغلة صفراء عالية ، قيل إنها من بغال السلطان القورى . وكان
معه في الموكب يونس باشا والد القردار وبقية الوزراء والأمراء وأعيان البلاد . وصل الموكب إلى الصوة
فمقبرة الأشرف قايتباي حيث وقف السلطان لقراءة سورة الفاتحة ، واستمر في سيره حتى وصل إلى وطاق.

(خيمة) بركة الحاج . ولا ندري لماذا لم يحترق الموكب السلطاني قلب القاهرة ، وفصل السلطان السير في خارجها وعلى حين فجأة .

بعد ذلك سار الموكب إلى الحاقاه فنزل للاستراحة ، وقيل أن السلطان سليم خرج من مصر وصحبه ألف رجل محملة ذهباً وفضة وتحفاً وسلاحاً وأواني من الخبز والصيني والنحاس ... الخ .

وغادر السلطان سليم عاصمة الديار المصرية دون أن يترك فيها أثراً قائماً يكون تذكيراً لفتح مصر أو كفارة عما تركته جيوشه فيها من آثار الحراب والدمار وما سلبها إياه من تحف وصناع وفنانين كان لهم بعد ذلك فضل كبير في إزدهار صناعات عديدة في الامبراطورية العثمانية .

ومهما يكن من شيء فقد كتب المؤرخ المصري محمد بن أحمد بن إياس في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » فوصف فيه حوادث السنين الأولى للفتح العثماني حتى سنة ١٥٢٢ م . وألف ابن أبي الفضائل كتابه « تاريخ سلاطين الممالك » . كما أن كتاب « عجائب الآثار » للجبرتي مصدر أساسي لتاريخ مصر قيل الفتح الفرنسي وفي خلاله . ومن المحتمل أن تكون في اللغة التركية كتب صنفها مؤرخو العثمانيين لذلك العصر باللغة التركية عن حكم ولاتهم الدين أوفدهم الخليفة ليحكموا مصر .

وقد زار مصر كثير من الرحالة في عهد العثمانيين ووصفوا أحوالها وآثارها وعادات سكانها في مؤلفاتهم . وفي مقدمة هؤلاء الحسن بن محمد الوزان ، وأوليا جلبي والدكتور القس « ريشارد بوكوك » الذي زار مصر عام ١٧٣٧ م وكتب مؤلفه الضخم « وصف الشرق وبلاد أخرى » وفي نفس ذلك الوقت زار مصر « فردريك نوردون » الضابط بالبحرية الدانماركية ، وكتب عنها كتاباً ليست له قيمة من الناحية التاريخية . كذلك كتب « دي ماييه » قنصل فرنسا في مصر عام ١٦٩٢ كتاباً نفيساً عن أحوال مصر في أواخر القرن السابع عشر وأول القرن الثامن عشر .

* * *

استولى السلطان سليم على مصر وشرع في تأييد سلطته على البلاد فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا وخشى أن يخرج الباشا على الآستانة ويستقل بمصر ، فاهتدى إلى طريقة تضمن له بقاء البلاد تحت سيطرته . فجعل في مصر ثلاث إدارات كل منها تراقب أعمال الآخرين فلا يخشى من اتحادها وتمرداها . فالقوة الأولى « الباشا » وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها ، وكان عليه أن لا يغادر القلعة بأي حال من الأحوال ، والقوة الثانية « الوجاقات الستة » وواجباتها حفظ النظام في القطر المصري والدفاع عنه وجباية الجراج ، وقد وزع هذه الوجاقات في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ، وكان عددها ستة آلاف خيال وستة آلاف من المشاة .

وكان كل وجاق تحت قيادة « أغا » ينوب عنه في الآستانة ضابط برتبة « سكبان باشي » وهي رتبة تعادل « العقيد » اليوم .

أما القوة الثالثة فهي الممالك وهم بقايا الممالك البحرية والجرا كسة، وواجههم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لأنهم أعداء لكلا الفريقين ينتصرون للفريق الأضعف لينعموا بالقوى من الاستبداد . وكانت سناجق القطر المصرى وعددها إثنا عشر يحكمها البسكوات المنتخبون من أمراء الممالك .

ولقد ظل هؤلاء الأمراء أصحاب القوة الفعلية في البلاد ، وإن كان السلطان هو الذى يعين الباشا ، فقد كان ميسوراً لهم الاتفاق على عزله بما يدبرونه ضده من المؤامرات وبغير ذلك من الوسائل . ومهما يكن من شيء فقد كان الباشا يصل إلى مصر تحف به حاشية مؤلفة من اثني عشر شخصاً فينثر أكياس الذهب غنة ويسرة في الأعياد والحفلات ، ولكن ذلك لم يمنع ثورات الجند مما أدى إلى زيادة نفوذ الممالك حتى أصبحوا لا ينقصهم إلا لقب السلطنة الذى استبدلوه بلقب « شيخ البلد » .

كان كلما تقلص نفوذ الباب العالي قل نفوذ ولائه في مصر، فيزيد نفوذ البسكوات الممالك الذين شيدوا القصور العظيمة على حافة بركة الأزبكية أو بركة الفيل وفي الصليبة وفي سوق السلاح . وسكن بالقرب منهم أتباعهم المسلحون الذين كانوا يهجمون على أحياء منافسيهم بإشارة من مولاهم فيسرقونها وينهبونها ويقتلون في الشوارع ويتقاذفون الرصاص من النوافذ والمشرقيات . وزاد الطين بلة ذلك العنصر المشاكس الذى تألف من أفراد الأورطتين التركيتين أورطة العزب وأورطة الانكشارية ومقرها ثكنات القلعة . وكان قائد الأورطتين من أقوى الأمراء أعواناً ونفوذاً في القطر ، ولم تختلف أخلاقهما كثيراً عن أخلاق الممالك الأول .

إذن كانت مصر في عصر العثمانيين لا تزال يحكمها الممالك ولا سيما أن ولايتها الباشوات كانوا دائماً يستبدلون بأوامر الباب العالي . وكانوا يخافون نفوذ زعماء رجال حاميتهم ويمشون بأس بكوات الممالك الأقوياء الذين كانوا يضمون صفوف بعضهم إلى بعض ويكونون شبه إئتلاف فيما بينهم كالكاسمية والفقارية وكانوا ينتهزون الفرص أحياناً للتعارك في الطرقات أو محاصرة جنود أورطة العزب .

وقد تلبه رجالهم إلى إمكان الاستيلاء على القلعة إذا احتلوا التل الخلفى الذى يشرف عليها . وهكذا ما تقرأ في تاريخ الجبرتي أخبار الجنود الذين احتلوا في مساجد ابن طولون والماس والمحمودية . الخ وأطلقوا كرات الدافع من المآذن المجاورة . وقد وصل العسف والاستبداد إلى حد لا يمكن وصفه، فقد كانت الطرقات تقفر أياماً من المارة . والبيوت يهجم عليها لتنهب ، ولم يكن يحجر إنسان على الذهاب إلى بولاق ومصر القديمة . فإذا مضت تلك الفترة المفزعة أعقبتها فترة أخرى سادتها السكينة وشمها الهدوء ، لماذا ؟ لأن أميراً تولى على منافسيه فتخلص منهم واستطاع أن يعيد إلى البلاد طمأنينتها . ومن الصعب جداً أن نعتز على أمير من أمراء هذه الطبقة لكي نقارنه بأحد أمراء الممالك السابقين الذين جلسوا على عرش دولة قوية . عرش مصر القوية المستقلة الغنية المتحضرة .

الحسن بن محمد الوزان الفاسي

(ليون الأفريق) في القاهرة

زار مصر في الفترة الأولى للفتح العثماني الرحالة المغربي الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٤ - ١٥٥٢) فقدم لنا وصفاً طيباً للقاهرة ، وقد اشتهر الحسن باسم ليون الأفريق بعد أن وقع في قبضة القرصان الفرنج فأخذوه إلى رومه ثم قيل عنه أنه اعتنق النصرانية بعد انصاله بالبابا ليو العاشر الذي شجعه على الدراسة والبحث . وقد عاش سنين طويلة في رومه وزار في خلالها عدة مدن إيطالية ، ولما مات البابا ، عاد إلى تونس واتخذها مقاماً له حتى وفاته . وكان قد ألف كتابه القيم عن رحلاته التي قام بها في أنحاء أفريقيا ومنها زيارته إلى مصر^(١) ويعتبر هذا الكتاب الذي ترجم إلى عدة لغات من أهم مراجع الباحثين عن السودان المغرب في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وصف القاهرة

تناول الحسن في رحلته وصف مصر بإفاضة ، ولا سيما القاهرة . وبدأ كلامه بوصف موقع مصر وحدودها وطبيعة أرضها . وتسلكهم بصفة عامة عن شعبها وما قيل من أصوله ، ثم تحدث عن أهم المدن المصرية وجوهاً وفيضان نيلها .

وصف « بوصير » أول بلدة نزل فيها ، وهي مدينة قديمة تقع على بعد عشرين ميلاً غربى الاسكندرية وكان لها في قديم الزمان سور منيع ، كما كانت تحتوى على عدة مبان جميلة الطراز ، ثم وصف الاسكندرية وأطنب في ماضيها ومدارسها ، ويمتاز حديثه عن القاهرة بالإصالة والدقة ، قال عنها أنها أعظم وأشهر مدن العالم تقع على سهل يمتد من جبل المقطم وعلى بعد حوالى ميلين من نهر النيل ، وتحيطها أسوار ضخمة تكتنفها أبواب من الحديد ، أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة ، وقد أقيمت على جانبيها القصور والدور الكبيرة ، والمدارس والمساجد الشاهقة ، ومن أروعها مسجد الحاكم بأمر الله . وذكر الحسن شارع بين القصرين ووصف حوانيت بائعي المشروبات المحلاة بالسكر ، وآتى على ذكر مدرسة السلطان القورى

(١) The History and Description of Africa. John Pary. Hakluyt Society -1896

أنظر أيضاً الترجمة الفرنسية .

A-Epaulard : Description de L'Afrique. Paris 1956.

التي كان قد انتهى بناؤها قبيل وصول الرحالة بمدة أعوام . ومربحوانيت بائمي القماش حيث كانت تباع أنواع من نسيج الموصل و بعلبك ، ووصف مارستان قلاوون وعرج على حى زويلة ، وكان يقطنه حوالى اثنى عشر ألف أسرة ، وهو يبدأ من باب زويلة ويمتد ما يقرب ميلا ونصف إلى جهة الغرب . وعلى مسافة ميل تقريباً في اتجاه الجنوب الغربى يقع حى اللوق ويسكنه بعض العظماء والأعيان . وتقوم مدرسة السلطان حسن وهى عمارة رائعة بالقرب من قلعة المدينة وكان الثوار يلجأون إليها يمتنعون فيها ويرمون مقذوفاتهم على جنود السلطان ويقاومون رجاله حتى يستسلم أحد الطرفين .

أما ضاحية ابن طولون فتقع في شرق القاهرة وكان هذا الحى فيما مضى وقبل إنشاء القاهرة عاصمة البلاد المصرية ، وقد شيد عليه ابن طولون قصرأ كبيراً ومسجداً ضخماً ، ويزخر هذا الحى بمحوانيت التجار وأصحاب الحرف وأكثرهم من المغاربة .

وبحى اللوق يقع مسجد ومدرسة الأمير أزيبك^(١) وكان من مستشارى أحد السلاطين المماليك ، وقد أطلق على الحى اسم هذا الأمير فصار يعرف باسم الأزيكية . وكان الحى أهم موقع بالمدينة يقصده الناس للترفيه عن أنفسهم حيث انتشر اللاعبون والحواة ومدرّبوا الحيوان على تأدية الحركات الضحكة لتسلية الناس ، وحيث افترش الأرض كثير من « النجمين » الذين يكشفون الطوالع بواسطة الطير ، وكان على من يرغب أن يقرأ أحدهم له طالع أن يعطى الطير ما قيمته مليمين ، فيلتقطه الطائر بمنقاره ، وبعد أن يودع المبلغ في صندوق صغير ، يلتقط ورقة كتب فيها الطالع ، وقد أراد الحسن أن يعرف طالع فـكان نحساً . وقد اجتمع في واحد من ميادين الحى اللاعبون بأنواع السلاح والعنون والمنشدون ، ينشدون الأغاني الحماسية عن المارك الدموية التى كانت بين العرب والمصريين .

وذكر الحسن شيئاً عن ضاحية بولاق المطللة على النيل وقال عنها أنها ملتقى تجار القمح والزيت والسكر تـزخر بالمساجد والدور والمدارس ، يشاهد بالقرب من ساحلها السفن الشراعية محملة بالمروض وتفرغ بعضها حولتها وأحياناً يتجمع منها ما لا يقل عن ألف سفينة ، وكان يردحم الثغر بموظفى المكس الذين يقدرّون المبالغ التى ينبغى أن تجبى من التجار لحزينة السلطان . وفي القرافة شيدت المباني العديدة والأضرحة والدور وهى تبدو مدينة كبيرة تقع على سفح المقطم وتمتد ما يقرب من الميلىن إلى الشمال ، وقد يصل عدد مبانيها إلى الألفين ، وأكثرها فى حالة خربة ، ويقصدها الناس فى أيام الجمع لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين ، وهم يحملون سلال الطعام لتوزيعها على الفقراء ، وقد تكلم الحسن على كثير من آثار القاهرة ومنها ضريح السيدة نفيسة ومقياس النيل .. الخ . كما ذكر طرائف عن أزياء أهل المدينة رجالاً ونساء ، وعن الحرية التى يتمتع بها نساء المدينة . ثم تحدث عن زينتها وأسلوب تجملها . . وانتقل

(١) هو جامع الأمير أزيبك اليوسفى وكان من رجال دولة الأشرف جنبلط .

إلى وصف طعام أهل القاهرة ، وتكلم الرحالة عن الطوائف الدينية وأصحاب المذاهب المختلفة ، كما أمدنا ثبت الناصب الرئيسة في الحكومة بعد القضاء على دولة السلاطين المماليك في أعقاب دخول سليم الأول إلى مصر (١٥١٧م) ووصف إدارة الحكومة في أيام المماليك الباشوات — الدوادار والأمير الكبير ونائب السلطان والأستادار والخازندار وأمير السلاح ، ثم تكلم عن القوات المسلحة وعن أعمال المحتسب وأمير الحجج . الخ وذكر الحسن أشياء كثيرة عن مدينة الجيزة وحى كنيسة المعلقة ، والخانقاه ، وبنى سويف والنيا والقيوم ومنفلوط وأسيوط وأخميم ، كما تكلم عن أهم أديرة الصحراء ، ثم مر بإسنا وأسوان قبل أن يرحل إلى القصير في طريقه إلى مكة ، ثم ركب البحر قاصداً مكة المكرمة .

القاهرة كما شاهدها المياشى

ليس في رحلة عبد الله بن محمد بن أبي بكر المياشى^(١) الذى زار القاهرة سنة ١٠٧٢ هـ (١٦٦١-١٦٦٢م) ، شئ أصيل ، وقد ذكر أنه دخل القاهرة ضحى ، ولم يجد داراً ينزل بها قرب الأزهر ، فاكترى داراً بعيدة عن الأزهر بمحصل البردبكية ، وأنه وجد الوباء في القاهرة إلا أنه ضعيف ، وقد نعت الأزهر بأنه « عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا المساجد الثلاثة .. » .

تحدث عن زيارته لشيخه إبراهيم الميمونى ، فقال : « ثم دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ إبراهيم الميمونى ، ومنزله قرب الجامع ، وقدم لنا طعاماً حسناً ، وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر . وإنما يتكلمون بشراب البن الذى يسمونه القهوة . ونحن لا نعرفها ، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة » .

ومما ذكره في وصف مارآه خارج القلعة ، قال : « وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القروود ، ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كاللذب والحير والتبوس والكلاب » ، ثم يعقب فيقول : « وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد ، وحيل غريبة ، قد سخرت لهم أنواع الحيوانات ، فقليل من أصناف الحيوانات مالا يوجد عندهم مسخراً^(٢) .

(١) نسبة إلى عياش إحدى قبائل البربر ، وقد توفي عام ١٠٩٠ هـ (١٦٧٩م) . راجع الأعلام للزركلى ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) الرحلة المياشية : ص ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، (طبعة حجرية بفاس عام ١٣١٦ هـ) .

خير بك

كان « خير بك » أول الولاة الذين ولاهم السلطان سليم على مصر ، وكان من كبار رجال قانصوه الغورى ، انضم إلى الأتراك في الشام ، وكان يشغل منصب نائب حلب . وعده السلطان سليم بأن يوليه ولاية مصر جزاء له على معاونته في فتحها وقد بر السلطان بوعدده .

ففي يوم الأحد الموافق السادس والعشرين من شهر شعبان صعد الحائن خير بك إلى قلعة الجبل بموكب عظيم وأمامه بعض رجال المماليك ، فاخترق الصليبة في القبر وأقام بالقلعة ورغب في إصلاحها ليعيد إليها شيئاً من مجدها القديم ، فأرسل في طلب البنائين والتجارين والمبطلين ليرجموا ما أفسده المماليك فيها ، ثم أسند خير بك ولاية القاهرة لرجل تركي كان مملوكاً له اسمه كمشيغا ، كما أسند عدة وظائف لبعض رجاله المخلصين ، أما يونس باشا الذي عينه السلطان سليم نائباً عنه في مصر وكان أعظم وزرائه فقد قتله وتخلص منه .

وفي يوم من الأيام أشيع عقد قران « خير بك » على « خوند مصر » زوجة الظاهر قانصوه . وقد تحققت تلك الأشاعة لما طلعت إلى القلعة قبل شروق الشمس وفي صحبتها جماعة من نساء الأعيان راكبات الحمر . ولكن بعد مضي خمس سنوات على زواجهما غضب عليها « خير بك » وأنزلها من القلعة وأمرها بأن تسكن في مدرسته القاعة يباب الوزير ورتب لها في آخر كل شهر ما يكفيها من النفقة . وقيل أن سبب ذلك قدوم زوجته الأولى من الآستانة . وبعد شهر وصلت زوجته فصعدت إلى القلعة ليلاً في حفة على ضوء المشاعل .

كان أهم حوادث القاهرة في أول ولاية خير بك تنافس أذى المماليك للقاهريين ، ومن سيئات أعمالهم سطوهم على حى الأربكية ونزعهم الأبواب والسقوف والشبابيك الحديدية ، فكانوا يحملونها على الجمال لبيعها في الأسواق بأبخس الأثمان ، كذلك كانوا ينزعون أخشاب القلعة لاستخدامها في النار المعدة لطهى طعامهم . ولما زاد الأمر تدخل قاضى القضاة واتصل بخير بك فعمل على تهدئة الأحوال وإن لم يكن قد نجح في الوصول إلى ذلك دفعة واحدة ، فأخذ الأمن يستتب شيئاً فشيئاً ، وساعد على ذلك رحيل عدد عظيم من الجنود الانكشارية والدلاة الذين كانوا يصون الأوامر جهاراً ويرتكبون كل محرم علناً وجهرآ ، وما لبث أن تخلص خير بك من جزء كبير من الجنود المملوكية .

في أواخر شهر ذى القعدة عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م وصل إلى مصر رسول من الآستانة يحمل نبأ وفاة السلطان سليم وتولية ابنه السلطان سليمان ، فأمر خير بك في اليوم التالى بأن يطوف في القاهرة أربعة من حملة المشاعل، ينادى اثنان منهما باللغة التركية المبسطة الآتية : « ترحموا على الملك المظفر سليم شاه وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان » . .

وفي اليوم التالي وكان يوم الجمعة أمر خير بك باصلاة على السلطان صلاة الغائب بجامع القلعة وفي سائر جوامع القاهرة والدعاء للسلطان سليمان على المنابر في ذلك اليوم ، ثم أقيمت معالم الزينة في القاهرة ثلاثة أيام لمناسبة ارتقاء السلطان الجديد عرش الدولة العثمانية ، فارتدت الدولة ثياب الفرح ، لاسيما خان الخليلي إذ قام تجاره بتزيينه زينة فاخرة وصار إلى القاهرة الأمير على السكخيا يطوف يومياً عدة مرات يرحب الناس على الاكثار من معالم الزينة .

زينت مصر وأضحيت بعد حزن في تهمان

مذ غدت بمعد سليم لسليمان الزمان

وفي يوم الأحد (٢٤ ذى القعدة ٩٣٨ هـ / ١٥٢٢ م) مات خير بك ونمى بالقلعة بعد الظهر وبات تلك الليلة فيها . وفي اليوم التالي غسلت جثته وكفنت وحمل الناس نعشه وصلوا عليه ثم نزلوا به من سلم المدرج وسار في جنازته الجنود العثمانيون وأمراء الجراكسة والقضاة الأربعة الذين التقوا بالموكب عند مدرسة ايتمش بقرب باب الوزير وانتهوا به إلى مدرسته التي أنشأها فدفن مع إخوته . وكانت مدة ولايته على مصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً وخلف أموالا تقدر بستائة ألف دينار ذهب .

تولى الأمير سنان بك ولاية القاهرة بصفة مؤقتة حتى وصل الوالى الجديد من الأستانة وهو الوزير مصطفى باشا . هبط بولاق وكان في استقباله الأمير سنان المذكور والأمير خير الدين نائب القلعة وبعض الأمراء ، فارتدى خلعة السلطان وامتطى ظهر فرس من الجياد الخاصة وسار موكبه إلى باب البحر ، واستمر إلى باب القنطرة وشق سوق مرجوش مخترقاً القاهرة ، وكان الأمير سنان عن يمينه والأمير جانم الجراوى عن يساره ، ترتفع له أصوات الدعاء كما تنطلق زغاريد النساء وكان يوماً مشهوداً . ثم وصل الموكب إلى الرملة ودخل إلى الميدان ثم صعد إلى القلعة وتسلم مفاتيح بيت المال .

لم يدم مصطفى باشا في منصبه هذا أكثر من تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، ثم أبدل بأحمد باشا الذى قطعت رأسه وعلق جسده على باب زويلة . ثم أرسل السلطان قاسم باشا ، فإبراهيم باشا ، فسلیمان باشا . وكان السلطان راضياً عن هذا الأخير واتمأ منه فأبقاه في الولاية تسع سنوات وأحد عشر شهراً حتى استدعاه إلى الأستانة ليسلمه قيادة حملة أعدها لمحاربة فارس والهند . وقد شيد في أثناء حكمه بنايات كثيرة من جملة جامع سارية بالقلعة ، وكان يعرف بجامع سليمان باشا ، وكان أول جامع شيد في مصر على الطراز العثماني .

وقد جاء وصف مدينة القاهرة في عام ١٥٢٦ م في مؤلف ألماني نشر نحو سنة ١٥٧٤ جاء فيه : ان القاهرة مدينة مصر الكبيرة هي التي نسميها كيروس ، ويدعوها العرب مصر أو مصر ، واقعة في قطعة حسنة مناسبة أى حيث ينتدى البيل بالتفرع إلى فروع عديدة فهي شبه سد للنيل .

وللمدينة ضوايح كبيرة جداً يحتوى بعضها على ثلاثة آلاف منزل والبعض الآخر على إثني عشر ألف منزل ويقال أن « الكاير » القاهرة تحتوى على نحو ثلاثين ألف منزل وعلى دور كبرى غيرها وللكتيرين من أهلها مساكن كبيرة جداً وفيها قصور وهياكل ضخمة عديدة تدعى (جيوما) جوامع وكثير من المستشفيات والمدارس والحمامات التى يستخدمونها لتقديم الضحايا وفقاً لعاداتهم (١) ووجد فى المدينة عدد لا يحصى من المحاكم والمواخير ، وفيها أيضاً مبان كبيرة يحمل منها الوجهاء مدافنهم (أضرحة) ويظن حكام القاهرة الظالمون أنهم يستطيعون أن يكفروا عن ذنوبهم السيئة ببناء بيوت عظيمة قرب أضرحتهم ووقف مبالغ عظيمة عليها للفقراء والحجاج والطلبة والزهاد والنسك .

وقد وجدت الفقرات الآتية فى دليل قديم عن مصر (القاهرة) :

« الكاير » مدينة جميلة تبلغ أربعة أضعاف حجم مدينة باريس وفيها كثير من الكنائس المسيحية وشوارعها مزدحمة ازدحاماً عظيماً بالناس وبالخيل والبغال فلا يستطيع أحد أن يمشى بدون أن يعترضه عائق . ويشغل الصناع أمام النازل فى الشوارع وقيل منهم من يطبخون طعامهم فى منازلهم لأن هناك بائعين يقدمون جميع الأطعمة فى الشوارع مطبوخة أفضل طبخ ويوجد فى القاهرة أكثر من ثلاثين ألف طباح .

وقد أرفق المؤلف الألمانى هذا الوصف بخريطة للقاهرة فى عصره وبين عليها مجرى النيل وتتخلله المدينة ونواحي العمران ومحال التسلية وميادين عرض الخيل .

القاهرة كما وصفها الرحالة الأجانب

وصف القاهرة فى العصر التركى نجد فى طائفة كبيرة من المراجع العربية والأجنبية ، وفى مقدمة المراجع العربية تاريخ ابن إياس والجبرتي وابن أبى السرور . وفيها يضل الباحث كثيراً لأسباب عدة أهمها ذكر التفاصيل الثانوية عن الحوادث القافية التى لا يهتم بها القارىء إلا للتسلية، وإن كان لبعض تلك الحوادث أهمية إذ يستطيع أن يرجع إليها المؤرخ فيستنتج منها كثيراً من الحقائق . ومهما يكن من شئ فإنه إن لم يكن قديراً موقفاً فإن كثيراً من الموضوعات الهامة يخفى عليه فى ثنايا هذه القصص والذكرات .

أما المراجع الأجنبية فتشتمل على ما كتبه الرحالة الأجانب فى أثناء زيارتهم لمصر أو التقارير الوصفية التى كتبها بعض الرجال السياسيين . وأكثر هذه التقارير ليس محتماً بحيث يصف بجلاء دخائل الأحوال المصرية أو يصف بوضوح ما كانت عليه البلاد . فأكثر هؤلاء الأجانب متفرجون يشاهدون عن بعد ويثبتون أحكامهم على أساس سطحي ، وعلى كل حال فإن آراء أغلبهم سريعة . غير أن علينا رغم ذلك أن نلتمس لنا نفعاً من تلك المؤلفات القديمة، وندقق بين آراء كل منهم لكي نعطي صورة صحيحة للقاهرة فى أثناء العصر التركى .

هؤلاء الرحالة الأوروبيون ، ولا سيما الذين زاروا مصر في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يذهبون مذاهب شتى في تخيلاتهم وكتاباتهم عن عاصمة البلاد المصرية ، فلما وطأت أقدامهم القاهرة وشاهدوا ما وقع نظرهم عليه خابت آمالهم ودكت صروح أفكارهم ، ولم يستطيعوا أن يلمسوا محيط الحياة المصرية . ولعل خير مصدر يعطى صورة جيدة للقاهرة حين استولى العثمانيون على مصر هو كتاب (الحاج الفرنسي) « جريفا أفاجار »^(١) . وكان قد زار القاهرة عام ١٥٣٤ ووصفها في عدة صفحات من كتابه قال :

تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريس ، وهي ذات شوارع ضيقة ملتوية وقصيرة ، وأكثرها غير منظم ، ومن هذه الطرقات ما هو مغطى بألواح الحشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف ، والتي بسببها يقفل أصحاب الحوانيت متاجرهم فتبطل الحركة ويبقى الناس داخل بيوتهم ، وفي أثناء الليل تضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب البيوت أمام منازلهم .

وشعب القاهرة خليط من أجناس العالم وأديانه المختلفة ، فمنهم الأتراك والمغاربة والعرب والمعجم واليهود والمسيحيون واللاتينيون والروم والهنود والأرمن واليعاقبة والنسطوريون ، وبالاختصار فإن حكومة البلاد تسمح لكل هؤلاء بالمعيشة حسب قوانين بلادهم لأن القاهرة مدينة الحرية . . .

وذكر الرحالة « كارييه دى بنو Carhier de Pinon » أن القاهرة أرحب من الأستانة ، وقال « فيرمانل Fermanel » وقد زارها أثناء القرن السابع عشر ، أن القاهرة كانت معادلة لأعظم المدن الأوربية كما أنها أكثر مدن الإمبراطورية العثمانية ازدحاماً ، أما الرحالة « ديلافالى Della Valle » ، فقدرها تقديراً تفوق به الأستانة ورومه وكل البلدان التي شاهدها في أثناء رحلاته . فلما زارها « كوبان Coppin » وصفها بأنها أصغر من باريس وأقل سكاناً على عكس ما ذكره فيما بعد « تيغنو Thévenot » .

وزار مصر في القرن الثامن عشر ثلاثة من الرحالين أجمعوا على أن القاهرة تساوى باريس في المساحة وعدد السكان . وأولهم الطبيب جرانجر وكان قد استهوته القاهرة ، كما وصفها إليه صديقه المسيو « يليون » فنصل فرنسا في القاهرة وثانيهم « لوما سكرييه Le mascrier » وثالثهم « دانفيل Danville » .

ولم تتفق كلمة الرحالة الغربيين على مساحة القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فبينما ذكر « هاكلو » في القرن السادس عشر أن دورة القاهرة أى محيطها ٣٣ كيلومتراً ، قال كورييه دى بنو أن طول القاهرة بدون القديعة هو ١١ كيلومتراً وعرضها خمسة كيلومترات ونصف . وذكر « فيرمانل » أنها ٣٦ كيلومتراً في محيطها . وذكر « بوفو Beauvau » أن القاهرة وضواحيها محيطها ستة وخمسون

يخص القاهرة منها أربعون ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثامن عشر وجدنا « بوكوك » و « جرانجو » يقولان أن محيطها لا يزيد عن أربعة عشرة بينما ذكر يروس وبروين أنهما قطعاً بعدها الطولى في ثلاث ساعات مشياً على الأقدام !

ولا شك أن ذلك التناقض في التقدير وتضارب الآراء في الأبعاد ، يجعلنا نعرف الحد الذى يجب أن لا نتجاوزه في الاطمئنان إلى مثل هذه التقديرات والوثوق بصحتها فيما يتعلق بالقاهرة وغيرها من العواصم التى يذهب بعض الرحالة إلى أن فى استطاعتهم إعطاء صورة صحيحة عنها بعد إقامتهم فيها مدداً متفاوتة فى القصر ، فليس كل رحالة يستطيع أن يقدر فى أثناء إقامته القصيرة فى القاهرة ما يجب أن يقوم به الباحث الجغرافى أو المؤرخ الاجتماعى فى شهور وسنوات .

كانت مساحة المناطق المزدهرة بالآهله بالسكان من أحياء القاهرة كبيرة لكنها كانت خداعة أيضاً ، فضيق الشوارع يوم بارتفاع مبانيها المقامة على جانبيها مع أنها تكون عادية العلو ، كذلك ندرة مرور الناس فى الطرقات الواسعة أحياناً تجعلنا نتوهم أن المدينة أو الحى خال من السكان . هذه الاعتبارات لم يلتفت إليها أكثر الرحالين .

القاهرة فى أثناء القرن السادس عشر

شهدت القاهرة فى أيام السلاطين المماليك الذين عرفوا تشجيع الفنون والآداب أنواع العماير الجميلة تشيد فى جميع أحيائها . فلما جاءها الباشوات الأتراك يحملون أوراق تعيينهم من الخليفة العثمانى ليحكموا بلداً لا تربطهم به أى عاطفة من حب الوطن ولا يرون فيه إلا أشبه شئ بمزرعة عليهم أن يحسنوا استغلالها ليكونوا لأنفسهم بعض الثروة كان لذلك عواقب وخيمة على مصر ، فبدأ الهزال على وجه القاهرة ومالبت أن تغلب النعاس عليها فتامت نوماً عميقاً . وأهملت وقعدت جاذبيتها الرشيقة ، وأصبحت فى أكثر مبانيها وعمائرها المجيدة التى كانت رمزاً لمصورها الزاهرة ، وظهرت عليها كل عوامل الفساد ، ولكن مع ما لحق القاهرة من تشويه كبير فى أيام العثمانيين رأينا بعض المساجد قد أقيمت وبعض الأسبلة والحمامات والمدارس شيدت ، أقامها بعض الولاة ومشايخ البلد وأعيان المماليك .

وفى سنة (٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م) عهدت ولاية مصر إلى داود باشا فبقى عليها إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر ، وقد تمتع الأهليون فى مدة حكمه بالعدل والطمأنينة ، وعند وفاته (٩٥٦ هـ) تولى منصبه على باشا الذى قام بترميم عدة مبان عامة فى القاهرة واستنسخ كل ما ظفر به من المخطوطات فجمع مكتبة عظيمة وجاء بعده آخر حكم عليه بالقتل (٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م) .

كان الوالى ينجىء بعد الآخر حتى أمر السلطان سليم الثانى بنقل سنان باشا والى حلب إلى مصر ، فاهتم بتأييد النظام والحفاظ على العمران ، وبنى فى بولاق شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال معروفاً باسمه لليوم .

ولمات خلفه حسين باشا الذى لم يحكم أكثر من سنة وتسعة أشهر، وتبعه مسيح باشا فوجه اهتمامه إلى إبطال السرقات ، وبلغ عدد قتلاه من اللصوص عشرة آلاف ، ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحي القرافة عرف باسمه، وقد خرب الآن ، وتولى بعده واليان خاملان .

تولى عويس باشا حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م ، وأراد تدريب الجنود فقصوه وهجموا عليه فى الديوان وأهانوه ونهبوا بيته ، وفى جملة ما نهبوه ساعة كبيرة تعرف منها الأيام ، وقاموا بثورة فى جميع أنحاء القطر، وأخيراً استقال من ولاية مصر (٩٩٩ هـ - ١٥٩١ م) وخلفه خادم حافظ أحمد باشا الذى شيد فى بولاق وكالين وعدة قيساريات وبيوت خصص ريعها لعمل الخير ، وتبعه الكردي باشا وكان مجيداً لمساعدته للفقراء ورعايته للأدباء ، وخلفه السيد محمد باشا ، ومن أهم أعماله أنه أعاد بناء الجامع الأزهر ورسم المشهد الحسينى . وفى أيامه قامت ثورة عسكرية فشل فى إخضاعها وانتهت باستبداله بمخضر باشا فى عام (١٠٠٦ هـ - ١٥٩٨ م) وولى مكانه على باشا السلحدار وكان يكرم الجند ، سفاكاً للدماء لم يكن يخرج فى موكبه إلى المدينة أو ضواحيها حتى يقتل عشرة أشخاص على الأقل تحت حوافر جياده . وفى أيامه حدثت مجاعة وعم الحراب فترك القاهرة فراراً من العاقبة واستخلف على الحكومة « يبرى بك » وبوفاته انتخب السناجق الأمير « عثمان بك » ليقوم مقامه حتى عين الباب العالى إبراهيم باشا فثار عليه الجند ، وقتلوه وحملوا رأسه مع أحد أعوانه ، وطافوا بهما شوارع المدينة إلى أن علقوها على باب زويله . ثم أرسلت الأستانة محمد باشا الكورجى فاستطاع ييقظته معاقبة الثائرين، وقتل منهم نحو مائتى رجل .

القاهرة فى أوائل القرن السابع عشر

وفى سنة ١٠٢٣ هـ - ١٦١٣ م أرسل السلطان عشرة آلاف جندي إلى اليمن إجابة لطلب حاكمها لإخماد ثورة شبت هناك . أرسل هؤلاء الجنود عن طريق مصر، وكان قد أصدر أمراً إلى والى بامدادهم بالمؤونة وبوسائل النقل فى داخل البلاد وإيفاد الحملة إلى اليمن . فلما أرسل محمد باشا الملقب بالصوفى لضباطهم ليدفعوا أثمان ما اشتروه ، ادعوا أنهم جاءوا ليقعوا فى مصر ، وقد راقبت لهم المعيشة فيها ولم يذعنوا لأوامره بالسفر واحتلوا بالقوة الحى المجاور لباب النصر وباب الفتوح ، وطرردوا أصحاب البيوت منها إلى الشوارع وأقاموا المتاريس فى أبواب الحى وأقفلوا باب النصر وثبتوا المدافع فى برجه . فاضطر الباشا إلى الذهاب إليهم ومحاصرتهم بالقوة ، وكادت تذهب وسائله أدراج الرياح حتى تمكن أحد أمرائه وهو عابدين بك من الدخول إلى صهرج مياه فارغ لإحدى المدارس المجاورة المعروفة بالجانبلاطية وسلط على الثوار نيرانه وهم داخل استحکاماتهم ففوجئوا وسلموا ، ولكن ذهب كل محاولة لمعاينة رؤوس الثورة سدى، وتسلموا نقودهم وأمروا بمغادرة البلاد ، فسافروا .

بعد قليل عزل محمد باشا الصوفى فاعتزل فى قبة العادلية ولم يرجعها إلا بعد أن علم بوصول خلفه أحمد باشا الدقردار (١٠٢٤ هـ - ١٦٥١ م) الذى جاء إلى القاهرة ودخلها بموكب حافل ، وبينما هو فى موكبه

بالمدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بيت فأصيب لسكرته لم يؤذه فضبط الفاعل واعترف بذنبه وقتل في ذلك المكان .

وتبعه سلسلة من الولاة الأتراك من بينهم الوزير « فرغلي مصطفى » و « جعفر باشا » و « مصطفى باشا » فلم تدم ولايتهم أكثر من بضعة أشهر ، ثم يرم باشا ، فموسى باشا ، والوالى حسين الدالى ، وأيوب باشا وغيرهم ممن لم يكن لهم نفوذ ما ، وأخيراً آلت القوة إلى المماليك البسكوات الذين كانوا يعدون أنفسهم من أبناء البلاد وليسوا كبشوات الأتراك إذ أتوا مصر كان همهم اكتساب الثروة قبل أن يأتهم الأمر بالعزل .

وفي أيام الوالى مقصود باشا ١٠٥٢ هـ — ١٦٤٢ م ، قاست مصر وباء الطاعون ، فقد ظهر في بولاق في أوائل شعبان ١٠٥٢ هـ . وبعد ذلك امتد إلى القاهرة ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة ، وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر في الطريق الواحدة أحياناً ثلاثون أو أربعون جنازة ، وقد روى ابن أبى السرور وهو من مؤرخى ذلك العهد أن جملة من صلى عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة ألفان وتسعمائة وستون في خلال ثلاثة أشهر ، وصار الناس في آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتسكا ، وقيل أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خراباً لإصابة سكانها جميعاً بذلك الداء . وقدر المؤرخ شمس الدين عدد موتى الوباء من أصحاب الحوانيت وعمال الوكالات بالقاهرة بستمائة وثلاثين ألف نفس غير الذين ماتوا في أماكن أخرى ، وبالرغم من أن في هذا التقدير مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل دلالة واضحة على فتك الوباء بسكان القاهرة في تلك السنة .

الرحالة دى تيفنو

زار الكاتب الرحالة « جان دى تيفنو » القاهرة بين سنتي ١٦٥٦ و ١٦٥٨ م وذكر عنها في كتابه عن سياحاته في بلاد الشرق ما يسمح لنا بتكوين فكرة عما كانت عليه القاهرة في سنة ١٦٥٦ أى منذ نحو ثلثمائة سنة تقريباً .

أراد « دى تيفنو » أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حملاً ودار حول المدينة والقلعة فقطع تلك المسافة في ساعتين وربع ساعة ، وفضلاً عن ذلك فإنه سار من أول الخليج إلى آخره مشياً على القدمين ليعرف امتداد المدينة فقال أن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة ، وجعل كل خطوة قدمين ونصف قدم ، وأنه رأى حول المدينة بعض أماكن غير مأهولة وبركاً متعددة تحيط بها منازل كبيرة .

ومعظم الذين قالوا أن القاهرة أكبر من باريس (ومنهم أحد الرحالة الألمان الذى قال أن القاهرة

تبلغ أربعة أضعاف باريس) ضموا إليها مصر القديمة وبولاق ، وقال «دى تيفنو» فى ذلك الصدد أنه إذا جاز ذلك فيجب أن تضم إلى باريس القرى المجاورة لها لأن مصر القديمة كانت منفصلة عن القاهرة الجديدة وكان حى بولاق ضاحية ذات حقول خضراء .

وأشار « دى تيفنو » إلى حى القاهرة بالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق أسماه (الأزبكية) وذكر أن المساء كان يظل فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل سنة وبعد ذلك تزرع أرضه ، وكانت حوله قصور جميلة للبكوات وللكبراء البلاد يقيمون فيها من وقت إلى آخر بضعة أيام طلباً للراحة وإن كان «دى تيفنو» لم يذهب إلى أن القاهرة كانت أكبر من « باريس » فى ذلك الوقت ، فقد قال أن الأولى كانت تفوق الأخيرة فى عدد السكان ، وقال أيضاً أن الشوارع كانت مزدحمة فى كل وقت بالناس وكانت منازل الفقراء عامرة بالنساء والأطفال ، وأنه عند ماجرف الطاعون مائتى ألف نسمة من سكانها لم يكده أحد يقرر أن عدد السكان قد نقص .

وكتب كثير من الرحالة أنه لم يكن للقاهرة سور ، ولكن «دى تيفنو» قال انها كانت محاطة بجدران جميلة جداً وكثيفة ومشيدة بمجارة ورأى هذه الحجارة بيضاء ناصعة الجمال كأنها بنيت من عهد قريب . وكان فى تلك الجدران فتحات مزخرفة وأبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من مائة خطوة ، ويمكن أن يحتشد فيها كثير من الرجال ، كانت الجدران عالية جداً لكن بعضها كان مطعوراً بين الأنقاض وكانت الطرقات قصيرة وضيقة وإذا استثنى شارع البازار (بالقرب من خان الخليلي) والخليج الكبير الذى كان يحف ثلاثة أشهر كل سنة فلا يكاد يوجد شارع كبير فى القاهرة ، إذ لم يكن فيها سوى أزقة وعطفات . وكانت المنازل تبني بدون أن يراعى فى بنائها تخطيط المدينة . فلم تكن هناك لألحمة للتنظيم مثلاً ، وكان كل إنسان ، يبني بيته حيث رغب وكما شاء ذوق مهندسه دون أن يكثر بخط الشارع أو استقامته ، ويظهر أن « دى تيفنو » حاول إحصاء عدد أحياء القاهرة فلم يستطع ولم يذكر سوى أن كل حى احتوى على عدة شوارع ويحرسه رجلان ربط كل منهما إلى الآخر بسلسلة لسكى لا يسير كل منهما فى جهة ، وكان الرجال الذين عهدت إليهم هذه المهمة يقدمون عليها عن طيب خاطر لأنهم كانوا يقبضون أجرة حسنة . وكانت السلاسل تقفل بأقفال تحفظ مفاتيحها عند وكيل رئيس الحى ، فيفتحها أو يغلها بواسطة أحد أتباعه ، وكان بالقاهرة عدد كبير من الجوامع العظيمة الفخمة البناء ذات الأفنية والأبواب الجميلة والتي تعلوها المآذن العالية المشوقة القد . وكانت المنازل بالقاهرة مؤلفة من عدة أدوار ولها أسطح مسطحة ، كان منظرها من الخارج قبيحاً ولكن داخلها كان مزيناً أجمل زينة بالألوان الذهبية والزرقة لا سيما بيوت البكوات والكبراء ، إذ كانت دورهم تحتوي على مخادع بدعة وقاعات كبيرة مرصوفة بالرخام ومزخرفة بالذهب ، فيها الحدائق التي تتدفق فيها المياه وتندفع نوافيرها إلى علو شاهق ، وكانت جميع الأقفال والمفاتيح من الخشب حتى أقفال أبواب المدينة ومفاتيحها فيسهل فتحها بدون المفاتيح . وكان من أجمل شوارع القاهرة شارع البازار الذى كان يقام فيه سوق كل أيام الاثنين والخميس ، وفى نهاية ذلك الشارع كانت شارع قصير عريض اسمه خان الخليلي وهو يحوى على جانبيه مخازن للبضائع الحربية ، ويتصل به خان كبير يحتوي

على فناء واسع كان يباع فيه الأرقاء البيض رجالاً ونساء . أما الرقيق الأسود من الجنسين فكان يباع في خان آخر على مقربة منه . وعلى مسافة غير بعيدة بعد خان الخليلي كان المستشفى أو المارستان وجامع متصل به من أكبر جوامع القاهرة ، وفي هذه النواحي أيضاً كانت مصانع السجاد وكان يشتغل فيها عدد عظيم من الناس بينهم كثيرون من الأولاد وكانوا يصنمون السجاجيد الجميلة التي ترسل إلى الآستانة وأوروبا . وكانت مصر القديمة الواقعة على بعد نحو كيلومترين من القاهرة على شاطئ النيل في حالة خراب ، على أنه كان لا يزال باقياً فيها كثير من الأبنية الجميلة من أهمها كنيسة أبو سرجة ودير مارجرس . وكان في مصر القديمة مجرى المياه الذي كان ينقل فيه الماء من النيل إلى القلعة . وفي أعلاه ثمانى سواق تديرها الجواميس ، ترفع الماء وتصبه في حوض كبير يجرى منه إلى القلعة .

قلعة الق — اهرة

وكانت القلعة أشهر مكان في القاهرة تشرف عليها ، ولها مركز هام يعزز نفوذ حكام مصر ، وقد نهلم في ذلك العهد أكبر قسم من مبانيها لكن بقيت فيها بعض الأبنية الصغيرة الجميلة احتوت على ردهات رحبة . وكانت قاعة يوسف بأعمدها الثلاثين من حجارة طيبة قد أصيبت بأضرار جسيمة ولكن نقوش جدرانها الذهبية كانت باقية . وبقرتها قاعة يوسف التي كانت مصابة بأضرار أكثر من سابقتها ، فلم يكن باقياً منها سوى إثني عشر عموداً وكانت في القلعة أيضاً قاعة كبيرة جيدة البناء يعمل فيها ستار الكعبة ويرسل سنوياً لمسكة باحتفال عظيم . وكانت القلعة تحت إمرة أغا الإنكشارية الذي يقيم فيها ، وإلى جانب القلعة قصر الباشا يفصل بينهما جدار ، وكان قصراً جميلاً جداً يشرف على منظر جميل من مناظر القاهرة وأرباضها ، وكان أجمل مافي القصر الديوان الكبير وقد علفت على جدرانه عشرة تروس من الخشب منقوبة بطعناات رماح . قيل أن السلطان مراد وكان قوياً يحسن الرماية أصابها برمح دفعة واحدة ثم أرسلها مع الرمح إلى مصر ليظهر للصريين قوته . وقد أثار منظر القلعة دهشة « دى تيفو » وقال في كتابه : أنه لم يرقط في العالم كله أجمل وأضخم من أبنيتها وأمنع منها .

وتاريخ التلعة في عصر العثمانيين مملوء بالحوادث الجسام ، وقد ذكر العلامة « كازافوفا » كثيراً من أحوالها في عهد الباشوات منذ استولى السلطان سليم على مصر ، وقال ابن إيّاس :

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الجنود في الحوش إلى باب القلعة عند الأبواب الكبيرة وباب الجامع الذي بالقلعة وقد صار زبل الخيل هناك كالسكان ، وخرب أكثر الأماكُن التي بها وفك رخامها ونزل به في المراكب وتوجهوا به إلى استنبول .

وذكر المؤرخ للمصرى « الجبرتي » وأيده القنصل الفرنسى « دى ماويه » أن اسماعيل باشا الترى (١١١١ — ١١١٦ هـ) قام بإصلاحات كثيرة في مباني القلعة لاسيما في زاويتيها الجنوبية الغربية حيث

سكن الباشوات . ومن مآثره أيضاً أنه عمر الأربعين الذى بجوار باب قرّة ميدان وأنشأ فيه جامعاً ، وأنشأ فيما بينها وبين بستان الغورى حماماً فسيحاً بالرخام الملون ، وجسّد البستان المذكور وغرس فيه الأشجار، ورسم قاعة الغورى التى بالبستان وبني صهرجاً بداخل القلعة .

وكان من عجائب القاهرة حوض العشاق ، وهو يضاوى الشكل مصنوع من قطعة واحدة من الرخام الأسود طول ستة أقدام وعلاه ثلاثة أقدام وعلى ظاهره كتابة دقيقة بالهيروغليفيه، ويقص بعض الأهالى قصصاً عديدة عن هذا الحوض ويعتقدون فيه اعتقادات خرافية كثيرة، وهناك تفاصيل كثيرة ذكرها «دى تيفنو» يمكن جمعها وسردها لرسم صورة واضحة جلية لما كانت عليه القاهرة البكوات منذ ثلاثمائة عام . وهذه الصورة تختلف اختلافاً عظيماً عن صورة القاهرة اليوم لاسيما فى القسم الواقع بين الخليج (شارع بورسعيد) والقلعة وباب الفتوح ، فعند ما نحترق القاهرة من باب زويلة إلى الشمال سائرين فى شارع السكرية فالخردجية حتى جامع الحاكم ونرجع من باب النصر من طريق الجمالية فى الأزهر، نجد أنفسنا بين آثار العصور الماضية ذات الروعة والجمال والفن ولا سيما تلك الأبواب التى مرت بها الأجيال جيلاً بعد جيل فهى الآن تحدثنا عما شاهدته من عظمة ماضية ومجد غابر .

فانسلب والقنصل ديماييه

جاء بعد الرحالة « دى تيفنو » فى عهد الباشا التركى إبراهيم رحالة آخر اسمه « فانسلب » (Vausleb) زار مصر عام ١٦٧٢ م وكان يقيم فى مصر المسيو دى ماييه قنصل فرنسا فى القاهرة ، وكان عمره يقرب من الثلاثين عاماً حين جاء إلى مصر يمثل الملك لويس حيث قضى فى مهمته ستة عشر عاماً وكان مغرمًا بالمداديات الشرقية والأبحاث المصرية وتعلم اللغة العربية وألف كتابه القيم فى وصف مصر عام ١٧٣٥ .

وفى أثناء وجوده بمصر هبت فى القاهرة عاصفة شديدة ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤ م فظن الناس أن الساعة قد أوشكت وأن يوم القيامة قد دنا واظلم الجو من التراب الكثيف وكان الناس فى صلاة الجمعة فى رمضان وسقطت المركب التى على منارة جامع ابن طولون وأصيب جزء منه بأصداع وهدمت دور كثيرة .

وفى العام الأخير من القرن السابع عشر توفى المؤرخ شمس الدين من مشاهير علماء مصر الأقباط ، وقد كتب عدة مؤلفات علاوة على ما كتبه فى تاريخ مصر مما يعتبر مرجعاً لحوادث ذلك العصر ، ونحن نقطف هنا شيئاً مما كتبه دى ماييه القنصل الفرنسى عن القاهرة فنذكر أن الذى كان يشغل منصب الوالى حينئذ هو اسماعيل باشا بينما كان نفوذ شيخ البلد (حاكم القاهرة) يتزايد يوماً بعد يوم . وكانت هناك أسرتان تتنازعا السلطة هما الفقارية والقاسمية . وقد كتب « دى ماييه » فى كتابه بحوثاً طويلة عن الكنيسة المصرية وعلاقتها مع الحبشة ، وذكر أن عدد سكان القاهرة بلغ إذ ذاك نصف مليون نفس ، لكن الطاعون والحجاعة أنقصتا منه عدداً كبيراً .

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٢ إلى ١١١٩ هـ إثنان وعشرون والياً . وفى سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م فى أيام السلطان أحمد ، تولى أمور مصر حسن باشا وكانت مشيخة البلد فى يد قاسم عيواظ بك، وبوفاته تولى مشيخة البلد من بعده ابنه اسماعيل بك فظل فيها ست عشرة سنة تقلب فى أثناءها على مصر عدة باشوات كانوا لا حول لهم أو شأن، وانتهى أمره بأن قتل بيد أحد مماليك « ذى الفقار بك » فكانت نهاية مشيخته عام ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م .

ومن الحوادث التى ذكرها القنصل الفرنسى وأيدها المؤرخ الجبترى ما حدث فى الأزهر عام (١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م) بعد وفاة شيخه الشيخ محمد الشرقى، فقد وقعت بعد موته فتنة بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالأقباقوية ، وانقسم الأزهريون قسمين: فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى ، وأخرى تريد الشيخ عبد الباقي القلبنى، ولم يكن حاضراً بمصر، فتصدر الشيخ أحمد النفراوى للتدريس بالأقباقوية فمنعه طلبتها ، وحضر القلبنى فتعصب له جماعة الشرقى . وحضر جماعة النفراوى إلى الجامع ليلاً ومعهم البنادق وصوبوها على المسجد وأخرجوا جماعة القلبنى وكسروا باب الأقباقوية وأجلسوا النفراوى مكان الشرقى ، فهجمت جماعة القلبنى على الجامع وقفلوا أبوابه، ولضاربوا مع جماعة النفراوى ، فقتلوا منهم نحو عشرة أشخاص ونهبت خزائنه وتحطمت القناديل . وأخيراً حضر الوالى فأخرج القتلى وفرق الطلبة ولم يبق بالجامع أحد . وفى اليوم التالى صعد النفراوى إلى ديوان القلعة ومعه كشف بأسماء القتلى، فلم يلتفت الباشا إلى دعواه وأمره بلزوم بيته، وأمر بنفى الشيخ أحمد شهن من الزعماء إلى بلده واستقر القلبنى فى المشيخة .

قصة واعظ

وذكر الجبترى بين حوادث عام (١١٢٣ هـ / ١٧١١ م) أن رجلاً رومياً واعظاً جلس يعظ الناس بجامع المؤيد وازدحم عليه المسجد وأكثرتهم من الأتراك ثم انتقل من موضعه إلى مايفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل عليها وشنع على ذلك وذكر أنه لا يجوز بناء القباب على الأضرحة والتكايا ويجب هدمها ، فلما سمع رجاله بذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبايت والأسلحة فهرب الذين وقفوا بالباب قائلين : « أين الأولياء » وذهب بعض الناس إلى علماء الأزهر وأخبروهم بما حدث فأفتى الشيخ النفراوى والشيخ أحمد الحلينى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وأن على الحاكم زجره عن ذلك وأخذ بعضهم تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه . فلما قرأها غضب، وقال : « أيها الناس إن علماء بلدكم أفتوا بغير ما ذكرت لكم وأود أن أباختهم فى مجلس قاضى العسكر، فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ؟ فقالوا له : « نحن معك لا نفارقك » فنزل عن الكرسي ، واجتمع به نحو ألف نفس ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى قرب العصر فانزعج القاضى وسألهم عن مرادهم، فقدموا له الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم. فقال القاضى : « اصرفوا هذا الجمع ونسمع دعواكم » فقالوا ما تقول فى هذه الفتوى ؟ قال : « هى باطلة » . فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة

ببطلانها . فقال إن الوقت قد ضاق والشهود قد ذهبوا إلى منازلهم . وخرج المترجم وقال لهم ذلك ف ضربوه واخفى القاضي بحريه .

وفي وقت الظهيرة اجتمع الناس بالمؤيد لسماع الواعظ على عادتهم ، فلم يحضر لهم الواعظ ، فسألوا عن المانع لحضوره فقال بعضهم : أظن أن القاضي قد منعه من الوعظ فقال رجل منهم : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معي . فتبعه ألجم الغفير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضي . فلما رآهم القاضي ومن في المحكمة طارت عقولهم من الخوف وفر الشهود ولم يبق إلا القاضي فدخلوا عليه . وقالوا له أين شيخنا « فقال لا أدري » فقالوا له : « قم فاركب معنا إلى الديوان (القلعة) لنكلم الباشا في هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين قضوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم ، فإن ثبتت دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم » . فركب القاضي معهم مكرهاً ، وتبعوه من خلفه وأمامه إلى أن طلعا إلى الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره في غير وقته فقال : « أنظر إلى هؤلاء الذين ملأوا الديوان والحوش فهم الذين أتوا بي » وعرفه عن قصتهم وما وقع منهم بالأمس . وأنهم ضربوا المترجم وأتوا اليوم وأركبوه قهراً . فأرسل الباشا إلى كتبخانة الانكشارية وكتبخانة العزب وقال لهما . « اسألا هؤلاء عن مرادهم » .

فسألوههم ، فقالوا : « نريد إحضار النفراوى والخليفي ليجبسا مع شيخنا » فأعطاهم الباشا مهلة ، ونزلوا إلى جامع المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه على الكرسي ، فصار يعظهم ويمرضهم على اجتماعهم في الغد بالمؤيد ليذهبوا جميعاً إلى القاضي وحضهم على الانتصار للدين واقتروا على ذلك .

ثم جمع الوالى الأمراء السناجق والأغاوات قواد الأورط في بيت الدقردار وأجمعوا على أن ينفوا الواعظ من القاهرة .

لم يظهر الواعظ بعد ذلك اليوم ، وقيل أنه قتل . فنامت الفتنة ، وفي ذلك قال الشيخ حسن الحجازى :

مصر قد حل بها واعظ عن منهج صدق قد عرض

فأساء الظن بمسادات أحكام الدين بهم تنهض

القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار

(١٧١٩ — ١٧٣٠)

استطاع الأمير شركس محمد بدهائه أن يتفق مع الوالى راغب باشا بعد قتله الأمير اسماعيل ، وتولى حكم البلاد وشيد قصرآ جميلاً وقلد رجاله أهم مناصب الحكم في مصر ، وقد قاست القاهرة في أيامه كثيراً من حوادث مماليكه واعتداءاتهم وسرفاتهم ، فقد اعتدوا على الحمامات العامة في أثناء الأوقات المخصصة للسيدات

والأطفال، واختطفوا ملابسهم وأظهروهن عرايا على قارعة الطريق ، ولم تنته تلك الحوادث حتى عزل
الوالى فاتح مع أحد البكوات واسمه ذو الفقار ، وألف الاثنان حزباً لم يلبث طويلاً حتى فشلت أغراضه .

جاء بمسده الوالى الجديد ، فجمع حوله فريقاً من أعداء شركس وسلحهم بالبنادق والمدافع وحاصروا
قصره ، وكان يحتجى معه داخله لفيف من رجال حزبه المخلصين ، فتبادل الفريقان النيران مدة طويلة ، وفي نهاية
الأمر تمكن الأمير شركس من الهرب تاركاً وراءه قصره وما احتواه من الرياش الفخمة والأثاث الثمين
لأيدي الناهبين الناقين عليه الذين قبضوا على أعوانه ونكلوا بهم تنكيلاً .

لم يرض عام على هذه المأساة الحزينة حتى ظهر الأمير شركس ثانية ، فكان الحوادث لم تنته بعد وبطله
لا يزال يمثل دوره وإن كان قد اختفى قليلاً خلف الستار ؛ وكان بعد هزيمته عام ١٧٢٦ قد ولّى وجهه شطر
طرابلس الغرب فاستقبله واليها بإجلال واحترام . وسهل له جمع أربعمائة مغربي من المرتزقة قام بهم في
أوائل عام ١٧٢٨ قاصداً الصعيد حيث ألف جيشاً منهم ومن بعض الناقين على ذى الفقار من أعدائه
السابقين ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية بين الفريقين . وكان ذو الفقار قد جمع ثلاثة آلاف من أشياعه
القاهريين ووضعهم تحت قيادة عثمان بك ، فانتصر عليهم الأمير شركس ، وقتل قائد القوة ، ولكنه لم يستطع
دخول القاهرة بالرغم من هذا النجاح .

في ذلك الحين قام في القاهرة منافسان من البكوات ، كلاهما يريد اغتصاب القاهرة من الآخر ، فاتهمز
شركس هذه الفرصة واشترك في الميدان ، ولم يطل الأمر حتى استولى ذو الفقار على المدينة وهلك المنافسان .
وفي إحدى الليالي كان اثنان من بكوات الممالك هما يوسف بك وسليمان أبو دقية على رأس ثلاثين من
الشجعان ينجحون في المرور بين بوابات قصر ذى الفقار ويذبحونه . وكان هذا قد أمر قبيل مؤامرة هذين
البكواتين بتجريد قوة بقيادة على بك ، ومع حيلة شركس لتلك المفاجأة ، فقد هجمت على رجاله وأقنهم .
وحاول شركس أن يعبر النيل فأصيب بجواده برصاصة ، ولم يستطع أن ينجو بنفسه . وعقب المعركة كان ينتقل
فلاحان بين جثث القتلى لاختلاس ما تقع عليه أيديهما من الغنائم فوق نظرها عليه لما حاولا انتزاع زرده .
وفي ذلك الحين لمح أحد الممالك ، فعرفه في الحال من خاتم أصبعه فقدموه للقائد على بك ، فأمر بضرب عنقه
ولحده باحترام وأخذ رأسه وقدمها للوالى ليعيها إلى الخليفة . ودخل على بك مدينة القاهرة ظافراً وفي
ركبه الممالك والحشم والأتباع وأمامهم الموسيقيون يعزفون بطبولهم وزمورهم ويدقون الصاجات النحاسية .

مشيخة عثمان بك

ابتدأت بعد ذلك مشيخة عثمان بك ، فاشتهر بعدله وحزمه وحسن تدبيره ، وكان يلزمه في مجالسه العالم
الفاضل حسن الجبerty والد المؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبerty ، وفي أيامه هدأت القاهرة قليلاً . ومع ذلك
لم يستطع النجاة من مكائد ذوى الطامع ، وفي مقدمتهم الأميران إبراهيم كتنخدا الانكشارية ، ورضوان كتنخدا

العزب وأولهما من طائفة القرغلية ، وثانيهما من طائفة الجلفية ، وقد تزوج إبراهيم من ابنة محمد البارودي أحد تجار القاهرة الأغنياء فاستفاد من مالها الكثير وارتفع شأنه حتى ارتقى إلى رتبة البكوية لتقربه من بيت شيخ البلد . وتشاء الصدفة أن يرتقى صديقه رضوان في ذلك الوقت ، فيعرف اسم رضوان بك ، فأتحد الإثنين قلباً وقالباً وتوليا أمور القاهرة فيما بينها .

فلما رأى عثمان بك عو مكانة هذين المنافسين الجديدين ، ضم إليه ثلاثة أحزاب حزب إبراهيم بك قطامش وحزب علي بك الدمياطى وحزب علي بك الطويل ، وشاورهم في الأمر فأقروا قتلها ، ولكن لم يطل أمر تحالف عثمان معهم ، فقد أبعد عن مصر بحيلة وكيله فوصل سوريا ومنها إلى الاستانة . واستمر إبراهيم بك قطامش إلى النهاية مع خمسة بكوات من حزبه فتحصنوا في قصره للمقاومة . فلما علم بذلك الوالى اتصل بالأميرين إبراهيم ورضوان ، فأخذ كل منهما وجاقه وقصدا قصر قطامش وصبوا نيران بنادقهما نحو القصر فقاومتها قوة قطامش عدة ساعات ، واستمرت النيران متبادلة بين الفريقين حتى أقبأ الليل واستطاعت جماعة قطامش أن تنجو بنفسها فولت الأدبار قاصدة الوجه القبلى .

القاهرة بين الأميرين إبراهيم ورضوان

ومع ذلك لم يصف الجبأ أمام إبراهيم ورضوان فكان في انتظارها كثير من الحوادث الجسام ، وسترى القاهرة وقد تحولت إلى مسرح تئل عليه المأسى . فلقد صمم الزعيان على إبادة فئة البكوات الباقية واتفقا على ذلك مع الوالى « كيور أحمد » ، واستعانوا بالمؤامرة وبالمسال . فقتلوا على بك الدمياطى بيد وكيله سليمان ، ثم أمر الأميران إبراهيم ورضوان بقفل جميع منافذ القلعة ، وجعلوا الحرس على بابى الانكشارية والعزب من جنودها المخلصين . وابتدأت المذبحة الرهيبة فكانت الجثث تلقى من النوافذ والدرج وسالت الدماء في جميع نواحي القاهرة .

وكانت مؤامرة ناجحة ، تخلصت القاهرة في أثرها من مكائد الأحزاب وأنانية رجالها ، وأصبحت تحت رحمة اثنين من الأمراء الأقوياء . وسرى ماتم في القاهرة من أعمالها .

كان لكل من هذين الأميرين وجهة يتجه إليها في سياسته ، فكان إبراهيم صاحب السلطان وقائد الجيوش ومدير السياسة ، على حين كان رضوان مؤلف القلوب وقبلة القصاد ، وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين ققضا في سياستها سبع سنين ونيفا .

هناك على ضفة الخليج المصرى اشترى رضوان داراً كانت بيت التاجر الغنى الشرايى ، وهى التى كان بها العمودان اللتلفان المعروفة « بثلاثة ولية » ، وكانت واقعة على بركة الأزبكية . وموضعها اليوم ما يلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا . وكانت تلك البركة إذ ذاك منزهة من متزهات القاهرة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . فلما اشترىها الأمير رضوان بالغ في زخرفتها ، وعتمد على قاعانها العالية قبايا عجيبة الصنعة

منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الأنوار تسطع في هذه القباب أثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبصار ، وكان للأمير فوق ذلك في الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظره بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصري ، ومن الجنوب على بركة الأربكية ، ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء في الخليج القاهري مما يلي قنطرة الدكة ، وأنشأ في صدر البركة مجلساً خارجاً ، بمضه على عدة قناطر لطيفة ، وبمضه داخل الغيط المعروف بغيط المهدي . وبوسطه بحيرة عملاً بالماء من أعلى وينصب منها إلى الحوض من أسفل ، ويجري إلى البستان لسقي الأشجار ، وبني قصرًا آخر بداخل البستان مطلاً على الخليج فكان يتنقل في تلك القصور التي نسقها أبدع تنسيق .

وقصارى القول أن قصور رضوان كانت تتألق دائماً بالأنوار الساطعة ويحلق عليها الفن المصري آيات الروعة والإبداع ، ويجتمع في أهبائها رجالات ذلك العصر من الأدباء والعلماء ، فلا غرو أن تفنن الشعراء في مدح رضوان وفي العمل على الاتصال به ، من هؤلاء عبد الله بن سلامة المعروف بالادكاوى نسبة إلى بلدته التي ولد فيها « ادكو » ومصطفى اللقيمي والسيد السديدي وقاسم التونسى وغيرهم . فقد مدحه هؤلاء جميعاً وأنشأوا فيه المقامات والتوشيعات ، ورأينا الادكاوى يجمع كل ما قاله الشعراء في هذا الأمير ويتخذ منه مجموعة يسميها « الفوائج الجنانية في المدائح الرضوانية » ولا يكاد يوجد شاعر في ذلك العصر لم يتصل بالأمير رضوان . إلا أن الأمير قد أضله ما هو فيه من نعمة ، فترك أمر البلاد واتبع طريق الشهوات وجاهر بالمعاصي ، وقد ذكر الجبرتي أنه أصدر أوامره لرجال الأمن بعدم التعرض لأهل الجون فصارت القاهرة ميادين للغزلان ونعما للمشاق .

ظل الأميران يقبضان على دفة الحكم في البلاد حتى أنعم الأمير إبراهيم برتبة البكوية على أحد رجاله فشق ذلك على إبراهيم بك الشر كسى ، وعت بينها الضغائن حتى قتله بيده فأصبح الأمير رضوان شيخ البلد وحده ، إلى أن ظهر شأن عبد الرحمن كتنخدا الانكشارية فأخذ يعضد بماليك الأمير ويقر بهم على أمراء رضوان وتآمروا على اغتيال الأمير رضوان والقضاء على سلطته ، فنبه رضوان لذلك واستولى على القلعة وبعض أبواب أحياء القاهرة وجامع الحمودية وجامع السلطان حسن ، واجتمع إليه أغلب أمرائه وكادت تتم له الغلبة ، لولا أن سمى إليه الأمير عبدالرحمن كتنخدا وأعوانه لإجراء الصلح وطلع بهم إلى الأمير رضوان وخدعوه بكلامهم فحسنت نيته وسلم بنصحهم .

وبعد أن نزل إلى داره في « قوصون » اغتتم أعداؤه الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا واستولوا على القلعة وبعض الأبواب بينما كان رضوان آمناً في بيته فلم يشعر إلا وهم يطلقون عليه المدافع . وكان الحلاق يحلق له رأسه فسقطت الجلجل على داره ، فأمر بالاستعداد وطلب من يعتمد عليهم فلم يجد أحداً منهم يقف بجانبه ، فغارب فيهم إلى قرب الظهيرة حتى أصيب في ساقه برصاصة من مملوكه الصغير « صالح » الذي التجأ إلى خصومه . ولما أصيب رضوان طلب الخيل وخرج من قبة في جدار بستانه، وخرج قاصداً البساتين فلم يتبعه أحدونهم ، ثم التجأ إلى قرية الشيخ عثمان بالصعيد حيث مات بشرق أولاد يحيى ، ودفن فيها

وعمر رضوان بك باب القلعة بالرميلة وهو الباب المعروف بباب المزب وعمل حوله هاتين البديتين
العظيمين الباقيتين إلى اليوم بعد أن جددتا .

أسرة الشرايبي

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يتلصكون القصور الجميلة فى القاهرة ، فقد كان من بين قصور
الازبكية قصر الناجر الغنى الشيخ أحمد الشرايبي الذى استطاعت أسرته أن تنجب أمراء وأن يكون لها بمالك
وأن تشتهر بوفرة الغنى وسعة الثراء ، وقد عرف أفرادها كيف يستخدمون أموالهم فيما يفيد . فأمرهم أهل العلم
والأدب وامتلاّت خزائن كتبهم بالخطوط الثمينة النادرة وأشهر كتب المراجع . وكانوا يدفعون أى ثمن
لأى كتاب يعرض فى الأسواق إذا لم يكن موجوداً فى مكتبتهم فإذا ازدانت به جعلوه تحت تصرف كل
زائر يقصدهم . وكان الأديب إذا رغب فى كتاب قصدهم وهو لا يشك فى أن سيجده فى مكتبة الشيخ
الشرايبي ، فكانت له الحرية بين استثمارته أو امتلاكه إذا أراد من غير أن يسأله أحد إعادته إلى مكانه .
وكان أفراد هذه الأسرة الفاضلة من أشد التمسكين بمذهب المالكية ، ويتزوجون من بين أفراد أسرهم ،
وكانوا غاية فى التحفظ ، لا تخرج بناتهم من بيوتهم إلا عند زواجهن ، فقام لهن حينئذ حفلات حدث عن
عظمتها ولا حرج . . وقد ذكر الجبرتي فى تاريخه الشئ الكثير عن هذه الحفلات فقد كانوا على كثير
من الحذر لا يظهرون بناتهم أمام الناس . كانوا يفتخرون فرصة المدعوين فى جامع أزبك (الذى شيده
الأمير المشهور أزبك ططخ ومنه اتخذت الازبكية اسماً ، وقد هدم عام ١٨٦٩) للواجه لبيتهم فيأخذون
العروس ، ويسرعون بها إلى زوجها السعيد ، ويقصدون بيتها العامر الجديد تحت حراسة أعوانهم من المالك
والعيد ، ثم تطلق الصواريخ ويتقاذف الناس المشاعل بين التهليل والغناء .

الحياة العقلية

وعناية هذه الأسرة باقتناء كتب العلوم والدين والآداب المختلفة ، تلقى ضوءاً ساطعاً نسترشد به عن
حال التربية والتعليم فى تلك الأيام . فلقد أنشئت المكتبات العديدة فى القاهرة فى أيام المالك الأولى .
ويستطاع الإمام بمكرة تامة عن الحالة الذهنية خلال القرنين السابع والثامن عشر عند ما نقرأ «عجائب
الآثار فى التراجم والأخبار» للمؤرخ العلامة عيسى الرحمن الجبرتي . فقد ذكر الكثيرين من الشعراء
والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى عصره . وأورد فى تاريخه بالجزء الأول مناقشة حدث بين الوالى
أحمد باشا والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر فى عام ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م وكان الباشا من
أرباب الفضائل ميالاً للعلوم الرياضية ، فلما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله كبار العلماء فى ذلك الوقت ،
وهم : الشيخ سالم النبراوى ، والشيخ سايان المنصورى ، والشيخ عبد الله الشبراوى شكلم معهم وناقشهم ، ثم حدثهم
فى الرياضيات فأحجموا وقالوا : « لا نعرف هذه العلوم » .

فتعجب وسكت، وكانت للشيخ عبدالله الشبراوى وظيفة الخطابة بجامع سارية بالقاهرة يطلع إليه كل يوم جمعة ويدخل عند الباشا ويتحدث معه ساعة ، وربما تغذى معه ثم يخرج إلى المسجد ، وفي ذات يوم قال له الباشا :
وننقل ما جاء بتاريخ الجبترى من حديث هذا الباشا :

« عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعدي خير من أن تراه . فقال له الشيخ « هي يا مولانا كما سمعت موطن العلوم والمعارف » ، فقال وأين هي وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجدهم عندهم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد ، فقال له : نحن لسنا أعظم علمائها وإنما نحن المتصدرون لخدمة الناس وقضاء حوائجهم عند أبواب الدولة والحكام وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب ، فقال له : « وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة وغير ذلك ، فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرفة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم الفقراء وأخلاق مجتمعهم من القرى والآفاق فتندر فيهم القابلية لذلك . فقال وأين البعض ؟ فقال : موجودون في بيوتهم يسمى إليهم . ثم أخبره عن والد الشيخ الجبترى ، وعرفه عنه وأطنب في ذكره فقال : « ألتس منكم إرساله عنسدى »

فقال : « يا مولانا إنه عظيم القدر ليس هو تهت أمرى »

فقال : « وكيف الطريق إلى حضوره »

قال : « تكتبون له رسالة مع بعض خواصكم فلا يسعه الامتناع » ففعل ذلك وطلع إليه ولبي دعوته وسر برؤياه وواصله بالبر والإكرام ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : « لو لم أعظم من مصر الا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى » .

واتفق للوالى أنه لم يوفق فى حل مسألة من المسائل ، فاشتغل ذهنه وتحير فكره إلى أن حضر إليه الأستاذ فى اليعاد ، فأطلعه على ذلك وعن السبب فى عدم المطابقة ، فكشف له علة ذلك . فلما انجلى وجهها على مرآة عقله كاد يطير فرحاً وحلف أن يقبل يده ، ثم أحضر له فروة من ملبوسه السمور باعها (والد الجبترى) بثمائة دينار ، وكان يشتغل برسم الزاويل على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً بالأزميل ، وكان ينقش عليها آياتاً من الشعر المناسبة ومنها :

مزولة متقنسة نظيرها لا يوجد راسمها حاسبها

هذا الوزير الأمجد تاريخها اتقنها وزير مصر أحمد

ونصب واحدة بالجامع الأزهر في ركن الصحن على يسار الداخل، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعي وأخرى بمشهد السادات الوفائية .

ويمكن أن يستنتج مما ذكره الجبرتي أن دراسات العالوم لم تكن عميقة بل سطحية بعكس دراسة العلوم الدينية التي كانت أعمق ، والواقع أن ذلك كان في أغلب الأحيان ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية في مصر الإسلامية ، ومن عجائب حوادث ذلك العصر أن أشيع بين الناس بمصر أن القيامة ستقوم يوم الجمعة في السادس والعشرين من ذي الحجة (١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م) فودع الناس بعضهم بعضاً ، وكان يقول الإنسان لرفيقه بقي من عمرنا يومان ، وخرج الكثيرون من الناس إلى الحقول والمنتزهات قائلين لبعضهم البعض : « دعونا نودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة » . وطلع أهل الجزيرة نساء ورجالا للاغتسل في النيل . ومن الناس من علاه الحزن وداخله الهم والوهم ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويتهل ويصلي ، وكثرت فيهم المهرج والمرج إلى يوم الجمعة المحدد ليوم القيامة فلم يقع شيء . ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت ، وهم يقولون فلان العالم قال إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك ، وقبل الله شفاعتهم فيرد عليه الآخر : « اللهم انفعنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا . . » .

الرحالتان بوكوك ونوردن

وفي أثناء ولاية أمير أخور مصطفى أغا (١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م) زار مصر الرحالة الإنجليزي القس ريشارد بوكوك وكتب مؤلفه النفيس « رحلة للشرق وبلاد أخرى » في سفرين كبيرين . جاء هذا القس العالم عن طريق الاسكندرية ، وقصد رشيد لزيارة البطرك « كوسماس » ، وتعرف إلى كبار الساميين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من رهبان الفرنسيسكان ، وكانت بعثتهم الدينية تحت رعاية الانجليز ، وزار الرحالة مدينة المحلة الكبرى ، ثم قصد القاهرة . وقضى فيها أياماً لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها ، وزار الفيوم وعاد منها إلى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلي وآثاره .

وفي نفس العام (١٧٣٧ م) جاء مصر الرحالة « فردريك نوردن » من ضباط البحرية الدنماركية بأمر ملك الدنمارك وكتب عن رحلته كتابه « رحلة إلى مصر وبلاد النوبة » في ثلاثة أجزاء ، ويعد مؤلفه من أهم ما كتب في الرحلات وأدقها وأوفاه ، وله ما حقق مصوريه بعض اللوحات لمدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباي وقلعة أبو قير ورشيد والبحيرة ومصر القديمة ، وغير ذلك من بلاد مصر وأقاليمها الهامة .

وفي عام (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) شهدت القاهرة والياً جديداً هو « محمد الديقجي » ، وكان يريد القيام بعملية إصلاحية . فمنع التدخين وكان يرسل كبير ضباطه على رأس الجند لتصطف في طرقات القاهرة لتفتيش المارة والقبض على المدخنين أو الذين يحملون الدخان ، ولا تزال أشد العقاب بمن يضبطونه متلبساً بالجريمة ، لكن لم تطل مدة إقامة هذا الوالي واستدعى للأستانة . وجاء من بعده « راغب محمد » ، ثم الوالي

العالم أحمد باشا الوزير الكبير (١٧٤٨ م) الذى ذكره فى عدة مناسبات المؤرخ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي .

قاهرة على بك الكبير

(١٧٥٥ - ١٧٧٢ م)

قدر لقاهرة تلك الأيام أن ترى عجباً بعد عجب : فإذا كنت من أحياء ذلك العهد وأتبع لك أن تركب متن طائرة تحلق بك فى جو صعيد مصر ، إذن لرأيت فى أنحائه وميض نار يشتعل لهبها وفتناً قد تفاقم شرها . .

فحكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف ، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الإدارى يستمتعون بما حصلوا عليه من أموال وخيرات . وبين هؤلاء الحكام معارك لا يحمد لها لبيب . فإذا سار التاجر بأسطوله النيلى المحمل بخيرات الله من ناحية إلى أخرى وجب عليه دفع الأتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق والانهب عروضه ، وكان هؤلاء طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف ، احترفت السلب وأيقنت أساليبه وتقننت فيه وحصلت منه على الثروات الطائلة .

فى ذلك الجو الحانق ظهر على بك الكبير كبقية أمراء هذا العصر مملوكا وكان واحداً من بين ألفى مملوك للأمير إبراهيم لكن كتب له أن يكوى ذا شأن عظيم فى تاريخ مصر . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح برؤوس الأمراء . عاش مملوكاً جزءاً كبيراً من حياته ، امتاز بأساليب القسوة والقدرة ، وكان مملوكاً أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره . كان يحبه مولاه فجعله حامل سيفه وكان الحظ يحالفه ويطيعه . صحب سيده مع قافلته إلى بلاد النجى صلى الله عليه وسلم بعد أن رقاها كاشفاً فسار فى طليعة الركب ، وبينما كانت القافلة تسير التقت بها عصابة من قطاع الطرق ، فقاومهم على بقلب ثابت ودحرم فلما عاد الأمير إبراهيم إلى القاهرة عزم على مكافأة على رتبة « بك » لكن صغر سنه ودسياسة أحد رؤساء المالك حالاً دون ذلك . واستمر القدر يخدم علياً حتى تسلم مشيخة البلد فى القاهرة (١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م) وتعلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر ، وبدأ يتخلص تدريجياً من مزاحمة زعماء المالك المشاغبين وورق أتباعه المخلصين ، وكان أعزهم لديه واحد منهم اسمه محمد . قلده البكوية ثم لقب بأبى الذهب ، وسرى أنه لم يكن مثلاً حسناً لعرفان الجليل بل أن فضل سيده عليه لم يزد إلا كفراناً بنعمته !

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نثبت هنا ما حدث فى أيام مصر أثناء سيادة على بك الكبير ، لكننا لا يسعنا إلا التنويه بإعلانه استقلال البلاد عن الدولة العثمانية . فقد اتهم فرصة انشغال الدولة العثمانية بحربها مع الروس (١٧٦٨) وأعلن استقلاله وبدأ ينظم دولته الجديدة فى جميع مرافقها وعين على مالياتها مدير الجمر القديم المعلم « رزق القبطى » ونظم التجارة الخارجية والمواصلات ، واستمعت البلاد فى عهده بالأمن

وبشيء من الطمأنينة لم تستمتع بهما في عهد غيره ، وإنما في البلاد نوع من الشعور الوطني إذ رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية (١٧٦٩) ويجعل لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول .

وفي أيام علي بك الكبير مر بالقاهرة الرحالة الإنجليزي « جيمس بروس » في طريقه إلى « اثيوبيا » وقد تقابل مع المعلم رزق الذي كان من المتبحرين في علم الفلك ، فأفاد الرحالة من علمه كثيراً . ولما جاء إلى القاهرة أرسل الرحالة إلى المعلم رزق هدية ثمينة اعتراها بحمليه ، ولكنه أعادها إليه وبصحبته هدية منه وأعطى رسوله كتاباً دعا فيه الرحالة إلى زيارته في بيته بعد الاستراحة من عناء رحلته لكي يطلع على عدده وآلاته الفلكية . ثم نال اذناً من علي بك الكبير لكي يقوم برحلته وهو في أمان واطمئنان ، وقد أشار عليه المعلم رزق بأن يقضى أيامه في القاهرة ضيفاً في حى قلعة بابليون ، وأوصى البطريرك بأن تهيأ له بعض الغرف ، وبعد أيام استأنف الرحالة رحلته النيلية إلى الأقصر ، ومنها أخذ طريقه إلى القصير فأثيوبيا عن طريق البحر الأحمر ، ولما عاد بعد انتهاء رحلته لم يجد على بك إذ انتقل الحكم إلى مملوكه أبي الذهب .

أبو الذهب في القاهرة

إن قصة المعارك التي دارت بين علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب طويلة وليست في متناول هذا الكتاب ، ولكنها تدل على ما كانت عليه أخلاق أبي الذهب من نكران الجميل والمكر والدهاء . تبادل علي بك في إرسال التجريدات العسكرية للقضاء على منافسيه في الشام والحدود ، وأخيراً تحصن مع جيشه الباقي عند دير البساتين الذي استولى عليه من الأقباط وجعله حصناً حريباً وبني المعقل والحصون من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطئ النيل حتى سفع المقطم ، ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الحط الكبير الطويل بين تلك الاستحكامات القوية ، ومع كل تلك الاستعدادات الحربية فإن أبا الذهب جاء لمحاربتة وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خاضها وأغلبها وانضمت إلى جيوش أبي الذهب .

دخل أبو الذهب القاهرة دخول الفاتح المنتصر دون أن يضطر لعمل حربي لأن الأهالي وعدداً كبيراً من الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه ، ولكن مع سnoch تلك الفرصة لأبي الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فإن أول أعماله كانت سلب دير البساتين واضرام النار فيه .

ولا شك أن علي بك الكبير من بين شخصيات أواخر القرن الثامن عشر ، لكن اشتغاله بالسياسة والحروب التي استنزمتها محاولته للاستقلال بمصر لم يجعله قادراً على تخليد اسمه بما يتركه العظماء عادة بعد وفاتهم من الآثار ، ومع ذلك فإنه أمر بتجديد خشب قبة مسجداً لإمام الشافعي بالقاهرة ، وجدد نقوشها من الداخل بالذهب واللازورد وطلاها بالألوان الزاهية . وقد ضمن النقوش برقة القبة تاريخاً شعرياً منظوماً مكتوباً بالخط النسخ الجميل ، يبدأ بالبسملة وبعض الآيات الكريمة ، ثم عبارة تنص على مقام به من التجديد وتاريخ ذلك في عام ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م . وعلاوة على ذلك فقد هدم الميضاة التي كان قد شيدها عبد الرحمن كتنخدا ، وبني أخرى مستطيلة متمسكة حولها صنادير المياه ومقاعد الراحة المستديرة .

وشيد على بك قصرًا بالأزبكية داخل درب الشيخ عبد الحق السنباطى ، فى المكان الذى تشغله دار الأوبرا ، ولا يزال الشارع القريب منها يسمى باسم شارع سيدى عبد الحق السنباطى ، وكان القصر يطل على بركة الأزبكية ، الحق به حوش وساقية وطاحون وسكنته من بعده الست نفيسة متولדתه .

وأنشأ قيسارية كبيرة قرب شاطئ النيل ببولاق قريباً من وكالة الحطب تحت ريع الخرنوب ، وبني خاناً تعالوه مساكن بخارجه حوانيت وشونة غلال على شاطئ النيل ويتوسط الجميع مسجد . وكان ذلك فى عام ١٧٧١ ، وقد انتهى العمل فيها بعد وفاة على بك (١) .

ولما توفى على بك ١١٨٧ هـ ١٧٧٣ م عقب هزيمته ، دفن بالقرافة الصغرى قرب الإمام الشافعى ، وتوجد مقبرته الرخامية إلى اليوم وحولها بعض النقوش والكتابات بخط واضح ، والمعروف أن أبا الذهب هو الذى أمر بعمل المقبرة .

* * *

دخل أبو الذهب القاهرة منتصراً ولكنه لم ينعم طويلاً بثمار نصره إذ توفى ودفن بجامعه الذى شيده أمام الأزهر وكان خاتمة الجوامع العظيمة التى أنشئت فى القاهرة فى عهد حكم الباشوات الأتراك .

ولقد تمتعت مصر فى أيام أبى الذهب بمهد من الرخاء والطمأنينة ، وترك له الباب العالى الأمور تجري كما يريد ، وفى أواخر عام (١١٨٧ هـ / ١٧٧٤ م) شرع أبو الذهب فى بناء مدرسته تجاه الجامع الأزهر وكان محلها رابع متخربة فاشتراها من أصحابها وهدمها وأمر ببنائها وهى على طراز جامع سنان ببولاق . ولما تم البناء فرشت بالحصر ومن فوقها البسط حتى فرجات الشبايك وقرر فيها التدريس على المذهب الحنفية والمالكية والشافعية ورتب للمشايج المرتبات المناسبة . وفى يوم افتتاح المسجد صلى الأمير الجمعة فى (شعبان ١١٨٨ هـ) . ولما انقضت الصلاة أحضرت الخلع والفراوى ، فألبس الشيخ الصعبدى والشيخ الراشدى الخطيب والمفتين الثلاثة فراوى سمور وباقي المدرسين فراوى بيضاء ووزع فى ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين الذهب والهدايا . ومن آثار عهده أيضاً سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب وجامع الهياثم وبيت الست حفيظة (سامى البارودى فيما بعد) بباب الخلق ووكالة أبى الذهب بالصناديق وسبيل محمد أبى الذهب بشارع التبليطة وسبيل الشيخ الطاهر بالخرديجية وقصر المسافرانة بقصر الشوق (١١٩٣ هـ / ١٧٧٩) .

عمائر عبد الرحمن كتخدا

كان الأمير عبد الرحمن بن حسن جاويز كتخدا مصر (محافظاً لها) في عام ١١٦١ هـ / ١٧٤٤ م ؛ وكان مغرمًا بالبناء فأنشأ وجدد كثيراً من المساجد والأسبلة والأضرحة . .

وليس من شك في أن عبد الرحمن كتخدا يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وتعميرها ، وكان صاحب نفوذ عظيم قبل أيام على بك الكبير . وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة لا بأس بها مدرسة ومسجداً ونافورة بالقرب من بركة الأزبكية . وفي يوم افتتاحها ملأ حوضاً كبيراً وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب ليسقي الأهالي ، وبني أيضاً مدرسة للعميان في الأزهر ومنشآت خيرية أخرى ...

أما ابنه عبد الرحمن فقد بزّه في هذا المضمار إذ جمع في أكثر مبانيه بين الجمال والفن ، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع في ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف بإسمه حتى اليوم . له ثلاث جهات وبالعور الأرضى منه الكتاب . وأنشأ عند باب الفتوح مسجداً وصهرنجاً وكتاباً . وأنشأ بالقرب من قرافة الأزبكية سقاية وحوضاً لسقي الدواب وكتاباً . وزاد في مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولاً وعرضاً اشتملت على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت وبني به محراباً جديداً وأقام له منبراً وأنشأ له باباً عظيماً جهة حارة كتامة وبني بأعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن . وبني المدرسة الطيرسية وجعلها مع مدرسة الاقباقية المقلبة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وعظمة . كما أنه بني للشهد الحسيني وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعاً وصهرنجاً وحوضاً وسقاية ومكتباً . وشيد جامعاً بجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً وميضأة وساقية ومنارة . وبني مشهد السيد زينب بقناطر السباع ، ومشهد السيدة سكينة بخط الخليفة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة والسيدة رقية ، وعمر المدرسة السيوفية وجدد المسارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة والقناطر والجسور التي شيدها خارج القاهرة .

ومن عمائر عبد الرحمن كتخدا دار سكنه بمحارة عابدين ، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان ، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقاشاني والذهب المعود وأنواع الأصباغ وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعدة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة بالرخام وأرضها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض . وبلغ عدد المساجد التي أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً ، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر .

عظم شأن عبد الرحمن حتى بدا أمر « على بك الكبير » يستفحل، فأُخرج منفيًا إلى الحجاز وذلك في أوائل ذي القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثني عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد أن استولى عليه المعى والمهرم فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ومات ودفن بالمدفن الذي أعده لنفسه بجوار باب الصعايدة بالأزهر عند باب القبلية وسار في جنازته العلماء والأساتذة والطلبة وجميع الذين استفادوا من خيراتهم .

سونيني وسافارى

بعد مرور عشر سنوات على مجيء الرحالة الإنجليزي « بروس » أوفدت الحكومة الفرنسية السيو سونيني فيما بين عامي (١٧٧٧ هـ و ١٧٨٠ م) للوقوف على الأحوال السياسية والعلمية التي احتاجتها حكومة الملك لويس السادس عشر لوضع خططها في الاستيلاء على مصر . تلك الخطة التي لم تتحقق إلا على يد نابليون حين غزا مصر سنة ١٧٩٨ على رأس حملته المشهورة . ولقد كان سونيني باحثاً وعالمًا وإنما كانت طبيعته لا تتفق مع مهمته التي جاء من أجلها إلى مصر . فكان يصدق كل ما يقال له وما يسمعه ممن اختلط بهم في أثناء رحلته ولو كان ما قيل ضد المصريين أنفسهم أو المماليك . ولقد قضى معظم سني رحلته في رشيد حيث قامت جالية كبيرة العدد من الأجانب . وذكر « سونيني » في كتابه الذي طبع على نفقة الحكومة الفرنسية بعنوان : « رحلة في مصر العليا والوجه البحري » إن شوارع القاهرة كانت أقذر شوارع رآها في جميع البلدان التي شاهدها ، وأنه إذا سار أحد المماليك أو رجال الدين أو الموظفين في الطريق تحتم على الأهليين السائرين سواء أ كانوا من الوطنيين أو الأوربيين أن يفسحوا له الطريق ويقفوا في أماكنهم ويضعوا أيديهم اليمنى على صدورهم تحية الاجلال والخضوع يظلوا وقوفاً حتى يغيب عن أبصارهم . وإذا قصر أحدهم في تأدية هذه التحية عوقب في الحال فيحاط بستة من القواصين ويوسعونه في الحال ضرباً مؤلماً ببعضهم الطويلة .

ويستطيع القارىء أن يلمح صورة للقاهرة وقد استعدت لاستقبال أحد الولاة الأتراك الذين وفدوا عليها للحكم باسم الخليفة من خلال ما كتبه « سافارى » وقد وصف حفلة استقبال شاهدها في المدة التي قضاها في مصر بين عامي (١٧٧٧ و ١٧٧٩ م) قال :

عند ما يصل الباشا الجديد إلى الاسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله فيرسل شيخ البلد (زعيم المماليك) وفداً من أكفأ البسكوات لاستقباله والحفاوة به فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة ، وفي خلال مقابلتهم يتحسسون ويستطلعون نيته وأسواره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ويتعرفون الأمور التي جاء بها من الأستانة ، فإذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد في القاهرة ، فيمقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ، ثم يرسل إلى الباب العالي بأن الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول إلى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين ويطلبون استدعاءه ، فلا يرفض الباسب العالي طلبهم . أما إذا آنس

الرسى من الباشا أن لائحة منه فإنهم يدعونهم إلى القاهرة ، فركبه الوفد سفينة ضخمة وينحدرون في معيته تحيط به السفن المزينة بالأعلام وفيها الطبول والزمور ، ويتقدم الباشا هذا الأسطول على ظهر سفينة تختال في سيرها تصحبهم السفن التي تلقاهم في النيل إلى أن يصلوا إلى بولاق ، وهناك ترسو السفن وينتدب شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا في الميناء أو يستقبله بنفسه فيهنه أمراء المالك بالقسوم ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) مفاتيح القلعة ويدعوه إلى الإقامة فيها .

قال سافارى : « وقد شاهدت بعينى وصول الباشا ودخوله المدينة في موكب وزينته . رأيت الموكب تتقدمه فصائل الجنود المشاة يسرون صفيين وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم خفاقة فوق رؤوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس يسرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسهم الفضفاضة الالامعة وشواربهم الكبيرة فتكسبهم منظراً حربياً يبعث الروعة في النفوس . يلي هؤلاء البكوات مرتدين الملابس البديعة وحولهم حاشيتهم من المالك يتخطون صهوات الجياد العربية الأصيلة وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . ورأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة بالؤلؤ والأحجار الكريمة وعلى خيولهم السرج تتلألأ من الذهب . وكل « بيك » يسير في الموكب على هذه الصفة . كانت جيادهم مجتمعة غاية في الرونق والرخامة زينها جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، يليهم الباشا يسير الهوينا تتقدمه كوكبة من مائتى فارس وفرقة موسيقيين وأمامه أربعة جياد يقودها أربعة من السواس عليها غواشها موشاة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً وقد وضع على عمامته ريشة من قطع اللامس الكبيرة يتوهج سناها في أشعة الشمس . رأيت في هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التي كانت تحيط ملوك آسيا وسلاطينها عندما يظهرون للجواهر . بدأ الموكب في الساعة الثامنة صباحاً واستمر إلى الظهر وفي اليوم التالى جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات إلى حضوره وجلس على منصة فكأنه السلطان على عرشه . وتلاكخاه (وكيله) كتاب الباب العالى . فطأ السناجق (البكوات) احتراماً لولى الأمر وأمره وتمهدوا بتنفيذ مالا يعارض امتيازاتهم .

وبعد انقضاء الديوان أهدى الباشا إلى شيخ البلد كرك سمور فاخراً وجواداً مطهما وخلع على كل « بيك » قباء (قفطاناً) وبذلك تمت حفلة تصويب الباشا الذى لا يستطيع بعد تلك الحفلة العظيمة أن يخرج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد ! .

ولا يبعد أن يكون هذا الوصف هو الذى أعد لاستقبال إسماعيل باشا الذى عين لولاية مصر عام (١١٩٢ هـ — ١٧٧٨ م) . وذلك في أثناء الفترة التي قضاها « سافارى » في القاهرة وكان على مشيختها إما إسماعيل بك أو إبراهيم بك . .

القاهرة بين البكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم

مات أبو الذهب فتولى الأمر بعده البكوات الثلاثة إسماعيل ومراد وإبراهيم، وكانوا من محاليلك على بك نخانوه وخرجوا عليه . وكان أولهم يحكم مصر في أثناء فتوحات أبي الذهب في الشام ، وثانيهم تولى قيادة الجيش المصرى بعد وفاة أبي الذهب . وكان إبراهيم بك حاكماً للقاهرة . ولم تمر الأيام على اتحادهم حتى انقسموا فريقين فاستعد إسماعيل لمقاومة زميله ومناظريه على مشيخة البلد، واستطاع أن يتقصد مهام الأمور متذرعاً بكل وسائل الشدة والحشونة مستنداً إلى نفوذ الوالى . ومع جبروته كان منافسوه المماليك يتهمزون الفرص لمقاومته ومحاربته للتخلص منه ، فأفلحوا في إبعاده عن مصر إذ فر مع أتباعه إلى الشام وبذلك خلا الجو لمراد بك وإبراهيم بك . وانقسم أمراء مصر إلى جماعتين : جماعة قيل لهم المحمدية نسبة إلى محمد بك أبي الذهب، وقسم يسمى العلوية نسبة لعل بك الكبير . وقد كان هذا الإقسام سبباً في قتل وحروب ومكائد . وأحسن العلوية من مراد بك العدر ، فتجمعوا وتحصنوا في حوش الشرقاوى ، وأقاموا المتاريس في جهة باب زويلة وباب الحرق والسروجية . أما إبراهيم بك فقد تحصن بالقلعة وصوب مدافعه على أحياء العلوية اثنين وعشرين يوماً ، بينما كان جنوده يهجمون على أتباعهم في الحارات والدروب فغربوها . فاضطر العلويون للفرار إلى الشرقية فتبعهم أعداؤهم وأفنؤهم عن آخرهم إلا القليلين .

وساد السكون، وأقر الصلح على أن يعطى إسماعيل بك أخميم وأعمالها، ووزعت على أتباعه مناطق لا يتعدونها . ولكن بعد قليل انتقض الصلح، وعادت الأمور إلى سابق مجراها وازداد الموقف تعقداً بما أحدثته المنافسة بين الزعيمين إبراهيم ومراد ووقفت جيوش كل منهما أمام الأخرى بالمرصاد . جموع مراد في الجيزة وجموع إبراهيم بك في مصر القديمة . واستمرت الحال عشرين يوماً بين قصف المدافع وأزيز الطلقات، واشتد البلاء بالأهالى حتى عقد الصلح بين الأميرين . نفي أمراء حزب إسماعيل عاقبة هذا الصلح وهاجروا من مصر فسبقتهم جموع إبراهيم ومراد وجماعة من العزب من خلف الجبل وقطعوا الطريق عليهم، وقتلوا منهم عدداً كبيراً جداً، ولما عادوا استولوا على أملاكهم وأموالهم وأولادهم . وبالتخلص من إسماعيل بك عاد النفور ثانية بين الزعيمين حتى سعى بينهم بعض المشايخ والأمراء ، واصطلحاً ثانية !

وكانت سنة ١١٩٩ هـ من أسوأ السنين التي عرفت فيها مصر، فانتشر وباء الطاعون وانخفض النيل وانقطعت الطرق، وخربت أقاليم بأسرها وانتشر الفلاحون في القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع وبأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشر البطيخ وأوراق الشجر . واشتد الكرب حتى أكلوا الميتة من الحبل والحير والجمال بينما كان الأمراء كمادتهم يهبون المدينة ورجالهم يسطون على الأرياف كأنهم لا يشاهدون أمامهم تلك الكوارث التي تفتت الأكباد . وكثرت حوادث الإعتداء على الأوربيين، فأرسلت الدولة العثمانية عام ١٢٠٠ هـ حسن باشا القبطان على رأس جيش عثماني جاء عن طريق البحر أفنى به عدداً كبيراً من قوات المماليك في رشيد والرحمانية . ودخل القاهرة ونزل في بيت إبراهيم بك عند قصر العيني على

شاطيء النيل وعكف على إصلاح الإدارة . ثم استقدم إسماعيل بك وزميله حسن بك الجداوى من الصعيد فأرسلهما في جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدى الحملة العثمانية التى جاءت مصر عن طريق البر للقضاء على مراد بك وأتباعه فى الصعيد فهزموهم وظلوا يتبعونهم إلى الشلالات ، ثم عادت الجنود العثمانية منصوره إلى القاهرة .

فى تلك الفترة تقلد ولاية مصر عابدين باشا ، وانتهت مهمة حسن باشا القبطان . لكنه قبل مبارحته القاهرة ، أقام عليها إسماعيل باشا شيخاً للبلد . فعهد هذا إلى صديقة القديم حسن بك الجداوى بامارة الحج ، واتفقا معاً على اقتسام الإيراد . ثم أكل إسماعيل بك بناء قصره وشيد مقعداً ضخماً لم يكن له مثيل فى مقاعد بيوت الأمراء (١) .

وفى عام ١٧٩٢ م وفد على مصر وباء الطاعون ، وكان شديد الوطأة بلغ عدد موتاه نحو الألف فى اليوم الواحد فى القاهرة وحدها وتقلد حكومتها فى يوم واحد ثلاثة حكام وفى كل بيت إسماعيل بك . وقد أصيب بالوباء وتوفى . فتنازع على مشيخة البلد حسن بك الجداوى وعلى بك الدفتردار واتفقا فيما بينهما على تأمير « عثمان بك طبل » فسكن بيت سيده وتولى مشيخة البلد أياماً قللت ثم سلمها لخصومه . وفى تلك السنة خلف محمد باشا عزت الوالى إسماعيل التونسى . فاستدعى إبراهيم بك ومراد بك فدخلوا القاهرة فى (١٢٠٥ هـ ١٧٩٢ م) وفر حسن بك الجداوى إلى الصعيد واستلم الإثنان أزمة الأمور بالتناوب أحدهما مشيخة البلد وثنانيهما امتازة الحج .

وفى تلك السنة أشيع بين الناس انه فى ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى فى نصف الليل ستحدث زلزلة قوية تستمر سبع ساعات . فلما كانت الليلة المذكورة خرج أكثر الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن الفسيحة مثل بركة الازبكية وبركة الفيل وغيرها ونزلوا فى السفن وبنوا ينتظرون إلى الصباح . فلم تحدث زلزلة وأصبحوا وهم يتضحكون على بعضهم ؟

وذات يوم غيمت السماء غيماً كثيفاً وهطلت أمطار غزيرة مصحوبة برعد شديد الصوت وبرق متتابع قوى اللعنان واستمر طول ليلة الجمعة الخامس من شهر صفر فسقطت الدور القديمة على ساكنيها ونزلت السيول من ناحية الجبل الأحمر فملأت الصحراء وخارج باب النصر وامتدت إلى جهة الجمالية وجامع الحاكم على مسافات بعيدة فى الحارات المجاورة وخرب بسبب المياه أكثر خطط الحسينية وصادف ذلك اليوم دخول الحجاج إلى القاهرة فأفسد مواكبهم وجرف السيل سراقق أمير الحجاج وخيام الأمراء والكبراء . وامتلات الوكالات بالمياه وهدمت مئذنت القبور وتحول خارج باب النصر إلى بركة ممتدة كبيرة .

(١) ذكر الجبرى أن إسماعيل بك شيد فى طره على شاطئ النيل قلعة ، وجعل بها مساكن ومخازن وإبراجاً وأبنية أخرى تمتد من القلعة إلى الجبل . .

القاهرة بين الأميرين إبراهيم ومراد

في أيام سطوة إبراهيم ومراد الأولى استأذن «سليم أغا» مستحفظان منهما في فتح الباب الكبير للجامع السلطان حسن المواجه لسوق السلاح وهدم الحوانيت التي أنشئت بأسفله ، وكان قد سد إحدى وخمسين سنة بسبب المعركة التي قتل فيها أحد عشر أميراً من أمراء محمد بك الدفتردار (١١٤٩ هـ) فأذن له بما أراد . فقصده بنفسه إلى الجامع راكباً ومعه العمال والصناع وفتح بابه السدود وصنع له باباً جديداً وبني له درجات واسعة ومصاطب وأحضر نظاره وأمرهم بالصرف عليه ، وكان يأتي كل يوم لمباشرة العمل بنفسه وأصاح ما تهدم من أجزائه ونظف جدرانه ورخامه وأعاد إليه سابق روثقه وبهائه .

على أننا لم نقف على شيء من آثار مراد بك أو زميله إلا ما وصفه بعض الكتاب الأوروبيين عن قصورهما الجميلة . فقد قدم إلى القاهرة «فيفان دينون» بعد استيلاء الفرنسيين عليها عن طريق رشيد ، وألف كتاباً عن رحلته وصف فيه ما كان في « قصر مراد بك » بالجيزة وصفاً بليغاً بما فيه من طرقات وبساتين وأثاث . وكان القصر يشغل مساحة كبيرة من الأراضي التي تحتلها اليوم حدائق الحيوان والقصور الجميلة المواجهة لها . وقل أن يجد المرء مفخرة لهذا العصر فهو في الواقع فترة من تاريخ مصر لم تسجل لها حسنات تستحق الذكر، بل كانت اضطراباتهما وقلقلهما أكبر مهدد للحوادث التي أدت إلى نجاح الحملة الفرنسية .

كانت مصر مزرعة تقدم للأميرين ما شاءت أهواؤهما من مال وخيرات، وكان أتباعهما يرحلون في المدن والأسواق ويدخلون الحوانيت والوكالات وينهبون ويسرقون ويختطفون ثم يقتلون ويحرقون ويولون الأدبار . إن تاريخ تلك الحقبة في الزمان وصمة سوداء في تاريخ هؤلاء المماليك الذين أتاحت لهم أسوأ الأقدار التصرف في أمور مصر والتسلط على حكم أبنائها .

فلقد تتابعت حوادث الحراب حتى مات كثيرون من الجوع ليلاً ونهاراً في الطرقات، بينما كانا وحدهما يسمدان ويمرحان بالنعيم . وفي تاريخ الجبرتي بين حوادث عام (١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م) وصف حفلة زواج ابنة إبراهيم بك «عديلة هانم» بالأمير أحمد إبراهيم بك المعروف بالوالي أمير الحج سابقاً ، وأنه عمر لها بيتاً خاصاً بجوار بيت الشيخ السادات وأسرف أبوها في جهازها وشراء الحلى والجواهر وغيرها من الأواني الفضية والذهبية . وأقام ليالى الأفراح بركة الفيل حيث نصبوا أمام بيوت الزعماء الصواري الكبيرة والملاهي وأصحاب الألعاب ، وقد دعا إبراهيم بك الأعيان والأمراء والتجار وقدموا للعروسين أمن الهدايا . كما دعا أيضاً «الباشا» فنزل من القلعة وأهدى للعروس جواهر ومصاغات نفيسة . وأقيمت حفلة العرس في رابع المحرم وخرجت العروس من بيت أبيها في عربة عجبية الشكل وسار أمامها الكشاف والأمراء .

وبعد انتهاء الأفراح ببهاجها وأغانيتها خرج الأميران مراد وإبراهيم من القاهرة مع بعض أمرائها إلى جهة العادلية حيث أقاموا مدة ، ومنها قصد «مراد بك» ناحية أبي زعل، وقصده إبراهيم بك وجماعته ناحية

الجزيرة . وفي أثناء خروجهما نهب أتباعهما مصادفوه من الدواب وهجموا على الوكالات التي بباب الشعربة وأخذوا ما عثروا عليه من الجمال والحير . ولما وصل مراد بك إلى أبي زعبل نهب عرب الصوالة في خيامهم واستولى على أغنامهم وقتل منهم نحو خمسة وعشرين شخصاً ، ثم قبض على مشايخ أبي زعبل وحبسهم وفرض عليهم غرامة أحد عشر ألف ريال .

وفي أيام مشيخة الأميرين حضر الصدر الأعظم يوسف باشا للاسكندرية متوجهاً إلى الحجاز ، فعني الأمراء باستقباله . ولما وصل إلى القاهرة ، أعد له قصر العيني وذهب الأميران مراد وإبراهيم للقائه في موكب عظيم فخلع عليهما خلعتاً ثمينة وقدم لهما جوازين هدية . كذلك ذهب إليه الوالي مسلماً عليه وعاد إلى القلعة . وعين لحراسته عبد الرحمن بك الإبراهيمي ، وخصص له البيت المواجه لقصر العيني . وبعد أيام صعد يوسف باشا إلى القلعة في موكب كبير وعاد إلى قصره محملاً بالهدايا التي قدمها إليه الزعماء ، وكانت خمسمائة أردب قمح ومائة أردب أرز وأقمشة هندية . ولما انتهت زيارته سافر إلى السويس ليبحر منها إلى جدة .

في الوقت الذي كانت فيه مظالم الأمراء تتوالى كان مراد بك يشيد قصره العظيم في الجزيرة ، وقد وصفه وصفاً بليغاً الكاتب الفرنسي « فيفان دينون » في كتابه كما سبق ذكره .

وقد ذكر المسيو « مارسل » المستشرق ، ومدير المطبعة التي أنشأها نابليون إلى مصر ، أن مراد بك فرض ضريبة كبيرة على اليهود ، ولما كانت ثقيلة لا تحتمل عبثها تلك الطائفة ، اجتمع زعمائهم وتداولوا في الأمر وقر رأيهم على إرسال حبرين للاجتماع بمراد بك وإقناعه بأن عمرو بن العاص لما شيد جامعهم دفن في أرضه كنزاً عظيماً ، فرفع مراد الضريبة وأمر في اليوم الثاني بترميم الجامع . وكان غرضه الحقيقي التنقيب عن هذا الكنز الموهوم . ولما تهدم الجامع ولم يجد شيئاً اضطر إلى إعادة بناء الجامع وصرف عليه أموالاً عظيمة فأقام معظم عمده وشيد منارتين ، وجدد جميع سقفه بالحشب وبيض جدرانته ، فتم على أحسن صورة ، وصليت به الجمعة في آخر رمضان سنة ١٢١٢ هـ ، وحضرها الأمراء والأعيان والفقهاء . وبأعلا قبلته الرخامية لوح مكتوب فيه أبيات من الشعر منها :

أنظر لمسجد عمرو بعد ما درست رسومه صار يحكي الكوكب الزاهي

نعم الوزير الذي لله جسده مير اللواء مراد الأمر الناعى

وعلى أحد أبواب الجامع الغربية اسم مراد بك بتاريخ ١٢١١ هـ وستة أبيات من الشعر منها :

أحيا لنا ربنا بيتاً لطاعته وكان من قبل مصباحاً بها فطنى

وانقض بنيانه والمسلمون غدوا من أجله قاصرين الباع في أمف

العلم والعلماء في العصر العثماني

كان الأزهر المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم في مصر . ولقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والجراكسة حافظة مكاتها التي كانت لها من قبل . وإليهم عاد الفضل في انقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق وكانت مصر ملجأ الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان ، واستظلت العلوم والآداب برعاية الملوك والسلاطين في مصر ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالصيرى صاحب البردة ، والسراج ، والوراق ، وابن نباتة المصري ، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى والأبشيى صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب وابن هشام النحوى ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن دقاق والمقرئى صاحب الخطوط وأبو الفداء الجغرافى المؤرخ والذهبي والنويرى صاحب نهاية الأرب وابن تبرى صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطى والدميرى وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى ، وأرخ له . واستضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق ، كالإمام ابن تيمية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون . (١)

أما في عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية ونحلت القرائح . وأصبحت القاهرة بعد أن كانت مدينة خليفة المسلمين ، وعاصمة دولة مستقلة ومشعل الشرق العربى ، عاصمة لولاية تابعة للأستانة وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة حتى نهاية دولة السلاطين والجراكسة ، واندثرت المدارس التي كانت زاهرة في عصور الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والجراكسة ، وتبددت خزانات الكتب التي أنشأها الفاطميون والمماليك ولم يبق منها إلا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد ، ككتبة الأزهر التي احتوت إلى عهد الحملة الفرنسية على نحو ٣٣٠٠٠ مجلد . وآلت بعض المدارس الفخمة والمباني العظيمة إلى زوايا صغيرة تغلق في أغلب الأيام ، كما أن بعضها قد زال وصارت زرائب أو أحواشاً يسكنها البائسون .

وقصارى القول أن العلوم والآداب انحطت كثيراً في العهد العثمانى ، فلم ينبغ فيه إلا عدد قليل جداً من علماء الدين والأدباء ، بل أننا لا نذكر من يستحق الذكر منهم ، سوى شهاب الدين الخفاجى ، والسيد محمد مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس في شرح جواهر القاموس . وعبد الرحمن البرقى المؤرخ المشهور ، ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرقى في تاريخه من علماء ذلك الحين ، لما رأيت منهم من يصح عده عالماً ناهياً في الفلسفة أو العلوم أو الآداب . واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم

(١) د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، عدة أجزاء ، القاهرة .

الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم . وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية واضمعلت روح البلاغة ، ولم يبق في متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبي زيد الهلالي وعنترة والزناى خليفة . وتضاءلت مكانة الشعر والأدب إلى الحد الذي أصبحت تطلق فيه كلمة « شاعر » على جماعة يجلسون في القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبي زيد والظاهر بيرس ، وينشدونها على نغمات الرباب ، ومع ذلك فقد ترك لنا هؤلاء تراثاً طيباً من الفن الشعبي .

القاهرة خلال الحكم العثماني

هذه هي القاهرة في أثناء الاحتلال العثماني ، فهل امتدت مساحتها وازداد عمرانها ؟ اننا نجد جواباً سلبياً على هذا السؤال . فقد تدهورت القاهرة وخربت في أثناء حكم العثمانيين . وعلى كل حال فإن نظرة واحدة إلى خريطة تخطيطية للقاهرة عند ما دخلها نابليون ، وأخرى تمثلها في أوائل الاحتلال التركي لكفيلة بإقناعنا بأن سنة النمو والارتقاء لم تعرفها هذه المدينة في عهد العثمانيين .

دخل الأتراك مصر فوجدوا لها عاصمة زاهية مجيدة احتلت لنفسها مركزاً سامياً بين عواصم الدول الشرقية والغربية ، فكانت مكانة القاهرة لا تقل عن مكانة الأستانة . ولم يكن قد مر عليها أكثر من ستة قرون منذ أنشأها جوهر . وشاهد الأتراك مدينة تزدهم بالقصور والمعابر والمساجد والوكالات والمدارس ، فكان من المنتظر أن يزيدوا وينشئوا فيها لكي تصبح جوهره إمبراطوريتهم العظيمة ، لكنهم أهملوها ففقدت تدريجياً هيبتها الأولى .

أنشأ الفاطميون القاهرة وجعلوها بابشكاراتهم في فنون العمارة ، وجاء الأيوبيون خضعوها بالأبواب والأسوار القوية وجعلوها عاصمة جديدة يملكهم الواسع ، حتى إذا جلس على عرش الدولة سلاطين المماليك البحرية ، فالمماليك الجراكسة ، رأيناهم يتنافسون في تجميلها ورفع شأنها ، وأصبحت عاصمة زاهرة للعالم الإسلامي ، ومقر الخليفة المسلمين .

ولكي نحلل بإيضاح عوامل الخراب التي شوهت آثارها بالقاهرة قبيل دخول الفرنسيين ، نتبع السائح الأجنبي الذي وصل على ظهر السفينة النيلية إلى ميناء بولاق التي تمت بدون انتظام أمام الزوارق والسفن التي كانت ترسو أمامها . كانت بولاق تمتد أربعة كيلومترات طولاً بدون عمق يذكر ، تشبه مدينة صغيرة معزولة اختوت في أواخر القرن الثامن عشر على مالا يزيد عن أربعة آلاف بيت وعشرين ألفاً من السكان ، واشتملت على عدد كبير من الوكالات والشون والحانات والحمامات والأسواق ، تتوسطها بعض المناظر الجميلة والحدايق الغناء وتلال من المواد التي ينفر الدوق السليم منها والمقابر المبعثرة . ولقد تمتعت بولاق بنعم الرخاء في أثناء منتصف القرن الثامن عشر أيام ولاية على بك الكبير فكانت مقصد الخاصة وملتحق الأحياء يذهبون إليها للترفيه والترويح بعيداً عن غيرة القاهرة . ولكن لم يتسع لعل بك الوقت لكي يتم

ما بدأ به من مشروعاته العمرانية في تلك الجهة ، فقد شغل بحروبه في سوريا وبلاد العرب ، واستمرت أعمال الحفر والأنقاض تعوق نواحيها وتعرقل تقدمها مدة ليست بالقصيرة .

وحول بولاق من الجهة للمقابلة للنهر افترشت الحقول الخضراء المنوعة وهى تكسو أخصب بقاع وادى النيل تغطيها مياه الفيضان بجمال ودعة .

وابتدأ من بولاق طريقان يؤديان إلى القاهرة : الطريق الأولى زرعت على جانبيه أشجار اللبغ والنخيل وكان ينتهى أمام باب الحديد حيث كانت ترى إذ ذاك بقايا ميناء المقس القديم .

أما الطريق الثانية وهى أقصر من الأولى ، فكانت خلواً من الأشجار ينتهى بسالكها إلى الازبكية . وكانت تطل عليها من الجانبين الحوانيت والبيوت المأهولة بالسكان . واجتمعت على قارعة الطريق جموع الحواة والمشمودون يسلمون زبائنهم في القاهرة بينما يغنى الشعراء على الرباب والدف أو الناي .

بعد أن يقطع السائح ما يترب من الألف وخمسمائة متر يحيد نفسه أمام حدود القاهرة الأصلية . .
قاهرة الفاطميين ، فيجتاز القناة الغربية مستأنفاً السير فيما يشبه ضاحية المدينة ، ثم يقابل سوراً شاهقاً أمام بوابة ضخمة يحميها خندق متوسط العمق ثم يسير في شارع ضيق مزدحم قاصداً حى الافرنج . ويصل هذا الشارع بين بركة الازبكية والخليج ، وعند نهايته تجده مسدوداً ببوابة حديدية لها حراس أقوياء . وكانت اضطرابات تلك الفترة ترغم أجانب القاهرة على أن يتجمعوا في ذلك الحى حول قنصل فرنسا بمسكنهم ومتاجرهم ليأمنوا شر الغوغاء أو الجند عند مطالبتهم بغزوات مرتباتهم . وكان أهم شوارع القاهرة شارع الموسكى وبالقرب منه قنطرة بذلك الاسم ، شيد هاعز الدين موسك أحد قواد صلاح الدين . وكان حى الافرنج موطناً لمعظم السياح الأوربيين والرحالة الذين جاءوا إلى مصر لزيارتها . وكان ذلك الحى من القاهرة في أيام النضان من أجمل مناطق القاهرة تشرف منافذ بيوته على المياه من كل جهة ، وكانت حسنة عماره بأشجار الفاكهة وبالرياحين والزهور . فإذا أقبل فيضان النيل تحولت البساتين إلى بركة جميلة تنهذى عليها الزوارق الحسناء بحفة ورشاقة ، يزيد لها ملاحه أغاني النوتى تحت ضوء القمر المنمش . حتى لسكان القاهرة في ذلك الوقت (البندقية) عروس إلهيائى . وأشرفت على البركة من جوانبها الثلاثة قصور الممالك والأغنياء ذات البواكى والأعمدة المعقودة والمخصرات المتقنة . وكانت تقوم على الجانب الرابع من ميدان الازبكية بعض بقايا قصر زوجة قايتباى حتى أوائل القرن الثامن عشر . واختفت خلف هذا الاطار الجميل مجموعة قبيحة من الخرائب والمدافن وطاحونة مهدمة وصهريج كبير وساقية وسيل مياه وأنقاض . وعلى الجانب البحرى من الميدان ، قام الحى القبطى ببيوته وشوارعه الضيقة ومنعطفاته المظلمة .

وفي عام ١٧٧٤ شب حريق خرب جانباً كبيراً من الأحياء المحيطة بالازبكية . فاتهز الأغنياء تلك الفرصة واشتروا ممتلكات الفقراء الذين لم يقدرؤا على إعادة البناء ، وبدأ أصحاب الأموال يشيدون البيوت

الوجبة التي قامت على أنقاض بيوت الفقراء . ومن ذلك اليوم بدأت أناقة بركة الأزبكية وتعنى بحسنها الغائب ومنظرها البديع الشعراء والأدباء والرحالة من الأفرنج .

وإذا عبر السائح الخليج الناصري التقى بحى اليهود . يحده شرقاً ، بين القصرين ، وغرباً ، حى الأفرنج ، وشمالاً بقايا سور القاهرة حيث بوابتا الفتوح والنصر يتوسطهما جامع الحاكم . وعلى مقربة من الباب الأول مقبرة باب النصر . وقد هددت تلك الناحية سيول الأمطار الغزيرة التي تساقطت على تلال المقطم فتهدمت بيوت الفقراء .

وفما وراء السور القاهري من الشمال شيد فقراء الممالك طائفة كبيرة من البيوت التي التصفت بالسور فاختلفت معاملة في تلك الجهة . وتكون بالتدريج حى الحسينية ، وما كاد ينمو حتى وصل الأتراك إلى مصر فخر به تقريباً . ولكن بعد مضي زمن عمر الحى مرة أخرى . ومما ساعده على النهوض إشرافه على الخليج من جانبه الغربى وكثرة البساتين التي أنشئت على بركة الرطلى . ولم يبق جامع الظاهر خارجاً عن حدود المدينة ، فقد امتدت إليه العمارات وبدأ على ذلك الحى طابع ارسطراطي .

هذا التوسع كان في غربى الحسينية . أما في شرقها فكانت لاتزال المساكن الوضيعة باقية بالقرب من مدافن باب النصر وبجانبتها تلال القاذورات المتراكمة منذ أجيال .

لم يصب قلب القاهرة تطور أو تغير ، فقد ظل على ما هو عليه حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يعكر صفو ساكنيه سوى معارك الجند والممالك بين الفينة والفينة . وكان أصحاب الحوانيت والوكالات اعتادوا هذه الحال . فكانوا إذا رأوا طلائع الحركات العدائية تتقدم نحو الحى ، أغلقوا أبواب متاجرهم على أن تظل موصدة حتى تزول العاصفة وتعود الأمور إلى نصابها .

وإذا تابع السائح مسيره للجنوب عابراً باب زويلة تاركاً خلفه مسجد المؤيد ، سار في قصبة رضوان . وامتدادها إلى الغرباين فيمدان الرملة أو انحرف إلى باب سعادة قاصداً حى باب اللوق .

والظاهر أن حى باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى من التخريب والدمار . كانت تحيط به من شماله جملة برك ومن جنوبه مدافن ومن شرقه مجموعة من المروج وبركة الفرايين . واشتمل هذا الحى في وسطه على ميدان واسع يطل عليه قصر الأمير يشبك ومدرسته التي عرفت باسمه ، كما شيدت بعض المراقص وبيوت اللهو وأما كن يجتمع فيها أهل الشعوذة . وكان حى باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق المتعددة القريبة منها وامتاز بحيوية أهله وكثرة عددهم .

أما جنوبى حى بولاق فكان المسار فيه يسير بين المقابر والمزارع ، وعلى يساره امتداد المدينة محاذياً للخليج الكبير ماراً بين بركتى السقايتين وأبى شمة . فإذا اجتاز قناطر السباع رأى الخليج قد التفت نحو الغرب متخذاً معجراً إلى الحقول التي لا تبعد كثيراً عن قصر العيني . وكان هذا القصر منذ أربعمئة عام

مقرراً فخماً لسيده ، ثم أضيف إلى بنائه الأصلى مسجد . ثم شيد مدفن للعيني ، واستخدمه الأتراك عند وصولهم لصر قسراً أقام فيه من كانوا يرون بالقاهرة . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ازدهم حى السيدة زينب بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب وبركة الفيل من الشرق وأطلال الأثرية والأنقاض من الجنوب .

بركة الفيل :

واستجبت منطقة بين بركة الفيل والقلمة . . حى اين طولون . مركزها جامع ابن طولون القائم على جبل يشكر . وكانت تعالو أمانة كلما ازدادت الأنقاض والقيت بقايا الخرائب . وبالنسبة لأهمية أحياء جبل يشكر من الناحية العسكرية فى ذلك الوقت أصبحت ملتقى الطوائف السياسية ووكراً لاجتماعاتهم . وكان أغلب سكان تلك الجهة من الفقراء ومعظمهم من سلالة الطوائف الشركسية وقدماء الأتراك . وبالاختصار فإن هذا الحى فى مجموعه لم يتغير إلا قليلاً عن حاله التى كانت عليه منذ القرون الوسطى . إذا استثنينا بعض الجهات القريبة من القلمة وجامع السلطان حسن ، فقد اختفى سكانها الأغنياء بعد أن أفرغتهم حركات المشايخين المستمرة . وفى ذلك الحى بميدان الرمل وحول جامع السلطان حسن وقره ميدان قامت الحوانيت الفقيرة تستند على جدران القلمة أو جامع السلطان حسن . كما كان يقصدها التجار المتنقلون الذين يدفعون أمامهم عربات الأيىدى . وبتولى الأيام تحولت منازل الأغنياء إلى أحواش سكنها الرعاع . أما أغنياء الحى ، فقد هجروه إلى منطقة بركة الفيل ، أو الأربكية اللتين أصبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة .

وفى ذلك الزمن كانت القلمة دائماً مدينة قائمة بذاتها تتمتع بعزلة مستقلة ، لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال ومأوى الباشوات وفرقة العزب ورجال الانكشارية . هذه القلمة النيفة التى بلغت مابلغته من المجد والشرف فى أثناء حكم سلاطين المماليك ، ثم بدأت تفقد بالتدريج مكانتها الأولى ... نتيجة لإهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لا يستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بقلد ولاية أخرى من ولايات الامبراطورية العثمانية . وفى غالب الأحيان كانوا يتسلمون أوامر العزل أو فصل الرأس ! فلم يكذب ينتهى القرن الخامس عشر حتى آلت أكثر منشآت قلعة الجبل إلى الخراب . ولما زار « سافارى » القلمة فى أثناء القرن الثامن عشر قال عنها : أنها لا تتألف إلا من خرائب وأنقاض ، ولم يبق منها سوى بعض أماكن قليلة صالحة للسكن . وكانت تقام فى القلمة المهرجانات الرسمية لاستقبال الولاة ، أو حفلات الاعياد القومية والدينية ، كغرة شهر رمضان ، والمولد النبوى ، ووفاء النيل .

كان والى العثمانى يحتفل بزيادة النيل جرياً على العادة التى ألفتها البلاد ، فيبدأ الموكب الرسمى من القلمة فى صبيحة يوم الاحتفال وينزل مع حاشيته إلى بولاق حيث تلتظره سفينة مزينة أعدت له ولسناجقه وأمراءه أمام دار صناعة السفن ، فينزل هناك بها ، ويقلع فى مقدمة السفن تدبعه سفائن السناجق ، وتطابق

المدافع حتى يصل إلى المقياس بالروضة . وهنالك يقام هناك يوماً أو اثنين حتى ينتهى الإحتفال وتعمل العرائس النفيسة ، ويقام من مظاهر اللهو الشيء الكثير .

وفى اليوم الذى يريد فيه الوالى فتح السد عند سمطاء قبل شروق الشمس للسناجق وللجاويشية المنفرقة وغيرهم من الجند ويشترك فى الحفلة قاضى مصر . وبعد الانتهاء يخلع الوالى الخلع على كاشف الجيزة (مديرها) وشيخ عرب الجيزة وحاكم القاهرة وبولاق ومصر القديمة وأمين الشون وحاجى باشا وأمين البصرين وناظر الحسبة وغيرهم . ثم ينزل مع قاضى العسكر والسناجق فى السفن النيلية إلى أن يصل للسد ، ثم يصعد إلى القلعة فى احتفال شائق .

وإلى الطرف الجنوبى من قره ميدان وإلى الشرق من معبرى العيون المشهورة ، كانت تقوم إحدى بوابات القاهرة المؤدية إلى « القرافة » . وكان إلى شمال القلعة طريق مترب يؤدي إلى حى باب الوزير ومنه إلى مدينة الأموات .

* * *

آثار القاهرة العثمانية وفنونها

قلما تتجاوز بحوث أكثر المشتغلين بدراسة العمارة الإسلامية فى القاهرة العصر المملوكى ، فهم يعتبرون أن معظم الآثار التى شيدها العثمانيون فى مصر غير جديرة بالعناية ، ومن هؤلاء من يقول بأن طراز تلك المشيدات لا يخرج عن طراز أبنيتهم فى استانبول . فهى من هذه الناحية « عثمانية » بمحتة ليس شمة كبير علاقة بينها وبين الطرز الفنية التى نشأت على ضفاف النيل . وأكبر ظنى أن فى الفكرتين شيئاً من المبالغة .

ومما لا شك فيه أننا إذا نظرنا إلى بعض مباني القاهرة التى يرجع تاريخها إلى عصر الانتقال بين حكم المماليك وفتح العثمانيين ، وجدنا أموراً جديدة طرأت على طراز العمارة التى كانت شائعة إذ ذاك . فهى ليست بعثمانية من ناحية الشخصية ، كما أنها لا تعد تافهة من الناحية الفنية . ولدينا من أمثلة المباني التى تعتبر نماذج بارزة للعمارة فى العصر المذكور مسجد خيربك ، ومسجد أمير أخور ومسجد بيبرس الحياط .

وإذا قلنا أن سلاطين المماليك كانوا حقيقة قساة سفاحى دماء ، فنحن لانستطيع أن ننكر أنهم كانوا غزاة أقوياء ، لهم بلاط من زهرة الأمراء المقربين يقلدونهم فى شجاعتهم ، ويشملون مثلهم الآداب والفنون برعاية سامية وعناية كبيرة ، فلما انتهت دولتهم وضاع استقلال مصر ، صار حكمها إلى ولاية كان يبعث بهم سلطان

العثمانيين لا يجمعون أكثر من لقب « باشا » ليست لهم صولة ولا قوة ، يمزلون ويستبدلون بكلمة منه ، لا ينظرون إلى خير البلاد بقدر ما ينظرون إلى خير أنفسهم .

ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن العثمانيين لما فتحوا مصر ودخلوا القاهرة عملوا على تدهور فنون العمارة القاهرية ، مع أن الحقيقة التي يدركها كل مطلع على التاريخ المصرى ، دلت على أن الأيام الأخيرة للحكم المملوكى كانت قد أصابها جراثيم التدهور والانحطاط ، والآثار التاريخية خير دليل نستشهد به على ذلك .

جاء العثمانيون وقد حملوا معهم أساليب جديدة في فن العمارة ، وعلى الأخص عمارة المساجد وكان أهم شيء في الوضع الجديد اتخاذ القباب والأفنية ذات الأروقة المستمدة من بناء الكنائس في الفن البيزنطى وأول ما نلاحظه في التصميم العثمانى ذلك البهو الذى تعطيه قبة يحيط بها نصفائتين أو أربعة أنصاف منها . ثم تلك المثانة المشوقة الرفيعة ذات الشكل الأسطوانى المنتهى بمخروط . وهذا الطراز الجديد الخالف لتقاليد العمارة القديمة اختص به العصر العثمانى في مصر فأصبح من أهم مميزاته ، وأصبحت القباب تتخذ في وسط المساجد بعد أن كانت إشارة الأضرحة والمقابر في الزمن السابق . وقلما تجد عمارات فيها آثار دقة الصناعة الممودة في أيام المماليك الجراكسة . وما نجد من أبلية فيها بعض الإبداع والإتقان إنما يرجع إلى القرن الأول من حكم الأتراك في مصر مثل سبيل خسرو باشا بالنحاسين ومن بعد هذا العصر أخذت الأساليب المعمارية في الاحتضار .

* * *

شيد في القاهرة في أثناء الفتح العثمانى كثير من المساجد . أولها مسجد خير بك الذى دفن فيه بجهة باب الوزير . وكانت أرضية هذا المسجد مرتفعة نحو ثلاثة أمتار ومفروشة بالرخام الملون . ومسجد سارية بالقلمة ومسجد المحمودية وجامع السنانية بيولاقي ، ومدرسة المسكة صفية ، ومسجد البردنى الذى يزدان بفسيفسائه البديعة ، وصدف المنقى ، وميناء الزرقاء والخضراء . وأسقفه المزوقة التى تميد إلى ذاكرتنا ما كانت عليه الصناعة في أيام قايتباي ، وزجاجة الفاخر ومشربياته الجميلة . كذلك مسجد الفكهانى الذى جددده أحمد الحروبلى (١١٤٧ هـ) . وأخيراً جامع أبى الذهب الذى شيد على طراز جامع السنانية . وقد جدد العثمانيون أضرحة كثيرة ومساجد قديمة بجامع عمرو بعصر القديمة ، أو ضريح الشافعى ، وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة ، وأصلحوا أيضاً عدة نواح في القلمة . وتوالت أعمال الإصلاح في الأزهر ، فقد أصلح الوالى القلمة . وتوالت أعمال الإصلاح في الأزهر ، فقد أصلح الوالى سيد محمد (١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م) أروقه ودهنها باللون الأخضر . وجاء الدفتردار حسن ، فبنى رواقاً للطلبة اليمنيين ، وعمر باباً صغيراً كما جدد أرضيته . وفى عام (١١٣٦ هـ) أعيد دهان أسقفه . وبنى محمد أبو الذهب أروقة جديدة لكل من الملقى الشافعى والمالكي والحنفى . ثم أعاد الوالى إسماعيل التونسى دهان جذرائه (١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م) .

وكانت أهم أعمال التجديد بالأزهر ، تلك التي قام بها عثمان كتنخدا القزرجلى ، فقد أنشأ رواق الميمان .
ووسع عبد الرحمن كتنخدا المدرستين القديمتين الطيرسية والأقبغوية ، وأقام حسين عاموداً من الرخام لحمل
العقود وأقام أيضاً محراباً ومنبراً ومدرسة وصهرجياً ومسكناً ومحلاً لدراسة الفقراء القادمين من الصعيد
وشيد مثذنة ، كما شيد ضريحاً له أقام عليه قبة عظيمة . وكانت أعماله الخيرية تسير دائماً بجانب أعماله في
البناء ، يوزع الصدقات والهدس والقمح على الفقراء ويقم لهم المطاعم ويقدم لهم الأكل بالجان . ولا شك أن
عبد الرحمن كتنخدا كان أكبر مصلح للمعائر في تلك الفترة . فقد شيد أو جدد ثمانية عشر مسجداً وأقام
الزوايا والمدارس والأسبلة والصهاريج والبيوت والأسواق وأوقف على تلك المنشآت أوقافاً هامة .

على أننا لا نشاهد في ذلك العصر الآثار البديعة الخاصة بالأضرحة . تلك للشيدات التي امتاز بها العصر
المملوكى السابق بقبابها الجميلة المغطاة بالنقوش المزركشة الرفيعة . وتلك الكتابات النقوشة على أفاريزها .
فإن المقابر العثمانية تتسم بالبساطة . والنوع الوحيد الذى ظل كاملاً سليماً في تصميمه هو السبيل الكتاب .
ففي أسفل البناء وجدت حنفيات الشرب بصهرجها ، وفي أعلاه مدرسة لحفظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة
والكتابة وشيد من هذا النوع عدد كبير . ولكننا نلاحظ أن السبيل كان في العهد السابق يلحق بالمدرسة
في زاوية من زوايا البناء . أما في تلك الفترة فقد أصبح قائماً بنفسه ومستديراً في تصميمه مع ما يتجلى فيها
من ذوق في صناعة الرخام والحساس ، وتحمل تلك الأسبلة أجمل معاني الإحسان والتقوى . وفي الفترة
عشرات من تلك الأسبلة ، منها سبيل خسرو باشا المواجه للجامع قلاوون ، وسبيل عبد الرحمن كتنخدا الذى
لا يبعد عنه كثيراً .

وكثر في العصر العثمانى بناء تسكيا الدراويش والأسواق والوكالات ، وشيد أغنياء القرن الثامن عشر
كثيراً من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق الزهة على شاطئ النيل أو على الخليج المصرى . وكانت بركة
الأزبكية وبركة الفيل تحيط بها القصور الفخمة ، ولقد وصف الجبرتي في تاريخه المشهور تلك البيوت
وزخرفتها ورسومها ومجالسها . كما أن قصور المماليك التي كانت لا تزال قائمة في أيام الاحتلال العثمانى جذبت
أنظار الرحالة الذين شاهدوها .

وإذا كان العصر العثمانى قد سادته الروح الدينية ، فمن الطبيعي أن تصحب ذلك رعاية المؤسسات الدينية .
ومن الخطأ أن تهم الباشوات الأتراك بأنهم تمعدوا لإهمال آثار القاهرة من مساجد ومقابر ووكالات وغيرها .
فلم يبلغ معاصروهم من الفنانين والصناع مكانة رفيعة من البراعة . تعادل ما وصل إليه أسلافهم .

وإن كانت مباني العصر العثمانى ذات عمارة تترك في مجموعها أثراً جميلاً في النفس يشهد بما في تلك
الأبنية من تآلف وما يسودها من مسحة فنية ، فإن هناك شيئاً يقلل من جمال هذا الأثر ، ذلك هو ما في
الزخارف التركية من عيوب ملموسة ، بينما لعبت الزخارف في العصر السابق دوراً كبيراً كان لها أكبر عامل
في جمال الطراز وفخامة العمارة . على أن الزخارف المعمارية في عصر الأتراك كانت كثيرة ولكنها متأخرة .

فلم نعد نجد ما يشبه زخارف أيام قايتباي ولم تكن الكتابة المنقوشة مهذبة ، بل كادت أن تكون بدائية ليس لها طابع تنفرد به .

وكانت آثار القاهرة والبلاد هدفاً للمهانة وعرضة للتخريب . فانهارت قبة الإيوان الكبير لجامع الناصر محمد بن قلاوون المشيد داخل سور القلعة (١٥١٢) ووقعت مثذنة جامع السلطان حسن (١٦٥٧ م) كما تخربت قبة الجامع المذكور (١٦٦٠م) وهبت زوبعة شديدة خربت مثذنة جامع ابن طولون (١٦٩٤م) كما أثلقت المياه أساس جامع الحاكم (١٧٩١ م) . ولكن كل هذه الأضرار لم تكن شيئاً يذكر بجانب الخرائب التي أحدثتها الحروب والفتن ، وعوامل التلف التي جلبتها روح الانتقام . وكثيراً ما اقتلع القوم قصوراً من أسسها للانتفاع بموادها في تشييد مباني أخرى !

لقد ذكرنا أن السلطان سليم نهب كثيراً من نفائس مدينة القاهرة واستولى على كل الشمعدانات الفضية التي كانت بمسجد السيدة زينب ، ونقل كميات عظيمة من الرخام الذي احتوته قصور القلعة إلى ميناء بولاق لينقلها إلى الآستانة . وفي عام ١٠٧٦ هـ ضرب جامع المؤيد بالمدافع ثم أصلح فيما بعد .

وكان طلبة الأزهر كثيرى المشاغبات طالما ثاروا... ففي عام (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م) ثارت ثورتهم وكسروا أحد أبواب الأزهر احتجاجاً على تعيين أحد الأساتذة بالرغم منهم ! وفي سنة ١٧٩٦م هدم أحد المشايخ المدرسة الملاصقة لجامع سنان بيولاقي واستخدم عمدتها وحجارتها المنصوبة لبناء فندق خاص ! ووجدد اسماعيل بك في عام ١٧٩١ م عمارة منزله بمواد أخذها من أنقاض مسجد كان يقع على فم الخليج . وفي العام المذكور قام شيخ آخر ودمر قصرأ لعبد الرحمن كتحدا وباع مواده الأولية . وفي ذلك العهد استخدمت مساجد كثيرة كمخازن للضائع أو ورشاً للفرز أو مصانع لنسج الأقمشة . ومن تلك المساجد مسجد ابن طولون الذى استخدمه محمديك أبو الذهب ورشة للفرز .

عمارة القــــــــــــاهرة العثمانية

قلنا أن طراز العمارة العثمانية تسرب إلى مصر قبيل الفتح التركي بقليل بدليل أن تصميم رسم مسجد السلطان الغوري (١٥٠١ هـ / ١٥١٦ م) ومسجد خير بك وطراز القباب المتعامدة التي تغطي سقف المسجد الغوري والإيوان المتوسط لمدرسة قايتباي (١٥٠٣) والعقود الرئيسية لمسجد خير بك . كل هذه المنشآت تثبت لنا أن الأساليب العثمانية لفن البناء كانت قد تسربت إلى مصر قبل الاحتلال العثماني . وقد عرفت المثدثة الأسطوانية في مصر قبيل الاحتلال العثماني فإن إحدى مآذن بيت المقدس التي شيدت في عام ١٣٦٧ م قد أقيمت على نسق المآذن المستديرة في شمال الشام واقتبست من المآذن السلجوقية ، كما شاهد القاهريون بمثدثة جامع محمود الكردي مشيدة على ذلك الطراز منذ عام ١٣٩٥ م ، وهو الجامع الكائن في آخر قصبة رضوان في أول الحامية .

حاول العثمانيون أن يدخلوا على القاهرة تصميماتهم وأساليبهم وبعض حلياتهم الزخرفية الجديدة ، غير أنه لم يكن من السهل أن يغير المهندسون والمعماريون تغييراً كلياً ما كان لديهم من طرز معمارية وأساليب فنية وكان من الصعب عليهم أن يروا مسحة أجنبية تسود فنونهم وصناعاتهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الذين عاشوا في زمن المماليك .

وبالرغم من تصميم المدرسة الذي أدخله السلطان صلاح الدين في مصر ، فتمد كان المسجد ذو الإيوانات هو التصميم المألوف حتى القرن الخامس عشر . وقد احتفظ العصر العثماني بحملة أمثلة باقية من هذا التصميم ولو أن ذلك الطراز أصابه الفساد في هندسته الأصلية . وأوضح ما نلاحظه من هذا التدهور الفني نجده في جامع آق سنقر الفارقاني (١٦٧٠ م) فهو ورة ضئيلة إذا قارناها بما كان عليه الفن القاهري في أيامه الزاهرة .

أما جامع عثمان كتنخدا (١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م) فنلاحظ فيه إنسجاماً منظماً جداً . يتألف إيوانه الرئيسى من ثلاثة صفوف في كل منها أربعة عمد موازية لحائط القبلة أما الإيوانات الجانبية والإيوان الشمالى فتتألف من بلاطة وإحدة (رواق) ولا توجد الدكة بالقرب من نهاية الإيوان الرئيسى كما هو الحال في مساجد العصر المملوكى فإنها أصبحت توضع في الإيوان الشمالى معادلة للمحراب . ولما كانت عمد الإيوان الشمالى والعمودان الخارجيان في الصف الأول من الإيوان الرئيسى من العمدة الجرانيتية القديمة عالية جداً عن الأعمدة الأخرى . فقد أصبحت عقودها المشيدة فوقها أقل حجماً من العقود المنشأة على العمدة الأخرى .

وشيدت عدة مدارس في العصر التركى ، كان تصميمها بعيداً عن الجمال ، فقد شيدت مدرسة الدشوطى في السنة التالية للفتح العثمانى . وكانت صليبية الشكل بنى على طرازها الهندسى فيما بعد مسجد محب الدين أبو الطيب (١٥٢٨) وهو يقع على بنية السالك من الخرقةش . ذو إيوانين باقيين إلى اليوم ويحده مفروش بالرخام الملون ومنبره دقيق الصنع مرصع بالمعاج والأبنوس . ولم يبق من هذا الجامع سوى إيوانه فقط .

فإذا انتقلنا إلى مساجد عبد اللطيف قراقى « وقالطاي » والهياتم وهى من مشيدات القرن الثامن عشر شاهدنا اختلافات أخرى . ففي المسجد الأول نرى أن الإيوانين الجنوبي والشمالى يشغلان معظم البناء ويفصلهما عن بعضهما رواق علوى في وسطه منور سماوى ، وفي المسجد الثانى نلاحظ أن الإيوان الرئيسى أقل اتساعاً من البلاطة الوسطى . بينما نرى أن الرواق العلوى المقابل يؤدى مقام الدهليز وترتكز القناطر فوق عمود متوسط ثم لا نشاهد إيوانات جانبية فإنها لا وجود لها في هذا الطراز .

ولا يختلف كثيراً طراز مسجد الهياتم (١٧٧٧ هـ / ١٧٦٤ م) ، عن طراز المسجدين السابقين ، إلا أننا نرى أربعة أعمدة متجمعة تقوم مقام العمود الواحد السابق وطرازه من ناحية عامة ، يشبه المصلى بمسجد برسباى في مقابر الخلفاء . وفي جامع حسن باشا طاهر (١٨٤٣) نجد المنور أمام المحراب يشغل للسكان الذى كان للقباب في المساجد ذات الأروقة ، ويشتمل على ثلاثة أروقة كما كان الحال في مساجد العصور السابقة .

وهناك مساجد أخرى من الصعب أن نحكم بتبعيتها لأى طراز معين ، لمسجد البرديف مثلاً يختلف كل الاختلاف عن أى مسجد آخر بنى فى عصره أو قبله .

ويمكن القول أن الطرز التى أدخلها العثمانيون فى مصر يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام هى :

- (١) طراز الأناضول وأصله بزنطى ، ومن أمثلة هذا الطراز جامع سليمان باشا وجامع الملكة صفية .
- (٢) طراز القباب والإيوانات كالكنائس القديمة ، ولا سيما ماشيد منها فى ديار بكر فى القرن السابع . ومن أمثلة هذا الطراز جامع سنان الذى شيد حوالى عام ١٥٧١م) وجامع أبى الذهب (١٧٧٣ م) وهو صورة مطابقة للجامع الأول .
- (٣) طراز الآستانة : وقد نقله العثمانيون من آسيا الصغرى وشيد على طرازه جامع محمد على فى القلعة .
- (٤) طراز الصحن بدون القباب . ومن أمثله جامع الحمودية أمام باب العزب بالقلعة وجامع محمود محرم والقسم الذى أعاد تشييده الخديو عباس بجامع الأزهر .

ومن المظاهر المعمارية التى تطورت على أثر دخول العثمانيين ما نشاهده فى بعض المآذن والقباب ، وإن كنا نرى بعض المآذن التى شيدت فى عصر العثمانيين قد احتفظت بطابعها المملوكى كمنذنة جامع البرديف مثلاً التى إذا نظرنا إليها حسبنها لأول وهلة من عصر قايتباى ، وعلى كل حال فإن المنذنة الغالبة فى العمارة المصرية فى العصر التركى هى منذنة رفيعة بمشوقة على نسق مآذن الآستانة التى أخذها الأتراك عن السلجوقيين ، يحيط بمستواها الأسطوانى طنفان أو ثلاثة ويملوها مخروط كما هو الحال فى أبراج الكنائس الأرمنية .

ولا نشهد فى عصر الأتراك تلك الأضرحة الكبيرة التى كانت فى العصر المملوكى . فالضريح العثماني يمتاز ببساطته ، ولازالت القاهرة تحتفظ ببعض أمثلة من هذه الأضرحة . كضريح مصطفى أغا جالق فى مقبرة المماليك . ويرجع عهده إلى القرن السابع عشر وضريح عثمان بك قزدغلى بشارع الإمام الليث (١٧٦٧م) .

ولا شك فى أن المآذن والقباب والعقود والعمد والطنف العثمانية قد غيرت فى مظاهر القاهرة من ناحيتها المعمارية وذهبت بشيء من شكلها المملوكى . كما أن الزخرفة العثمانية كانت أحياناً تيميل إلى الوفرة والغزارة كما شوهدت فى أيام قايتباى السعيدة . ولا تقل الزخرفة بالقاشانى عما كانت عليه فى البلاد العثمانية نفسها وإن كانت القاهرة قد عرفت القاشانى من قبل .

والحراب العثماني بجلياته الرخامية صورة صادقة لحراب العصر المملوكى ، ونظرة إلى حراب مساجد سليمان ومحب الدين بن الطيب وسنان باشا ومحمد أبى الذهب تؤيد صحة هذا الرأى .

السبيل الكتاب

ومن المباني التي لحقها بعض التطور على أثر دخول العثمانيين البلاد المصرية « السبيل الكتاب » فقد كان هذا إلى أواخر القرن الرابع عشر ملحقاً بإحدى المدارس أو يشغل ركناً من أركان الجامع . ولكننا نجده في العصر العثماني قد أصبح بناء مستقلاً . كان في بادئ أيامه مربع الواجهة تزينه من ناحيته أو من نواحيه الثلاث النوافذ النحاسية الجميلة ، يستطيع أن يد المار يده منها ليشرب ماءها الصافي من حوضها الرخامي الناصع البياض . وكان الصعود إلى المدرسة بواسطة سلم يقود إلى أعلا المكان فيجد الداخل نفسه في غرفة الدراسة ، تتصل بشرفة واسعة متجددة الهواء أقيمت حولها الأعمدة ، تتوسطها قطع المشربيات الأنيقة وتحمل الأعمدة توجد الكوايل الخشبية المزخرفة .

كان هذا الطراز السبيل العثماني الذي أدخل إلى القاهرة في أول أيام حكم الأتراك ، وعلى نسقه شيدت أسبلة عدة ، أهمها سبيل خسرو باشا (١٥٣٥م) أمام ضريح الملك الصالح أيوب وسبيل القزلار (١٦١٩م) وسبيل حسين كتحدا وشاهين أغا وعبد الباقي وحسن كتحدا ، وسبيل عبد الرحمن كتحدا .

وفي أثناء القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر استدارت واجهة السبيل وأصبحت تشمل على نقوشات تملو شبائيك السبيل . وصارت له قاعدة تلف حوله بدرجات من المرمر النفيس ، وعلى هذا الطراز شيد سبيل أم عباس بالقرب من جامع وخانقاه شيخو وسبيل رقية دودو . أما سبيل سليمان أغا حنفى (١٩٧١) فينفرد بطابع هندسته ، وهو يختلف عن بقية الأسبلة الأخرى إذ نجده ملحقاً بالضريح كجزء من البناء نفسه .

على أننا لا نستطيع أن نستطرد في وصف مميزات العمارة المصرية في عهد العثمانيين ، فإن لهذا الموضوع كتبه الفياضة بالوصف والإيضاح . ولعلنا نرى في المستقبل القريب كتاباً بالعربية يبحث في تطور العمارة والفنون الإسلامية المصرية في عصورها المختلفة ، فالقاهرة كانت في يوم من الأيام ملتقى الممارين والأثريين ومحط رحال أهل الفن . وقد كان لها من أيامها المحيطة عمارة نعتز بها ، تمتعت بالعظمة والجلال في أيام ازدهارها ثم أصابها الفتور والهزال . وأصبحت الآن وليس لها عمارة مستقلة تباهى بها الممارات الأخرى . فممارتها خليط بين الممارات الإيطالية والألمانية والإنجليزية . ولو سار العثمانيون على وتيرة أسلافهم المالك في الإنشاء والتعمير لكانت القاهرة اليوم تباهى بطابعها الشرقي . لكن العثمانيين لم يعبأوا بثروتنا البنائية . وبنوا لأنفسهم فقط .

الدور في القاهرة العثمانية

دار محمد بن الحاج سالم الجزار

(المعروف بمنزل الكريدلية)

تتألف هذه الدار من بيتين ، هما بيت محمد بن الحاج سالم ، وبيت السيدة آمنة بنت سالم ، ويقعان شرقي جامع ابن طولون ، فيمر بينهما دهليز يوصل إلى الباب الشرقي لهذا الجامع . فالبيت الأول وهو الذي الآن باسم بيت الكريدلية يقع إلى عین الداخل من هذا الدهليز إلى باب الجامع ، بينما يقع البيت الثاني إلى يساره. ولكن البيتين متصلان بممر أو «سباط» فوق هذا الدهليز محمول على عقد ، وبيت الكريدلية يرجع إلى سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م ، وقد أنشأه الحاج محمد بن المرحوم الحاج سالم بن المرحوم الحاج جلام الجزار ، كما ذكر في شريط من الكتابة بسقف المقعد ، وفي ركنه الشرقي القبلي سبيل ذو سقف به زخارف جميلة متعددة الألوان ، والباب الرئيسي لهذا البيت إلى عین الداخل في الدهليز ، ويؤدي هذا الباب إلى « صفة » تبدأ عندها « طرقة » ذات سقف معقود تسير إلى اليسار وتنتهي إلى فناء الدار .

ويمتاز فناء بيت الكريدلية ببعض الأساليب المعمارية الطريفة ، ولا سيما بروز الطابق الأول على خرجة من ثلاث حطات من المقرنصات فضلا عن تنوع عقود الأبواب ، ثم النوافذ الجميلة المصنوعة من الخشب والجص ، ومقعد بيت الكريدلية في الجنب القبلي تطل على الفناء بعقدين محمولين على عمود من الرخام ويتصل المقعد « التختبوش » بقاعة كبيرة تطل على الواجهة القبلية للدار كما تطل على الفناء ، وتؤدي إلى غرفة صغيرة تطل على الواجهة الشرقية ، ثم إلى قاعة كبيرة تطل على فناء الدار وعلى الوجهتين البحرية والغربية . وفي هذه القاعة الأخيرة سقف غني بالزخارف الجميلة ، وفيه أفريز من الكتابة قوامه ، أبيات من قصيدة البردة ، كما أن فيها مشربيات جميلة (١) .

أما بيت آمنة بنت سالم فإن بعض الأساليب والزخارف المعمارية في بابه تدل على أنه يرجع إلى عصر السلطان قايتباي (١٤٦٨ هـ / ١٤٩٥ م) ولعله آل بعد ذلك إلى صاحب بيت الكريدلية ، وأهم مشتملات هذا البيت قاعة كبيرة ذات إيوانين ، بينهما جزء أوصفه منخفضة قليلا (الدرقاعة) . وفي عام ١٩٢٨ م نزلت مصلحة التنظيم ملكية هذين البيتين وأرادت هدمهما تنفيذاً لمشروع التوسيع حول جامع ابن طولون ، ولكن لجنة حفظ الآثار العربية اعترضت على ذلك ، واستطاعت أن تتسلمهما ثم بدأت في تجديدهما وإصلاح ما فيهما ليصبحا من أروع الأمثلة للقاعة لطراز العمارة في العصر العثماني . وأتيح لهذين البيتين

(١) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة . ص — ١٩٧ — ٢٠١ ورقم هذا الأثر ٢٢١ .

أن يعود إليهما ما كان لهما من روعة وجمال ، حين تقدم الميجور جابر أندرسون سنة ١٩٢٥ وكان من بين الضباط الإنجليز الذين خدموا الحكومتين المصرية والإنجليزية في وادي النيل ، إلى اللجنة طالباً أن يسكن هذين البيتين على أن يقوم بتأنيثهما على الطراز العربي ، ويعرض فيهما مجموعته الأثرية النفيسة ، وعلى أن يصبح الأثاث والتحف النفيسة ملكاً للأمة المصرية بعد وفاته أو حين يغادر مصر نهائياً .

وأقبل الضابط على تنظيم البيتين في مهمة لا تعرف الكلل وذوق فني وخبرة في الفنون ، وأنفق الأموال الطائلة في شراء الأثاث والألطف من البيوت الأثرية ومن أسواق العاديات في مصر وغيرها من البلدان . وأصبح بيت الكريديلية من معالم القاهرة الجميلة . كما أضاف إلى ذلك كله مكتبة عامرة بالكتب النفيسة على مصر ولا سيما وصف الرحالة لها (١) .

دار جمال الدين الذهبي

بحارة خشقدم

شيد هذا البيت جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر في عام ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م كما دون على طراز سقف المقعد ، ويشرف على فناء البيت اللطيف مقعد ذو عقدتين متكشكين على عمود من الرخام . ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات الإيوانين اللذين تتوسطهما درقاعة مغطاة بقبة صغيرة من الخشب . وأسفل جدران القاعة مكسية بوزرة جميلة من الرخام البديع الصنع الملون ، وبها جزء على هيئة محراب ، وبالإيوان البحري مشربيات ، وبصدر القاعة مشربية لطيفة تطل على الشارع ، تملوها شباييك صغيرة من الجص وقطع الزجاج الملون . وسقفا القاعة والمقعد مهيان بالدهان ومزوقين بالذهب وأرضية القاعة مغطاة بالرخام .

ويدل تخطيط هذا البيت الأنيق على براعة مهندسه . وبوسط الفناء نافورة من الرخام تقف إليه من منزل آخر .

دار الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي^(٢)

المعروف ببنت السحيمي (١٦٤٨ - ١٧٩٦)

يقع هذا البيت بشارع درب الأصفر بالجلمالية، وقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي في سنة ١٠٥٨هـ

(١) دكتور زكي محمد حسن: بيت الكريديلية ، مقال نشر في مجلة الثقافة .

(٢) رقم هذا الأثر ٣٣٩٩

(١٦٤٨م) وقد دون هذا التاريخ على طراز خشبي جميل في أحد جدران البيت . ويتكون من قسمين أحدهما قبلي ، والآخر بحري .

أما القبلي فقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب سنة ١٦٤٨ م وأهم ما يشتمل عليه هذا الجزء ، القاعة التي على يمين الداخل والمشملة على إيوانين بينهما درقاعة أرضيتها مفروشة بالرخام المختلف الألوان ، وعلى يسار الداخل قاعة أرضيتها من الرخام وعلى بابها تاريخ تجديدها .

وأما القسم الآخر ، وهو البحري فقد أنشأه الحاج إسماعيل بن الحاج إسماعيل شلبي عام (١٢١١هـ) ١٧٩٦ — ٩٧م وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما بيتاً واحداً .

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول ، فهو يشتمل على قاعة بحرية شرقية تملوها غرفة كبيرة ، ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية بوسطها فسقية من الرخام وبها نافورة تعد من أجمل ما صنع من نوعها . وأمام القاعة ردهة يتوسطها سقفا «شخشيخة» حديثة . ويكتنف هذه القاعة من جانبيها البحري والقبلي سلمان يؤديان إلى الطابق العلوي للبيت ، وتعتبر الغرفة البحرية الكبرى الراكبة على تحبوش محمول على عمود من الرخام أنغم حجر المنزل ، وهي مكونة من إيوانين تتوسطهما درقاعة والجزء السفلي من جدرانها مكسى بالقاشاني المتنوع . وللبيت درجات أخرى تؤدي إلى بقية الغرف ، وبالركن البحري الشرقي للحديقة طاحونة وساقية .

دار محمود محرم

تعرف أيضاً بدار الضيافة (المسافر خانة) وتقع بين دربي المسمط والطبلاوى بحي الجمالية ، شيدها الحاج محمود بن محرم في سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩) وأتممها وزخرفها فأصبحت من أجمل دور القاهرة في القرن الثامن عشر ، وقد تعاظمى التجارة واشتهر ذكره وعرف بالصدق والأمانة وأحبه الأمراء المصريون ، وتداخل معهم بعقل وذكاء وحسن سياسة .

وفي عام ١٧٨٤ زوج ولده أحمد وأقام له الأفراح التي دعا إليها الأكابر والأعيان والتجار ، وأسكنه معه في داره . وفي سنة ١٧٩٢ عمر مسجداً بجوار بيته على رأس درب المسمط ووقف عليه أوقافاً ورتب فيه التدريس . وفي السنة التالية حنق ، وفي أثناء عودته مع الحجاج مرض بالحمى .

وللدار ثلاثة أبواب ، إثنان في درب المسمط أحدهما الباب العام والثالث في درب الطبلاوى . فالباب العام يؤدي إلى دركاة (دهليز) يوصل إلى صحن كبير مكشوف ، به على اليمين قاعة تجوى إيوانين ودرقاعة بصدورها صفة كانت توضع فيها النارجيلات والطشوت والأباريق ... الخ . وبه في الجهة الغربية باب يؤدي

إلى سلم وبجواره باب آخر يؤدي إلى فضاء ربما كان في الأصل من الحديقة ، ويتبعمه غرف ومرتفعات للدار ، وبه من الجهة القبلية « التختبوش » بعموده الرخامي البديع الحامل للعتب الخشبي المنقوش والذي كان فوقه مشرعية جميلة من الخرط وقد استبدلت بشبايك « شيشة » .

والجنب الشرق للصحن به ثلاثة أبواب . الأيسر يؤدي إلى سلم يصعد منه إلى العرف العليا وبخاصة إلى الجناح الشرقى حيث ولد اسماعيل خديوى مصر الأسبق ، والأوسط يؤدي إلى قاعة « الأنس » نقش تاريخها على العتب سنة ١١٩٣ هـ وهذا نصه :

ألا لمن هذى روضة الحسن والهنا وجنة فردوس السرور المقيم
تفوق على الجوزا بحسن جمالها وبهجة منشيا الجواد الكريم
وأقسم داعى الخط فيها مؤرخاً لقاعة أنس وسط دار النعم

والباب الأيمن أكثر زخرفة من سابقه ومصراعه من خشب معشق آية في البهاء والرونق ، وقد نقش على عتبة الرخام ما يأتى :

شاد العلاقاعة من حسن رونقها أضفى الدبر من جملة الخدم
على قواعد حفظ الله قاعة وقد غدت بمزيد الأمن كالحرم
فى بيت عز لك العليا تؤرخه بشراك فيه بطول العمر والنعم

ويؤدى هذا الباب إلى رحبة توصل إلى قاعة المجد وهى القاعة الكبرى القبلية الخاصة باستقبال التجار وغيرهم وإلى أما كن أخرى ، ويعلو الباب عتبة نقش عليها :

لك يا ذا العزيز قاعة حسن هى فى مصر جنة القاعات
صانمها الله من حسود ودامت بك مأوى العلياء واللذات
من يشاهد إشراقها قال أرخ أنها قاعة من الجنات

وتحتوى قاعة المجد على ثلاثة أواوين بينها دور قاعة ، فالإيوان المقابل للداخل به شرائح خشب خرط دقيق ، والإيوان الأيسر به خزانة خشب جميلة الصنع وبأرض الدور قاعة نافورة جميلة من فسفساء رخام ، أما السقف فمن الخشب ويوجد بدائر القاعة طراز من الخشب مكتوب عليه بالخط الثالث الجليل تاريخ الانشاء فى قصيدة مكونة من ٢٦ بيتاً أولها .

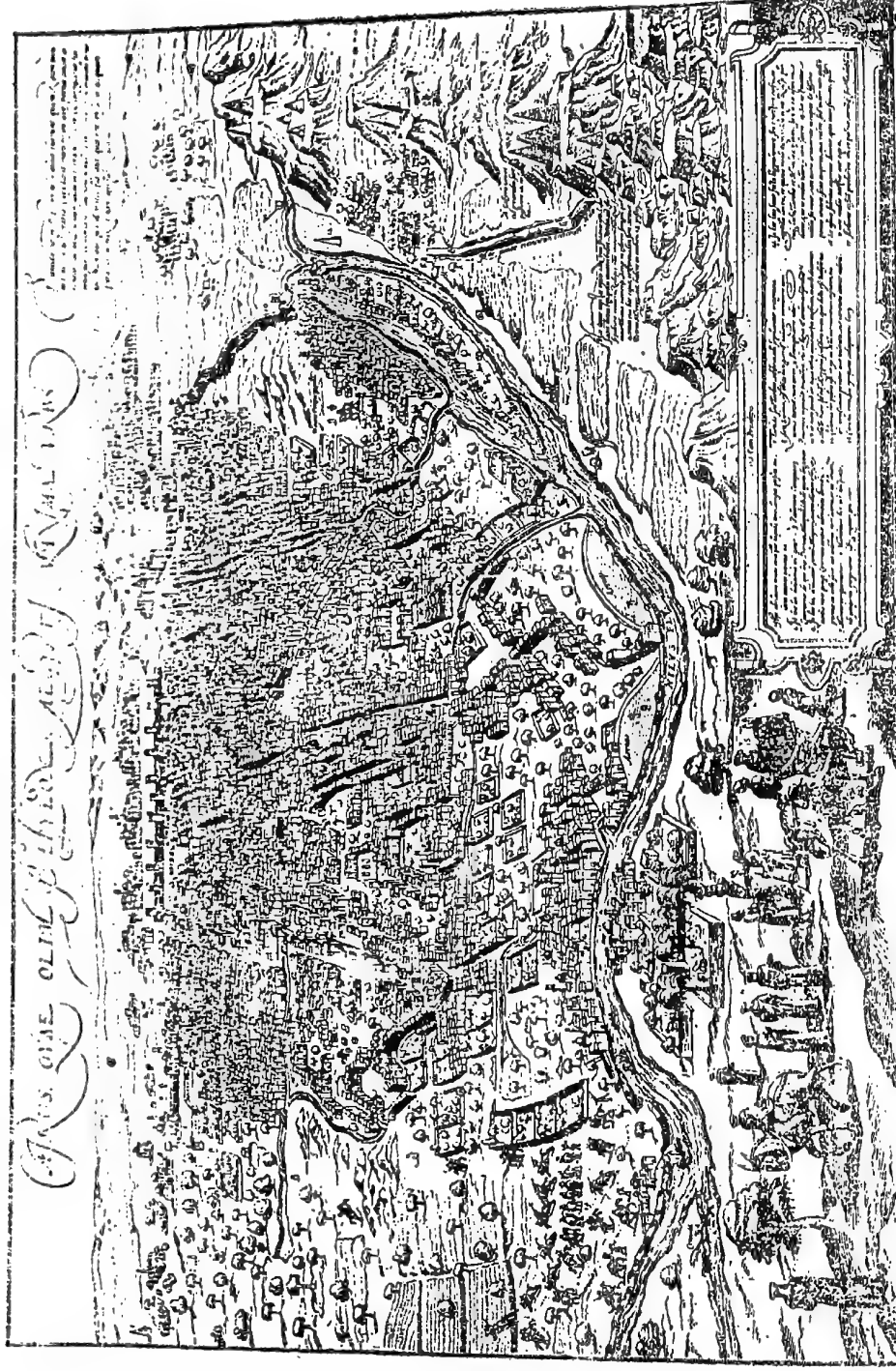
هذه زهرة لها المجد شيد وعلى غيرها لها الله أيد
وبأسماء ذي الجلاله تعالى وبآياته لها الحفظ يسند ... الخ

وبالدور العلوى فى هذه الدار قاعة الاسعاد وتحوى إيوانين ودور قاعة بينهما ، فالإيوان الأيسر يشرف على درب السمط من مشربية من الحشب المخروط الدقيق الصنع وبجانبه خزانات فوقها طراز دائر حول القاعة كلها ، وبالدور قاعة باب يوصل إلى طرقة بها حمام وفريزة وقد كتب على الطراز قصائد متنوعة .

والقاعة القبلىة بهذا الطابق هى التى ولد بها الخديو اسماعيل فى ١٦ رجب سنة ١٢٤٤هـ (٢٢ يناير ١٨٢٩) وهذه الغرفة خزانة بمصراعين بينهما مصراع يؤدى إلى سلم على اليمين وإلى حجرة صغيرة تتصل بأخرى ضيقة بها باب يؤدى إلى القاعة الشرقية الكبرى العليا وإذا صعد الزائر من السلم يجد نفسه فى قاعة صغيرة تحوى إيواناً واحداً ودور قاعة بها مشربية جميلة ، وهذه تؤدى إلى قاعة كبيرة لا تقل أهمية عن القاعات الأخرى (١) .

وينسب إلى هذا العصر بعض دور أخرى ، رأينا أن نذكرها فى الفصل التالى ، وذلك لارتباطها بالأحداث المتعلقة بثورات القاهرة ضد الفرنسيين .

(١) أحمد يوسف : المجلد الجديدة .



خريطة القاهرة نشرت في مؤلف ألماني حوالي عام ١٥٧٤ (أوائل العصر العثماني)

آثار العصر العثماني

(٩٢٣ / ١٢١٩ هـ - ١٥١٧ / ١٨٥٦ م)

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
٢٤ - ١٥١٩	٣١ - ٩٢٦	باب وتكية وقبة الككشني	٣٣٢
١٥٢٢	٩٢٩	زاوية حسن الرومي بالحجر	٢٥٨
١٥٢٨	٩٣٥	مسجد سليمان باشا (سارية الجبل) بالقلمة	١٤٢
١٥٣٥	٩٤٢	سبيل وكتاب خيرو باشا بالنحاسين	٥٢
١٥٣٨	٩٤٥	قبة جاهين الخاوي بسفح المقطم	٢١٢
١٥٤٠	٩٤٧	منزل آمنة بنت سالم	٥٦٩
١٥٤١	٩٤٨	وكالة سليمان باشا	٥٣٩
١٥٤٣	٩٥٠	تكية السلمانية بالسروجية	٢٢٥
١٥٤٨	٩٥٥	مسجد داود باشا	٤٧٢
١٥٦٨	٩٧٥	» المحمودية بالمنشية	١٣٥
١٥٦٨	حوالي ٩٧٥	قبة عبد الوهاب الشعرائي بشارع الشعرائي	٥٩
١٥٧١	٩٧٥ - ٩٧٩	مسجد سنان باشا ببولاق	٣٤٩
١٥٧٥	٩٨٣	» نور الدين (مسيح باشا) بعرب اليسار	١٦٠
١٥٧٨	٩٨٦	جامع مراد باشا بالموسكى	١٨١
القرن السادس عشر	القرن العاشر	سبيل يوسف الكردي بدرب الجماميز	٢١٣
» » »	» »	منزل وقف الحاج عبد الرحمن الفاشي	٣٥٥
٩٦١٠	١٠١٩	مسجد الملكة صفية بالدواوية	٢٠٠
٢٩ - ١٦١٦	٣٨ - ١٠٩٢٥	» البرديني	٢٠١
١٦١٨	١٠٢٨	سبيل وكتاب القزلار بالسيوفية	٢٦٥
١٦٢٥	١٠٣٥	مسجد يوسف أغا الحيني بشارع درب الجماميز	١٩٦
١٦٣٠	١٠٤٠	سبيل مصطفى منان بسوق السلاح	٢٤٦
١٦٣٠	١٠٤٠	» وكتاب وقف قيطاس	١٦
١٦٣١	قبل ١٠٤١	مسجد عابدين بك (الفتح)	٥٨٧
١٦٣١	١٠٤١	منزل وسيل الكريدلية ببر الوطاويط	٣٢١
١٦٣٢	١٠٤٢	سبيل وكتاب خليل المقاطعجي بالدرب الأحمر	٧١
١٦٣٢	١٠٤٢	» سليمان جاويش بباب الشعرية	١٦٧
١٦٣٧	١٠٤٧	» وكالة جمال الدين الذهبي	٤١١

آثار العصر العثماني

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٧٢	منزل جمال الدين الذهبي بحارة خوشقدم	١٠٤٧	١٦٣٧
٢٣٨	سبيل ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	١٠٤٩-٥٠	١٦٣٩-٤٠
٣٣٩	منزل السحيمي بالدرب الأصفر	١٠٥٨-١٢١١	١٦٤٨-١٧٩٦
٣٦٥	زاوية رضوان بك	١٠٦٠	١٦٥٠
٢٠٨	مقعد » » بالحيامية	١٠٦٠	١٦٥٠
٥٩٥	منازل وقف ابراهيم أغا	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٩	منزل وقف » »	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٣	» » » » (مستحفظان)	١٠٦٢	١٦٥٢
٥٣٥	مسجد سيدي عقبة	١٠٦٦	١٦٥٥
٥٧	سبيل اسماعيل مغاوى بالقرب من مسجد الحسين	١٠٦٨	١٦٥٧
٤٦٣	منزل وقف السادات	١٠٧٠-١١٦٨	١٦٥٩-١٧٥٤
٥٢٤	مسجد عابدي بك	١٠٧١	١٦٦٠
٣٢٠	رباط الآثار بأثر النبي	١٠٧٣-١٢٢٤	١٦٦٢-١٨٠٩
٤٤٥	منزل وقف الست وسيلة	١٠٧٤	١٦٦٤
١٩٣	مسجد آق سنقر الفرقاني بحارة السيدة فاطمة النبوية	١٠٨٠	١٦٦٩
١٧	سبيل وكتاب أوده باشي بحارة البيضة	١٠٨٤	١٦٧٣
٥٩١	» » وقف اوده باشي	١٠٨٤	١٦٧٣
١٩	واجهة منزل ووكالة اوده باشي بالجمالية	١٠٨٤	١٦٧٣
٢٦٨	سبيل وكتاب علي أغا دار السعادة بالسوقية	١٠٨٨	١٦٧٧
٤١٥	مسجد ذو الفقار بك	١٠٩١	١٦٨٠
٥٥٣	سبيل مصطفى جورجي مستحفظان	١٠٩٤	١٦٨٣
٤٠٦	منازل وقف رضوان بك	القرن الحادي عشر	القرن السابع عشر
٤٠٧	» » » »	» » »	» » »
٣٩٨	وكالة بازعة	» » »	» » »
٣٦٣	سبيل ابراهيم شورجي	١١٠٦	١٦٩٤
٢٤٣	» وكتاب حسن أغا كوكليان بسوقية العزى	١١٠٦	١٦٩٤
٣٩٦	وكالة وسبيل عباس أغا	١١٠٦	١٦٩٤
١٤٥	مسجد أحمد كتحدا العزب بالقلعة	١١٠٩	١٦٩٧
٣٤٣	» مصطفى جورجي ميرزا بيولاقي	١١١٠	١٦٩٨
٤٦١	سبيل وكتاب أحمد سليم	١١١١	١٦٩٩

آثار العصر العثماني

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٤٠٥	سبيل وكتاب حسن كاتب عزبان	١١١٣	١٧٠١
٣٧٧	مسجد الحاج محمد باشا	١١١٣	١٧٠١
١٩٧	سبيل وكتاب علي بكر الدمياطي بدرب سعادة	١١٢٢	١٧١٠
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	١١٢٥	١٧١٣
٤٧١	» وقف مصطفى جعفر السليدار	١١٢٥	١٧١٣
٥٠٨	سبيل ابراهيم المانسترلي	١١٢٦	١٧١٤
٢٣٢	» موصل	١١٢٧	١٧١٥
٣٢٩	» وكتاب محمد مصطفى المحاسبجي بالداودية	١١٢٩	١٧١٦
٣٠٩	» بشير أغا	١١٣١	١٧١٨
١٥٠	» محمد كتحدا بشارع التبانة	١١٣١	١٧١٨
٤٥٢	» الأمير عبد الله	١١٣٢	١٧١٩
٦٣	منزل وقف الشعراني بالخرنقش	١١٣٨	١٧٢٥
٤٤٦	» » عبد الرحمن المراوي	١١٤٤	١٧٣١
٦١٠	مسجد الكردي	١١٤٥	١٧٣٢
٢٦٤	» عثمان كتحدا بشارع عابدين	١١٤٧	١٧٣٤
١٠٩	جامع الفكهاني بالعقادين	١١٤٨	١٧٣٥
٣١٣	سبيل وكتاب الست صالحه بدرب الجاميز	١١٥٤	١٧٤١
٤٠	» » الشيخ مظهر (ومسجده) بالخرديجة	١١٥٧	١٧٤٤
٢١	» » عبد الرحمن كتحدا في بين القصرين	١١٥٧	١٧٤٤
٢٢٦	» ابراهيم خلوصي بعطفة الليمون بالسروجية	١١٥٩	١٧٤٦
٣٨٣	تربة رضوان بك	١١٦٢	١٧٤٩
٣٠٨	تكية وسبيل السلطان محمود بالجبانة	١١٦٤	١٧٥٠
٤٢٨	المدرسة الكاملة	١١٦٦	١٧٥٢
٣٣١	سبيل ابراهيم بك الكبير بالداودية	١١٦٧	١٧٥٣
٥٥٥	باب العزب	١١٦٨	١٧٥٤
٣٨٧	سبيل وكتاب ومدفن رضوان أغا الرزاز	١١٦٨	١٧٥٤
٤٤٨	مسجد عبد الرحمن كتحدا	١١٦٨	١٧٥٤
٣١٤	سبيل وكتاب السلطان مصطفى بالسيدة زيلب	١١٧٣	١٧٥٩
٤١٤	مسجد الخلقوي	١١٧٣	١٧٥٩
٣٧٦	» سبيل الأمير خليل	١١٧٤	١٧٦١

آثار العصر العثماني

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٣٧٨	مسجد السيدة عائشة النبوية	١١٧٥	١٧٦٢
٢٥٩	« الأمير يوسف جورجي (جامع الهياثم بالحنفي) »	١١٧٧	١٧٦٣
٢٧١	تربة عثمان بك القازدوغلي بالركبية	١١٨٠	١٧٦٦
٦٠٠	مسجد أحمد العزبان ؟	١١٨٤	١٧٧٠
٢٦٢	سبيل يوسف بك بشارع السيوفية	١١٨٦	١٧٧٢
٣٨٥	تربتا علي بك الكبير واسماعيل بك الكبير	١١٨٧	١٧٧٣
٩٨	جامع محمد بك أبو الذهب أمام الأزهر	١١٨٨	١٧٧٤
٦٢	سبيل وحوض محمد بك أبو الذهب بشارع التبليطة	١١٨٨	١٧٧٤
٥٤٠	منزل علي كتنخدا (الربماة)	١١٩٠	١٧٧٦
٢٣٥	قاعة ومقعد أحمد كتنخدا الرزاز بسوق العزى	١١٩٢	١٧٧٨
٢٠	المسافر خانة بقصر انشوق بالجمالية درب المسقط	١١٩٣-١٢٠٣	١٧٧٩-٨٩
٥٩٢	حمام الملاطيلي	١١٩٤	١٧٨٠
٦٠٨	مسجد السادات الوفائية	١١٩٩	١٧٨٤
٥٩٦	حمام السكرية	القرن الثاني عشر	القرن الثامن عشر
٥٦٤	« الطملي »	» » »	» » »
٢٦٠	سبيل وحوض عبد الرحمن كتنخدا بالحطابة	» » »	» » »
٤٢٣	وكالة الصناديقية	» » »	» » »
٦١٥	« وكالة بدوية بنت شاهين »	» » »	» » »
٤٩٧	منزل علي لبيب	آخر »	آخر »
١٦٥	« وقف العروسي والريان بسوق الزلط »	» » »	» » »
٣٠	جامع محمود محرم بركة باب العبد بالجمالية	١٢٠٧	١٨٩٢
٢٨٣	منزل ابراهيم كتنخدا السناري بحارة مونيخ بالسيدة زينب	١٢٠٩	١٧٩٤
٥٦٨	« حسين كتنخدا شنين »	١٢١٧	١٨٠٢
٥٩٩	مسجد زين العابدين	١٢٢٠	١٨٠٥
٦٠٢	سراي محمد علي بشبرا	١٢٢٣	١٨٠٨
٠٠٠	مبجى مياه (محمد علي باشا)	١٢٢٣	١٨٠٨
٢١٠	مسجد حسن باشا طاهر ببركة الفيل	١٢٢٤	١٨٠٩
٤٥٥	قلعة محمد علي	١٢٢٥	١٨١٠
٦٠٦	دار الضرب	١٢٢٧	١٨١٢

آثار العصر المملوكي

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٥٠٥	قصر الجوهرة والعدل	١٢٢٩	١٨١٤
٦١١	مسجد جوهر الكعبي	١٢٢٩	١٨١٤
٥٦٥	مدفن أحمد باشا طاهر	قبل ١٢٣٣	١٨١٧
٤٠١	سبيل محمد علي بالقادين	١٢٣٦	١٨٢٠
٦١٢	قصر الحرم	١٢٤٣	١٨٢٧
٦٠٥	دار المحفوظات	١٢٤٤	١٨٢٨
٤٠٢	سبيل محمد علي بالنحاسين	١٢٤٤	١٨٢٧
٦٠٤	وكالة السلحدار	١٢٥٣	١٨٢٧
٣٨٢	مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار	١٢٥٥	١٨٣٩
٤٦٢	جامع الجوهري	١٢٦١ - ٦٥	١٨٤٥ - ٤٨
٥٠٣	مسجد محمد علي الكبير	١٢٦٥	١٨٤٨
٤٣٣	سبيل وكتاب وقف الحرمين	١٢٧٢	١٨٥٦
٥٦٧	حمام العدوى	القرن الثالث عشر	القرن التاسع عشر

الفصل الثامن

القاهرة في أيام الحملة الفرنسية

من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١

تقدم الآن صورة للقاهرة حين قدم إلى مصر نابليون بونابرت على رأس حملته . فقد كانت تمتد حدودها الشمالية بين الحسينية وباب الحديد ، وجنوباً بين القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فياب طولون فياب البغالة فياب السيدة زينب . وشرقاً من القلعة فياب الوزير فالترب فياب الحسينية . وغرباً من باب الحديد إلى الأزبكية فياب اللوق فياب الشيخ ربحان فالناصرية فياب السيدة زينب . وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل الشرقى وبينها وبينه مزارع . وكانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة . وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق . وقد قامت على شاطئ النيل الشرقى بعض مباني قديعة كقصر إبراهيم بك (قصر العيني) تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرنؤوطى وعلى شماله بيت لمصطفى بك وكان جامع الظاهر خارج عمران القاهرة .

لقد اتفق أكثر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر في تلك الفترة على أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج ، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر متراً . ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة : ميدان قره ميدان تحت القلعة ، وميدان الرملة المجاور لقره ميدان يفصلهما باب اسمه باب قره ميدان ، وميدان بركة الفيل ، وميدان الأزبكية ويسمى بركة الأزبكية .

وقدر العلماء الفرنسيون مساحات الأحياء المسكونة في القاهرة وبولاق ومصر القديمة بنماائة هكتار أى أقل من ربع باريس في القرن الثامن عشر . ولما وصلت الحملة الفرنسية كانت البيوت الشاهقة قد تقلص عددها وانحطت هندستها وبدت على عمارتها مظاهر الفاقة ، وتعذر النقل بين أحياء القاهرة وطلعت مؤامرات الاستبداد ، فأهملت مرافق البلاد الاقتصادية وقفلت القاهرة حيوتها . وأصبحت أحياء باب الخلق والأزهر والحنفى والموسكى والسيدة زينب تبدو فيها مظاهر البؤس البشع ، مما أثر في نفوس الرحالة «تيلنو» و«سونينى» و«فولنى» وأمامنا الناحية الفنية فإن عصر الازدهار الذى نعمت به في عهد السلاطين المماليك كان قد

ولى وعنى أثره — ولم تكن ملامح الفن قد اندثرت تماماً فكانت لا تزال بقاياها موجودة في تلك المباني التي خلفها الأتراك كسبيل خسرو باشا وبيت جمال الدين الذهبي وبعض المساجد المملوكية .

أما القاهرة المقرىزى ، وكانت عروس الشرق — تلك التي وصفها في خططه الخالدة بما احتوت عليه من رحاب ومتنزهات وقصور للخلفاء والأمراء وغيرها من المناظر والمدارس والمساجد ودور الكتب فلم يبق منها إلا القليل . ومع ذلك فقد احتفظت القاهرة بصورتها الشرقية الجميلة لما احتوت عليه من الوكالات والحمامات والأسبلة والمساجد وبعض العماير الجميلة .

وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها ، أجمل الميادين الأربعة تحيط بها القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان . وفي أيام الفيضان تمتلئ بمياه النيل فتصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق في النهار والمساء والليل . وتوقد المصابيح من الليوت المظلة عليها ، فيسكون منظر البركة من أبهى المناظر ولا سيما في الليالي القمرية .

وكانت المدينة في حالة سيئة من الإهمال وعدم العناية بالمرافق الصحية . وقد كتب الجنرال « ديوى » أحد قوادنا بليون ، وكان قد عين حاكماً للقاهرة إلى صديق له يقول « المدينة بغضة جداً ، قذارة شوارعها لا تحتمل ورائحتها كريهة وأهلها ييطشون . وأكاد لأن لا أعرف المدينة التي تكبر باريس حجماً إنما تختلف عنها من جميع الوجوه » .

ولقد دفع هذا البؤس رجال الحملة الفرنسية إلى العمل على تخليص القاهرة من طاعون يكتسبها . فأمر نابليون بإنشاء محاجر صحية بجزيرة بولاق . كما أمر بإقامة مستشفى عسكري في قصر مراد بك بالجزيرة ثم عدل عنه ونقله إلى قصر إبراهيم بك تجاه الروضة . وأنشأ لجنة لإدارة الشؤون الصحية في القاهرة ومصر القديمة وبولاق ، فوضعت اللوائح لنظافة المدينة . وطالبت باضاعة قناديل بالطرق والأسواق بحيث يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وأن يداوم الأهالي على الكسكس والرش وتنظيف الطرق من القاذورات ونبه عليهم بمنع دفن الموتى بالمقابر القريبة من المساكن كمقابر الأزبكية والرويعي ، وأن يدفنوا موتاهم بالمقابر البعيدة ، وفي حالة الدفن يجب العناية بالحفر ، وطالبت اللجنة أيضاً بنشر الثياب والأمتعة بالأسطح عدة أيام وتبخير المنازل بالمطهرات اجتناباً للطاعون .

نابليون في القاهرة

بعد أن انتصر نابليون على المماليك في معركة امبابية ، سار في طلعة جنوده إلى الجزيرة واتخذ قصر مراد بك معسكراً له وقد استولى على مصنع ذخيره الذي أنشأه بالجزيرة . وفي مساء اليوم احتلت قوة من الجيش الفرنسي جزيرة الروضة . وفي مساء اليوم التالي دخل الجنرال « ديوى » القاهرة على رأس قوة من الجند

فلم يلق بها مقاومة وعسكر ليلاً في بيت إبراهيم بك . فكانت هذه القوة طليعة الجيش المحتل . وفي ٢٣ يوليو ١٧٩٨ تبعها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها وأصبحت العاصمة المصرية في قبضة امبراطور فرنسا .

دخل نابليون القاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ فسكت فيها حتى رحل إلى سورية في اليوم العاشر من فبراير ١٧٩٩ . وفي تلك الفترة لم يغب عن القاهرة سوى مرتين : المرة الأولى في أثناء مطاردته لإبراهيم بك ، والمرة الثانية لما قصد سيناء مع بعثة من رجاله العسكريين والعلماء لاستكشافها وقد جعل نابليون سكنه ومقر رئاسة الجيش العامة في قصر محمد بك الألفي بالأزبكية .

قصر محمد بك الألفي

كان هذا القصر مخطط الساكت الذي لم يكتم تشييده وتأسيسه حتى فوجئت مصر بحملة نابليون ، فكان الألفي قد بناه لامبراطور فرنسا . وكان يتألف من ثلاث مربعات كبيرة من المباني الجميلة تفصل كل منها عن الآخر الحدائق الغناء . وكانت واجهة القصر الرئيسية تشرف على النيل . ويظهر أن نابليون لم يشأ في بادئ الأمر أن يعدل كثيراً في مبنى هذا القصر لكي يصير مطابقاً لحاجته . لكنه طلب أخيراً في فبراير ١٧٩٨ من الجنرال « كافاريللي » كبير مهندسيه العسكريين أن يدرس تشييد سلم قليل الكلفة لا يتجاوز نفقات إقامته ألف وخمسمائة فرنك . وكان الدور الأول من القصر يشتمل على بهو فاخر جداً أقام فيه نابليون الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية حيث أعد وليمة دعا إليها مائة وخمسين مدعواً . وفي طرف هذا الصالون البديع كان يوجد الديوان المستطيل . وكانت جدرانها عارية من الزخرفة والنقش على الطريقة التركية . ولكنها زينت فيما بعد باللوحات الفنية الأنيقة التي أبدع فيها النقاشون والرسامون الفرنسيون ، فكانت تزيى صور مشاهير الشيوخ يعمل على إخراجها « دوترز » و « ريجو » وغيرهم من مشاهير الفنانين الذين صلبوا الحملة .

وقد تغالى الفرنسيون في بدء الاحتلال في الاعتداء على ممتلكات الأهالي ومن فيها من القاطنين الهادئين وذكر الجبرتي الكثير من ذلك ، فقد وضعوا أيديهم على قصر الأمير حسن كاشف جركس بالناصرية (١) . ونهب الغوغاء قصرى الأميرين إبراهيم بك ومراد بك بخطط قوصون وأحرقوا أجزاء منهما . ومن ذلك أيضاً أن جماعة من الجنود الفرنسيين بصحبة مترجم ومهندس قصدوا بيت رضوان كاشف بياب الشعرية فازيحت زوجته لباغتهم لها وكانت قد دفعت من قبل للخزينة العسكرية ألف وثلاثمائة ريال ولصقت الايصال على باب دارها لتبمد المطالبين عنها ولتطمئن على حياتها . فلما حضر إليها الجند لتفتيش بيتها صندتهم قائلة أن

(١) راجع وصف هذا القصر في ذيل الفصل .

ليس عندها أسلحة أو ملابس للمالك . فلم يقتنموا بقرطها وصعدوا إلى الدور العلوى وفتحوا مخبأه فوجدوا فيه أنواع الأسلحة والذخيرة والملابس ، كما عثروا على دراهم كثيرة مخبأة فأخذوا كل ما وجدوه وقبضوا على السيدة وجواربها فأقن عندهم ثلاثة أيام ونهبوا ما وجدوه بالدار من أثاث ورياش وقرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى دفعتها السيدة فأطلقوا سراحها ورجعت إلى دارها .

ووزع نابليون قصور أمراء الممالك وكبار الأعيان على كبار قواد جيشه ، فسكن الجنرال « ديوى » قصر إبراهيم بك في بركة الفيل . وقد كتب في خطاب أرسله لوالديه يقول :

« أسكن في أجمل قصور القاهرة » . . .

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديتروى » في بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فعادراه إلى بيت رجب كان يمتلكه الأمير رضوان . . . له ردهات رحبة وإيونات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم الكيماوى « برتولى » وكان يلى العالم « لافوازيه » في شهرته بيت يحى كاشف الكبير بحارة عابدين^(١) . أما « جور » واثنتان من مترجمى الحملة فكان نصيبهم أحد قصور مراد بك الفخمة واستولت بعض فرق المشاة على بعض البيوت المطلة على الأزبكية وحولتها إلى ثكنات كما تقتضى الحاجات العسكرية . أما الخيالة فاحتلت إحدى وكالات الأرز في بولاق .

وبعد أن انهزم الفرنسيون في معركة أبى قير أمروا بإقصاء كثيرين من أصحاب البيوت عن بيوتهم بحجة حاجتهم إليها كما هدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد لتحسين القاهرة كما سنوضح ذلك .

قال الجبرتى في هذا الصدد : وفي شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٢ [١٧٩٨] أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة للسكن فيها ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا في بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وغيروا معالم القلعة وأبدلوا محاسنها ومحو ما كان بها من معالم السلاطين وآثار العظماء . وما كان في الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط . . . الخ » .

نابليون يتوود إلى القاهريين

وسارت جنباً إلى جنب مع سياسة الحزم والشدة التى اتبعها نابليون مع المصريين سياسة أخرى ، هى التقرب إليهم عن طريق احترام تقاليدهم والاشتراك فى أعيادهم فأمر مثلاً بالاحتفال بوفاء النيل . وقام نابليون ورؤساء

(١) راجع وصف هذا البيت في ذيل الفصل .

الجيش الذين معه وكيخيا القاهرة والباشا وجميع أعضاء ديوان مصر والقاضى وأغوات الانكشارية فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وتوجهوا إلى المقياس وقد اجتمع هناك فوق التلال المجاورة ألوف الناس، كماوقفت جماهير غفيرة على ساحل النيل والخليج وركبوا السفن وهى مزينة بأجمل الزينات . وكانت الجنود مصطفة بنظام ، وحين وصل الموكب إلى المقياس أطلقت المدافع وعزفت الموسيقى العسكرية والأفرنجية والآلات العربية بالألحان اللطيفة وبدىء العمل فى قطع الجسر حتى فتح ، فاندفع ماء النيل بقوة وبشدة وثر نابليون على الناس التقودالصغيرة وقطعاً من الذهب على أولسفينة دخلت من الخليج وأنعم بجملة إنعامات على بعض الكبراء ثم عاد إلى بيته بالأزبكية . ودام الاحتفال بوفاء النيل سنوياً أثناء الأعوام الثلاثة التى أقامها الفرنسيون فى البلاد .

وكان يوم ٢٠ أغسطس عام ١٧٩٨ يوم ذكرى ميلاد النبى سيدنا محمد (ﷺ) . فانهز بونابرت هذه الفرصة لتوطيد سلطته على أساس احترام تقاليد الأمة المصرية . فأصدر أوامره بأن يحتفل به-ذا العيد فى القاهرة فى مظهر أبهى وأخف مما كان لمهرجان وفاء النيل ليكتسب ثقة زعماءالشعب ويتودد إليهم . ولسمى يبلغ مراده عنى العناية كلها بأن يكون الاحتفال جامعاً بين الأبهة الأوربية والعظمة الشرقية فأمر بتوزيع الأموال والعطايا على الأسر الفقيرة وأن يسير فى الاحتفال (رجال الأشار) وطوائف الأذكار وأرباب الطرق الصوفية وجوقات الموسيقى وكوكبات الجند، وأن تقام الزينات وتطلق الألعاب النارية والصواريخ وأن تعد الموائد الفخمة . وعليها مائدة وطاب من صنوف الأطعمة .

بعد ذلك طلع نابليون على الناس فى بذلة فخمة على الطراز الشرقى (جبة وقفطان) وعلى رأسه العمامة وتوجه على هذه الصورة مع الضباط الكبار وأركان حربه إلى الجامع الكبير وكان فيه لفيق من المشايخ فأخذ مجلسه بينهم على وسائل صغيرة طرحت فى الأرض ويدها مرسلتان إلى صدره مثلهم واستمع معهم تلاوة القصة النبوية وكان نابليون فى أثناء تلاوتها يهتز كما يهتزون ويميل برأسه كما يميلون . فدهش الحاضرون فى الجامع بما بدا عليه من الخشوع وانصرف نابليون مع الذين كانوا معه من الضباط على رأى من الجماهير المحتشدة قاصدين بيت السيد خليل البكرى لتقديم مراسيم التبريك والتهاى . فذهب إليه وعلى رأسه الأعلام النبوية ومن حوله جموع الشعب ومهملين منشدين الأناشيد ، ثم جلس بجوار المنشدين وهو يشاركهم فى التلاوة والنفات وأظهر أناة وصبراً فى شهود حفلة الذكر من بدئها إلى تمامها ، ثم مدت موائد الطعام وكان عددها يربو على عشرين مائدة رتبت على الطريقة الشرقية فى بهو كبير . وكانوا يجلسون على وسائل وحول كل مائدة خمسة أو ستة أشخاص وجلس نابليون بجوار السيد البكرى إلى إحدى هذه الموائد وتفرق كبار القواد حول الموائد الأخرى يأكلون مع القوم .

واشتركت الفرقة الموسيقية العسكرية الفرنسية فى الاحتفال ، وأطلق الفرنسيون الألعاب النارية فى الجوار فكانت حفلة شائقة بلغت منتهى العظمة والجلال .

القاهرة الثائرة

ثبت ثورتان دامتان في أثناء الاحتلال الفرنسي : الثورة الأولى قبل سفر نابليون إلى سوريا والثورة الثانية في أثناء تولية كليبر . وكانت كل ثورة بدورها تقضى على عدة أحياء . فلما اشتعلت الثورة الأولى بحى الأزهر قضى الفرنسيون على أهم أجزائه وهرب معظم ساكنيه . ولما نشبت الثانية في بولاق تخربت عدة نواح كاملة اشتملت على عدد كبير من البيوت المطلة على ضفة النيل كما هدم الجانب الشرقى المطل على حديقة الأزبكية وبعض جهات بركة الرطلى .

قضت الضرورة العسكرية بإزالة عدد كبير من المباني وشق الشوارع الواسعة والميادين ، كما تم في ميدان الرميلة ومصر العتيقة والجيزة وشبرا ، وذلك لتنظيم مخازن المؤن وتوفير الشككات للجند وتسهيل المواصلات بين أنحاء العاصمة وضواحيها . وكانت تلك الأعمال العمرانية الفجائية تشعر العامة بأنهم يفقدون مخلفات أجدادهم العزيزة . ويظهر أن القاهرة كان قد كتب لها أن ترى المصائب تنوالى عليها ، فلم تنج من مصائب الاحتلال العثماني حتى وقعت تحت نيران الفرنسيين ، ولم تسكد تتخلص من تلك النكبة حتى وصل إليها العثمانيون والانجليز عام (١٨٠١ م) فاخذل الأمن مرة أخرى وعاد الاضطراب وعمت الاعتداءات وانتشر قطاع الطرق من اللصوص والبدو على جانبي طريق بولاق ، فلم يأمن المارة على أرواحهم وتعطلت قوافل التجارة الداخلية وهجر أهل الريف قراهم هرباً من مظالم حكمهم وفضلوا اللجوء إلى القاهرة حتى إذا عين محمد على والياً استطاع تهدئة الحال وقضى على صلف المالك كما تخلص من زعمائهم بقسوة .

كانت القاهرة حتى عام ١٨٠٢ مسرحاً دامياً للمارك والفوضى والهباج . فهنا فصيلة من الجند ثائرة لأنها لم تتسلم مرتباتها ، وهناك فرقة أخرى هجمت على بيوت الأغنياء والخاصة للخطف والنهب . ولا تسكاد الأسواق تفتح أبواب حوانيتها لعرض متاجرها حتى تفاجأ بشرذمة من ممالك بعض البكوات الذين يلتقمون لأمر آخر ، وفي ناحية أخرى من المدينة كانت الأمراض والأوبئة تسرى بنشاط فتلقى بضحاياها الساكنين في الطرقات وعلى أسطح البيوت والأطلال وتبعثر جثث الموتى في كل مكان .

وشاهد رحالة تلك الآونة ومنهم « كلارك » و « هنكر » و « ويتان » تلك المصائب بأعينهم ودونوا مشاهداتهم في كتب رحلاتهم . وقد بقيت الأزبكية وبركة الفيل عشرات السنين أكواماً تيمية من الأتقاض واتخذها الفقراء ملاجئ أقاموا بين أتقاضها بعد أن كانت قصوراً للمعظمة والجاه . كذلك كانت الجيزة والروضة ومصر القديمة . فصدق على القاهرة ما قاله عنها الرحالة الأسباني على العباسي :

« سادها الحراب واتخذتها اللصوص وقطاع الطرق أوكاراً للغنائم والمنهوبات » .

ثورة القاهرة الأولى

تهدأت أسباب ثورة القاهرة الأولى باعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية والحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم عليه رمياً بالرصاص في ميدان الرملة في السادس من سبتمبر ١٧٩٨ ، يضاف إلى هذا تفنن الفرنسيين في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك أنهم لم يكونوا يأذنون لنساء الممالك بالبقاء في بيوتهن إلا بعد دفع ضريبة كبيرة ، وبلغ مجموع ما فرضه الفرنسيون على السيدة نفيسة زوجة مراد بك عن نفسها وعن نساء الممالك أتباع زوجها ستمائة ألف فرنك فاضطرت في سبيل دفع هذه الغرامة الفادحة أن تتنازل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان قد أهداها لها القنصل « مجالون » باسم الجمهورية الفرنسية تقديرًا لخدمائها . فكان اضطرابها للنزول عن هذه الهدية الفرنسية احتجاجاً شريفاً منها . أما الضرائب التي فرضها نابليون على التجار المصريين لا سيما تجار القاهرة فكانت ثقيلة جداً إذ كان على تجار المنسوجات بالقاهرة أن يدفعوا ستين ألف ريال نقداً وأربعين ألف ريال (ملابس وأحذية) للجنود . وعلى تجار البن والبهارات مائتي ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يحصلون ضرائب الأقاليم مائة ألف ريال وهكذا مما كانت لا تحتمله الأحوال الاقتصادية في تلك الأيام .

وأخرج الفرنسيون صدور القاهريين بإخراج الكثيرين من أحباب البيوت من مساكنهم بحجة حاجتهم إليها وهدمهم الكثير من المباني والآثار والمساجد لتحسين القاهرة .

فلم يكن عجيباً أن اختلطت الدعوة إلى الثورة بأذان المؤذنين الذين دعوا إلى الله وإلى الثورة على مآذن المساجد صباح مساء . فبلغ هياج النفوس أشده وكان الشعب في إنتظار حادثة واحدة لينفجر بركان هياجه . وتألفت في الأزهر لجنة لتدير الثورة وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها (١) .

* * *

في اليوم الواحد والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كانت القاهرة في حالة لم يألفها شعبها من قبل الخطباء في كل مكان يشعلون الحماسة في قلوب الأهالي . والأسلحة تظهر في أيدي العامة في الطرقات والميادين والفلاحون أهل الضواحي يقبلون إلى القاهرة للاشتراك في الثورة وقد علت صيحات السخط على الفرنسيين وأقام الثأرون المتاريس والموانع على منافذ الطرقات المؤدية إليها ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمها المشاة قبل أن تقوم المدفعية بأعمالها الابتدائية الخربة .

على أن الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكري لم يقدر في بادئ الأمر خطورة الحالة حق قدرها . فاكتمى بإرسال بعض داوريات من الجند ، لكنه لم يلبث أن وقف على جلية الأمر . فزم على مواجهة الثورة بنفسه وخرج مع ياوره ومترجمه ليتعرف أسباب الهياج . وأصدر أوامره إلى الجنود الرابطة

(١) عيد الرحمن الراجحي : تاريخ الحركة القومية .

ببركة الليل بأن تتأهب للقتال . ومعنى في كنيية من الفرسان من بينه ببركة الليل قاصداً مركز الهياج .
فقصده الموسكى واتجه إلى شارع العورية وأراد الذهاب إلى بيت القاضى . لكن الشوارع ازدحمت بالجموع
فكان يتنقل بصعوبة وبدأت تتساقط الأحجار عليه من النوافذ . وبينما كان في طريقه إلى الأزهر جاء
إلى نجدته أحد الأروام المتطوعين (برطولوى الرومى) فى شزيمة من رجاله وأطلق الرصاص على الجموع
فكانت تلك الرصاصة كافية لتشعل حمية الثأرين . فانهالوا على الفرنسيين ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار
وطعنوا بالرمح فخرج ديبوى وياوره وقتل بعض أفراد كتيبته .

أدرك القائد العام خطورة الموقف وأغضبه انتصار الثأرين على عدد كبير من الجند وهجومهم بعد ذلك
على مقر فرقة المهندسين العسكريين ببيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر . فأمر الجنرال « دومرتان »
قائد الدفعة أن يركب المدافع على أكتاف المقطم إلى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق قنابلها
على الجامع الأزهر . وأمر نابليون بتعيين الجنرال « بون » قائد القاهرة خلفاً للجنرال « ديبوى » كما
أمر بوضع المدافع على منافذ الشوارع المهمة .

وفى اليوم الثانى والعشرين بينما كان الثأرون مجتمعين فى الأزهر ، قذفت أول قنبلة من المدافع القسامة
على ربي المقطم فانفجرت فى المسجد وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالمدافع وأخذت آلاف
القنابل تنهال على الأزهر وتترامى فى الأحياء المجاورة له وأوشك الجامع أن يتداعى من شدة الضرب
فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب . ومات تحت
أنقاضه آلاف من السكان الآمنين وكانت الجهات القريبة من الأزهر كشوارع العورية والصنادقية مسرحاً
لهذه المشاهد الفظيعة .

... وأخيراً تغلبت قوة الحديد والنار على مقاومة الشعب المجرد من السلاح ، واستهدف سكان القاهرة
بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الإتيقام . وبلغ عدد الضحايا من المصريين بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ وبلغت خسارة
الفرنسيين ٢٠٠ قتيلاً منهم جماعة من العلماء العسكريين .

ووصف الجبرتي مأساة الأزهر فقال « ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيل وبينهم المشاة
وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلة وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات
وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع
والخبآت بالخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وكسروا
أوانيها وألقوها بصحنه ونواحيه وكل ما صادفوه به عروه (لتفتيشه) .

لم تقف مظالم الفرنسيين عند ذلك الحد فقد كانت التعليمات التى أصدرها الجنرال « برتييه » رئيس أركان
الحرب تنطوى على الصرامة والقسوة، ومن أوامره إلى الجنرال « بون » بتاريخ ٢٣ أكتوبر:
« يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع » .

لقد جاوزت أعمال الفرنسيين الغرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب . واعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المنهزمين في الثورة تم سرا في القلعة من غير محاكمة . وأمر نابليون الجنرال « برتية » أن يصدر تعليماته « بقطع رؤوس جميع الأسرى الذين أخذوا ومعهم أسنعة وترسل جنثهم إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها » وكان من بين القتلى كثير من النساء ! وأعدم ستة علماء من مشايخ الأزهر ولم تنفع فيهم شفاعاة أحد . جرى بهم في صباح يوم ٤ نوفمبر إلى القلعة مغفورين بشرذمة من الجنود وتلى عليهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص ، وتولى تنفيذ الحكم فيهم « بطولوى الرومى » ثم ألقوا بجثثهم خلف سور القلعة !

وكان من نتائج الثورة أن أبطل نابليون اجتماع الديوان عقاباً لسكان القاهرة وعنى بتحصين المدينة .

القاهرة معسكر كبير

اعترف نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال « برتران » في جزيرة سنت هيلانة ، أن ترميم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها . وقد ساور سكان القاهرة قلق شديد عندما رأوا الضباط المهندسين يتولون الهدم . ولما كانت شوارع القاهرة وأحيائها مفصولة بمدد كبير من الأبواب الكبيرة ، رأى القائد العام أن تلك الأبواب الثقيلة تمطل انتقال الجنود في أحوال الفتنة والثورات ، فأمر بهدمها وبدى يهدم جزء كبير من خط الحسينية وخارج بابي الفتوح والنصر . وخرب مسجد الجنبلاطية المجاور للباب المذكور ورسم الفرنسيون سور المدينة وأوصلوا بعضه ببعض البناء ورفعوا بعض أجزائه وزادوا في تحصين أبراجه . كما أقاموا المتاريس والأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية والباب المحروق وأقاموا المعاقل في أهم طرقات القاهرة وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة . وهدسوا مسجد القسي والكزروني بالروضة وآخر بامبابة وجامعاً كان مجاوراً لقنطرة الدكة فضلاً عن سلسلة القلاع التي أحاطوا بها القاهرة وأهمها طابية « ديبوى » التي أقيمت على رابية قرب القلعة للإشراف على حى الأزهر ، وقد عرفت باسم قلعة الغرب . وطابية « سلكوفسكى » التي أنشأوها في جامع الظاهر ، واتخذوا مئذنته مرصداً للاستكشاف . وطابية « كامان » بالقرب من قنطرة الليمون وطابية « مزور » في حى طولون وطابية الناصرية فوق تل المقارب قريباً من دار المجمع العلمي ، وعرفت باسم طابية قاسم بك . وقد بلغ عدد القلاع التي أنشأها الفرنسيون في خلال الاحتلال الفرنسى تسع عشرة قلعة ذكرها المسيو « جومار » .

وحصن نابليون جزيرة الروضة فوضع بطاريات من المدفعية في كل طرف من طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . وحصن شاطئ النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية ، وجعل فم المجرأة طابية حصينة سميت طابية المجرأة (أو السبع سواقي) وجعل قصر إبراهيم بك (قصر العيني) مستشفى عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجرحى ، وألحق به البيت الذى كان بجواره ، وقد عرف وقتئذ بيت محمد كاشف الأرناءوطى وجعله مخزناً ومصنعاً للفرقة الهندسة .

ولما بدأت الحال تهدأ ، أخذ بونا بارت في تنفيذ برنامجه بالقاهرة . فالتهمز فرصة الهدوء التي خيمت على المدينة وأمر بردم بعض الجهات المحيطة ببركة الأزبكية والأماكن المقابلة لسكنه ، فجعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وما خلفها من الحدائق ، فقطعوا أشجارها واستقرت أنقاضها فصارت طريقاً معبداً إلى قنطرة المغرب التي جددتها الفرنسيون . وكانت قد آلت إلى السقوط وبنوا جسراً ممتداً من الأزبكية إلى بولاق حيث ينقسم إلى قسمين : قسم إلى طريق أبي العلاء وقسم إلى جهة التبانة وساحل النيل ، وحفروا إلى جانبي ذلك الجسر من مبدئه إلى نهايته خندقين وغرسوا بجانبه أشجاراً وميسباناً كما أحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ، وقطعوا جانباً كبيراً من التل المجاور لقنطرة الحاجب ورددوا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلي وهدموا الأبنية التي بين باب الحديد والرحبة وكانوا يدفعون للعامل أجورهم « وبنوا أماكن للرصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورمموا ما فيه من بيوت الأمراء واستخدموها لتلك الغاية ، وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الحطة مكتبة للمطالعة يحضرها كل من يرغب في أوقات معينة من النهار ، وكان إذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به » ومن الشوارع التي جاءها الإصلاح على أيدي الفرنسيين شارع الفجالة الذي كان يعسر السير فيه وقد ، أصبح ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى ، ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قنطرة المغرب ويتجه إلى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين الأول : إلى طريق أبي العلاء والثاني إلى التبانة وساحل النيل .

وذكر الجبرتي بين حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٣ هـ أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليها قدرًا من النقود يدفعه أو يكون مأذوناً ويده ورقة ، وقد سماه الفرنسيون « كازينو تيفولى » .

وأقام الفرنسيون مسرحاً لتمثيل الروايات ، تم إنشاؤه في عهد الجنرال « مينو » وهو الذي سماه الجبرتي « كمرى » والمقصود « كوميدى » وقد وصفه بقوله . وفي شعبان سنة ١٢١٥ هـ كل المكان الذي أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء وهو المسمى بلغتهم بالكمرى ، وهو محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون على ملاعب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلية والملاهي مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة !

وكان من أهم أعمال الفرنسيين في القاهرة أنهم أقاموا جسراً من السفن يصل بين قصر العيني والروضة وجسراً آخر كبيراً من الروضة إلى الجيزة ، وقد أعجبوا بحال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون في جعلها مقراً للجالية الفرنسية ، وأن ينشئ فيها مدينة فرنسية ، ولكن مشروعه لم ينفذ . وكذلك وضع الجنرال « مينو » تخطيطاً لمدينة ينشئها بها لكن لم تنفذ فكرته أيضاً .

نابليون يودع القاهرة

انتهت حملة بونابرت إلى سوريا بالفشل أمام عكاء فعاد إلى مصر . وفي يوم الجمعة ١٤ يونيو عام ١٧٩٩ أعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرا دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجالية وغيرهم ، وقرعت الطبول في نواحي المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفي الحكومة والأعيان إلى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة ، ثم انتقلوا جميعاً لاستقبال نابليون خارج المدينة وللإشتراك في موكبه العظيم . فقابلهم نابليون وأهداه الشيخ خليل البسكري جواداً مطهماً يقوده المملوك رسم الذي اصطفاه نابليون واستصعبه في رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين . وأهداه المعلم جرجس الجوهري هجينين جميلين عليهما سرجان بديعان ، ودخل نابليون القاهرة من باب النصر مخترقاً شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول . وروى « الجبرتي » أن للوكب استمر خمس ساعات متوالية في شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى الأزبكية .

ولم تسكد الجند تستريح من أهوال الحرب الشامية حتى جاءت أنباء حملة عثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر . فأمر نابليون بإعداد حملة تسير إلى الإسكندرية ، وكان الأتراك قد احتلوا قلعة أبي قير (١٧ يوليو ١٧٩٩) واستطاع الفرنسيون أن يمحروا القوات العثمانية فحاصروهم في القلعة المذكورة حتى انتهت ذخائرهم واحتلوها في اليوم الثاني من أغسطس ، وقد اعتبر الفرنسيون معركة أبي قير البرية فوزاً كبيراً اتمتع له فأقاموا الحفلات في القاهرة ثلاثة أيام ، ثم عاد نابليون إلى القاهرة في يوم ١١ أغسطس ١٧٩٩ ونزل بدار الألفي بك بالأزبكية وكان في ركابه جماعة من أسرى الجيش التركي ، فأمر باستعراضهم في ميدان الأزبكية ثم ساروا بهم في شوارع القاهرة للتأثير في نفسية الجماهير وإقناعهم بفوزهم في معركة أبي قير .

ولم يلبث نابليون إلا قليلاً حتى وردت له من فرنسا رسائل تلح في عودته إليها نظراً لاضطراب الأحوال السياسية في أوروبا . فنظم الحامية الفرنسية في البلاد المصرية ، وأسرع إلى مغادرة القاهرة نهائياً في ١٨ أغسطس ١٧٩٩ بتسكتم شديد بعد أن تسلم الجنرال كليبر حكم البلاد .

عودة العثمانيين إلى القاهرة

حاولت حملة عثمانية أخرى إخراج الفرنسيين من مصر فهاجمتها من شواطئها الشمالية بأسطول كبير . لكن نقطة الفرنسيين لم تتح لهم سوى الهزيمة في معركة عزبة البرج بالقرب من دمياط . وكان ذلك في أول نوفمبر ١٧٩٩ وبالرغم من استعداد كليبر الحربي وتفوقه على الأتراك كان مقتنعاً بضرورة الصلح وبوجوب إنهاء حالة الحرب التي كانت تركيا تستعد لها بإرسال جيش كبير بقيادة الصدر الأعظم يوسف

باشا ضيا . وعقدت معاهدة العريش وأهم نصوصها جلاء الفرنسيين عن مصر . ولكن نقض الإنجليز حلفاء الأتراك تلك المعاهدة بالرغم عن استعداد كليبر للجلاء النهائي ، وبعد أن وصل مندوب من الحكومة العثمانية لتولى إدارة البلاد .

رأى كليبر أن نقض الإنجليز لمعاهدة العريش بالرغم من اشتراكهم في مفاوضاتها إنذار للحرب فأخذ يستعد لقتال الجيش العثماني . وكانت معظم قواته قد اصطفت للمعركة في سهول القبة ، فطلب إلى الصدر الأعظم الانسحاب إلى الحدود الشامية ، فلما لم يفعل ابتداء تحركه في صبيحة يوم ٢٠ مارس قاصداً مواقع جيش ناصيف باشا في المطرية .

استطاعت قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته الانفصال عنه واتجهت إلى القاهرة بقيادة نصوح باشا فدخلتها في الوقت الذي كانت نيران المعركة مستمرة في المطرية وعين شمس . ولما علم كليبر بذلك كلف أحد قواده بتتبعها خوفاً من أن تقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي .

انصر كليبر على الأتراك بسهولة وتقهقر الجيش العثماني شمالاً دون انتظام بعد أن تكبد خسائر جسيمة وتمكن القائد العثماني من الانسحاب من ميدان القتال مع بعض قواته بعد القوات العثمانية التي قصدت إليها بقيادة نصوح باشا بصحبة عثمان بك كتحذا الدولة وجماعة من كبار رجال الماليك .

ولا شك في أن عودة العثمانيين إلى القاهرة في مثل تلك الظروف شجعت روح الثورة في نفوس الشعب . وبدأ التعريض إلى قتال الفرنسيين يتجدد في مختلف البلاد ولا سيما القاهرة . وهكذا لم يكد يخرج الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس حتى واجه في القاهرة ثورة جديدة أعظم وأشد من ثورتها الأولى .

ثورة القاهرة الثانية

« ٢٠ مارس — ٢١ أبريل ١٨٠٠ »

ثبت نيران الثورة في القاهرة يوم ٢٠ مارس بزعمارة السيد عمر مكرم تقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي كبير التجار والشيخ الجوهري (١) .

فلم يكد يسمع سكان القاهرة قصف المدافع في ميدان معركة عين شمس حتى بدأت الثورة في حي بولاق فأقام أهلها حول الحى الموانع والتساريس واقتحموا مخازن الغلال والودائع التي للفرنسيين ، وكان يتزعم

(١) رجماً في كتابة هذا الفصل إلى كتاب الحركة القومية للأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الزاوي .

ثورة بولاق الحاج مصطفى البشتلي . حمل الثوار ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرمح والمص و اتجهوا بمجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كلمان) لافتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجوم ، فأرسل الجنرال « فريديه » مددًا من الجنود إلى الحامية فشتتوا شمل الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل في هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار .

ثار الأهالي في الأحياء الأخرى للمدينة ، فاتجهوا إلى معسكر القيادة العامة بأثريكية (بيت الألفي باث) فتلقي الثائرين الجنرال « فيراتقو » بنار شديدة فردهم على أعقابهم واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر . فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم ، ثم كرر الثوار هجومهم فثبت لهم الجنود وكان نطاق الثورة قد اتسع وغامرت فيها طبقات الشعب فأراد الجنرال « فريان » إعادة النظام في القاهرة لكنه لم يستطع اقتحام الشوارع لكثرة متاريسها ومنازلها المحصنة . فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفي معظم أحيائها كباب اللوق وناحية المدايع والمجبر والشيخ ريحان والأنصيرية وقصر العيني وقناطر السباع وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد وباب القرافة وباب البرقية والسويقة والرومى ، وكانت المتاريس منيعة جداً بلغ علوبعضها اثني عشر قدماً . وأنشأ الثوار في أربع وعشرين ساعة معملًا للبارود في بيت قائد أغا بالخرنقش وأنشأوا معملًا لإصلاح الأسلحة والمدافع وآخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت وتطوع الصنائع للعمل فيه . وأخذوا يجمعون القنابل التي تنساقط من المدافع الفرنسية في الشوارع لاستعمالها قذائف جديدة . وتطوع الأهالي لإمداد الثوار بالخباطم وتوزيعه وبأشر السيد المحروقي وباقي التجار ما يلزم لها من النفقات .

عودة كليبر

وصل الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود في الصالحية واللدن الأخرى ، فوجد نار الثورة تضطرم في أحياء القاهرة وشاهد في بولاق ومصر القديمة حصون الثوار ووجد جميع الوكالات والمخازن التي على النيل قد تحولت إلى شبه قلاع احتلها الثوار وصارت الملاحة في النيل تحت رحمتهم . فأدرك خطر الموقف ، ورأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدي إلى إخماد الثورة لاستبسال الثوار في المقاومة وتحصنهم وراء المتاريس المنيعة فضلاً على توزيع وحدات جيشه في أنحاء الوجه البحري .

تبين له أن المبادرة إلى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لا تؤمن عواقبها ورأى من الحكمة أن يأخذهم بالمأطلة ويستخدم الزمن في بذل الشقاق بين صفوفهم . على أنه من جهة أخرى أخذ في فترة الانتظار يعد المدات لقمع الثائرين ويحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ويركب المدافع ويعد المواد المثبهة التي عزم على استخدامها لإحراق القاهرة .

أفلحت فكرة كليبر وبدأ المماليك والأتراك يلثون سلاحهم وأخذ مراد بك يفاوض الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين تمهيداً لمواجهة الثورة والتغلب عليها .

وبهذه السياسة أخضع كليبر الوجه البحرى ثم اتفق مع مراد بك بينما كانت الدافع الفرنسية تمطر سكان القاهرة وابلا من قنابلها . وقبل مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية فرنسا واشترك مع أعداء البلاد في مأساة إحراق القاهرة بما قدمه للقائد العام من الأخطاب ١١

ولما وصلت فرقة الجنرال « رينيه » من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرقة على المدينة من قلعة « كامان » إلى قلعة « سلكوفسكى » (جامع الظاهر) ومنه إلى قلعة المقطم فأحاطت المدينة شمالا وشرقا . وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ أبريل فاقطعت متاريسهم واقتحمت منازلهم وأضرمت النار في المباني التي كانت تعوق تقدم الجند . واستطاعت أن تسند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم وميمتها إلى مواقع الفرنسيين في ميدان الأزبكية . واشتد القتال حول المواقع التي احتلها الفرنسيون واستردها الثوار المرة بعد المرة . ولكن تمكن الفرنسيون في المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها وظلت المناوشات بين الفريقين إلى اليوم العاشر من أبريل .

وفي اليوم الثاني عشر أجلي الفرنسيون الثوار عن كوم أبي الريش بين جامع الظاهر والمسكر العام بالأزبكية . وكانت نقطة ارتكاز هامة للثوار واقتحمت قوة المنازل الحبيطة ببركة الرطلى وأضرمت فيها النار واستبقت بعض المنازل الصالحة للتحصين فيها . وكان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة بميدان الأزبكية فضربه الجنود بالدافع واحتلوه بعد جلاء الثوار والعثمانيين . فامتنع الثوار في بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة عرف ببيت أحمد أغا شويكار . وركبوا مدفعاً في حديقة منزل السيد البكرى وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين حتى أصابوا المدفع المركب في حديقة البكرى وأتلفوه ، فأنحصر الثوار في بيت أحمد أغا وظلوا فيه حتى اليوم الثامن عشر لما دس الفرنسيون نغماً تحت جدران البيت ونسفوه ، فاحترق كل من فيه . ثم استأنفت القوات الهجوم على أحياء المدينة هجوماً عاماً من الناصرية . وباب اللوق والمدابع والعجالة وكوم أبي الريش وباب الشعيرة ، فوطد الفرنسيون مراكزهم وضيقوا على الثوار ، فاشتد الضيق بالأهالي وبدأت فكرة الصلح لوضع حد لمأساة القتل .

ولكن كانت هناك مأساة أخرى . ففي اليوم الرابع عشر أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولما لم يعبأ الثوار بالإنذار هجمت الجنود الفرنسية صبيحة اليوم الخامس عشر على حي بولاق وأمطروا وابلا من القنابل على حصون الثوارين ففتحت فيها ثغرات كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع الحي ، وأضرمت النار في كل البيوت فاشتعلت فيها وامتدت إلى مباني الحي من مخازن ووكالات قاتلتهمتها . ودمرت ذلك الحي الكبير الذي كان ميناء القاهرة وهدمت الدور على سكانها فبادت أسر كاملة تحت الأنقاض وكانت مأساة محزنة . وانتقم الفرنسيون من أهالي بولاق انتقاماً مروعاً بعدما استبسلوا في الدفاع عن منطقتهم

بشجاعة نادرة ، وكانت الدماء تسيل أنهاراً في الشوارع وتحولت تلك المدينة الباسلة إلى خرائب وأطلال وظلت النار تلتهمها ثمانية أيام .

طلب الأهالي التسليم في نهاية الأمر ، لكن الفرنسيين لم يكتفوا بما حصل ببولاق ففرضوا على أهلها ومتاجرها غرامة جسيمة قيمتها ٥٠٠ ألف ريال . وفرضوا أيضاً تسليم المدافع والذخائر الموجودة في ترسانة بولاق وما في المخازن من أخشاب وغلل وشعير وأرز وعدس ، وأن يسلموا أربعمائة بندقية ومائتي طبنجة وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلي رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب في حل بهم فضرب بالعصى حتى مات .

واستمر الفرنسيون يسرقون في ارتكاب الفظائع لإخماد بقايا الثورة ، واتبعوا وسيلة إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان فأحدثت الحرائق تخريباً فظيماً في القاهرة واحترقت أحياء برمتها والتهمت النار خط الأزبكية وخط الساكت والفواله والرويعي وبولاق وبركة الرطلي وما جاورها وباب ، البحر والخروبي والعدوى إلى باب الشعرية ، فأصبح منظر القاهرة بعد ما حل بها مفزعاً يملأ القلوب حزناً وأسى .

وأخيراً أبرمت معاهدة التسليم بعد ثورة دامت ثلاثة وثلاثين يوماً . وأخذ الأتراك والمماليك يعدون معدات الرحيل وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المروقي كبير التجار . وعادت السلطة إلى الفرنسيين واحتفل كليبر بانتصاره في مهرجان عظيم .

الجنرال كليبر والحلي

في ١٤ يونيو ١٨٠٠ دعى كليبر إلى غداء عند أركان حربه الجنرال « داماس » في منزله بالقرب من ديوان الجيش بالأزبكية ، وخرج بعد تناول الطعام هو والمسوي « بروتين » مهندس الحملة يتحشيان في رواق موصل بين بيت الجنرال « داماس » والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وفي أثناء حديثهما وثب رجل من نهاية الرواق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كليبر فنادى الحرس وهجم « بروتين » على الرجل فنال منه مثل ما نال كليبر فسقط « بروتين » على الأرض ثم تركه الرجل وعاد إلى كليبر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهز عليه ، ولما سمع ضجة فر إلى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط ، فلما أتى الحفر لم يروا إلا رجلين يتخبطان في دماهما فحملاهما إلى البيت وأتوا لهما بالطبيب . فمات كليبر بعد قليل وظل « بروتين » تحت المعالجة .

قبض على الجاني وكان اسمه سليمان الحلبي وحكم عليه بالموت على الخازوق ، وكذلك أعدم شركاؤه الأربعة الذين اتضح لهم أنهم محرضوه .

تولى القيادة العامة بعد كليبر « الجنرال مينو » الذي تظاهر بالإسلام ودعا نفسه عبد الله . وفي أيامه

زاد ارتياب الفرنسيين في الأزهر، فلما رأى علماؤه ذلك عرضوا على « مينو » إقفاله مؤقتاً ، فأقفلت أبوابه (محرم ١٢١٥ هـ / ٢١ يونيو م ١٨٠٠ م) وظل مقفلة فترة طويلة .

الانتقام من عروس الشرق

استمر الفرنسيون في سياسة الهدم والتخريب من أجل أغراضهم الحربية . فقد أخذوا يتممون بناء القلاع التي كان الجنرال كليبر قد شرع في إنشائها . وهدموا كثيراً من البيوت والعمارات، إما لأخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها في بناء القلاع والحصون ، وإما لكشف الجهات التي شرعوا في إقامة الحصون فيها، كما هدموا بيوتاً أخرى لبيع أخشابها واتخاذها وقوداً . فدمرت خطط بأكملها كالحسنية والحروي (بمصر القديمة) وبركة جناق (بباب الشمرية) وبركة الفيل وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق .

ومن الممارات التي هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر وعدة مبان بالحطابة وباب الوزير وهدموا أعلى المدرسة النظامية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسي وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها والقباب والمدافن السكائنة تحت القلعة وجعلوا من جامع الرومي حانة يحتسون فيها الخمر ، كما هدموا جزءاً من جامع عثمان كتنخدا القزدغلي وجامع خيربك بالقرب من بركة الفيل وجامع البنهاوى والطروطشى والعدوى وجامع عبد الرحمن كتنخدا المقابل لباب الفتوح ، ولم يبق منه في أيامهم إلا بعض البدران .

وهدموا مصاطب الحوانيت واقتلوا أحجارها وعللوا ذلك برغبتهم في توسيع الطرقات والأزقة لمرور العربات وغرضهم الحقيقي منع الناس من اتخاذها متاريس في حالة قيام الثورة ، وهدموا كذلك المصاطب في أحياء كاملة ، كالصلبية وقناطر السباع ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشمرية . فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لأنهم اضطروا بدم مصاطبهم أن ينزلوا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون، ولو طال بهم الحال لهدموا مصاطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح .

وهدموا القباب والمدافن السكائنة بالقرافة المجاورة للقلعة خوفاً من تحصين القائلين بها، وأزالوا جانباً كبيراً من جبل المقطم بالبارود من الجهة المهادية للقلعة خوفاً من تمكن الأهالي منها والرمي على القلعة .

وصادروا الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع حدائق بساتين القاهرة وبولاق وقصر العيني والروضة ومصر القديمة وخارج الحسنية وبركة الرطلى وأرض الطبالة وبساتين الخليج ، وكذلك عمالوا في

الأقاليم، وأخذوا أيضاً أخشاب السفن مع شدة الحاجة إليها للنقل، فتعذر إنشاء سفن جديدة وتعطلت المواصلات وصعب النقل وارتفعت أجور الشحن .

وفي تلك السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعرف لها مثيل من قبل ففرقت الأراضي وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق ، فصارت الأرض كلها لجة ماء وتهدمت الدور القائمة على الشواطئ . وجرى الماء في القرية من جهة الناصرية ، وطفح من بركة الفيل إلى درب الشمسي وطريق قنطرة عمر شاه .

رحيل الفرنسيين ووصول الانجليز

انتهت أيام الفرنسيين في مصر على يد « مينو » فقد هزمه الإنجليز في معركة « كانوب » (٢١ مارس ١٨٠١) بعد أن خسروا نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى وقعد الإنجليز نحو ألف وخمسة قتل منهم قائد الحملة « الجنرال ابرو كرومبي » وجرح بعض قوادهم ومنهم السير « سيدنى سميث » الذي اشترك في القتال ، ولهذا المعركة (ويسمىها الإنجليز معركة الاسكندرية) في تاريخهم الحربى منزلة ممتازة . وقدمهم هذا النصر للانجليز الاستيلاء على رشيد مع الجيش التركى (ذى الحجة ١٢١٥ هـ / ابريل سنة ١٨٠١ م)

بدأ الجيش الانجليزى التركى يزحف على القاهرة وحدثت عدة معارك في الطريق من أهمها معركة الرحمانية (٩ مايو ١٨٠١) . وقد ذكر الجبرتي نبأ احتلالها في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ هـ . وفي خلال تلك المدة استولى الأتراك على دمياط بعد انسحاب الفرنسيين منها ، كما أخذوا قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس . وبدأ الفرنسيون ينفذون خطة الدفاع عن القاهرة ، ففكر الجنرال بليار في الاستيلاء بحليف فرنسا مراد بك . ولم يكد هذا يرسل له الامداد من رجاله حتى أدركته النية وتوفى وهو في طريقه إلى مصر فدق بسوهاج (١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م) .

وصل الإنجليز إلى امبابية بعد أربعين يوماً من وصولهم إلى الرحمانية ، واحتشدت القوات الإنجليزية على الشاطئ الأيسر للنيل، وقوات يوسف باشا على الشاطئ الأيمن، وأقام الإنجليز جسراً من القوارب شبي لاتصال الجيشين فبلغت قواتهما في ذلك الحين نحو ٤٠.٠٠٠ من المقاتلين بينما كان الجيش الفرنسى بالقاهرة لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل على الأكثر موزعين على خط طويل يمتد من البيزة إلى حدود القاهرة شرقاً وشمالاً ومن مصر القديمة إلى بولاق .

وأخيراً اجتمع مجلس حربى بقيادة الجنرال « بليار » في القلعة فشرح موقف الجيش الفرنسى وكان ميالاً إلى التسليم وعارضه بعض أعضاء المجلس . لكن المفاوضات انتهت بين الفريقين على جلاء الجيش الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والبيزة وعن جميع الجهات التى تحتلها الجيوش الفرنسية في الأراضي المصرية ، وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوماً ، وأن يتم الجلاء في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماً من يوم التصديق على الاتفاق .

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقي القلاع والحصون والتاريس، وانتقلوا إلى الروضة وقصر العيني والجيزة استعداداً لنزولهم في السفن التي أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد ودخلت الجنود العثمانية المدينة . وفي (٤ ربيع الأول ١٢١٦ هـ / ١٤ يوليو ١٨٠١ م) أخلى الفرنسيون قصر العيني والروضة والجيزة وأفلتت سفنهم وعددها ثلثمائة إلى رشيد . وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر وساروا من رشيد إلى أبي قير، وأبحرت بهم السفن في أوائل أغسطس سنة ١٨٠١ إلى فرنسا.

ولما جلا الفرنسيون آلت السلطة الفعلية في القاهرة إلى قواد الجيش التركي والإنجليزى ، أما في الاسكندرية فكان الجنرال « مينو » لا يزال قابضاً على ناصية الحال، فاضطر إلى الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٢١ أغسطس سنة ١٨٠١ ، وبدأ في تسليم قلاع الاسكندرية وحصونها ثم رحل عنها يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ .

وهكذا بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صفحة الاحتلال الفرنسى . وبدأت تتنازع السلطة في مصر ثلاثة قوات : الأتراك والإنجليز والمماليك . وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى وهى قوة الشعب المصرى .

* * *

تقلد خسرو باشا ولاية مصر فكان أول عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين . وبدأ الجيش الإنجليزى يلسحب من معسكراته ، فسلم الجيزة إلى خسرو باشا في مايو ١٨٠١ ولم يبق من الجيش الإنجليزى في مصر سوى القوة المربطة بالاسكندرية فظلت بها حتى أبرم صلح اميان (١٨٠٢) فتم جلاء الإنجليز .

قاهرة المجمع المصرى

أقام الجيش الفرنسى في مصر نحو ثلاث سنوات ، كان في أثناءها ضعيفاً ثقيلًا على البلاد ، وقد يقال أنه دفع ثمنًا باهظاً في سبيل حملته . وإذا كنا لا نذكر الحملة الفرنسية واحتلالها لبلادنا الجميلة إلا بالكراهية ، إلا أننا نذكر شيئاً واحداً أفادت منه البلاد . هذا هو المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون بعد دخوله القاهرة وكان عضواً فيه ومعه أولئك العلماء الأدباء وكبار القواد والضباط ممن لهم باع في العلوم والآداب . أنشأ نابليون هذا المجمع عقب وصول نبأ كارثة الأسطول الفرنسى في أبي قير وعهد إلى سبعة من العلماء من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء : مونتج وبرتوليه وجوفروا سان هيلير وكوستاز والطبيب ديجيت والجنرالين كافاريللى وأندريوسى .

أصدر نابليون أمره بإنشاء هذا المجمع في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٧ . وقد تألف من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام هى : الرياضيات والطبيعات والاقتصاد السياسى والآداب والفنون ، واختار

العلماء مونتج وبرتوليه والجنرال كافاريللى قصر حسن كاشف شركس بالناصرية ليكون مقر الهيئة المجمع، وألقوا به القصور المجاورة له التي شيدها المالك، وخصصت لسكن الأعضاء وبعثة العلوم والفنون، كقصر قاسم بك وبيت إبراهيم كتحدا السنارى، وبيت أمير الحج. وكانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المالك في القاهرة (ومكانها الآن المدرسة السلية بالناصرية) وصفها الجبرتى خلال كلامه عن حسن كاشف فقال: «انه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالاً عظيمة وقبل يياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلكيون والمدرسون وأهل الحكمة والمهندسون، فلذلك صينت من الخراب، كما وقع لغيرها من الدور». وذكرها المسيو «جوفرواسان هيلير» أحد الأعضاء في رسائله المنشورة بكتابه رسائل من مصر وظهر مما كتبه عنها أنها كانت غاية في الفخامة، فقد كتب بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨، رسالة إلى العلامة «كوفيه» قال: عدت من المجمع العلمي بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات (حسن كاشف وقاسم بك) وبيتين من بيوت الأغنياء. وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون وفيها من وسائل الفخامة ما لا يقل عن اللوفر. وأنا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما في اللوفر وبحوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة الغراس خصصها للزراعة. أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل ما في قصور المالك من الأثاث، وكان هذا القصر الجميل أول مقر لنواة المتحف المصرى إذ أودعت فيه بعض الموميات وحجر رشيد الذي اكتشفه الكابتن بوشار.

وقد بذل أعضاء المجمع المصرى جهوداً كبيرة في خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين مثابرين. فقد أخرجوا الكتاب النفيس الذى يعتبر إلى اليوم في مقدمة المراجع الثمينة في الشؤون المصرية. . وهو كتاب وصف مصر. (Description de L'Egypte) ذلك المؤلف الفخم الذى يعد بحق عنواناً صريحاً يشهد بكفاءة علماء الحملة الفرنسية.

صورة عامة للقاهرة

تلك كانت صورة القاهرة حينما غادرها الفرنسيون . . ونحن نستدل من خريطة القاهرة التي قام برسمها علماء الحملة الفرنسية فيما بين ١٧٩٩ — ١٨٠١ أن القاهرة كانت حينذاك مكونة من ثلاث مدن تكاد أن تكون منفصلة عن بعضها بالمزارع والتلال وهى: بولاق، والقاهرة، ومصر القديمة.

كانت بولاق ثغر القاهرة على النيل وتبعد عنها حوالى كيلو متر، وقد نهض المسولوير كبير مهندسى الطرق والكبارى في عهد الحملة بتمهيد طريق أبى الملاء (شارع ٣٦ يوليو الآن) وغرس الأشجار على جانبيه، وكان هذا الطريق يصل بين بولاق والأزبكية بعد مروره فوق قنطرة الغربى التي كانت تقوم فوق خليج الطوابة (الخليج الناصرى القديم) وكان هذا الخليج يخرج من النيل بالقرب من موردة البلاط عند كوبرى محمد على (النيل) شمالى قصر العينى، ويصب في الخليج الكبير في نهاية أرض الطبالة، على المنطقه المعروفة اليوم بمنطقة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى. وكان على هذا الخليج قناطر أخرى منها قنطرة البكرية، وقنطرة الليمون (حيث محطة كوبرى الليمون) وقنطرة الدكة (حيث ميدان قنطرة الدكة)، وقنطرة المداينج (بشارع جامع جركس) وغيرها من القناطر.

وكان هذا الخليج في زمن الفيضان يتصل ببركة الأزبكية وبركة الشيخ قمر وبركة الفراعين (ميدان عابدين) وبركة السقاين .

أما القاهرة الوسطى فكانت عامرة بمئات المساجد والمدارس ، وأهم عمارتها قلعة الجبل حيث كانت تصور الباشوات والولاة في العصر العثماني ، وأهمها الديوان وكان عدد سكان القلعة لا يقل عن ثلاثين ألفاً .

ويتضح من تلك الخريطة التي رسمت حوالي عام ١٨٠٠ أن عرض مجرى النيل في منطقة القاهرة كان ضعف عرضه الحالي تقريباً ، وكان الشاطئ الغربي للنيل واقفاً تحت الأماكُن التالية :

بعد مروره على الجزيرة كان يسير شمالاً ثم إلى الغرب قليلاً ، ثم يمر تحت بولاق الدكرور فالديق فامبابه .

أما المدينة الثالثة وهي مصر القديمة فكانت عامرة بكنائس القبط وجامع عمرو .

بعض دور القاهرة

ونتقل الآن إلى بعض ما عرف عن دور القاهرة التي اتصلت بأهم الأحداث المعاصرة أو التي كانت ذات مكانة فنية مرموقة ...

دار الملطيلي

تعرف هذه الدار باسم ناظرها على لييب وبدار الفنانين ، وتقع خلف مسجد قاني باي أمير أخور في حارة درب اللبان بالمنشية . أنشأها السيد الشريف عمر الملطيلي وشقيقه إبراهيم في أواخر القرن الثامن عشر . لها واجهة تشرف على درب اللبان ، حليت بيارزات محمولة على كواويل وبها المنرييات الجميلة . ويشرف على الحوش الأول مقعد صغير يشتمل على بارزة ذات ثلاث قناطر ودرازين ورفرف من خشب الخراط . ويمتلئ باب المقعد شباك من خشب الخراط الدقيق به شكل قنديل .

ونشاهد على جدران حجرة الدار العليا رسوماً شعبية تمثل مباني وبياتين يلاحظ أمثالها في الدور القاهرة التي بنيت في القرن الثامن عشر . وقد وقع اختيار بعض رجال الفن الأجانب والمصريين على هذه الدار فاستأجروا غرفها وجمالوها مراراً ، وفيها تدرب وتخرج عدد كبير من كبار الرسامين المصريين وما زالت الدار تزخر بصفوة منهم .

ولدرب اللبان باب يلاصق باب تسكية تقى الدين البساطامي التي تقع في صدر الحارة وقد خصصت منذ

القرن الثالث عشر لفقراء الأعجم ونالت رعاية الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم الملك الظاهر أبو سعيد جقمق . ويرجع باب التكية الحالى إلى سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م . أما باب درب البان فيرجع إلى منشآت القرن الرابع عشر وهو باب جميل به تطعيم بالرخام وعقوده متنوعة (١) .

دار إبراهيم كتبخدا السنارى بالسيدة زينب (حوالى ١٢٠٩ هـ — ١٧٩٤ م)

كان إبراهيم السنارى من أهالى دقنة وكان بواباً بالنصورة ثم أقام بالصعيد ، ولنبأته اتصل بالأمير مصطفى بك الكبير وتعلم اللغة التركية ثم اتصل بالأمير مراد بك وتقرب منه وأُرى وأصبح من أعيان القاهرة ، وقد انتهى من تشييد هذه الدار قبيل وصول الفرنسيين إلى القاهرة . وقد توفى سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ ودفن بالاسكندرية .

ولهذه الدار وجهة ساذجة لا يوجد بها ما يسترعى النظر سوى بابها والشريعة الكبيرة التى مملوءة . وتدخل إلى فناء الدار ماراً بمجاز سقفه مقبى . وبالجانب القبلى للفناء تحتبوش ومقعد بابيه مشحون بالزخارف وسله يؤدي إلى بابين : الأيمن يوصل إلى غرف الدار ثم القاعة الكبيرة والحمام . والباب الأيسر يؤدي إلى المقعد والجناح الشرقى للدار . ويوجد فى هذا الجناح درقاعة تتوسطها نافورة .

وقد هدم جزء من الدار وتشغل هذا الجزء اليوم حديقة صغيرة ، وقد أقام فى الدار أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) بعض مصورى الحملة وعلمائها ، ومنهم ريجو الرسام المشهور ومالوس ولانسكريه وتيراج وجولو ، وبها عملت البحوث والرسوم التى نشرت فى كتاب « وصف مصر » .

وشغل الدار المؤرخ جلياردوبك فيما بين ١٩١٧ و ١٩٢٦ م ، وأقام بها متحفاً باسم بونابرت ثم أغلق بعد وفاته (٢) .

وكان بالقاهرة أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدة قصور ودور خربت وزال أثرها ، ومن هذه الدور :

(١) حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، رقم ٥٦ فى المكتبة الثقافية ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) فى المجلد الأول الخاص بالصور من كتاب « وصف مصر » ، توجد اللوحات الخاصة بدار السنارى أرقامها ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ .

دار حسين كاشف جركس بالناصرية

كان هذا القصر من أجمل قصور الممالك في القاهرة ومكانه اليوم المدرسة السنية بالناصرية^(١) وصفها الشيخ المؤرخ الجبرتي خلال حديثه عن حسن كاشف فقال : « إنه عمر الدار العظيمة بالناصرية ، وصرف عليها أموالاً عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلكيون والمديرون وأهل الحكمة والمهندسون ، فلذلك صينت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور » ومما يذكر أن المجمع العلمي عقد أولى جلساته في هذه الدار .

وقد زار عبد الرحمن الجبرتي الدور التي عمل فيها المجمع العلمي ووصفها وصفاً دقيقاً . وقال عن مكتبة المجمع التي كانت في هذه الدار « بأن فيها جملة كبيرة من كتبهم . وعليها خزان ومباشر يمحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . . . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك^(٢) فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي ﷺ ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء ويده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب وحوله الصعابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف . . . ولديهم كثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض والبردة للبوصيري . . الخ وقد تكلم أيضاً عن قسم الفلك وقسم الرسم والتصوير وقسم الهندسة والطب والكيمياء وغيره .

ومما قيل عن هذه الدار أنها كانت تشغل مساحة كبيرة في جنوب غربى القاهرة يحف بها الخليج من كل الجهات — ولم يبق من هذا القصر أى أثر . ومن الوصف الملخص في كتاب وصف مصر عرفنا أنه كان يفصله عن الحديقة ممر مصنوعة جوائبه من النباتات الخفيفة . وقد مثلت في القصر جميع عناصر الدور المصرية — دهليز مقبى ، تحبوش تعلوه ميدة تقوم على عامود من الرخام . وكان لمقعد القصر ثلاث حنيات (أقواس) ويصل إليه الممر بدرج مستقيم له باب أنيق البناء .

وللقصر منظره كبيرة لها ثلاثة إيوانات — يطل إيوانها الأوسط على الحديقة الكبرى . وتتوسط الدرقاعة نافورة . وتعلو الإيوانات الثلاثة التي تحيط الدرقاعة قبة صغيرة ذات نوافذ تزيد المكان بهاء وروعة . وتغطي الجدران والرفوف والدواليب المصنوعة من الخشب المشغول برشاقة وفن عجيبين .

(١) كتاب « وصف مصر — E M — المجلد الأول — من اللوحة ٥٤ — ٦٠ .

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ٣٤ — ٣٥ . طبعة بولاق .

قصر قاسم كاشف (أبو سيف)

وها هو ذا قصر آخر ، قد زال من القاهرة ، ومن حسن الحظ أن كتاب « وصف مصر » احتوى على لوحة تبين التخبوش والفناء ويرى فيها المقعد وبابه والشرقة (Loggia) ، وكان هذا القصر على مقربة من قصر حسن كاشف ، وتفصلهما عن بعض حارة صغيرة . وكان الجمع المصرى يضم هذا القصر وقصرى حسن كاشف وإبراهيم السنارى .

وقد أنشأ هذا الأمير بقصره حديقة أجرى فيها مياه النيل بطريقة مبتكرة وشق فيها طرقاً بمهدة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، وجعل هذه الحديقة طبقات يعاود بعضها بعضاً والمياه تصعد إلى أعلاها من طريق أنابيب خاصة وعند كل مصب لهذه المياه أقام مكاناً للجلوس . وقد أباح قاسم بك دخول هذه الحديقة لمن يشاء ، وسماها « حديقة الصفصاف والآس » ، لمن يريد الحظ والائتناس . . . وتتش ذلك على لوحة من الرخام ، رفعها على جذع شجرة على مدخل الحديقة .

قصر إبراهيم بك

وكان لهذا الأمير قصران أحدهما فى بركة الفيل وقد سكنه الجنرال ديوى ، أما قصره الآخر فهو قصر العيني .

قصر مراد بك بالجيزة

وكان لهذا الأمير قصر كبير فى الجيزة ، رأى نابليون فى بادئ الأمر أن يجعل منه مستشفى عسكرياً ثم عدل عن هذه الفكرة ونقل المستشفى إلى قصر إبراهيم بك (قصر العيني) تجاه الروضة ثم اتخذ القائد قصر مراد بك مسكراً له . وقد وصف « فيفان دينون » الذى قدم إلى القاهرة بعد استيلاء الفرنسيين عليها ، فى كتابه ما احتواه قصر مراد بك بالجيزة وصفاً بليغاً ، من طرقات وبساتين ومفروشات .

بيت الشيخ الأمير

وبيت الشيخ الأمير ، من هيئة كبار العلماء المصريين ، لم يبق منه أثر اليوم وهو من مباني القرن السابع عشر . رسمه للمصور بريز دافن فى كتابه « الفن العربى من آثار القاهرة » ، وقد ظهر عام ١٨٧٨ . وقد احتوى على ثلاث لوح لبيت الشيخ الأمير إحداها للفناء الداخلى ، وثانيها للمقعد والأبواب المحيطة به

والأشغال الخشبية واللوحه الأخيرة لتسكيات . وقد ورد في هذا الكتاب ذكر لدارى رضوان بك واسماعيل بك .

دار يحيى الكاهف

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديتروى » فى بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رجب كان يمتلكه الأمير رضوان ... له ردهات رحبة وإبوانات واسعة وناقورات جميلة وأحواض من المرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم السماوى برتوليه — وكان بلى العالم لافوازيه فى شهرته — بيت يحيى كاشف الكبير يحيى عابدين .

دار عثمان بك الأشقر

أنشئت أول مطبعة عربية فرنسية بالقاهرة فى أيام بونابرت ، خلال الحملة الفرنسية . وقد عهد بإدارتها إلى المسيو مارسل المستشرق ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون . وكانت تسمى مطبعة جيش الشرق فى مستهل الأمر . ولما نقلت من الاسكندرية إلى القاهرة أمر بتسميتها المطبعة الأهلية . واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفى بك الذى سكنه نابليون . ثم نقلت إلى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية ثم إلى القلعة حتى جلا الفرنسيون عن مصر (١٨٠١) — فاستصحبوها معهم ، ولم تعد الطباعة إلى مصر إلا فى عهد محمد على .

ومما يؤسف له غاية الأسف أن فقدت معالم معظم القصور والدور التى كانت تزين القاهرة أثناء إقامة الحملة الفرنسية فى مصر . ولولا ماسجده الرسامون ورجال الآثار فى لوحات مؤلف « وصف مصر » الذى نشر فيها بين عامى ١٨٠٩ و ١٨٢٨ ، وكتاب « دى كوست » — الذى ظهر فيها بين ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ، وكتاب « بريز دافن » (١٨٧٨) لما كنا قد عرفنا تلك المآثر الجميلة .

دار السيد سعودى

وكان لهذا الفقيه بيت كبير على بركة الأزبكية ، غرس فيه حديقة اشتملت على القناطر والبوائك ، وأباح دخولها للناس ، فكان يجتمع فيها الناس من جميع الطبقات . وفيها مقاهى وبياعون وفكهانية ومغافى وغير ذلك . وتوقف عندها المراكب والقوارب ، وقد اشترى الأمير محمد الألفى هذا القصر وأضاف إليه غيره .

دار الشيخ عبد الله الشرقاوى

كان الشيخ عبد الله الشرقاوى من أعظم علماء عصره ، تولى مشيخة الأزهر ، واختاره نابليون رئيساً للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد . وكانت له دار عظيمة بناها على بركة الأوبكية وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، وقد جمع فيها التحف النفيسة والكتب النادرة التى عنى بتجليدها .

دار الشيخ محمد المهدي

وكان لهذا العالم الجليل دار كبيرة اشتراها بناحية اللوسكى وتطل على الخليج ، وكانت بها قاعات واسعة ، كسيت جدرانها وأرضها بالرخام الملون والقيشاني وتطل على بستان عظيم . واشترى الشيخ المهدي فى آخر عمره داراً فى الكعكيين ، ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلوها إلى قراة المجاورين . ويقع فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته .

وقد تولى المهدي مشيخة الأزهر ، ثم مات فى سن الخامسة والسبعين ولم يؤلف كتاباً ولا رسالة ، على الرغم من ذكائه وحسن استعداده . فقد انشغل بجمع المال وجهه للدنيا^(١) .

دار السادات

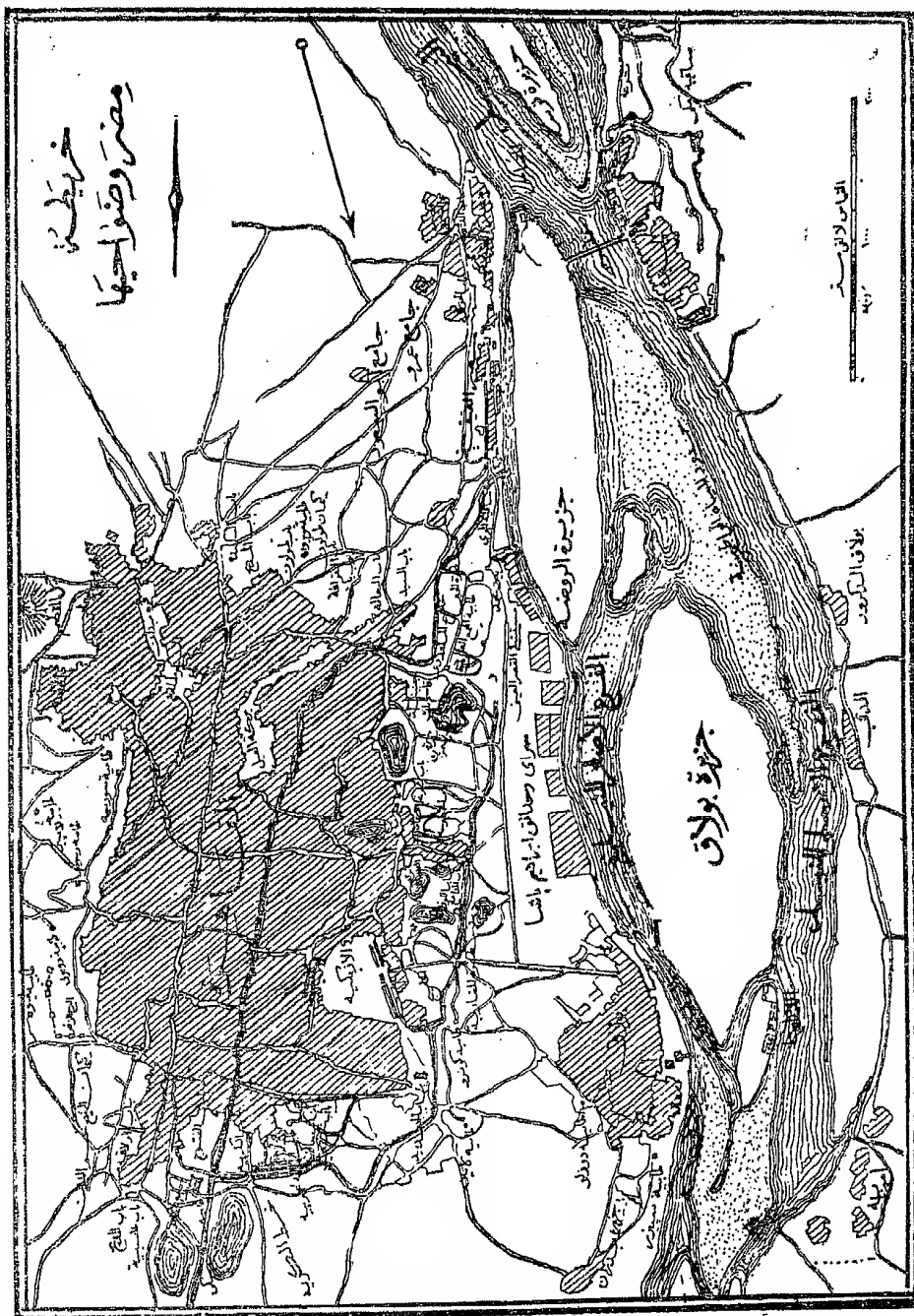
استطاع بوساطة والى محمد باشا العزنى أن ينال قدراً من المال ، أمرت له به الدولة من الخزينة ، لينفقه فى إصلاح بعض زوايا أسلافه ، فلما شرع فى عمارتها ، أدخل فيها قبوراً ومدافن لم تكن فيها ، وبالغ فى زخرفتها ونقشها بالذهب وأنواع الرخام الملون والعمد الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخارج لإقامة حريمه .

ثم أنشأ داراً أخرى ، جعل فيها رواشن وسواقي وبستاناً عامراً بأنواع الشجر ، وأدخل فيه بيوتاً لبعض الأمراء كانت متخربة . وكانت لبعض أبناء البكرى دار عظيمة وبستان فسيح ، فقهرهم على بيعه البستان له بثمان بخس وأضافه إلى بستانه . ثم أقام حائطاً كبيراً حجب النور والهواء عن بيت البكرى حتى باع له البيت أيضاً بثمان قليل .

وقد أفنى الشيخ السادات غالب عمره ، كما قال عنه الجبرتي ، فى تحصيل الدنيا وتنظيم الرفاهية ، واحتفاء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والماليك والعييد والخصيان والتأفق فى المآكل والمشرب والملابس^(٢) .

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ص ١٤٨ . القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ .



خريطة مصر وضواحيها في أوائل القرن التاسع عشر

الفصل التاسع

القاهرة في أيام

عبد الرحمن الجبرتي

لأنكمل صورة القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، دون الحديث عن مجتمع القاهرة على أيام المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، صاحب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ، فقد شاهد أحداث القاهرة منذ آخريات القرن الثامن عشر إلى الربع الأول من القرن الذي يليه ، وقد دون لنا تلك الأحداث ، متعرياً الصدق والدقة ومتوخياً الحق . لم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأى إنسان مهما عظم نفوذه . وإنك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتي من مطالعة كتابه وإمعان النظر فيه ، وبخاصة في تراجمه ، فإنك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ، ذاكرآ لكل منهم ماله وما عليه . وإن كنا نلاحظ أحياناً ميله إلى بعض الأمراء والماليك .

ولا شك في أن «عجائب الآثار» تعتبر وثيقة فريدة ونادرة ، يعول عليها لمعرفة تاريخ مصر السياسى وحوادثها وتراجم رجالها وحالتها الاجتماعية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فلم يكتب مؤرخ آخر مثل ما كتبه الجبرتي بمثل إسهابه وتحقيقه . ولولاه لغابت عنا حوادث مصر في ذلك العهد الطويل ، وإن كان رجال الحملة الفرنسية قد دونوا ما شهدوه من الحوادث خلال الفترة الوجيزة التى مكثوها في مصر .

ويعتبر كتاب الجبرتي مرجعاً ثميناً لمن يريد الكتابة في خطط القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فنحن نستطيع أن نتصور معالم القاهرة في أيام الجبرتي ، ونعرف ما أقيم فيها خلال عصره من مساجد ومعاهد وقصور وبساتين ، وما استجد في بعض أحياء القاهرة في أثناء حكم الفرنسيين مما تتطلبه الأغراض العسكرية من تدمير وإزالة ، أو تشويه وبناء .

واننا لنستمد من تاريخ الجبرتي وكما يسميه الفرنسيون «يوميات عبد الرحمن» أصدق الصور عن خطط القاهرة القديمة . وهى الصورة الفاصلة بين قاهرة المالك في أثناء العصور الوسطى ، وقاهرة الخديو إسماعيل في منتصف القرن التاسع عشر .

وقد ترجم «عجائب الآثار» للفرنسية مرتين الأولى بقلم «كاردان» مترجم القنصلية الفرنسية بمصر وطبعت

عام ١٨٣٨، والثانية وهى ترجمة وافية قامت بها نخبة من الأدباء المصريين برئاسة المرحوم شفيق بك منصور يكن، وظهرت فى تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦ . .

كان الشيخ حسن الجبترى والد مؤرخنا عبد الرحمن من العلماء الموسرين^(١) له ثلاثة منازل بالقاهرة ، أحدها بالابزازية على شاطئ النيل ، والثانى تجاه جامع مرزا جوريجى ببولاق، والثالث فى خطة الصنادقية قرب الجامع الأزهر^(٢) .

ويغلب على الظن أن الشيخ حسن كان يسكن أيام القيظ فى بولاق ، إشفاقاً على أولاده من غبار الحى الأزهرى ، لأن منزله فى الابزازية على ساحل النيل يرتفع عشرين درجة عن مستوى المساء حيث حرارة الجو لطيفة .

ولد عبد الرحمن الجبترى فى سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤ م بالقاهرة ، ثم أرسله أبوه وهو طفل إلى مدرسة السنانية ، القرية من منزل الأسرة بالصنادقية ليحفظ فيها القرآن ، ولما أتم حفظه فى سن الحادية عشرة ، رغب الشيخ عبد الرحمن العويشى إلى أبيه أن يلحقه برواق الشام ، فسلمه إليه ليجاور ويتلقى العلم عليه .

وكان ميدان لمو عبد الرحمن وهو فى حوالى السابعة يمتد من خان الصاغة إلى بيت القاضى فالشاهد الحسينى فباب زويلة وما يتفرع من الغورية من خطط وحارات وعطفات ، ولا شك أنه كان يصحب أباه إلى المساجد التى تؤدى فيها فريضة الصلاة أيام الجمع والأعياد .

وذكر لنا عبد الرحمن أنه صحب أباه فى ليلة المولد النبوى الشريف لسنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م إلى منزل السادة الوفائية ، فسكرم الشيخ أبو الامداد إسماعيل ، فكفى عبد الرحمن أبا العزم .

ورأى الوالد فى سنة ١١٨٢ هـ أن يسارع إلى تزويج عبد الرحمن وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة ، وقد أرخ الشيخ عبد الله الإدكاوى هذا الزواج بأيات بعث بها إلى الشيخ حسن الجبترى وبيت التاريخ قوله :

(١) آل إلى الشيخ حسن الجبترى من وقف جدة والده زينب الجوينية وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة مريم بنت الشيخ محمد المنزلى الأنصارى عقارات أهمها وكالة الصنادقية والحوانيت المجاورة لها وأملاك أخرى بالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الاقباغوية بالأزهر ، فضلاً عن ذلك فقد كانت زوجته ابنة رمضان جلبي (المعروف بالحشاب) من أسرة تملك عقارات عديدة فى بولاق ، منها وكالة السكتان وربما وحوانيت تجاه جامع الزردكاش وبيتاً كبيراً بساحل النيل ومنزلاً تجاه جامع مرزا الجوريجى، ولا بد أن حصّة زوجته كانت ذات بال ، فشاركها فى قسم كبير من هذه العقارات . .

(٢) خليل شيبوب . . عبد الرحمن الجبترى ، من كتب سلسلة إقرأ رقم ٧٠، دار المعارف ، القاهرة . .

والحال قد أرخته شمس البها زفت لبدرك

(١١٨٢)

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ في الأزهر بعد ذلك ، ثم عفى إلى بيته فيلقاه أبوه متحدثاً إليه في التاريخ وأحداث عصره ، وكان عبد الرحمن يفيد من علم زائري أبيه وأدبهم وحسن توجيههم ، فتمكنت الملائق بينه وبين الأمراء خاصة .

وبقي حاله كذلك حتى دخلت سنة ١١٨٨ هـ ، حينما بلغ الشيخ حسن السابعة والسبعين ، وفي ١٨ محرم أصيب بالهيفة الصفراوية ، ولم يلبث إلا اثني عشر يوماً حتى توفاه الله في غرة صفر من تلك السنة . ودفن بتربة الصعراء بجوار الشمس البسابلي والخطيب الشربيني رحمهم الله جميعاً . وكان عبد الرحمن في سن الثانية والعشرين . وقد ترك له والده ثروة ضخمة ، منها بيوت في بولاق والصناديق ومصر القديمة وأرضاً له بالقرب من كفر الزيات في بلدة ابيار وأوقافاً أخرى كبيرة .

وانتقل عبد الرحمن إلى بولاق ، ولم ينمه هذا الانتقال من المثابرة على الحضور إلى الأزهر والاشتراك في الحلقات . وفي العام التالي ، أي في الأيام الأولى من سنة ١١٨٩ هـ برح عبد الرحمن ، القاهرة في رحلة إلى طنطا وكفر الزيات وزار ابيار ، ثم سلك طريق النيل إلى فوه ورشيد . وبعد أيام سافر إلى ادكو حيث تفقد أوقاف الجبرية ، وهي مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة ، ثم رحل إلى أبي قير والاسكندرية حيث اجتمع بالشيخ السيري عالم الاسكندرية وشيخها الأكبر (١) .

ورحل بعد ذلك إلى دمياط ومر بالمنصورة ، ثم عاد الجبرتي إلى القاهرة وعاد سيرته الأولى ، بحضور حلقات التدريس في الأزهر . وفي سنة ١١٩٠ هـ أجازته شيخه عبدربه الميزي ، كما أجازته أيضاً أكثر الأشيخ في الفقه واللغة . وما عثم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أشيخه ، فأصبح دارساً ومدرساً .

وذكر الجبرتي أنه أجرى عمارة في بيت الصناديق ، بدأها في سنة ١١٩١ هـ وأتمها في سنة ١١٩٢ هـ . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوي في ذلك قصيدة نقشها الجبرتي في مجلسه من البيت ، قال فيها :

مكان على التقوى تأسس معجده	وفي سور التوفيق والهدى سورة
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق	ومقعد صدق قد تسامى جوره
بناء يروق العين حسن جماله	ورونقه يشفى الصدور صدوره
ومن معجده بانيه تزايد بهجة	وقلله من دور المسالى تحوره

وبيت التاريخ قوله :

ودام به سعد السعود مؤرخاً حمى العز بالمولى الجبرتي نوره

(١١٩٢)

وقد طرز الجبرتي هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس ، وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه السيد محمد مرتضى الزبيدي واخوانه الأشياخ والطلبة . . وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه بولاق ومشتاه بالصناديق .

وكانت هذه الدار تقع إلى يمين السالك في الحطة من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة ، فرسم لها الجبرتي باباً شارعاً على الحطة ينفذ إلى مدخل قصير تقوم إلى يمينه مصطبة من الحجر ، ثم ينفذ منه باب يفتح على رجة مربعة واسعة غرس في وسطها حديقة ، وشاد إلى يمين الرجة أقبية منها اصطبل للدواب وهري للعلال ومطبخ كبير به فاصل تركم فيه الأحطاب والفحم ، وحفر بئر بجانبه وبني بصدر الرجة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها يسكن الخدم وبعضها للضيوف ، وواحدة منها واسعة للطلبة وانعقاد حلقات التدريس ، وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد إلى الطبقة العليا مفضياً إلى ممشى يدور بالطبقة كلها مشرفاً على الرجة عقوداً تنتظمها عمد من الرخام الملون ، ونسق حول الممشى غرفاً شتى وجعل المقعد الداخل ليواناً يرتفع درجتين ، ويقوم على بائسكتين بدلا من واحدة ، وتأنق في تنظيمه فزين سماءه وجدرانه بالخشب المحفور والمبخور وأنواع القاشاني الملون ، وأقام حوله خزانين فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيه أرائك ثمينة وكسا أرضه بالسجاجيد نائراً عليها الطاريج الحريرية وسماء : «مجلس المقعد الداخل» وجعل له بابين ملبسين بالأصداق والنحاس البراق ، أحدهما يفضي إلى القاعة الكبرى التي يجلس فيها كبار الزائرين . وقد عقد روشنا في سماءها تموج حوله ألوان زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والمقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنشورة في الأركان والمعلقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المفضة بالبلور والشماعد الوهاجة وافتن في زخرفتها وفرشها . وأما الباب الآخر فيفضي إلى خزانة الكتب وغرف النساء والأطفال ، وعلق في عقود الدار وأفتيتها المصابيح المبلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال والأنواع ، وكسا الزوايا والأركان والرحاب بصنوف الرياش العالي والأثاث الثمين ، وأتفق عليه مالا جما حتى استتمها (١) .

وسكن الجبرتي فترة من الزمن في بيت يطل على بركة الرطلى ، وكانت كما يقول : « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البعري ، وليس في برها الاخر سوى الأشجار والمزارع ، وتمبرها المراكب والسفائن » .

وفي أواخر سنة ١١٩٥ هـ تزوج الجبرتي مرة أخرى ، تزوج ربينة صديقه على عبد اللهدرويهي الرومي ،

برغبة منه ، وكان « وجيه الطلبة ، سليم الطوية ، ينف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزة بأسنانه » . وكان مثقفاً غزير الإطلاع^(١) .

ولما قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر في صفر من سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ترك القاهرة إلى مزرعته في ابيار ، ثم عاد إليها بعد قليل ، عند ما أرسل العلماء بأعارة نابليون ، إليه وإلى غيره ممن هاجروا ، ليعودوا . ولما ألف القائد « مينو » قائد الجيش الفرنسى بعد سفر نابليون ، الديوان الثالث اختير الجبرتي عضواً فيه .

وهكذا كان كتاب الشيخ الجبرتي من أهم مراجع العصر الذى عاش فيه ، بل نستطيع القول بأنه أهم المراجع الوطنية كلها .

وقد أصيب الجبرتي في آخر حياته بمحنة قاسية ، ففي صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٢٧ هـ / ١٩ يونيو ١٨٢٢ م . كان ابنه خليل عائداً من قصر محمد على في شبرا بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه وخنقوه ، ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه الناس . وقد أصيب الجبرتي بموت ابنه وهو بين المرض والكبر والضيق بنازلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف وانقطع عن القراءة ، وألح عليه الحزن وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره ، وبقي في داره مريضاً حزيناً أعمى ، حتى مات في سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م ، وأعقب بنتاً عاشت مغمورة من بعده وولداً . ودفن بترية الصحراء إلى جانب أسلافه .

وبعد موت الجبرتي احترق منزل الصناديقية وأكلت النار مكتبة الجبرتي ، فلم يبق لها من أثر وضاعت كرايس تاريخه بعد عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م .

قاهرة الجبرتي

لم يكن بالقاهرة في تلك الأيام تنظيم خاص لشوارعها ، فكانت تجد بعض البيوت خارجاً عن حدود الطريق العام ، وترى البعض الآخر داخلاً ، كما ترى بيوتاً لها مشربيات قريبة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى له منافذ . ومن شيد عمارة ورأى أمام منزله فضاء أدخل منه في المنزل ما أحب بلا قيد . وكذا الشوارع لم تزد سعة عن الحارات . ولم يكن للحكومة (إذا صح القول بأنه كان هناك في ذلك العصر شيء جدير بهذا الاسم) إعتناء بأمر النظافة أو الصحة ، فكانت تلتقي القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة . وما تبقى من أبقاض الهدم من الأتربة والأحجار يلقي به بالقرب من أبواب المدينة ، فتصير تلالاً

حق إذا نسفتها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريهة الرائحة تنقل معها شتى الملل والأمراض . وكانت مقابر الموتى في وسط المدينة كمقبرة السيدة زينب ، وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفي المساجد وفي المدارس .

انقسمت القاهرة إلى بضعة أحياء تجارية ، فكان يباع في الجمالية واردات الشام والحجاز وحضر موت ، ويبيع في الخزاوي الجوخ والحريز وما يزد إليه من الهند وأوربا ، وامتاز خان الخليلي بتجارة البلاد التركية . وكانت للقاهرة أسواق وقتية فمنها ما يكون في يوم معين كسوق الجمعة والإثنين والخميس . ومنها ما يكون كل يوم بعد العصر كسوق العصر ، وكانت تلك الأسواق تنتقل من مكان إلى آخر حسب ما يراه الحاكم . واجتمع أصحاب الحرف الصغيرة والمشعوذون كالحواة والقرادين بميدان الرملة التي تحولت مبانيه الفاخرة إلى أكواخ وحيشان وأخصاص . واستعوز كل إنسان على ما استطاع من أرض تلك الجهة حتى المساجد والمدارس ، وبنوا حول المساجد مبان قذرة شوهت محاسنها . وكذا ضيقوا واسع أرض الميدان وسوق السلاح ، فكان المار بتلك الجهات بخطو على القاذورات ويعمر بين أقوام لا أخلاق لهم . وانحطت صناعات القاهرة ، فسكنت لا تشاهد غير الحرف الوضيعة يقوم بها صناع فقراء يحاولون العيش بصعوبة في حوائثهم .

وإذا رغبت الوقوف على صورة للقاهرة في تلك الآونة ، فلا ترى إلا أبنية مخربة وأسواراً وأبواباً مهدمة . وإذا قادتك قدماك إلى الحسينية فلا تشاهد غير تلال وكهان وأطلال . تلمح الشقاء في كل مكان وميدان حتى امتد إلى عابدين والداودية والقريبة والخليلة . أما جهات المدايح وباب اللوق فلا تسلم عما تحتوت عليه من المياه الآسنة والروائح الكريهة .

وخلاصة القول أن القاهرة وصلت إلى حال تمس حال في المهارة والتجارة والصناعة ، فأصبحت المدارس خاوية ، ولجأ الفقراء إلى سكنى المساجد . وإذا هبت الريح لا ترى إلا غباراً يثبث على البيوت فيسترها ساعات طويلة حتى تهدأ الحال . وكان يوجد على حافة النيل الشرقية بعض مبان كقصر العيني وبيت محمد كاشف قبله ، وبيت محمد بك الألفي بحريه — محل القصر العالي وغيرها — وامتدت مبان قليلة إلى جزيرة العبيط مكان ميدان التحرير الآن ، وكان الوصول إليها من بوابة أزيلت ، كانت تجاور غيظ قاسم بك الذي عرف فيما بعد بمحديقة وهي باشا .

ولما عادت القاهرة إلى حكم العثمانيين وشيخ البلد بعد انسحاب الفرنسيين ، كانت مخربة تنعق على أنقاضها اليوم ، واستأنف الألبانيون ورعاع الأروام والأرمن حوادثهم ، وعمت كوارث القتل والحطف والنهب وعاد المالك إلى رذائلهم ومفاسدهم . بينما جنود حامية القاهرة لا يسكتون عن المطالبة بمؤخرات مرتباتهم . فجمعوا على بيت الدقتردار (بيت محمد بك الألفي القديم) وبيت المحروقي (بيت الشيخ البكري) فصبوا ألواناً عليهم مدافع القلعة وخرب حتى الأتوبكية ونهب الرعاع ما فيه ، وأقيمت المناريس عند رأس الوراقين

والعقادين والمشهد الحسيني . ووزع الجنود بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد علي وكوم الشيخ سلامة . ونشبت الحرب بين الثمانيين والألبانيين بالقاهرة وبولاق والقصر العيني ، وانهمزم الوالى خسرو باشا بقواته فالتحقى ناحية جزيرة بدران ومنها توجه إلى المنصورة فدمياط .

وفي مساء يوم ما باتت القاهرة في قبضة طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين الذى شغل منصب الولاية . فطلب إلى المشايخ وكبار العلماء ورؤساء الوجاقات أن يختاروا من يشغل منصب الولاية الذى خلا فأعلنوه باختياره « قائماً ما » حتى يصل له إعلان الولاية أو يعين وال آخر .

واستمرت المظالم كمادتھا ، وأطلق طاهر باشا لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وتوقيع الغرامات الفادحة على التجار ، وقام الجنود الانكشارية يطالبون برواتبهم المتأخرة أسوة بالألبانيين .

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب رهط من الأنكشارية يبلغ عددهم نحو ٢٥٠ بأسلحتهم إلى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من رؤسائهم ، فدخلوا عليه وكلاه في الشكوى من تأخير دفع الرواتب فانتهرها ورفض أن يسمع شكواهما ، واشتد الجدل بينهم فجرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورمى جثته من النافذة وأحرقوا داره ونهبوها وكانت أيام حكمه قليلة . قال الجبرتي « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » .

عادت السلطة مؤقتاً إلى الأنكشارية ، فولوا أحمد باشا والى المدينة المنورة على ولاية مصر . وفى ذلك الحين كانت قوات المماليك وجنود محمد على على أبواب القاهرة .

يوم وليلة

جاهر محمد على بتحالفه مع المماليك ، واجتمع إبراهيم بك فى الجيزة ، وأفهمه أنه يؤيده ، وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدخل محمد على وإبراهيم بك وعثمان بك البرديسى ، وباقي زعماء ممالك القاهرة متحالفتين وطرّدوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته يوماً وليلة !

بدأت سلطة محمد على تظهر فى الميدان ، ونادى المنادون فى القاهرة « بالأمان حسب مارسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » فكان هذا النداء فى شوارع القاهرة إعلاناً باقتسام السلطة بين إبراهيم بك ومحمد على .

اتفق محمد على وإبراهيم والبرديسى على التخلص من الأتراك فاصروا أتباعهم قلعة جامع الظاهر وكان الأنكشارية يقيمون بها حتى أخرجوهم منها ونزعوا أسلحتهم وطرّدوهم من القاهرة ونادوا بتحذير الناس من إيوائهم .

بالغ محمد على في التودد إلى المماليك فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وإياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة الوالى خسرو باشا الذى كان لا يزال محتجاً بها ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية فى رشيد . فنجحت الحملتان وقبض على خسرو باشا وأرسل إلى القاهرة سجيناً ، وابتهج المماليك لهذا النصر ونادى إبراهيم بك بنفسه « قاعقام مصر » .

فلما علمت الحكومة العثمانية بمزل خسرو باشا وعودة نفوذ المماليك عزمتم على استرداد سلطتها ، فعيّنت على باشا الجزائرلى والياً لمصر ، وأرسلت معه قوة من ألف جندى . فبقى فى الاسكندرية إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ، ثم قصد القاهرة ليتقلد منصب الولاية بناء على دعوة من الأمراء المماليك متظاهرين فيها بالرغبة فى الوفاق . لكن هذه الدعوة كانت له شركاً نصبوه للفتك به ، فلما وصل إلى « شلقان » التقت به جماعة من أمراء المماليك وجنودهم ، وهنا أبلغوه أنهم ينعونه من دخول القاهرة وأركبوه صهوة جماعة منهم لحراسته للذهاب به إلى حدود سورية ، ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به حراسه قتلوه فى الطريق .

لم يبق أمام محمد على إلا قوة المماليك فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتهدداً لتلك الغاية ترك لزعماء المماليك ولا سيما البرديسى السلطة ظاهراً ، حتى يحملهم تبعه الحكم ومساوئه ، ويحملهم هدفاً لخط الشعب وتبعة المسئولية أمام الباب العالى .

محمد بك الألفى

كان هناك زعيم آخر من زعماء المماليك هو « محمد بك الألفى » وقد رحل إلى إنجلترا وقت جلاء الحملة الإنجليزية (١٨٠١) لمفاوضة حكومتها فى عودة المماليك إلى الحكم ، ثم عاد لمصر ، ولوقدر له النجاح فى مسعاه لتغيير وجه التاريخ المصرى الحديث .

علم محمد على بعودة الألفى إلى مصر فأوجس فى نفسه خيفة لأنه كان يحسب للألفى حساباً كبيراً ويمده أقوى خصومه ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسى ليخلصه من خصمه ، فأنفذ رجاله للقبض على الألفى بك وقتله . وكاد الألفى يقع فى الشرك لولا اختفائه وفراره ، فتجا بنفسه وذهب إلى الصعيد لتكوين حزب يناصره . لكن انقسام المماليك كان من الأسباب المعجلة بزوال دولتهم .

وفى مارس ١٨٠٤ عزم البرديسى على فرض ضريبة جديدة على الأهالى وأخذ عمال الحكومة يعاونهم جنود المماليك يجوبون أحياء المدينة لجمعها . فاشتد سخط الشعب واحتشد جماعات مستنكرين تلك المظالم وامتنعوا عن دفعها ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون وهم يحملون الرايات والدفوف والطبول ويستمتطرون اللعنات على الأحكام ، وكانت غالب صيحاتهم منصبة على حكام المماليك فأخذت جموعهم تنادى :

« إيش تأخذ من تفلىسى يا برديسى ! » وأغلق التجار وكالاتهم وحوانينهم ، واتجهت جموع الناقمين

إلى الأزهر لمقاومة المشايخ والاحتجاج على الضريبة الجديدة ، فقام هؤلاء يطلبون من أمراء الممالك الغاءها .

لقد نفع في بوق الثورة ! وأخذت روحها تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أحياء القاهرة .. فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر وهو يستولى على الميادين والشوارع . وحتى محمد على أن تصيب الثورة جنوده فبادر إلى « كشف » الممالك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضبه ، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ . ونزل إلى الطرقات واختلط بالجمهير وقابل علماء الأزهر وتهددهم بأن يبدل نفوذه لرفع هذه الضريبة وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب ، فاختلطوا هم أيضاً بالناس وأعلنوا عدم رضائهم عن الضرائب وجاهروا بأنهم يطلبون بروتهم من الحكومة لأن الأهل !

كسب محمد على بهذه السياسة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل يحب خير الشعب . بل بدأ محمد على يأخذ مظهر رجل الساعة المنتظر لتخليص البلاد من تلك القوضى الشاملة .

أما عثمان بك البرديسى ، فقد قابل تلك الثورة بالعطسة والكبرياء ، ونقم على المصريين الذين لم يعتزلوا لأوامر الممالك ، بينما انتهز محمد على فرصة غضب الشعب على الممالك وثورته عليهم وتوزيع جنود الممالك في الأقاليم ، فأمر جنوده بهجمة الممالك الموجودين بالقاهرة وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة انفيش وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقى الممالك في أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالى .

رأى الممالك أنفسهم حيال قوتين ! ثورة الأهالى من جهة ، وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة . وكان أول الفارين البرديسى بك ثم إبراهيم بك . ولما علم جنود الممالك الذين احتلوا القلعة بفرار زعيمهم أخلوها ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم . فاستلم جنود محمد على القلعة .

قصد محمد على القلعة لمقابلة خسرو باشا الوالى القديم وكان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده إلى ولايته ، فنزل به إلى المدينة معلناً أنه صاحب الولاية فى البلاد . فازداد الشعب تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة فى تولى الحكم . لكنه لم يبق طويلاً وعزل ، وعين من بعده خورشيد باشا .

نجح الممالك فى جمع شملهم وعادوا للعبيزة بقيادة البرديسى وإبراهيم بك لفتح القاهرة ، واستمرت الحرب سجلاً بين الممالك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر حتى ارتدوا عن القاهرة منسحبين إلى الصعيد .

بدأ خورشيد يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، وقد رأى أمامه شخصية جبارة تغطى على نفوذه فاستصدر من الأستانة فرماناً بعودة محمد على وجنوده إلى بلادهم . فلما وصل فرمان إلى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المكيدة ، وتظاهر بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لما عهده فيه من الاستقامة .

اهتزت القاهرة لنبا هذا الرحيل وأقفلت الأسواق ، وكاد جبل الأمن يضطرب ، وأخيراً قبل محمد على

طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد من عدول محمد على عن السفر، أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للإذعان مؤقتاً للأمر الواقع . فأصدر أمره إلى محمد على بمحاربة المماليك في الصعيد ليتخلص منه ، وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمدّه بامدادات قوية فأوفدت إليه جيشاً من الدلاة . فلما وصل إلى محمد على نبأ هذه القوة عجل بالعودة إلى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة في البلاد .

ثورة القاهرة

فرض خورشيد باشا في شهر مايو سنة ١٨٠٤ ضريبة على أرباب الحرف والصناعات ، فضجوا منها وأفلوا حوانيتهم، وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، فراحافظ ورئيس الشرطة في الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت ، فلم يفتح منها إلا القليل . واشتد هياج الناس، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف والجماهير بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد الكثيرون منهم إلى المآذن يصرخون حتى سمع الوالى وهو بالقلمة دوى صياحهم ، وأخيراً اضطر خورشيد إلى رفع الضرائب وأعلن بإبطالها ونادى المنادون بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا .

وكان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا من أردأ عناصر الجيوش العثمانية ، فقد أخذوا يعيشون في الأرض فساداً ، وقال عنهم الجبرتى الذى شاهد أفعالهم وهو ينتقل بين أنحاء القاهرة ليمود إلى بيته ويسجل في تازيخه النفيس ما كان يراه كل يوم .

« ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها، وكانوا إذا سكنوا داراً أخبربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم ، فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الحراب سائر الضواحي، وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وباقي دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم » .

وكان خورشيد يرى أنه لا يهدأ له بال حتى يتخلص من خصمه محمد على . وبينما كان يستعد لذلك عاد محمد على إلى النيا مع حسن باشا بجنودها في الصعيد بعد مطاردة المماليك ونجاحهما في مهمتهما .

وكان خورشيد قد أنفذ إليهما قوة من الدلاة لصدّهما عن التقدم بالقرب من طره . ولكن محمد على تمكن بدهائه من اجتياز هذا المعقل دون أن يلقي أية مقاومة . فإنه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث إليهم ، فأجابوه إلى طلبه واستطاع بسهولة أن يبسط لهم وجهة نظره فأجمعوا رأيهم على ألا يترضوا لجيش محمد على وأخلوا له الطريق .

فواصل سيره حتى بلغ القاهرة ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ أبريل ١٨٠٥ ليبدأ النزال بينه وبين خورشيد بأها وجهاً لوجه .

وفي يوم الأربعاء أول مايو عام ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالي مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالي الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالاً ونساءً إلى جهة الجامع الأزهر، وانتشر خبر الاعتداء بسرعة البرق في المدينة كلها .

فاجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالي وخاطبوه في وضع حد لفظائع الدلاة . فأصدر الوالي أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس ، وكان هذا الأمر صورياً لأن الجنود لم ينفذوه .

خوطف الوالي ثانية فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة ، فلما علم الجنود اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وبدأت الثورة تلوح علاماتها في المدينة .

وفي اليوم التالي عمت الثورة أحياء العاصمة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت الحوانيت، واحتشدت الجماهير في الميادين والطرق .

أدرك الوالي خطر الحالة وأرسل وكيله صجبة المحافظ إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لكي يحج الهياج فلم يجدهم بالأزهر ، فذهب إلى بيت الشيخ الشرفاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له في الحديث وانصرف على غير جدوى وقصد القلعة . لكن الجماهير لم تتركه يدخل إليها دون أن ترجمه بالأحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج، وصمموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة .

لم يكن سهلاً إجابة هذا الطلب لأن الدلاة كانوا عدة الوالي في القتال . واستمر العلماء مضربين عن إلقاء الدروس وأقفلت الأسواق أكثر من أسبوع وامتنع العلماء عن مقابلة الوالي طوال هذه المدة .

اعتقد خورشيد أنه نجيح في مسعاه لإقضاء محمد على عن مصر . فقد ورد فرمان سلطاني بتقليده ولاية جدة . فابتهج خورشيد باشا وأرسل في الحال يستدعيه إلى القلعة ليسلمه براءة التعيين وليخلع عليه خلمة الولاية الجديدة . لكن محمد على أدرك ما في هذا التعيين من الدسيسة وخشى القدر به إذا صعد إلى القلعة . فأرسل ينبئه بأنه مستعد لتلقي أمر التعيين في المدينة في أى منزل يختاره الباشا .

غضب خورشيد من هذا الجواب . فاتفق المشايخ على أن يكون الاجتماع في منزل سعيد أغا في منزل وكيل دار السعادة وصديق محمد على . فرضى خورشيد بهذا الحل مرغماً وذهب في الميعاد (٣ مايو ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية وأمر بتلاوة فرمان . ولما انتهى الاجتماع خرج خورشيد عائداً إلى القلعة وقابلته الجنود الألبانية والشعب بالهتافات :

« محمد على لا يذهب إلى جدة . لن يغادر القاهرة . نريده هنا لإعادة الأمن واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظاً للقاهرة ووالي مصر وليذهب خورشيد لجدة » . .

نظم جنود الألبان أنفسهم واصطفوا بأمر قائدهم أمام والى وأحاطوا به ، وامتنطى محمد على جواده في طلبتهم لحراسة خورشيد باشا إلى القلعة . وقد تم كل ذلك بهدوء ليحفظ بنفسه لممثل خليفة المسلمين وقار منصبه .

وانتهت الفترة التي حددتها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة ، يوم السبت ١١ مايو وكان لا يزال باقياً نحو ١٥٠٠ . وعلم زعماء الشعب أنهم ممنعون عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل لدفعها وخزينة الحكومة خالية .

ففي صباح يوم (١٢ صفر ١٢٢٠ هـ مايو ١٨٠٥ م) اجتمع زعماء الشعب وقاضى مصر والعلماء وفرقة الوجاقية (الموظفين) والمشايخ أمام دار المحكمة الشرعية الكبرى (بيت القاضى) لإصدار قرارهم وليس فيهم أحد يحمل سلاحاً . وتستطيع أن تبين نفسية الشعب في ذلك اليوم الرهيب وتحكم عليها من ندائه « يارب يا متجلى أهلك العثماني » .

وللمرة الأولى كما قال قنصل فرنسا في تلك الآونة « يقوم الشعب المصرى بتعيين واليه وهذه سابقة عجيبة في الشرق أجمع » .

اجتمع زعماء الشعب في دار المحكمة ووافاهم وكلاء والى بعد أن طلبهم قاضى المحكمة ، فحضروا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم وسلموا صورتها إلى القاضى ، وقام وكلاء والى يبلغونها إلى خورشيد باشا بالقلعة . فلما اطلع عليها رأى أن الحركة خطيرة فأرسل إلى محمد على يستدعيه ومعه السيد عمر مكرم تقيب الأشراف والعلماء إلى القلعة للتشاور معهم . ولكن فطن السيد عمر إلى مقاصد والى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب إليه .

فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً ورفض إجابة مطالبهم .

السيد عمر مكرم

اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ورؤساء الصناع في اليوم النالى بدار المحكمة للمداولة ، واحتشدت الجماهير في فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاء عم . واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على والياً مكانه . وقاموا في عصر اليوم إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم قائلين له :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله عن الولاية » .

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلاً :

« إننا خلعناه عن الولاية » ، فسأله محمد على : « ومن تريدونه والياً ؟ »

فأجاب الجميع بصوت واحد : لا نرضى إلا بك وتكون والياً بشروطنا لما تنوسه فيك من المعدالة وحب الخير .

فتردد محمد على في بادئ الأمر لى لا يقال عنه أنه المحرض للثورة ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً : « إننا اخترناك برأى الجميع وإجماع الكافة » فقبل محمد على الولاية ، وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرفاوى وألبساه خلعاً الولاية .

أبلغ زعماء الشعب قرارهم إلى خورشيد باشا فرفض الإذعان لمطالبهم، وأخذ يحصن القلعة ويجمع الذخيرة ويستعد لإخماد الثورة . وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار الوالى على التسليم .

احتشد الثائرون في ميدان الأزبكية ، وعبثاً حاول الزعماء إقناع الوالى بعدالة مطالبهم، فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال بما وصلت إليه أيديهم من العصي والأسلحة . فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم أو يستدينون لشراء الأسلحة .

استمر القلق والاضطراب إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو ١٨٠٥ وفي تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء، خرج جنود الوالى من القلعة للاستيلاء على متاريس الثوار، فبادل الفريقان إطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جنود الوالى إلى داخل القلعة . واستمرت الحرب سجالاً حتى نزل عمر بك أحد مستشارى الوالى من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة للتسليم . ولم يكن ذلك إلا خدعة منه ليتزود من الذخيرة ، وفي يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشد السيد عمر مكرم في حصار القلعة على رأس الوجاقلية والشعب وأهل خان الخليلي والغاربة . ومن العجب أن الفتور كاد يتسرب إلى الجنود الألبان الذين شاركوا الثوار في القيام على المتاريس وطلبوا مرتباتهم من محمد على فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا . فأبوا ولم يمشلوا وتركوا متاريس القلعة وتفرقوا و أخذ مكنانهم جماعة من المصريين .

وكان السيد عمر مكرم حريصاً على نجاح حركته وصيانتها من الفشل ، وقد حدث في مدة الحصار أن حضر أحد قواد الوالى بقواته ورابط بمصر القديمة وأمكنه الاتصال بالقلعة عن طريق الجبل وأن يعد حاميتها بالمؤن والذخيرة وحاول الاتصال بجنود محمد على لصفهم عن حركتهم . ثم عزم على مهاجمة متاريس الصليبية في أثناء قيام الوالى بتصويب المدافع على القاهرة . وبينما كانت إحدى قوافل الجمال المحملة بالمؤن في طريقها إلى القلعة خرج عليها « حجاج الحضري » شيخ طائفة الحضرية وطائفة من أهالى الرميثة فضربوا « الجمالين » وحاربوهم وأخذوا جمالهم وتغلبوا عليهم . فلما رأى الوالى ذلك أمر بضرب المدافع على القاهرة

ولا سيما نحو جهة بيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر، واستمر الضرب من أول النهار إلى بعد الظهر فهدمت بعض البيوت القديمة .

استمر القتال بين الشعب والوالي إلى أوائل شهر يوليو عام ١٨٠٥ ، حتى أرسل محمد على إلى السيد عمر مكرم مشيراً عليه بإرسال بعض رجاله لنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركه على إحدى قم المقطم التى تشرف على القلعة لتهديد الوالى وقوته العسكرية فيها . فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر المدفع فأخرجوه من باب البرقية فباب الوزير حتى تم تركيه فى المكان الذى عينه محمد على . وأخذ الثوار يضربون القلعة واستمر الضرب متبادلين الفريقين، وبهذه الفكرة أنقذ محمد على العاصمة من أذى شديد كاد يلحق بها .

وفى تلك الآونة وصل إلى الاسكندرية « صالح بك » من كبار ضباط الباب العالى قادماً من الأستانة يحمل فرمان الولاية . وكان الشعب ينتظرو وصوله ، ولم يكن للناس حديث سواه .

محمد على

وصل صالح بك إلى بولاق فى العاشر من أغسطس . . ففرس فى وجوه المستقبلين قارئاً ما يحول فى أفكارهم ، وأعلن الملاء بأن السلطان قد لى رجاء العلماء، وولى محمد على قائمقامية القاهرة المحروسة وولاية مصر واستدعى خورشيد للاسكندرية .

خرج محمد على وكبار القواد الألبان وطائفة من الجنود والوجاقلية وكثيرون من مشايخ الأزهر وأهالى بولاق ومصر القديمة وباب الشعرية والحسينية والعطوف والحليفة والرميلة والخطابة والحباله وفى الطليعة « حجاج الحضرى » ويده سيف مسلول وكذلك ابن شعبة شيخ الجزارين ومعه الطبول والزمر . وكانت المدافع تدوى حتى وصلوا إلى الأزبكية، فنزلوا بيت محمد على ، وحضر المشايخ والأعيان لقراءة المرسوم الذى أحضره « صالح بك » بولاية « محمد على » على مصر وب عزل خورشيد باشا .

فى اليوم التالى (١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ / ١٩ يوليو ١٨٠٥ م) قصده السيد عمر مكرم بيت محمد على فى جمع كثير من الجند والأهالى والغاربة ، والصعايدة والأزناك ، وكانوا مسلحين ، وبعد انتهاء الزيارة ذهب السيد عمر وحده إلى بيت « صالح بك » للتسليم عليه ، ثم عاد إلى بيته .

وامتنع رعى القنابل فى القلعة كجاسد أمر بوقف نيران مدافع الجبل ، واستمر الحصار حول القلعة منعاً للمفاجآت حتى أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ / ٥ أغسطس

(١٨٠٥) وأُزيل الوالى السابق حريمه وجنوده وأتباعه ، وغادرها فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فجبهة الخروبى فبولاق . وقد ودعه محمد على وعمر بك وصالح بك ، وأقلمت السفينة التى أقلته إلى الاسكندرية ، وأصبح محمد على حاكم البلاد .

وفى اليوم التالى عقب وصول خورشيد إلى الاسكندرية وصلت قوة من المماليك تباعج الأربمائة فارس بقيادة ستة من زعمائهم ومنهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى واحمد كاشف سليم وعباس بك ، وعبروا بوابق الفتوح والنصر ، ثم ساروا فى كوكبة عظيمة وأمامهم الطبول والزمر والنقران ، فاخترقوا ميسادين القصرين حتى وصلوا إلى المدرسة الأشرفية ، وكانوا كلما تقدموا داخل المدينة انضم إليهم أتباعهم حتى أنهم ما كادوا يصلون إلى قلب المدينة حتى كانت قد احتشدت لهم جموع عظيمة . فهجم عليهم الجنود الألبان وحاصروهم من كل جانب فلم يتقدموا ، ولما أرادوا العودة من حيث أتوا وجدوا الشوارع مسدودة فى وجوههم . فقصدوا أبواب المدينة التى دخلوا منها فلما وصلوها كانت مغلقة ، فترجلوا تاركين جيادهم وحاول بعضهم دخول المساجد القريبة للاختفاء فيها . ولجأ آخرون إلى بعض الوكالات والمنازل . ولكن كان هياج الشعب شديداً فلم ينبج منهم أحد ، ومن وقع فى الأسر كان يسلب وينهب ويمرئ من ملابسه ويسحب على وجهه حتى تفصل رأسه عن جسده ثم تملخ وتحشى بالبن . وكان الانتقام فى تلك المرة قاسياً فلقد توقع المماليك نجاحهم فى الانقلاب الجديد ، ولكن عدوهم كان شديد الوطأة متيقظاً ، فأبادهم ولم ينبج منهم غير القليل إذ وقعوا فى الشرك الذى أتقن حبه ، ولم يكن هذا الشرك الأخير من نوعه ، فقد كان ينتظرهم شرك آخر

ظنوا أن الفرصة سانحة بعد رحيل خورشيد وجنوده . . وانصرف الأهالى كل إلى داره ، فقاموا بمفاجأتهم وقد أيقنوا أنهم لابد ناجحون ... لكنهم فشلوا .

ثم مات البرديسى ، وبعد أيام مات الألفى مسموماً على يد حريمه ، فخلفه الجوال محمد على وفى أول مارس عام ١٨١١ تخلص من بقايا المماليك حينما دعاهم إلى وليمة القلعة ، ونكل بهم بقسوة

* * *

تلك كانت القاهرة حتى العشرينات فى القرن التاسع عشر ، مدينة شرقية فى روحها وفى عمارتها وفنّها ، وفى مجتمعتها . تحتفظ بملاحمها البارزة من خطط وطرق وعمارات ومبان كثيرة ، بالرغم مما خرب منها على أيام العثمانيين ، أو دمرته مدافع الفرنسيين .

ملحق

ثبت بأسماء من تولوا حكم مصر

٩٦٩ م - ١٥١٧

الاسم	السنة	الاسم	السنة
الفاطميون		المماليك البحرية	
المعز	٩٦٩	شجرة الدر	١٢٥٠
العزیز	٩٧٥	عز الدين أيك	١٢٥٠
الحاكم	٩٩٦	المنصور على بن أيك	١٢٥٧
الظاهر	١٠٢١	سيف الدين قطز	١٢٥٩
المستنصر	١٠٣٦	الظاهر بيبرس	١٢٦٠
المستعلي	١٠٩٤	بركة خان بن بيبرس	١٢٧٧
الأمير	١١٠١	سلامش بن بيبرس	١٢٧٩
الحافظ	١١٣١	المنصور قلاوون	١٢٧٩
الظافر	١١٤٩	خليل بن قلاوون	١٢٩٠
الفاخر	١١٥٤	الناصر محمد بن قلاوون	١٢٩٣
العاقد	١١٦٠	زين الدين كتبغا	١٢٩٤
		المنصور لاجين	١٢٩٦
الأيوبيون		الناصر محمد (للمرة الثانية)	١٢٩٨
الناصر صلاح الدين	١١٦٩	ركن الدين بيبرس	١٣٠٨
العزیز بن صلاح الدين	١١٩٣	الناصر محمد (للمرة الثالثة)	١٣٠٩
المنصور بن العزیز	١١٩٨	أبو بكر بن الناصر	١٣٤١
العاقل بن أبوب	١٢٠٠	علاء الدين بن الناصر	١٣٤١
الكاظم بن العادل	١٢١٨	شهاب الدين أحمد الناصر	١٣٤٢
العاقل بن الكامل	١٢٣٨	اسماعيل بن الناصر	١٣٤٢
الضاح بن الكامل	١٢٤٠	شعبان بن الناصر	١٣٤٥
العزيز بن الكامل	١٢٤٩	حاجي بن الناصر	١٣٤٦

السنة	الاسم	الاسم	السنة
١٤٢١	سيف الدين ططر	حسن بن الناصر	١٣٤٧
١٤٢١	محمد بن ططر	صالح بن الناصر	١٣٤٧
١٤٢٢	الأشرف برسباى	حسن بن الناصر (للمرة ٢)	١٣٥٤
١٤٣٨	يوسف بن برسباى	محمد بن حاجى	١٣٦١
١٤٣٨	سيف الدين جقمق	شعبان بن حسين	١٣٦٣
١٤٥٣	عثمان بن جقمق	على بن شعبان	١٣٧٦
١٤٥٣	سيف الدين اينال	حاجى بن شعبان	١٣٨١
١٤٦١	أحمد بن اينال		
١٤٦١	خوش قدم	المماليك الجراكسة	
١٤٦٧	سيف الدين يلباى	سيف الدين برقوق	١٣٨٢
١٤٦٧	تيمور بغا	النصور حاجى الملك	١٣٩٠
١٤٦٨	سيف الدين قايتباى	فرج بن برقوق	١٣٩٩
١٤٩٦	محمد بن قايتباى	عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥
١٤٩٨	الظاهر قنصوه	فرج بن برقوق (للمرة الثانية)	١٤٠٥
١٥٠٠	الأشرف جنبلط	المستعين الخليفة العباسى	١٤١٢
١٥٠١	العادل طومان باى	المؤيد شيخ	١٤١٢
١٥٠١	قنصوه التورى	أحمد بن شيخ	١٤٢١
١٥١٦	الأشرف طومان باى		

مراجع عن القاهرة

١ - الرحلات والمصادر الأصلية

ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧) : تحفة النظار في عجائب الأمصار وعجائب الأسفار ،
٣ مجلدات ط باريس ١٨٥٣ ؛ الطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ ؛ الطبعة
الأزهرية ١٩٢٦

ابن جبير : (ت ١٢٠٤) : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، نشرها المستشرق رايت
سنة ١٨٥٢ ؛ ودي خوية بليدن ١٩٠٧ ، ط . القاهرة دار الفكر العربي ، حققها
حسين نصار .

ابن حوقل : (ت حوالى ٩٨١) : المسالك والممالك ، دى خوية بليدن .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥) : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشره وعلق
حواشيه محمد بن تاووت الطنجي ، لجنة التأليف والنشر ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ .

ابن سعيد المغربي : (ت حوالى أواخر القرن ١٣) : كتاب المغرب في حلى الغرب ؛ ط جامعة القاهرة ١٩٥٠
أبو الصلت ، أمية بن عبد العزيز (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧) : الرسالة المصرية ، نشرها الأستاذ
عبد السلام هارون من مخطوط رقم ٦٠١ أدب بمكتبة أحمد تيمور ، ط . لجنة التأليف
والنشر عام ١٩٥١

البلاوى ، خالد بن عيسى : (القرن الثامن هـ / ١٤ م) تاج الفرق في تحلية علماء المشرق ، مخطوط
رقم ٢٠٢ : ٤٠٠ بدار الكتب المصرية

بنيامين التطيلي الأندلسي : رحلته إلى المشرق (٥٦١ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ - ١١٧٣) ، ترجمها عن
العبرية عزرا حداد ونشرها عباس الزاوى ، بغداد ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ .

الخياري ، ابراهيم بن عبد الرحمن : (ت ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢) : تحفة الأدباء وسلاوة الغرباء
(وتعرف برحلة الخياري) ؛ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٥

عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ / ١٢٣١) : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة
بأرض مصر ، ط أوروبا ، وطبعة موجزة : (المجلة الجديدة) بالقاهرة

عبد الغنى النابلسي (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١) : الحقيقة والحجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز
(حوالي ١١٠٥/١١٠٦ هـ) ، مخطوط رقم ٣٤٤ بدار الكتب المصرية ؛ حققها ونشرها
فون كريم ١٨٥٠

الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ؛ مخطوط رقم ١٧٦٧ (١٤٨ ورقة) ينسب إلى القرن ١٦ ،
الكتبة الوطنية بباريس .

ليوناردو فرسكو بالدي (ت حوالي القرن ١٤) : رحلته إلى مصر وفلسطين في القرن الرابع عشر ،
٥١ ص ، ترجمة بنت بطوطة ، ط بروكاشيا بالاسكندرية . أنظر : المراجع الأجنبية .

ناصر خسرو : (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١) : سفرنامه ترجمه إلى الفرنسية شارلس شيفر ، باريس ١٨٨١ ؛
وإلى العربية دكتور يحيى الحشاش ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٥

الهروي ، أبو الحسن بن أبي بكر (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤) : رحلة الهروي ، مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم ٣٣ تمت كتابته سنة ٦٠٢ هـ

ابن إياس ، محمد : (ت ١٥٢٤) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط بولاق عام ١٣١١ هـ .
ابن تغري بردى ، أبو المحاسن (ت ١٤٦٩) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع ١٢ جزءاً ،
ط دار الكتب المصرية ، حقق بعضها الأستاذ محمد رمزي .

ابن الجيمان ، شرف الدين يحيى (ت ١٤٥١) : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ط الأهلية
بالقاهرة ١٨٩٨

ابن دقماق ، إبراهيم المصري (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ط ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦
[بعض الأجزاء]

ابن عبد الحكم : (ت ٨٧١ م) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، لجنة البيان
العربي ١٩٦١

ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ / ١٣٤٨) : مسالك الأبصار ، طبع منه جزء واحد .
الجبرتي ، عبد الرحمن (ت ١٨٢٥) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، جزءان ، ط بولاق
عام ١٢٩٧ / ١٨٧٥ ، طبعة (١٨٨٩ - ١٨٩٠)

السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧) : تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات (٤٠٧ ص) ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ؛ ط العلوم والآداب ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧

السيوطى ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط الشرقية بالقاهرة ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ .

الشيلى ، عبد الرحمن : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العريى ، ط لجنة التأليف والنشر ، ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .

على مبارك (ت ١٤ نوفمبر ١٨٩٣) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها وبلادها القديمة ٢٠ جزءاً في ٥ مجلدات ، ط الأميرية ببولاق ١٣٠٥ - ١٣٠٦ / ١٨٨٨ ، تناول في الأجزاء الستة الأولى تاريخ القاهرة المعزية ومقارنة أوضاعها القديمة بأوضاعها الحالية (١٨٨٥) وخطط القاهرة وشوارعها وحاراتها وجوامعها ومدارسها وأسبلتها الخ

القلقشندى ، شهاب الدين أحمد (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ط دار الكتب المصرية (١٩١٣ - ١٩١٧)

المريزى ، تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١) : الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مجلدان ، ط بولاق ، ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣

— : السلوك في دول السلوك ، حقق الأجزاء الأولى الأستاذ م . مصطفى زيادة ، ط لجنة التأليف والنشر : القاهرة

النورى : (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، صدرت جملة أجزاء ، دار الكتب المصرية (١٩٢٣ - ١٩٦٠)

٢ - مراجع حديثة

حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ، ط المعارف ١٩٢٦

: الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص . ط بولاق ١٩٣٢

حسن عبدالوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها من نشأتها . ط دار النشر للجامعات المصرية ١٩٥٧

فيكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في المصور الوسطى . ط دار المعارف .

: كنوز الفاطميين ، ط دار الكتب ١٩٤٠ .

وهيد الرحمن فيكي : في مصر الإسلامية ، ط المقتطف ١٩٣٧ .

سنبلى لين بول وترجمة حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن وإدوار حليم : سيرة القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ .

شعاعته عيسى ابراهيم : القاهرة ، ط دار الهلال ١٩٥٩ .

على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، ط حجازى ١٩٣٣ .

عبدالرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . ج ١ ، ٢ ، ٣ . ط القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٣٠ .

عبد الرحمن زكى : القاهرة ، ج ١ . تاريخ القاهرة إلى نهاية عصر المماليك ، ط حجازى ١٩٣٢ .

ج ٢ القاهرة من العصر العثمانى إلى نهاية القرن ١٩ ، ط حجازى ١٩٣٤ .

عبد الرحمن زكى : القاهرة من المعز إلى العصر الحديث ، ط المستقبل ١٩٤٢ .

: فى مصر الإسلامية ص ٩٨ — ١٠٨ ، عواصم مصر الإسلامية ، القنطف ١٩٢٧ .

: مراجع تاريخ القاهرة منذ إنشائها إلى اليوم . الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٦٤ .

عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٠ .

فؤاد فرج : القاهرة ، ثلاثة أجزاء . الأول يشمل تاريخ عواصم مصر القديمة فى العصر الفرعونى

الثانى يشمل تاريخ عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة . الثالث يشمل تاريخ القاهرة

منذ عصر الفوالم حتى عام ١٩٤٥ . ط دار المعارف ١٩٤٦ .

كاوت بك (ترجمة محمد مسعود) : لمحة عامة إلى مصر ، جزءان ، ط أبو الهول القاهرة ، ١٩٣٠ .

محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ط دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

: مذكرة ببيان الأغلاط التى وقعت من مصلحة التنظيم فى تسمية الشوارع والطرق

بمدينة القاهرة ، بمقدمة لوزير الأشغال ، ١٩٢٥ .

محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط دار الكتب المصرية ١٩٣١ .

محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرى — مصر فى القرن ١٨ ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٥٥/١٩٥٦ .

محمود عكوش : مصر فى عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤١ .

تقولا زيادة : رواد الشرق العربى ، ط القنطف ١٩٤٣ .

يوسف البهنانى : جامع كرامات الأولياء ، جزءان ، القاهرة ١٩١١ .

٣ — آثار القاهرة وفنونها

لجنة حفظ الآثار العربية : مجموعة محاضرات الجلسات ، وتقارير الأعضاء عن الآثار العربية من سنة

١٨٨٣ إلى ١٩٤٥ من المجلد الأول إلى المجلد ٣٩ . المطبعة الأميرية .

- ابراهيم محمد الجبل : جامع عمرو بن العاص ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ص ٧ - ٢٢ .
- أحمد تيمور : قبر الإمام السيوطي (٢٤ ص) ، ط . السلفية ١٣٤٦/١٩٢٧ .
- أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ١ (٣٢٦ ص) ، ط دار المعارف ١٩٦١ .
- إدارة حفظ الآثار العربية : نبذة تاريخية عن منطقة القلعة وما بها من آثار لمناسبة زيارة ضيوف مصر في اليوبيل الفضى لجامعة فؤاد الأول ، ط الأميرية ١٩٥٠ .
- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان : أولهما يشمل المثنى (٤٣١ ص) ، وثانيهما يشمل الرسوم والصور ، ١٨١ ص ، ط دار الكتب ١٩٤٦ .
- : الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية (١٢٣ ص) ، دار الطباعة الحديثة .
- : الآثار الإسلامية بمصر ، مصلحة السياحة ، ط شندلر ١٩٥٥ .
- : بين الآثار الإسلامية (٣٠ ص) ، القاهرة .
- : جامع السلطان حسن وما حوله (١٢١ ص) سلسلة المكتبة الثقافية ، دار القلم ١٩٦٤
- حسن قاسم : المزارات المصرية والآثار الإسلامية في مصر والقاهرة المعزية ، (٦٠ ص) ، مجلة هدى الإسلام ، ١٣٥٥/١٩٣٦ .
- زكى محمد حسن : فنون الإسلام (٦٠٠ ص) مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .
- سليمان أحمد الزيات الجنفى : كنز الجواهر في تاريخ الأزهر .
- السيد محمود عبد العزيز سالم : الفسطاط وجامعها العتيق ، كتاب الشعب ٧٩ ص ٤١ - ٥٧
- : العسكر والقطائع ، كتاب الشعب رقم ٨٨ ، ص ٤٠٥ - ٤١٤ .
- عبد الرحمن زكى : قلعة مصر من صلاح الدين إلى فاروق ، مطبوعات المتحف الحربى بالقاهرة ط الأميرية ١٩٥٠ .
- : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى ، (١٨٤ ص) بالصور والخرائط ، ط نهضة مصر ١٩٦١ .
- عبد الرحيم فودة : الجامع الأزهر ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ، ص ٢٤ - ٩٣ .
- على عبدالواحد وافي : لمحة في تاريخ الأزهر ، مطبعة الفتوح ، ١٩٣٦
- : الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة مرتبة حسب أرقامها وعصورها التاريخية ، مصلحة المساحة ١٩٥١ [مرفق بها خريطة] .
- كامل اسماعيل : دراسات أثرية — مسجد أحمد بن طولون (١٦ ص و ٢٣ لوحة) . ط دار الجيل للطباعة ١٩٦٠ .

- جمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر (٣٢٩ ص) مزين بالصور مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .
عبد الدين الخطيب : تاريخ الأزهر . القاهرة .
- محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ، ١٢٢ ص ولوحات ط عطايا القاهرة ١٩٤٢ .
محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر (٢١٥ ص) مؤسسة الخانجي ١٩٥٨ .
- محمود أبو الميoun : الجامع الأزهر (١٥٢ ص) ، ط الأزهر ١٩٤٩ .
- محمود أحمد : بيان تاريخي عن مسجد السلطان حسن وشرح بميزاته الفنية (١٠ ص) ، ط وزارة الأوقاف ١٩٣٥/١٢٥٤ .
- بيان تاريخي عن الجامع الطولوني وشرح بميزاته الفنية (١٩ ص) ط وزارة الأوقاف ١٩٣٥/١٣٥٤ .
- بيان تاريخي عن مشهدي الإمام الشافعي والإمام الليث (١٥ ص) ط وزارة الأوقاف ١٩٣٥/١٣٥٤ .
- دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة مطبعة بولاق ١٩٣٨ .
- جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية (٩٨ ص وصبر) ، ط الأميرية ١٩٣٨ .
- تاريخ العمارة الإسلامية بمصر ، نشوؤها وتطورها وارتقاؤها . أنظر كتاب في مصر الإسلامية ، ص ٥٦ - ٩٦ .
- موجز تاريخ جوامع أحمد بن طولون والسلطان حسن والسلطان المؤيد ، (١٦ ص) ط دار الكتب المصرية ١٩٣٩ .
- محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني (١٣٩ ص و ٢١ لوحة و ١٥ رسم) ط دار الكتب ١٩٢٧/١٣٤٦ .
- مصطفى بيرم : الجامع الأزهر (٧٦ ص) ، ط التمدن ١٩٠٣/١٢٤١ .
- منصور علي رجب : الأزهر بين الماضي والحاضر (٨٨ ص) ، ط المقتطف ١٩٤٦ .
- هرتس ، مكس بك ، وترجمة علي بهجت بك : جامع السلطان حسن وبآخيه ٢٠ لوحة ، ط بولاق بالقاهرة ١٩٠٢/١٣١٩ .
- ولفرد جوزف وترجمة محمود أحمد : العمارة العربية بمصر وشرح الميزات البنائية الرئيسية للطراز العربي في القرنين ١٤ ، ١٥ ، ط الأميرية ١٩٢٣ (٣٦ لوحة بها أشكال لتفانج العمارة العربية في القرنين المذكورين .
- يوسف أحمد : جامع سيدنا عمرو بن العاص ، المحاضرة الأولى من المحاضرات الأثرية (١٦٤ ص) ، ط المعاهد ١٩١٧/١٣٣٥ .
- يونس مهران : الجامع الأزهر ، أنظر في مصر الإسلامية ص ١٣٠ - ١٥٢ .

European Sources مراجع أجنبية

- Affagart, Greffin : Relation de Terre Sainte . Edited by J. Chavnon . Paris, V. Lecoffre, 1902.
- Dopp, P. H. - Le Caire Vu par Les voyageurs occidentaux du moyen âge. - Bull. de la Société royale de géographie d'Egypte. Tome XXIII, 117—49; Tome XXIV, 115—62. Cairo, 1930—51 .
- Carro, J.M. : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte. Publications de L'Inst. Fr. A. O. 2 vols. Le Caire, 1932 .
- Leo Africanus (Al- Hassan ibn al- Wazzan) . Description de L'Afrique . Translated and edited by A. Epaulard. Paris, A. Maisonneuve, 1956 .
- Piloti, Emmanuel. L'Egypte au Commencement du quinzième siècle. Edited by P. H. Dopp. Cairo, 1950 .
- Thénard Jean. Le Voyage d'Otrémer . Edited by Charles Schefer. Paris, Ernest Leroux, 1834 .
- Casanova, p. : Reconstruction topographique de la Ville Fustat ou Mier Mem. I. F. A. O. Tome 35. Cairo 1919 .
- Glerget, M. : Le Caire : Etude de géographie urbaine et d'histoire géographique. Le Caire, 1934 .
- Devonshire, R. L. : L'Egypte musulmane. Maison Freres Ed. Paris, 1926 .
- Ebers, G. : Egypt : descriptive, historical and picturesque. 2 vols . London 1880—1883 .
- Fraser, : The City of the Caliphs. 1899 .
- Franz Pasha : Kairo, Leipzig 1903 .
- Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne. Tome IV. L' Egypte Musulmane par G. Wiet. Paris 1937.
- Hay, R. : Illustrations of Cairo. (drawn by Browne) . Tilt and Bogue, London, 1840 .

- Jomard, M. : Description de la ville et de la Citadelle du Kaire .
Description de l'Egypte. Tome II. Etat . Moderne. p. 579—778. Paris,
1809—1822. 2nd edition.
- Lane — Poole, S. : The Story of Cairo. Dent. London 1902 .
- Margoliouth, G. : Cairo, Damascus and Jerusalem 1907 .
- Mehren, A. F. : Cähireh og Keräfat. 2 vols. Kjöbenhavn 1869—70 .
- Ravaisse, P. : Eseair sur l' histoire et a topographie du Caire d'après
Maqrizi. Ier fasc. M. 489—80; III fasc. , 83—114. Mem. A. Fran. C .
Cairo 1886 — 89 .
- Reynolds — Ball : The City of the Caliphs, Boston. London 1898 .
- Russell, D. : Medieval Cairo and the Monasteries of Wadi Natrun.
London 1962 .
- Schmeil, M. : Le Caire : sa vie, Son histoire. Son peuple. Le Caire
1949 .
- Salmon, Georges : Etudes sur la topographie du Caire Mem. de l'institut
français d' archeologie orientale, Tome VII. Cairo, 1902 .
- Wirt, Gaston : Cairo: City of Art and Commerce. University of Oklahoma
Press. 1964 .

Islamic Architecture

- Ahmad Isa Bey : Histoire des Bimaristans (hospitals) à l'époque islamique Cairo 1928 .
- Aly Bahgat & Albert Gabriel : Fouilles d'al — Fostat. pp. 128 . Paris 1921,
- Berchem, MaxVan : Notes d'archéologie arabe. J. Asiatique, 8^{ème} série, Tome XVII, XIX, Paris, 1891.
... : Corpus. Inscript. Arab, (E'gypte, t. 1) Paris. 1894.
- Briggs, M, S : Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine pp. 255. Clarendon Press, Oxford 1924 .
- Butler, A. J. : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols.
- Casanova, P. : Histoire et description de la Citadelle du Cairo. Mem. A. M. A. F. C. tome 6, Paris 1897 .
- Comité de Conservation des monuments de l'art arabe. Procès verbaux des séances. 41 vols (1882—1963) Cairo.
- Coste, P. : Architecture arabe et Monuments du Caire. 1837—39 .
- Creswell, K. A. C. ; A Brief Chronology of the Muslim Monuments of, Egypt. Bull. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, XVI, Cairo 1919 .
... : Early Muslim Architecture. 2 vols. Oxford 1932—40.
... : Archeological Researches at the Citadel of Cairo. Bull. de l'Inst. A. O. F. T. XXII 1924.
... : The Works of Sultan Bibars al-Bunduqdari in Egypt. Bull. de l'inst A. O. F. T. XXVI. Cairo 1926 .
... : La Mosquée de' Amru. Bull. del' Inst. A. O. F. T. XXXII, pp. (12 pls & 16 figs) . Cairo 1931,
... : Muslim Architecture in Egypt. 2 vols. (1952—1959)
- Davies R. O. C. : The Mosques of Cairo. Middle East Publications. Cairo 1940 .

- Devonshire, R. L. : Some Cairo mosques and their Founders, London 1921 .
- : Quatre-vingts Mosquées. Le Caire
- : Rambles in Cairo .
- Fattol, Antoine : Ibn Tulun's Mosque in Cairo. pp. 39 and 80 illus .
Beyrouth 1960 .
- Kamel. Othman Ghaleb : Le Mikyas ou Nilomètre de l'île de Rodah.
pp. 180 with 46 plates. Le Caire 1951.
- Khan el-khalili : pp. 32 with illus. Cairo Tourist Adm. 1960.
- Lane—Poole, Stanley : The Art of the Saracens in Egypt.
- Mahmond, Ahmad : Concise guide to the principal Arabic Monuments
in Cairo.
- Mahmeud el—Gawhary : Ex—Royal Palaces in Egypt : from Moh. Aly
to Farouk. with illus. Caire 1954.
- Mayer, L.A. : The Buildings of Qaytbay, as described in his endowment
deed. pp. 96 Text and Index. Probathejn, london 1938.
- Ministry of Wakfs : The Mosques of Egypt, from 21 H. (641) to 1365 H.
(1916) 2 vols . with plates. Survey of Egypt. 1949 .
- Pauty, E : Les Palais et les Maisons d'époque musulmane au Caire.
with figs & Plates. Le Caire 1932.
- : Les Hammams du Caire. with figs. and plans Le Caire 1933.
- : La Mosquée d'Ibn Toulun et ses environs. pp. 94 with illus.
Le Caire.
- Popper, W. : The Cairo Nilometer. University of California Press. 1951.
- Prisse D'Avennes : L'Art Arabe d'après les monuments du Kaire depuis
le VIIe. siècle Jusqu'à le fin du XVIIIe. 2 édit. with 34 Pls. and 73 figs
and 130 coloured. Morel Paris (1869—1877) .

- Ross, Dennison : *The Art of Egypt through the Ages*. Chapter on Muslim Architecture by K.A.C. Creswell. London 1931 .
- Sameh, K : *The Architectural works of Abdel Rahman Ketkhuda in Cairo*. Thesis, University of Cairo Library. Cairo 1947.
- Tarchi, Ugo : *L'Architettura e l'arte musulmane in Egitto e nella Palestina* . 18 pp. of text with 166 pls. and 47 figs. Grifo, Torino 1923 .
- Wiet, G. & L. Hautecoeur : *Les Mosquées du Cairo*. 2 vols. Paris, Ernest Leroux 1932.

ام

إبراهيم (الأمير) ٢١١، ٢١٢،
 ٢٢٢ — ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٨٢،
 ابن إيلس (محمد) ١٤٢، ١٩٣،
 ٢٢٦
 ابن بطوطة ١٤٦ — ١٥٣
 ابن جبير ٨١ — ٨٧
 ابن الجيعان ٢٢، ١٤٣
 ابن الحاكم اللغوي ١٣٦
 ابن حجر ١٤٠
 ابن حوقل ٣٣
 ابن خلدون ١٨٥ — ١٨٨
 ابن دقاق ١٣٩
 ابن رضوان (الطبيب) ٣٠
 ابن زريك ٢٦
 ابن زنبيل الرمال ١٤٣
 ابن سعيد المغربي ٢، ٣، ٩٢،
 — ٩٤
 ابن سيد الناس ١٣٧
 ابن الصيرفي ١٤١
 ابن عبد الحكم ١
 ابن عبد الظاهر ٣٢
 ابن المتوج ٣٢
 ابن عاتق ١٣٩
 ابن نجم المصري ١٣٨
 ابن النفيس ٣١
 ابن هشام ١٣٦
 ابن الهيثم ٣١، ٣٢
 ابن وصيف شاه ١٤٣
 ابن يونس ٣٠
 أبو الحارث البساسيري ١٦١
 أبو الذهب محمد ٢١٧ — ٢١٨
 ٢٢١ — ٢٢٢
 أبو صالح الأرمي ٣٢
 أبو الصلت ، أمية ٤٤ — ٤٩
 أبو المحاسن ، تغري ١١٢ —
 ١١٨ — ١٤١
 أحمد ابن طولون ٦، ٧
 أحمد الشرايبي ٢١٣
 أحمد المحروقي ٢٦١، ٢٦٣
 الادفوي ١٤٢
 الألفي بك ٢٨٢ — ٢٨٤
 أرنولد فون هارف ١٧٩ — ١٨١
 أفاجار (جريف) ٢٠١
 ألماس (الأمير) ١٨٣
 الأيوبيون ٦٠ — ١٠٠
 بدر الجمالي ٤، ١٣، ١٤، ١٦،
 ٢٥ — ٢٦
 بدر الدين بكتاش ١٦٤
 بدر الدين البيسري ١٦٤
 بدر الدين الدماميني ١٣٦
 البرديسي ٢٨١ — ٢٨٣
 برسياني ١٧٧ — ١٧٨
 برقوقي (السلطان) ١٧٧
 بروس ، جيمس ٢١٧
 البغدادي ، عبد اللطيف ٨٨ — ٩٢
 البلاذري ١
 البلقيني ١٣٨
 البلوي ، خالد ١٥٣ — ١٥٤
 بليار (جنرال) ٢٦٥
 البهاء زهير ٨٠

الميفى ١٤٠	شهاب الدين الخفاجى ١٣٨ ،	حسن الجداوى ٢٢٣
الغورى ١٨١ — ١٨٤	٢٤٦	حسن الجيجازى ٢٠٩
الفاطميون ٩ — ٥٦	الصالح طلائع ٢٦ ، ٢٧	حسن الطولونى ١٤٢
فانسلب (الرحلة) ٢٠٧	الصالح نجم الدين أيوب ١٦٣	خسرو باشا ٢٦٦
فيفان دينون ٢٢٤ ، ٢٢٥	صلاح الدين الأيوبي ٤ ، ١٣ ،	خمارويه ٧
القائم بأمر الله (الخليفة) ١٦١	١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٠	خورشيد ٢٨٥ — ٢٨٨
قايىباى ١٧٧ — ١٧٨ — ١٧٩	ظاهر بن بانشاذ ١٣٧	خير بك (الأمير) ١٩٨ ، ١٩٩
قراقوش ١٦٣	طشوزدمر (الأمير) ١٦٤	داوود باشا ٢٠٢
القضاعى ٣٢	طومان باى ١٨١ — ١٨٣	دى مايه ١٩٣ ، ٢٠٧
القلقشندى ٤	عابدين بك ٢٠٣	ديلاقالى ٢٠١
كارييه دى بنو ٢١٠	عبد الباسط بن شاهين ١٤٢	راغب باشا ٢٠٩
كريسويل ٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢	عبد الله الشيراوى ٤١٣ — ٤١٤	رضوان (الأمير) ٢١٠ ، ٢١١
كبير (جنرال) ٢٥٩ — ٢٦٣	عبد الرحمن كتهخدا ٢١٢ ، ١٩٠ —	٢١٢ ، ٢١٣
مارسل (للمستشرق) ٢٢٥	٢٢٠ —	الزبير بن العوام ٢٢١
محمد بن قايىباى ١٨٠ ، ١٨٤	العبدري ، محمد ١٤٣ — ١٤٤	زين الدين ، الأمير ١٦٣
محمد بن موسى الدميرى ١٣٧	عثمان بك ٢١٠	صافارى (الرحلة) ٢٢٠ ، ٢٢
محمد رمزى ١٢ ، ١٥ ، ١٦	عديلة هانم ٢٢٤	السبكى ، تاج الدين ١٣٧
محمد الصوفى ٢٠٣	العزير (الخليفة) ٢٢	السخاوى ١٤١
محمد طى ٢٨١ — ٢٨٩	عطا الله الشاذلى ٧٩ — ٨٠	سراج الدين الوراق ٨٠
محمد كريم ٣٥٥	على بك الكبير ٢١٦ ، ٢١٧ ،	سعيد بن البطريق ٢٢
محمد مرتضى الزبيدى ٢٢٦ ،	٢٢٠ ، ٢١٨	سليم (السلطان) ١٨١ — ١٨٣
٢٧٨	عمر بن الخطاب ١	١٩٢ — ١٩٤ ، ١٩٨
مراد (الأمير) ٢٢٢ — ٢٢٣ ،	عمر بن الفارض ٧٨ — ٧٧	سنان (الامير) ١٩٩
٢٢٤	عمر مكرم (السيد) ٢٦٣ ،	سونبى (الرحلة) ٢٢٠
مروان بن محمد ٥	٢٨٥ — ٢٨٨	الشافعى (الإمام) ٨٣ ، ٩٦
المسبحى ١٩ ، ٣٢	عمر بن العاص ١ ، ٢	شاور ٤
المستنصر بالله ١٦١	عمر بن قحزم ١	شجاع بن أسلم ٣٠
مسرور الخادم ١٦٣	عويس باشا ٢٠٣	شركس (الأمير) ٢٠٩ ، ٢١٠
مصطفى باشا ١٩٩	العايشى عبد الله ١٩٧	شريك بن سمى ١
		الشمرانى ٧٩ — ٨
		شمس الدين ٢٠٧

ناصر خسرو (الرحالة) ٢٤ ،	الممالك الجراكسة ١٧٦ — ،	معاوية بن حديج ١
٤٣ — ٢٤	١٩١	المزدين الله ٩ — ١٢
الناصر محمد بن قلاوون ١٠٨	النصور قلاوون ١٦٣	المقرزي ١ ، ١٣ ، ١٤٠ ،
١٢٦ —	المؤيد ، شينخو ١٧٧	١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
نوردون ، فريدريك ١٩٣ ،	مينو (الجنرال) ٢٥٨ ، ٢٦٣	١٦٧ ، ٢٢٦ —
٢١٥	٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦	مقصود باشا ٢٠٤
التوري ١٢٨ ، ٢٢٦	نابليون بونابرت ٢٤٩ — ٢٦٠	الممالك البحرية ١٠٤ — ١٥٨

كشاف الأماكن

جامع الظاهر ٢٥٧	باب القراطين (المحروق) ١٦	أبواب الحارات ١٨٢ - ١٨٣
« الأزهر ١١ ، ١٧ ، ٥١ -	« الفرافة ٧٠ ، ١١٣	آثار العصر العثماني ٢٤٤ - ٢٤٨
٢٥٦ ، ١٦٣ ، ٥٣	« القنطرة ١٤ ، ١٦	آثار عصر المماليك البحرية ١٥٧
« أبو العلاء ١٦٢	« باب القوس ١٤	١٥٨
« الطنبغا السارداني ١٢٤	« باب المحروق ١١٦	آثار عصر المماليك الجراكسة
« الأمير الساس ١٢٣	« المدرج ١١٣	١٨٩ - ١٩١
« بشتك ١٢٤	« النحاس ١١٢	أخطاط القاهرة ١٦٤
« بنت الملك الظاهر ١٢٣	« النصر ١٣ - ١٥	أرض الطبالة ١١٤ ، ١٦١ -
« التوبة ١٢٢	بالميون ٢ ، ١	١٦٣ ، ١٧٠
« الحاكم بأمر الله ١٣ ، ٢٢ ،	بركة الأزبكية ١٧١ ، ١٨٢ ،	أرض اللوق ١٣٥
١٣ ، ٢٤ ، ٥٤	٢١١ - ٢١٢ ، ٢٥٠	الأزبكية ١٨٢
« جامع جوهر السحرتي ١٢٥	بركة بطن البقرة ١٧٤	أسوار القاهرة ١٢ - ١٥
« دولة شاه ١٢١	« الحبش ١٧٣	أسواق القاهرة ١٦٥ - ١٦٦
« سعود (الشيخ) ١٢٦	« الحجاج ١٧٤	أيوان قلعة الجبل ١١٢
« طبرس ١٢٠	« الرطلي ١٦١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ،	باب البحر ١٦٤
« عمرو (العتيق) ٢ ، ١	٢٦٤	باب البرقية ١٣ ، ٧٠
« نغر الدين محمد ١٢٠	« الشعبية ١٧٣	الباب الجديد ٧٠
« « « (الروضة) ١٢١	« الشقاق ١٧٢	باب الخوخة ١٤ ، ٦٩
« الدين شاه ١٢٦	« الفيل ١١٩ ، ١٢٤	باب زويلة ١٣ ، ١٧٧
« القلعة (الناصر محمد) ١١٣	« الناصرية ١١٨ ، ١٧٤	باب سعادة ١٤ ، ١٥ ، ٦٩
« خانقاه قوصون ١٢٣	« بولاق ١٣٣ ، ١٦١ - ١٦٢ ،	باب السلسلة (المزب) ١١٧
« قوصون ١٢٣	١٦٧	باب الشمراخي ١٤ ، ١٧ ، ٦٩
« المظفر ١٢٥	بيت الشيخ الأمير ١٧١	باب الشمرية ١٧ ، ٦٩ ، ١٢٥ ،
« للمقياس ١٨١	« حسن كاشف ٢٠٨	٢٦٣
« المؤيد ٢٠٩	« الست حفيظة ٢١٨	باب الصفاء ٧٠
« جزيرة الروضة ٢٥٧	بيارستان المؤيد ١٧٧	« الفتوح ١٣ ، ١٦
« الفيل ١٢٣	ثورات القاهرة ٢٥٤ - ٢٦١	« الفرج ١٥ ، ٧٠
« الجزيرة الوسطى	جامع ابن غازي ١٢٦	« الفرج (٢) ٧٠
« حارات القاهرة ٤٠ - ٤١	« أزبك (الأمير) ٢١٣	« الفسطاط ٧٠

دار المزب ٢٠	خانات القاهرة وفنادقها ١٦٣	حارة الأتراك ١٦٦
» دار الضيافة ٢٠	خانقاه بيرس ١٨٧	حارة الأمراء ١٨
» طراز ١٦٤	» خانقاه الناصر محمد بن قلاوون	» الباطلية ١٨ ، ١٦٦
» سيد السعداء ١٦٣	١١٤	» البرقية ١٦٦
» دار السادات ٢٧٣	خط باب الماريستان ١٦٥	» برجوان ١٦٦
» السيد سعودى ٢٧٢	خط باب القنطرة ١٦٤	» بهاء الدين ١٦٦
» السحيمى ٢٣٩ — ٢٤٠	» بين السورين ١٦٥	» الروم ١٨ ، ٤١ ، ١٦٦
» الضيافة ٢٠	» البندقانيين ١٦٥	» الجودرية ٦٦٦
» عثمان الأشقر ٢٧٢	» خان الوراقه ١٦٤	» الديلم ١٨ ، ١٦٦
» قراستقر ١٦٤	» دار الديقاج ١٦٥	» زويلة ١٨ ، ١٦٦
» الكريتلية ٢٣٨ — ٢٣٩	» الساكت ٢٥١ ، ٢٦٣	» المطوف ١٩ ، ١٦٦
» اللطيل ٢٦٨	» سقيفة المداس ١٦٥	» قائد القواد ١٩
» منجك السحدار ١٦٤	» الكافورى ١٦٥	» الكافورى ١٩
» الوزارة الكبرى ٢٠	» الملقى ١٧١	» المحمودية ١٩ ، ١٦٦
» يحيى الكاشف ١٧٢	» خليجان القاهرة ١٦٩	» الوزيرية ١٩ ، ١٦٦
» الشرفاوى ٢٧٢	» خليج قنطرة البحر ١٧٠	» حكر ابن الأثير ١١٥
» الشيخ المهدى ٢٧٢	» الخليج المصرى ١٧٠ — ١٧٢	» حديقة الأربكية ١٦٢
» زرية قوصون ١١٥	» الخليج الناصرى ١١٤ —	» حمام بشتك ١٦٦
» سيل حسن كتخدا ٢٣٧	١٦١	» حمام تتر ١٦٦
» حسين كتخدا ٢٣٧	» دار إبراهيم السنارى ٢٦٩	» الروى ١٦٦
» خسرو ٢٣٧	» الأحمدى ١٦٤	» السابط ١٦٦
» عبد الرحمن كتخدا ٢٢٧	» أيدغمش ١١٨	» السيدة ١٦٦
» القزلار ٢٣٧	» جمال الدين الذهبى ٢١٩	» لؤلؤ ١٦٦
» سيل السلطان مصطفى ٢١٨	» الحديث الكاملية ٧٥ ، ٩٧	» حوض المشاق ٢٠٧
» السد المظلم ٦٤	» حسن كاشف ٢٦٧ ، ٢٧٠	» خان السبيل ١٦٣
» سور القاهرة الأيوبي ٦٦ —	» الحكمة ٢٠	» منسكورش ١٦٤
٦٨	» الذهب ٢٠	
» سور القاهرة الناطمى		

- سوق باب الفتوح ١٦٥
 » الجوخين ١٦٥
 » حارة برجوان ١٦٥
 » الحريرين ١٦٥
 » الخلاوين ١٦٥
 » الدجاجين ١٦٥
 » السلاح ١٦٥
 » الثماعين ١٦٥
 » الصناديقين ١٦٥
 » العجمين ١٦٥
 شاطئ النيل (تحول جهراء)
 ١٣٣
 شارع بين السورين ١٤
 » » » النهدين ١٤
 شارع الخليج (بور سعيد)
 ١٧٠ - ١٧١
 شارع الفجالة ٢٥٨
 طاية ديوى ٢٥٧
 طاية سلكوفسكى ٢٥٧
 طاية قاسم بك ٢٥٧
 طاية كامان ٢٥٧
 المسكر ٢٦ ، ٥ ، ٣
 القسطنطينية ٣ ، ٢ ، ١ - ٩ ، ٧
 وللقمة
 فندق ابن قريش ١٦٤
 فندق بلال المفتى ٩٦٣
 فندق دار التفاح ١٦٤
 فندق طار نطاسى ١٦٤
 القاعات السبع ١١٣
- القاهرة : تراجع فى صفحات
 الكتاب ولا سيما ٩ - ١٦
 ١١١ - ١٠٧ ، ١٠٤ ، ٣٣
 ١٥٩ - ١٦٢
 قبة الإمام الشافعى ٩٦
 قبة الخلفاء العباسيين ٩٩ - ١٠٠
 قبة الصالح نجم الدين أيوب ٩٩
 القصبة ١٦٥
 قصر إبراهيم بك ٢٥٧ ، ٢٧١
 القصر الأبلق ١١٢
 قصر الطنغا الماردانى ١١٨
 قصر بشتاك ١٦٤
 قصر بكنمر الساقى ١١٧
 قصر بهادر الجوبانى ١١٧
 » طشتمر الساقى ١١٦
 » العيى ٢٦٦
 » قاسم كاشف ٢٧١
 » قطلو بغا الفخرى ١١٧
 » محمد الألفى ٢٥١ ، ٢٥٩
 » مراد بك ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٧١ ، ٢٥٠
 » يلغا اليحياوى ١١٨
 » مامى (الأمير) ١٦٤
 » يشبك
 قصر الحريم ١٩
 القصر الشرقى ١٢
 القصر الصغير ١٩ - ٢٠
 القصر الكبير ١٩
 قصر الأفيال ١٩
 قصر البحر ١٩
 قصر بهو الذهب ١٩
 قصر الشجرة ١٩
- قصر الشوك ١٩
 قصر المزرد ١٩
 قصر النسيم ١٩
 القصور الفاطمية ١٩
 القضايع ٧
 قلعة البرلس ٢٦٥
 قلعة الجبل ٦٥ - ٦٦ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٢٠٦
 قلعة الروضة ٩٨ ، ٩٩
 قلعة الكباش ١١٧
 قلعة المقطم ٢٦٦
 قلعة كامان ٢٦١
 قناطر الأوز ١٢١
 قناطر بحر أبو المنجا ١٧٣
 قناطر الخليج الناصرى ١١٤
 قناطر السباع ١٨٤
 قنطرة آق سنقر ١٢٤
 قنطرة البكرية ١٦٧
 قنطرة الأمير حسين ١٢١
 قنطرة باب القنطرة ١٧٢
 قنطرة الدكة ٢٦٧
 قنطرة السد ١٧٢
 قنطرة عمر شاه ١٧٢
 قنطرة الفخر ١٧٢
 قنطرة الليخون ٢٥٧ ، ٢٦٧
 قنطرة اللؤلؤة ٣٦
 قنطرة المدافع ٢٦٧
 قيسارية جها ركس ١٦٣
 مارستان قلاوون ٢١٩
 مجرى عيون المياه ١٨١
 المجمع المصرى ٢٦٦ ، ٢٦٧
 مدرسة / مسجد أبو بكر مزهر
 ١٦٧ ، ١٧٩

مشهد ومسجد السيدة زينب ٢١٩	مدرسة / مسجد قلاوون ١٢٩	مدرسة / مسجد برسباي ١٦٧
مشهد ومسجد السيدة سكينة ٢١٩	مدرسة القمحجية ١٨٦	مدرسة / مسجد برقوق ١٦٦
مشهد ومسجد السيدة رقية ٢١٩	مدرسة السكلمية ١٦٣	مدرسة / مسجد جوهر اللالا ١٦٧
مشهد ومسجد السيدة عائشة ٢١٩	مدرسة المهندار ١٢٥	مدرسة سنقر السعدى ١٢٥
مشهد ومسجد السيدة نفيسة ٢١٩	مرج دابق ١٨١	مدرسة سيف الدين آل ملك ١٢٦
المقضى ٢١ ، ٢٢ ، ١٦١	المسافر خانة ٢١٨ ، ٢٤٠ —	مدرسة السيوفية ٢١٩
مكتبات الممالك البحرية ١٣١ .	٢٤٢	مدرسة الظاهر ١٢٩
— ١٣٢	مسجد / مدرسة أزبك ١٧٩ ،	المدرسة الصالحية ٩٧
مكتبات المدارس والمساجد ١٦٧ ،	١٩٦	مدرسة صرغتمش ١٣٠ ، ١٨٧
١٨٩ ، ١٦٨	مسجد الأقصر ٥٦	مدرسة الطيرسية ١٢٩ ، ١٢٩
مناخ القاهرة ٢٨	مسجد الظاهر برقوق ١٦٦	مدرسة العادل كتبغا ١٢٩
منشأة المهراني ١١٥	مسجد (مشهد) الجيوشى ٥٥	مدرسة علم الدين منجر ١٣٠
ميدان قلعة الجبل ١١٢	مسجد / مدرسة السلطان حسن	مدرسة علاء الدين مغلطاي ١٣٠
ميدان الناصرى ١١٧	١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١	مدرسة علاء الدين أقبغا ١٣٠
وكالة قايتباي ١٦٢	مسجد الصالح طلائع ٥٦ ، ٥٥	مدرسة / مسجد الغورى
وكالة قوسون ١٦٣	مسجد قاني باي ١٧٩	مدرسة قرانقر ١٢٥

المحتوى

ص ٣ - ٦

المقدمة :

ص ١ - ٨

الفصل الأول

عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة

الفسطاط — العسكر — القطنع .

ص ٩ - ٥٩

الفصل الثانى

القاهرة فى أيام الفاطميين (٩٦٩ - ١١٦٩)

تأسيس القاهرة . أسوار القاهرة الفاطمية . السور الأول . السور الثانى . أبواب القاهرة . الجامع الأزهر . أخطاط القاهرة . القصور الفاطمية . الفاطميون والقاهرة . العزيز . جامع الحاكم . بدر الجمالى . ظاهر القاهرة الفاطمية . طقس القاهرة . الشرطة . خلفاء الفاطميين وخاتمهم . العلم والعلماء فى أيام الفاطميين . القاهرة فيما كتبه الرحالة : ١ - ابن حوقل . ٢ - ناصر خسرو . ٣ - أبو الصلت . آثار الفاطميين : الأزهر . جامع الحاكم بأمر الله . مسجد الجيوشى . مسجد الصالح طلائع . مسجد الأقمر .

ص ٦٠ - ١٠٣

الفصل الثالث

القاهرة فى أيام الأيوبيين (١١٦٩ - ١٢٥٠)

صلاح الدين الأيوبي . امتداد القاهرة . السد العظيم . قلعة صلاح الدين . سور القاهرة . أبواب القاهرة الصلاحية . المدارس الأيوبية . عود إلى الأحداث . التصوف فى أيام الأيوبيين . القاهرة فيما كتبه الرحالة : ابن جبير - عبد اللطيف البغدادى - ابن سعيد . آثار الأيوبيين فى القاهرة : قلعة الجبل . قبة الإمام الشافعى . دار الحديث الكاملة . المدرسة الصلاحية . قلعة الروضة . قبة الخلفاء العباسيين .

ص ١٠٤ - ١٥٨

الفصل الرابع

القاهرة فى أيام المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢)

الظاهر بيبرس . القاهرة فى أيام الظاهر بيبرس . القاهرة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون . جامع السلطان

حسن . المدارس المملوكية . المكتبات المملوكية . تحول شاطئ النيل واتساع القاهرة . بولاق . العلم والعلماء في أيام المماليك . القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة : ابن بطوطة . أم آثار المماليك البحرية .

الفصل الخامس

قاهرة الممريزي (١٣٦٤ - ١٤٤١) ص ١٥٩ - ١٧٥

الممريزي . تطور القاهرة . أرض الطبالة . خانات القاهرة وفنادقها . أخطاط القاهرة . أسواق القاهرة . حمامات القاهرة . المدارس المملوكية . المكتبات . خلجان القاهرة . الخليج المصري . قناطر القاهرة . برك القاهرة وضواحيها .

الفصل السادس

ص ١٧٦ - ١٩١

القاهرة في أيام المماليك الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧)

عصر قايتباي . الرحالة الألماني آرنولد فون هارف . بركة الأذربكية . السلطان القوري : القاهرة فيما كتبه ابن خلدون . أم آثار المماليك الجراكسة في القاهرة .

الفصل السابع

ص ١٩٢ - ٢٤٨

القاهرة في أيام العثمانيين (١٥١٧ - ١٨٠٥)

الحسن بن محمد الوزان في القاهرة — القاهرة كما شاهدها المياشي — خيربك — القاهرة في أثناء القرن ١٦ — القاهرة في أوائل القرن ١٧ — الرحالة تيفنو — قلعة القاهرة — فانسلب والفنسل ديماييه — قصة واعظ — القاهرة بين الأميرين شركس وذو الفقار — مشيخة عثمان بك — القاهرة بين الأميرين إبراهيم ورضوان — أسيرة الشرايبي — الحياة العقلية — الرحالة بوكوك ونوردن — قاهرة على بك الكبير — أبو الذهب في القاهرة — عمائر عبد الرحمن كتنخدا — سونيفي وسافاري — القاهرة بين البكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم — القاهرة بين الأميرين إبراهيم ومراد — العلم والعلماء في العصر العثماني — القاهرة في خلال الحكم العثماني — آثار القاهرة الثمانية وفنونها — عمارة القاهرة — السبيل الكتاب — أشهر الدور في القاهرة — آثار العصر العثماني وما تبقى منها .

ص

ص ٢٤٩ — ٢٧٣

الفصل الثامن

القاهرة في أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١)

نابليون في القاهرة — قصر محمد بك الألفى — نابليون يتوعد إلى القاهريين — القاهرة النائرة —
ثورة القاهرة الأولى — القاهرة معسكر كبير — نابليون يودع القاهرة — عودة العثمانيين إلى القاهرة —
ثورة القاهرة الثانية — عودة كبير — الجنرال كبير والخلبي — الانتقام من عروس الشرق — رحيل
الفرنسيين ووصول الإنجليز — القاهرة المجمع المصري — صورة عامة للقاهرة — بعض دور القاهرة .

ص ٢٧٤ — ٢٨٩

الفصل التاسع

القاهرة في أيام الجبرتي (١٨٠١ — ١٨٢٥)

قاهرة الجبرتي — يوم ولية — محمد بك الألفى — ثورة القاهرة — السيد عمر مكرم — محمد علي

ص ٢٩٠ — ٢٩١

ملحق

ص ٢٩٢ — ٣٠٢

: العربية والأجنبية .

المراجع

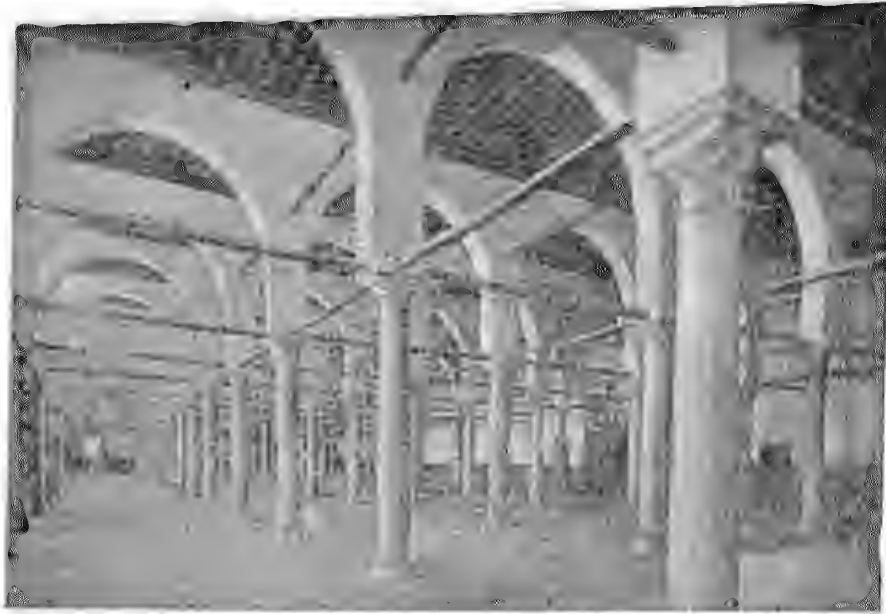
ص ٣٠٣ — ٣٠٩

: الأعلام والأماكن .

الكشاف

ص ٣١٠ — ٣١٢

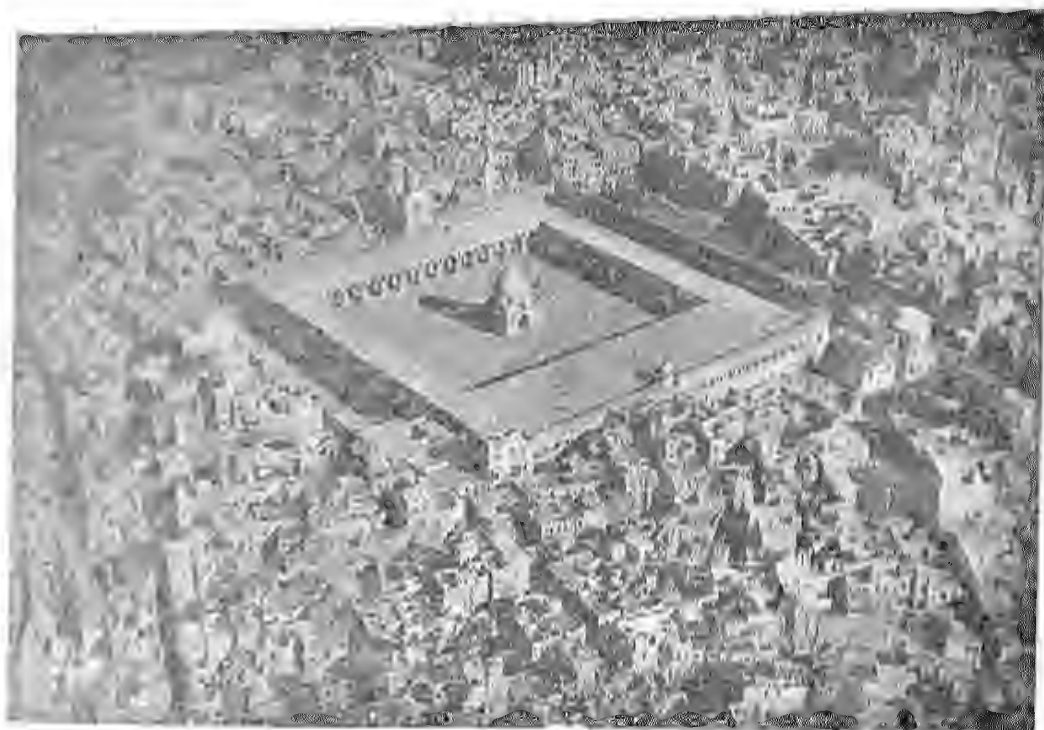
: المحتوى



١ — الإيوان الشرقي في جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة (٦٤١)



٢ — مقياس النيل بالروضة (١٨٦١م)



٢ - جامع ابن طولون (٨٧٦ - ٨٧٩)



١ - مسقط افق للجامع الأزهر (٩٧٠ - ٩٧٢)



٥ - مئذنة وقبة بالجامع الأزهر



٦ - مئذنة وقبة بجامع الحاكم بأمر الله (٩٩٠ - ١٠١٣)



٧- جامع الحاکم بأمر الله (٩٩٠-١٠١٣)



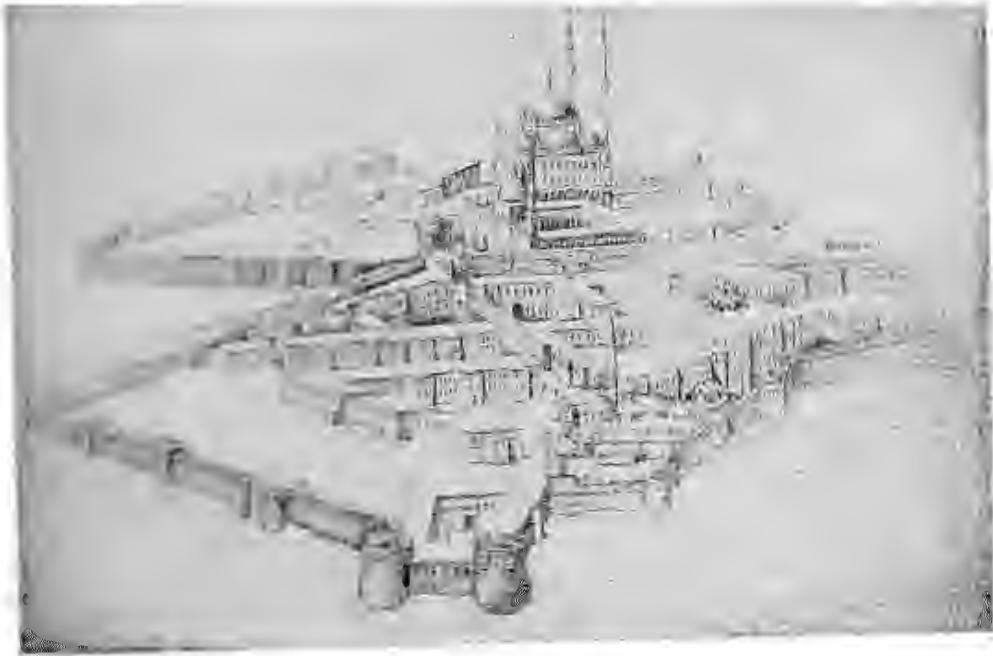
٨- مسجد بئر اجمالی (العیوشی) با علی جبل القنطم (٩٧٨-١٠٨٥هـ)



٩ — مسجد الأقر بالحسين (٥١٩ — ١١٢٥)



١٠ — باب الفتوح بسور القاهرة النباه (١٠٨٧)



١١ — مخطط بوضوح القسمين الرئيسيين لقلعة صلاح الدين
والمباني الأثرية المتناثرة فيها (١١٨٣ — ١١٨٤)



١٣ — مدرسة وصرح السلطان الصالح نجم الدين أيوب
بالتعاسين ٦٢٩ — ٦٤٨ هـ / ١٢٤١ — ١٢٥٠ م



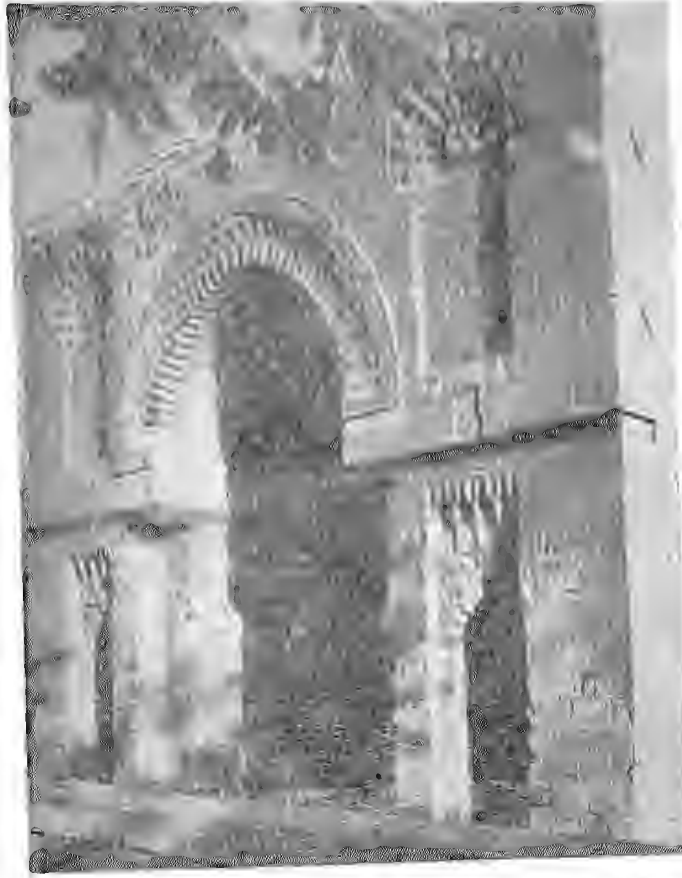
١٢ — الدرج المؤدى إلى باب المدرج القائم
خلف الباب الجديد بالقلعة (١١٨٣ — ١١٨٤)



١٤ — كتابات منقوشة ومؤرخة تبين إنشاء وتجديد قلعة الجبل



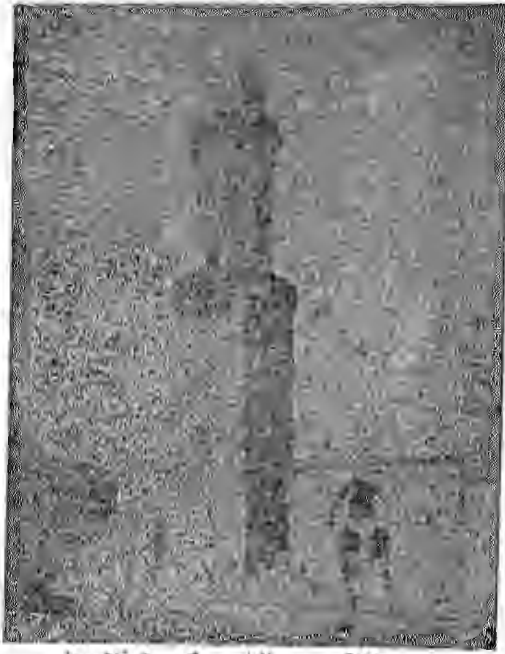
١٥ — مسجد السلطان الظاهر بيبرس، ميدان الظاهر (١٢٦٦ — ١٢٦٩)



١٦ — الباب العربي لمسجد الظاهر ببيروت عیدان الظاهر (١٢٦٦ — ١٢٦٩)



١٧ — مدرسة السلطان المنصور تلاموز بالنباهین (١٢٨٣ — ١٢٨٤)



١٩ — مئذنة مسجد الناصر محمد بن قلاوون
بالتعاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



١٨ — مسجد وضيع السلطان قلاوون
بالتعاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



٢٠ — واجهة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالتعاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



٢١ — محراب مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالنعاسين (١٢٩٥ - ١٣٠٤)



٢٣ — خاتناه وضريح السلطان يوس الجلائك
(١٣٠٦ — ١٣٠٩)



٢٢ — مئذنة آق سقر (الجامع الأزرق)
(١٣٠٠ — ١٣٠١)



٢٤ — بقايا إيوان الناصر محمد بن قلاوون
بالقاعة (١٣١٤)



٢٥ — مئذنة وضريح ومدرسة الأمير سيفر
السدی (حسن صدقه) بالصليية (١٣١٥)



٢٧ - قصر بشتاك بالنحاسين حوالى (١٣٢٤ - ١٣٣٩)



٢٦ - مسجد الأمير الملك الجوقندار (١٣١٩)



٢٩ - مسجد الأمير أصلم النهاى (١٣٤٥)



٢٨ - مدخل قصر يشبك بن المهدي قوصون (حوالى ١٣٢٧)



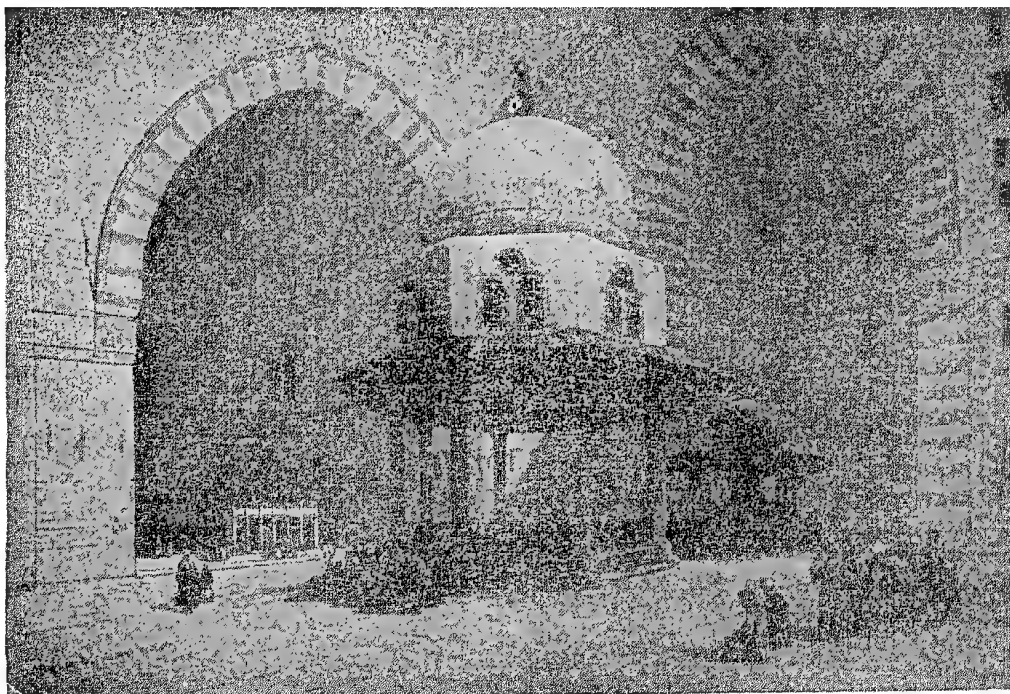
٣٠ - منارة ومئذنة مسجد إبراهيم آغا مستعظم خان بالنبانة (١٣٤٦ - ٤٧)



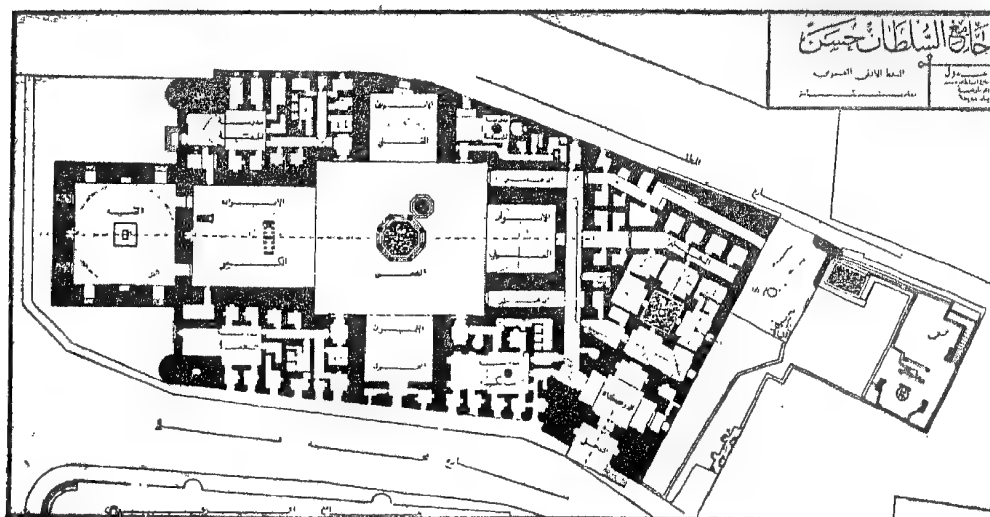
٣١ - مسجد الأمير شيخو بالصليية (١٣٤٩ - ١٣٥٥)



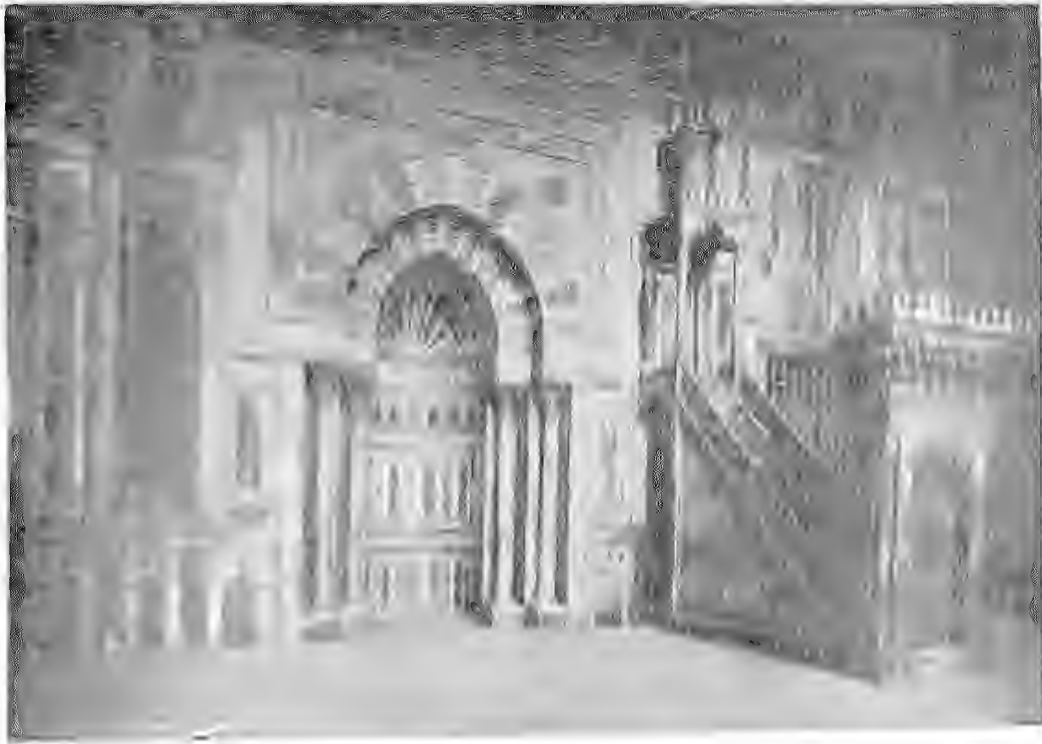
٣٢ - مدرسة ومسجد السلطان حسن المواجهة للقلعة (١٣٥٦ - ١٣٦٢)



٣٣ - صحن مدرسة / مسجد السلطان حسن (١٣٥٦ - ١٣٦٢)



٣٤ - مسقط أفق لمسجد السلطان حسن



٣٥ — الإيوان الشرقى المشتمل على منبر ومحراب مدرسة السلطان حسن



٣٧ — مدرسة الأمير بشير أغا المجداني (١٣٦٠)



٣٦ — مدرسة وضريح الأمير صرغتمش
إشارع مراسينا (١٣٥٩)



٣٩ - باب ملوكة السلطان برفوق الحامون
(١٣٨٤ - ١٣٨٦)



٣٨ - مدرسة وضريح الأمير أيعطش النجاشي
(١٣٨٢)



٤١ - مسجد السلطان برفوق من الخارج



٤٠ - مسجد السلطان برفوق (١٣٨٤ - ١٣٨٦)



٤٥ — منارة أبو بكر مزدهر
بحارة يرجوان (١٤٧٩ — ١٤٨٠)



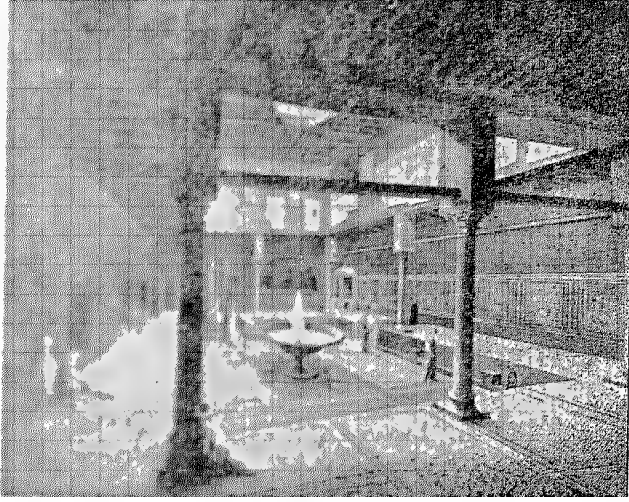
٤٦ — مسجد المؤيد المجاور لباب زويلة (١٤١٥ — ١٤٢٠)



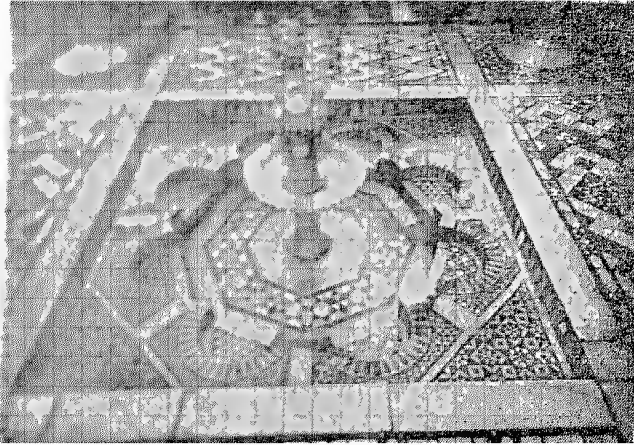
٤٣ — مقعد مامای بالجالية (بيت القاضي) (١٤١٥ — ١٤٩٨)



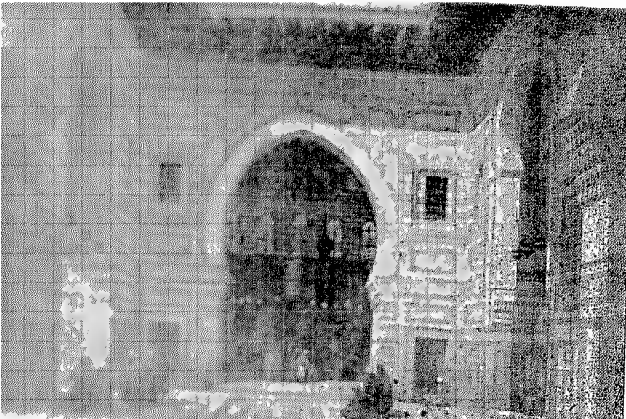
۴۴ — مسجد و ضريح السلطان قایتبای (۱۴۷۲ — ۱۴۷۴)



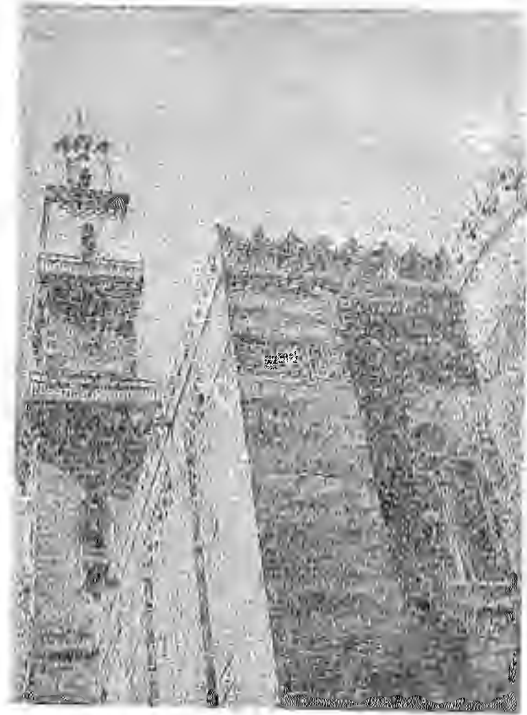
حمام قاهري في عصر المالك



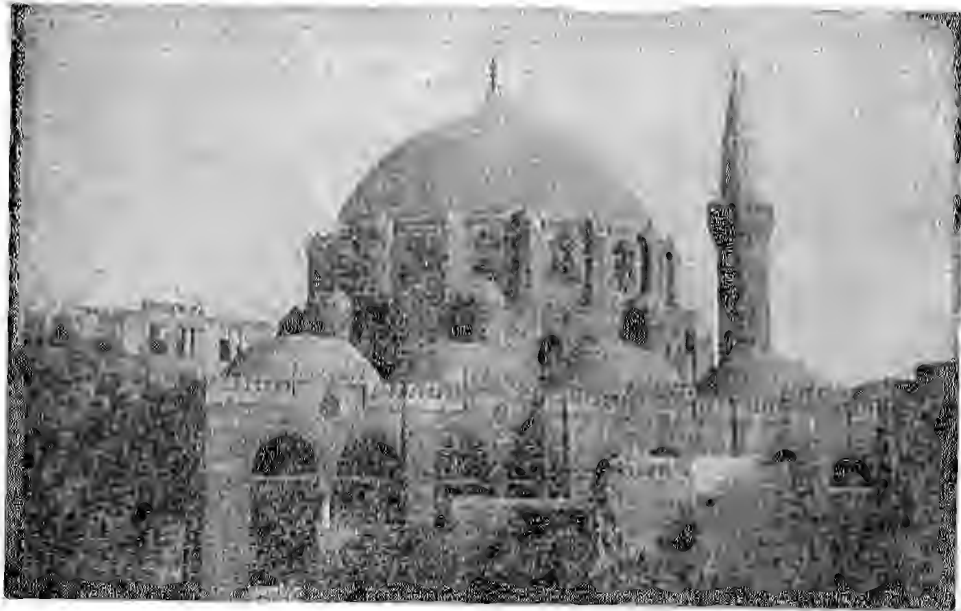
٤٧ — نافورة في أحد منازل
المالك وتوجد اليوم في متحف الفن الإسلامي



٤٨ — صحن مسجد القوي
بالقوية (١٥٠٤) للرسام روبرتس



٤٩ — مدرسة السلطان النورى بالقاهرة (١٥٠٤-١٥٠٥) ٥١ — مسجد ستان باشا بيولاى من الداخل (١٥٧١)



٥٠ — مسجد ستان باشا بيولاى من الخارج (١٥٧١)



٥٢ - مسجد السيد صلياً بالأسوار (١٩١٠)



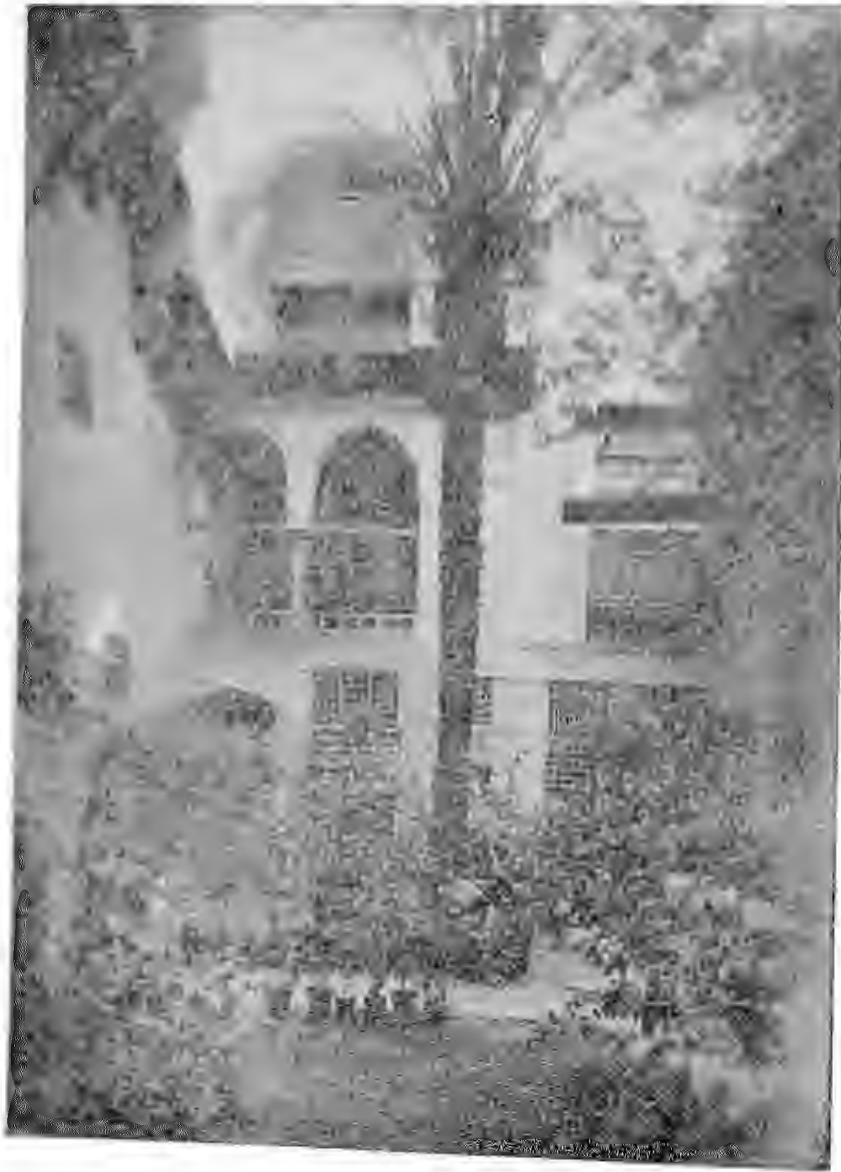
٥٣ - دار الجزائر العروف بمنزل السكرتيرة الملاصق لمسجد أحمد بن طهرون (١٩٣٩)



٤١ - ساحة الحرم الجامعي الأزهر (١٩٦٦)



٥٥ — منزل جمال الدين الذهبي (١٦٣٧)



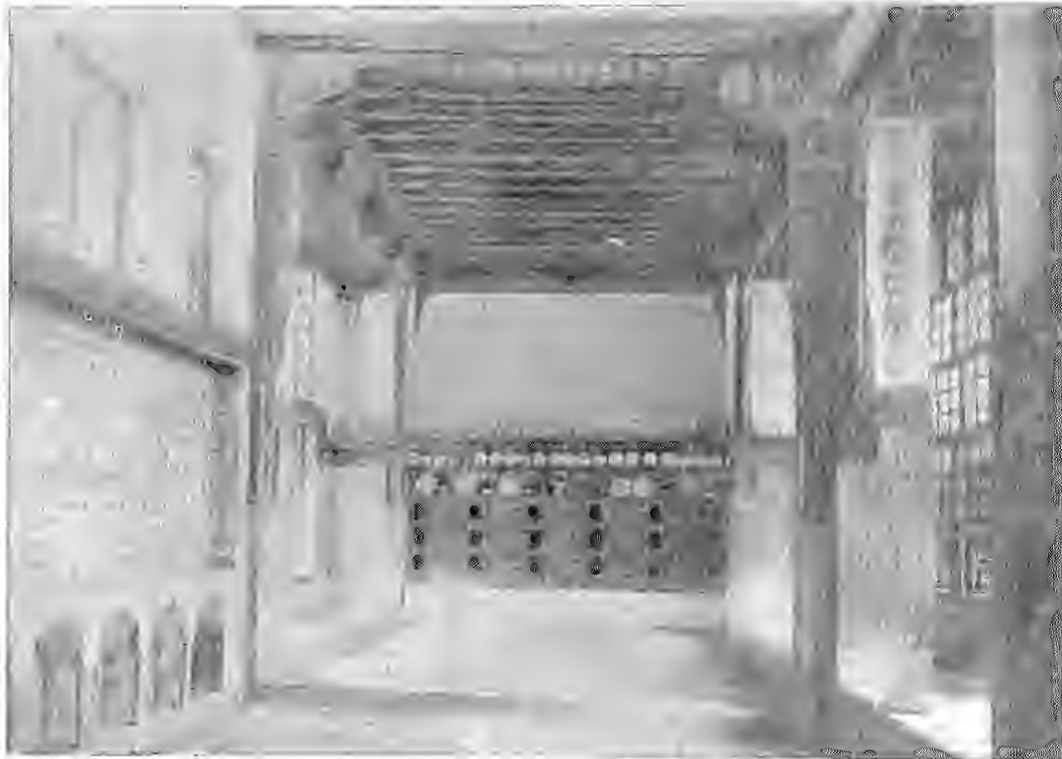
٥٦ — الوجهة التي تطل على فناء دار الطبلاوى
(المعروف بالسحيمي) (١٦٤٨ — ١٧٩٦)



٥٧ — زاوية عبد الرحمن كتخدا بشارع المغربين (١٧٢٩)



٥٨ — سيل عبد الرحمن كتحدا
(١٧٤٤)



٥٩ — القاعة الكبيرة بمنزل الطلاب (١٦٤٨ - ١٧٩٦)



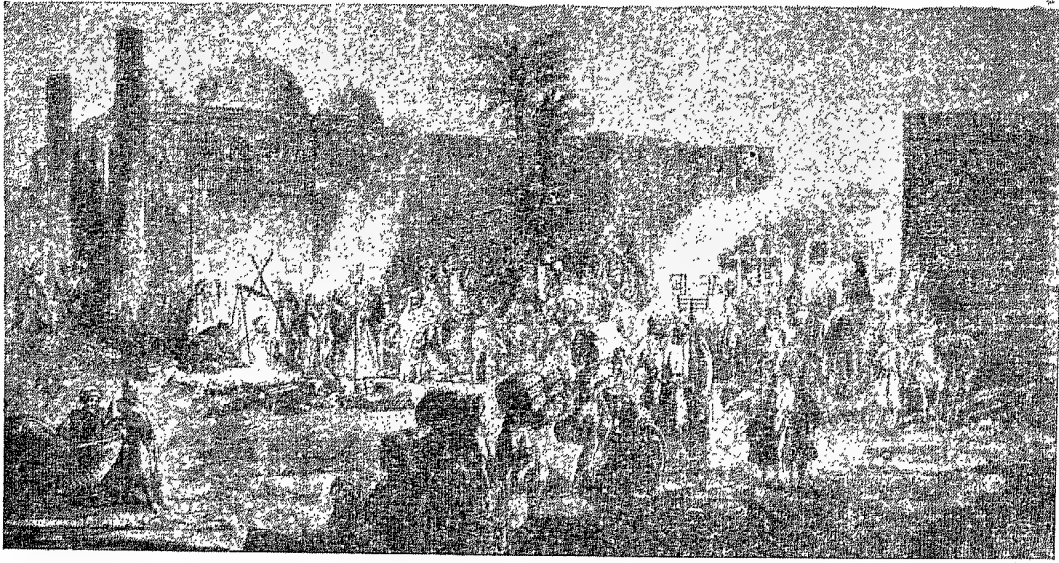
٦٠ — مسجد محمد أبو الذهب المواجه للأزهر (١٧٧٤)



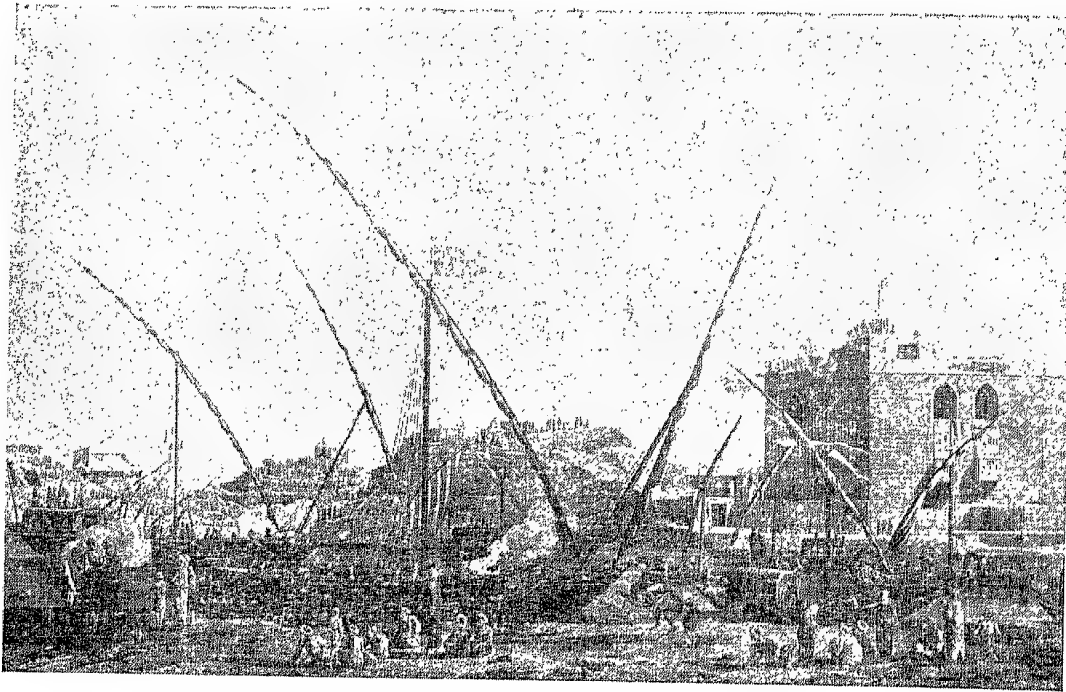
٦٢ — دار السراى الجديدة (١٧٩٤)



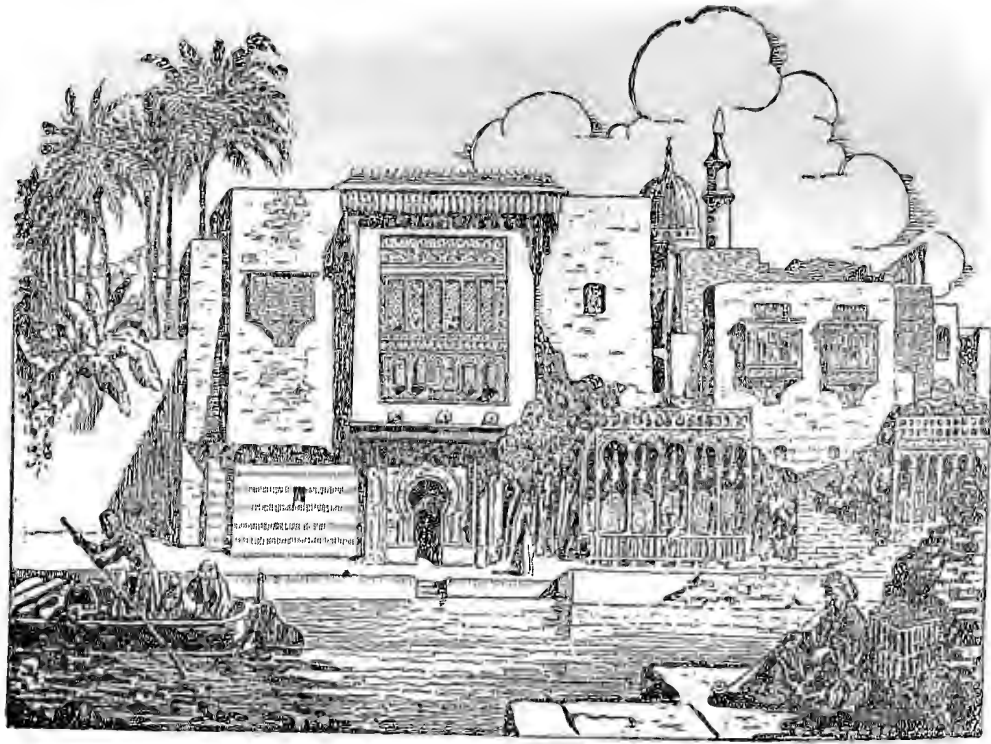
٦١ — دار المسافرين خانه (١٧٧٩ — ١٧٨٩)



٦٣ — إحدى وكالات القاهرة في بولاق أيام الحملة الفرنسية



٦٤ — قناطر المياه عند فم الخليج أثناء الاحتفال بقطع السد أيام الحملة الفرنسية



٦٥ — الخليج المصري وبعض الدور التي كانت تطل عليه



٦٧ — باب زويلة وقصر رضوان للرسم روبرنس في القرن ١٩



٦٦ — سوق الحرير بالقاهرة للرسم روبرنس في القرن ١٩



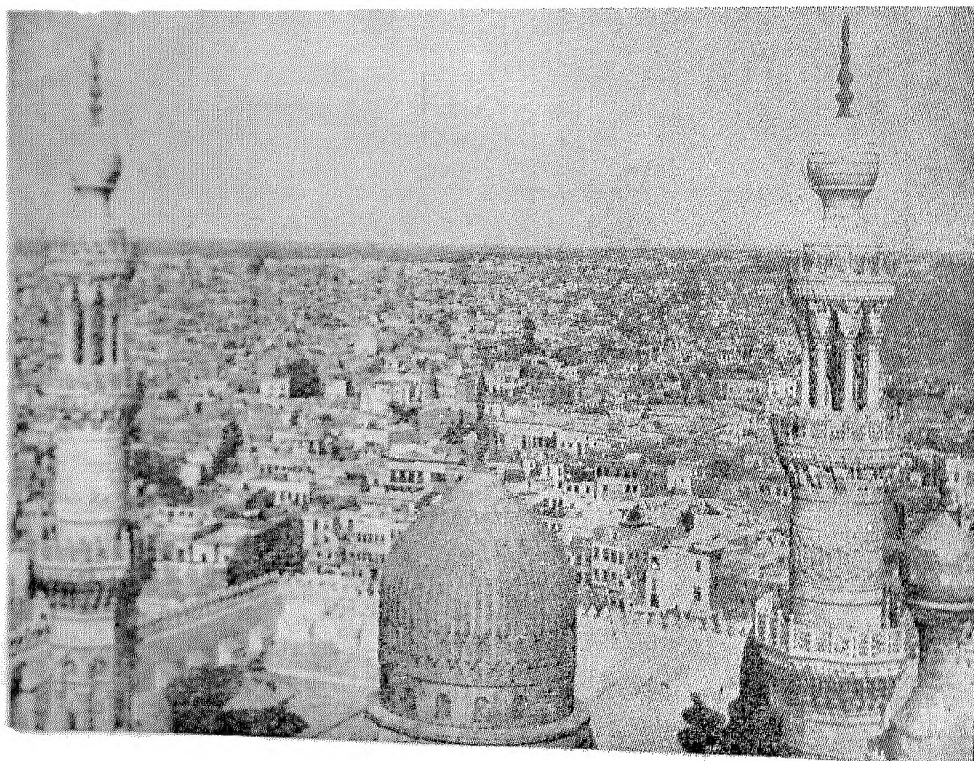
٦٨ — بركة النيل في القرن ١٩



٦٩ — مشهد قتال بين طوائف المماليك
في القاهرة في القرن ١٨



٧٠ — أحد رجال المالك يعاين سيفاً في سوق السلاح



٧١ — منظر عام للقاهرة



الكتاب ٧٠ قرناً

مايو ١٩٦٦

وزارة الثقافة
مكتبة الإسكندرية - شارع النيل
٨٨٦٨١٥ - ٨٨٦٨١٦